

تأدية لفتح الإسلام

قائمة فتيحة المغرب العربي

المجلد الأول

تأليف
اللواء الركن
محمود شيت خطاب
مضو المجمع العلمي العراقي

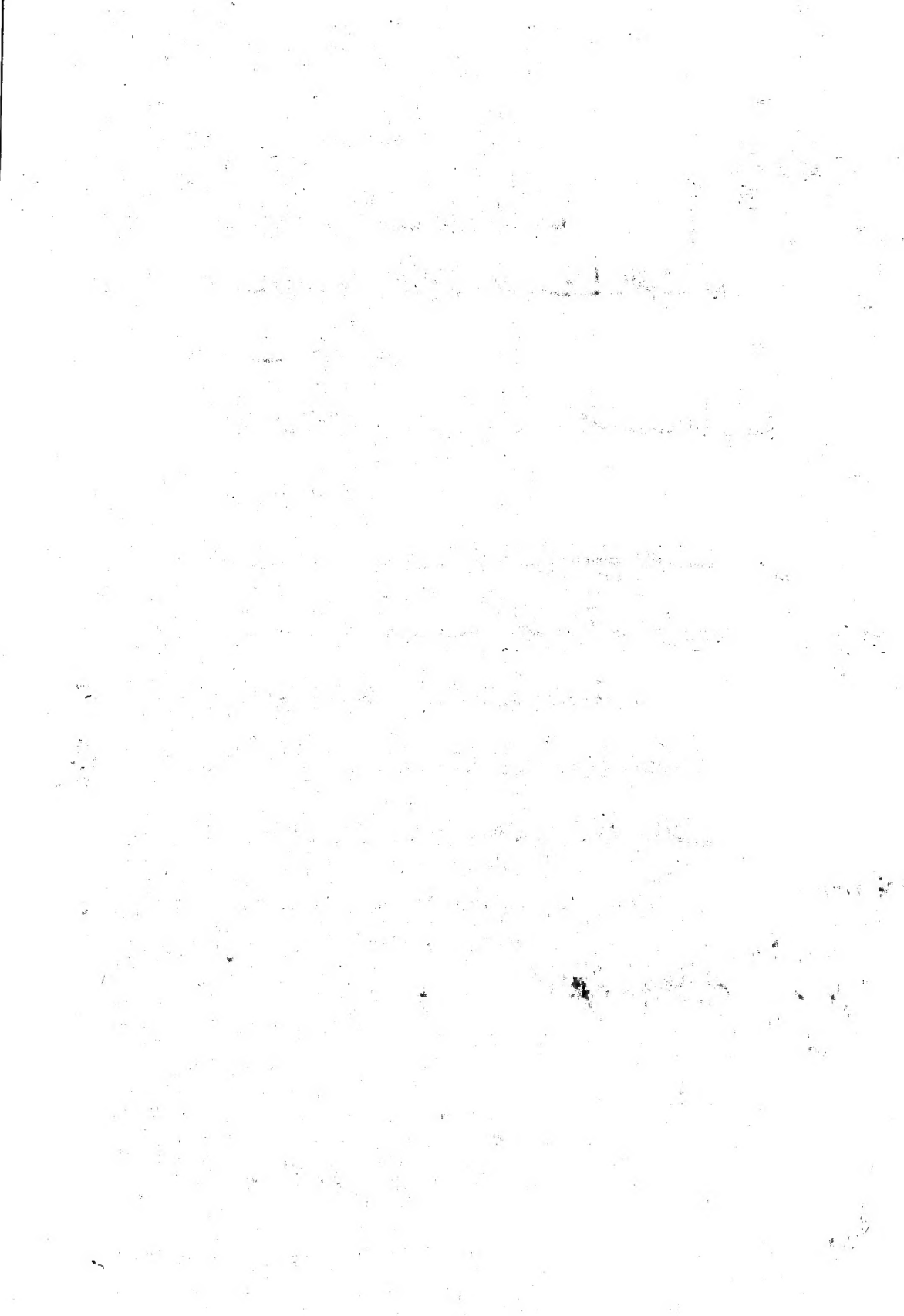
دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة السابعة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

” وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ،
لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ ، وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ،
وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا
يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ “

(القرآن الكريم)



الوفاء

إلى ذي النورين عثمان بن عفان
كنت من السابقين الأولين ، فصليت إلى القبيلتين ،
وحاجرت الإخريتين .
وحجرت جيش العسرة بالكربلاء ، وجعفت القرآن
الكريم في أيامك .
وكنت أول من بعث الحويش لفتح إفريقيا ،
فأصبحت تلك البلاد عربية إسلامية منذ فتحها المسلمون ،
وستبقى عربية إسلامية إلى الأبد بأذن الله .
وهذا الكتاب تذكير بجهادك وذكرى لأجنادك ،
فهو منك وإليك . رضي الله عنك وأرضاك ،
وجعل جهته مستقر ومثواك .
محمود شينت خطاب

المقدمة

"قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ الْوَصِيْرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ"
(القرآن الكريم)

1894

1895

1896

1897

1898

1899

1900

1901

1902

1903

1904

1905

1906

1907

1908

1909

1910

1911

1912

البلاد والسكان والتاريخ

قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه

مُسْتَهْل

في المغرب العربي حركة مباركة تدعى : حركة التعريب ، هدفها إعادة لغة القرآن الى مكانتها السامية في ربوعه ، لغة يتخاطب بها الناس في دورهم وفي أسواقهم وفي دواوينهم الرسمية وغير الرسمية وفي مدارسهم وجامعاتهم . لقد حاول المستعمرون أن يفرضوا لغتهم على بلاد المغرب العربي : ليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، وبذلوا من أجل تحقيق مآربهم هذه جهوداً جبارة ، ورافق استعمارهم العسكري والسياسي والاقتصادي استعمار من نوع آخر ، هو : الاستعمار الفكري ، فنجحوا في استعمارهم الفكري في بعض أجزاء المغرب العربي ونسي بعض سكانه لغتهم الأصلية ، واستماضوا عن لغتهم الأم بلغة المستعمر ، ولولا المدارس الدينية وبعض الكتائب التي بذلت جهودها المشكورة لتعليم القرآن الكريم ، لتضاعف أثر الإستعمار الفكري في المغرب العربي ، ولازداد عدد الذين انقطعت صلتهم بالعربية من أهله ، ولأصبح عدد الذين يرطنون باللغات الأجنبية : الإيطالية والفرنسية والإسبانية أضعاف ما هم عليه اليوم .

لقد كنت في فرنسا سنة ١٩٥٥ م في طريق عودتي من إنكلترا بعد اجتيازي دورة الضباط الأقدمين ، فوجدت كثيراً من الجزائريين في باريس : أسماؤهم عربية إسلامية ، ولغتهم فرنسية ، وكنت اسمعهم يتخاطبون بهذه اللغة في جامع باريس ، ولا يعرفون حرفاً واحداً من اللغة العربية .

وزار العراق وفد عسكري من إحدى دول المغرب في سنة ١٩٥٦ م ، فكان في منتهى زيارة قطعات الموصل العسكرية . وحين زار هؤلاء وحدات الموصل العسكرية ، لم نستطع التفاهم مع أعضاء الوفد إلاّ بلغة أجنبية ١١١ .

وزارت العراق وفود كثيرة من قادة المغرب العربي بعد سنة ١٩٦٣ م ، فوجدت أكثرهم لا يحسن التفاهم بلغة القرآن ، وكنا نكلمهم بلغة أجنبية أيضاً ١١١ .

ولكننا وجدنا في العامل البسيط الذي رأيناه في باريس ، وفي الضابط الكبير الذي زار القطعات العسكرية المربطة في مدينة الموصل ، وفي الزعيم السياسي الذي زار العراق رسمياً - وجدنا في كل هؤلاء حرصاً لا مزيد عليه لتعلم اللغة العربية والتخلص نهائياً من بقايا الاستعمار الفكري .

من هنا بدأت حركة التعريب المباركة بعد حصول أقطار المغرب العربي على استقلالها ، فأقبل على تعلم العربية بشوق لا مزيد عليه سكان المغرب العربي ، ونظّم المسؤولون في تلك البلاد المناهج الدراسية لتحقيق هذا التعريب بأقصر وقت ممكن .

وهذا الكتاب هو جهد المقل معاونة للتعريب ، وكل عربي وكل مسلم مسؤول عن دعم هذه الحركة الميمونة بما يستطيع من جهد أو مال .

إن هذا الكتاب يذكر أهل المغرب العربي في أقطاره كافة ، كيف دخلت العربية الى بلادهم ، وكيف انتشر الإسلام في ربوعها ، وكيف ضحّى آباؤهم وأجدادهم بأنفسهم وأموالهم مجاهدين من أجل تحقيق هذه الغاية السامية .

وإذا كان سكان المغرب العربي في هذا القرن ، قد ضحّوا بما لا مزيد عليه من الشهداء لإعادة المغرب عربياً إسلامياً ، فقد ضحّى آباؤهم وأجدادهم من قبل بما لا مزيد عليه من الشهداء في القرن الأول الهجري ليكون المغرب عربياً إسلامياً .

ولا عجب في ذلك ، فهو لاء الأشبال هم من أبناء أولئك الأسود ...
وفي هذه المقدمة ، سأحدث عن بلاد المغرب العربي من الناحيتين الجغرافية
والتاريخية : من الناحية الجغرافية لمعرفة معاني أسماء بعض الأماكن التي
ترد كثيراً في تاريخ القادة الفاتحين ، ومن الناحية التاريخية لمعرفة سكان
المغرب القدماء والدول التي كانت تحكمه قبل الإسلام وفي أيام الفتح الإسلامي .

البلاد

١ - إفريقية :

أطلق الفينيقيون لفظ أفري (Aphri) على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون
حول مدينتهم القديمة (Utica) وعاصمتهم قرطاجنة مدينتهم الحديثة ،
وعنهم أخذ اليونان ، فأطلقوه على أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون
المغرب من حدود مصر الى المحيط ، ومن ثم سميت هذه المنطقة : (أفريكا) ،
أي بلاد الأفري ، واستعمل هذا الاسم للدلالة على هذه المنطقة . وأخذ
معنى هذا اللفظ يتسع شيئاً فشيئاً كلما اتسع سلطان الرومان في إفريقية ،
فأصبحت ولاية إفريقية القنصلية تضم ولاية إفريقية الأصلية والجزء
الشرقي من تونس الحالية ، والمنطقة الداخلية منها التي تمتد حتى (قرّان) ،
أما بقية إفريقية الرومانية ، فسمي الجزء المقابل منها للجزائر الحالية : نوميديا ،
وبلي ذلك موريتانيا^(١) بقسميها القيصرية والطنجية . إفريقية تشمل كل ما
دخل في طاعة الروم من هذه القارة من برقة الى طنجة .

وعن البيزنطيين أخذ العرب لفظ : إفريقية ، فأرادوا به في أول الأمر
كل ما يلي مصر غرباً حتى ساحل المحيط الأطلسي^(٢) ، وهذا هو مفهوم إفريقية

(١) تعريب لفظ (Mauretania) ، وهكذا رسمها البكري في وصف إفريقية (٢١٠) .

(٢) فتح العرب المغرب (١ - ٢) . والمؤرخون والجغرافيون الأقدمون يذكرون أن إفريقية =

العام الذي يكاد يعادل مفهوم المغرب . أما مفهوم إفريقية الخاص فهو يعني الأجزاء الشرقية من المغرب التي تعادل ولاية إفريقية الرومانية الأصلية ، أي البلاد التونسية الحالية مع بعض الأجزاء الغربية لولاية طرابلس (ومنها المدينة) والتخوم الشرقية لبلاد الجزائر إلى (بجاية) في ولاية (قسنطينة) (١١) . وعلى ذلك فلاقليم إفريقية هو أول أقاليم المغرب .

٢ - المغرب :

بلاد المغرب مصطلح يقصد به كّل الأقاليم الواقعة غرب مصر والتي تشمل شمال القارة الإفريقية (١٢) ، وتتضمن حالياً البلاد الليبية بولاياتها الثلاث : (برقة وطرابلس وقرّان) ، وتونس ، والجزائر بصحرائها المترامية إلى تخوم السودان ، وأخيراً المغرب الذي كان يعرف إلى عهد قريب باسم مراكش نسبة إلى عاصمته الجنوبية ، ويمتد طبيعياً نحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر (١٣) .

والمغرب عند الكتاب الأوائل يبدأ مما يلي إفريقية غرباً إلى سواحل المحيط ، فقد ولّى يزيد بن عبد الملك يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف الثقفي إفريقية والمغرب (١٤) ، وهذا معناه أن المغرب هو غير إفريقية . والمغرب الأقصى ، هو بلاد مراكش (المغرب) ، والمغرب الأوسط ، هو بلاد الجزائر الحالية ، وخط التقسيم بين المغربين : الأقصى والأوسط ، هو مجرى وادي ملوية أو ما بين تلمسان و (تازا) (١٥) . أما المغرب الأدنى ، فهو

= سميت باسم شخص معين . انظر معجم البلدان (٢٠٠/١) ومنهم من يذكر أنها مشتقة من لفظة : فرق . انظر ابن خلدون (٩٨/١) .

(١) تاريخ المغرب العربي (١١) .

(٢) في المسالك والممالك (٣٣) ومعجم البلدان (١٠٣/٨) أن الأندلس من المغرب أيضاً .

(٣) تاريخ المغرب العربي (٣) .

(٤) البلاذري (٢٣٣) .

(٥) تازا : معناها في اللغة البربرية : الصخرة العظيمة ، وهي مدينة في المغرب ، وتعتبر مضيقتاً =

بلاد القيروان^(١) أو ما يسمى اليوم : بنونس .

السكان

١ - البربر :

أ - البربر سكان المغرب الأصليون ، ونقصد هنا بالمغرب من حدود مصر الغربية الى المحيط الأطلسي ، وهم أقدم أمة عرفها التاريخ في الشمال الإفريقي .

ومن المعقول جداً أن يكون العرب قد أدخلوا لفظ (البربر) عن اللاتينية (Barbari) مع تغيير معناه ، إذ كان الأفارقة اللاتينيون يطلقونه عادة على الأهلين^(٢) .

وقد حاول الكتاب العرب تفسير لفظه : (بربر) ، فأوردوا في ذلك عدداً من الآراء يمكن تقسيمها الى قسمين : أولهما ، تفسير كلمة (البربر) تفسيراً لغوياً ، لأن لغة القوم فيها رطانة أعجمية تختلط فيها الأصوات التي لا تفهم ، ف قيل لهم : « ما أكثر بربرتكم » ! كما يقال : بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة^(٣) . أما ثانيهما ، فتفسير كلمة : (البربر) ، حسب عادة العرب في تقسيم الشعوب على الأسس المتعارف عليها عندهم في علم الأنساب ، إذ قيل : إن شعب المغرب اتخذ اسم أحد آباءه البعدين ، وهو بَر بن قَيْس عَيْلان^(٤) ! ولكن ابن حزم يقول عن ذلك : « ... وهذا

— جهلاً عاماً يربط بين المغرب الشرقي والمغرب الغربي . وهناك ثلاث مدن بهذا الاسم : في المغرب وهي المراد هنا ، وفي الاندلس قرب مدينة لوقا وفي العراق على الطريق بين كركوك وجلولاء وبغشوة وبغداد وهذه المعلومات من الأستاذ عبد الهادي التازي .

(١) انظر تاريخ المغرب العربي (١٢) .

(٢) فتح العرب للمغرب (٧) .

(٣) ابن خلدون (٨٩/٦) .

(٤) ابن خلدون (٨٩/٦) .

باطل لا شك فيه ، وما علم النسابون لقيس عيلان ابناً اسمه : بَرُّ أصلاً ،
ولا كان لِحَمِيرَ طريق الى بلاد البربر ، إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن^(١) .

ولم يأت القرن الرابع الهجري حتى كانت أنساب البربر قد دُوِّنت
بالعربية وأصبحت علماً مثل أنساب العرب^(٢) ، والظاهر أن هؤلاء
النسابة اتخذوا شجرة الأنساب العربية التي تقسم العرب الى قسمين كبيرين
ينحدران من قحطان وعدنان - نموذجاً ، فقسموا قبائل البربر الى مجموعتين
كبيرتين هما : البرانس والبتر ، وقالوا : إن الجماعة الأولى أبناء بَرْنَس
ابن بر ، وأن الجماعة الثانية أبناء مادْغَيْس بن بر الذي لقب بالأبتر^(٣) .

ب - البرانس :

ومن قبائلهم المشهورة عشر : أزداجَة ، مَصْمُودَة ، أَوْزَبَة ، عَجِيْسَة ،
كُتَامَة ، صِنْهَاجَة ، أوريغَة^(٤) ، ويضاف اليهم حسب رأي البعض
لمطه ومكسورة وجزولة (كزولة)^(٥) .

وهذه الاصول الكبيرة تنقسم الى فروع صغيرة ، فقبيلة هَوَّارَة تنحدر من
أوريغَة ، وقبيلة مَكِيلَة تنحدر من هَوَّارَة ، وقبيلة غمارَة تنحدر من مصمودَة .

ج - البتر

ومن قبائلهم المشهورة أربعة : أداسة ونفوسة وضريسة وبنو لُؤا الأكبر .
وهذه الأصول الكبيرة تنقسم الى فروع صغيرة ، فمن قبائل (لوا)
تعد قبيلتنا نَقَزَاوَة وَلُؤَاتَة ، وينحدر من (نقزاوة) قبيلة (ولخاصة) ،
وينحدر من (ولخاصة) قبيلة (تيرغاش) ، ومن (تيرغاش) تنحدر

(١) جمهرة أنساب العرب (٤٩٥) .

(٢) أنظر مجمل أنساب البربر في جمهرة أنساب العرب (٤٩٥ - ٥٠٢) .

(٣) ابن خلدون (٨٩/٦) .

(٤) جمهرة أنساب العرب (٤٩٥) .

(٥) أنظر تاريخ المغرب العربي (٣٠) .

قبيلة (ورفجومة) ... الخ

د- والذي يلاحظ أنه رغم انقسام البربر الى برانس وبتر ، وانقسام هؤلاء الى قبائل مختلفة ، فإن القرابة قريبة بين الجماعتين ، كما أن الصلة وثيقة بين فروع كل منهما ؛ فالنسابة يختلط عليها الأمر إلى درجة أنهم يضعون قبيلة هواره في البرانس^(١) ، ثم يعدونها من البتر أو يجعلونها أختاً لقبيلة أداسة البترية (عن طريق الأم) ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى قبيلة زواوة التي تعد من البتر ويعتبرها ابن حزم من كتامة البرنسية^(٢) .

هـ- وابن خلدون يحذو حذو من ينفي انتساب البربر الى العرب^(٣) مثل ابن حزم^(٤) . والحق أن لنسابة العرب والبربر العذر في جعل شجرة النسب البربرية أشبه ما تكون بشجرة النسب العربية ، بل وفي إلحاق البربر بالأصل العربي ، فمما لا ريب فيه أن الشبه قريب بين العرب والبربر^(٥) ، وهذا أمر وليد البيئة ، لأن طبيعة بلاد المغرب يغلب عليها الطابع الصحراوي ، وهي أشبه بطبيعة بلاد العرب مما يترتب عليه نتاج ذو طبيعة متجانسة في الاجتماع وال عمران . لذلك ينقسم البربر الى طائفتين متباينتين ، وهما طائفة البربر الحضري (سكان المدن أي البيوت) ، وطائفة البربر الرحل (سكان الوبر أي سكان الخيام) ، وسكان الحضري منهم يسكنون النواحي الشمالية الخصبة والسفوح المزروعة ، وسكان الوبر منهم يسكنون الصحاري والواحات التي تلي ذلك جنوباً وشرقاً^(٦) .

(١) ابن خلدون (٩٠/٦) .

(٢) جمهرة أنساب العرب (٤٩٦) .

(٣) ابن خلدون (٩٣/٦) .

(٤) جمهرة أنساب العرب (٤٩٥) .

(٥) من أراد التفاصيل في نسب البربر عليه مراجعة : ابن خلدون (٨٩/٦ - ٩٦) وجمهرة أنساب العرب (٤٩٥ - ٥٠٣) وانظر أيضاً : تاريخ المغرب العربي (٢١ - ٥١) وفتح العرب للمغرب (٧ - ٩) وتاريخ الفتح العربي في ليبيا (٥ - ١٢) ... الخ

(٦) انظر فتح العرب للمغرب (٦) وتاريخ المغرب العربي (٣٢) .

والقوارق بين الطائفتين الاجتماعية لا جنسية ، إذ أن البربر المستقرين ينزلون النواحي الحصينة بجبال (أوراس) ، أي جنوب ووسط الجزائر الحالية ، وجنوب المغرب وبعض أجزاء تونس الغربية ، وطبعي أن يكونوا على جانب من الحضارة لاتصالهم بالقرطاجنيين واللاتين وحضارات البحر الأبيض المتوسط ، فتناولوا الزراعة والصناعة ، وظهر فيهم نفر أخذ بأسباب الحضارة اللاتينية مثل (يوبيا) أمير (نوميديا) الذي درس وتربى في روما ، و (يوجرتا) عدو الرومان اللدود ، و (ماكسن) الذي لعب دوراً سياسياً هاماً في الحرب ما بين روما وقرطاجنة .

أما البربر الظواعن ، فهم بدو يعيشون على الرعي ويميلون الى الإغارة على ما يجاورهم من نواحي العمران .

كان هذا الاختلاف في الأحوال الاجتماعية ، سبباً في نزاع طويل وحروب مستمرة بين الفريقين ، فكان الرحّل لا ينفكّون يغيرون على مزارع المستقرين وقراهم ، فاضطر هؤلاء الى أخذ الحذر منهم والإحتماء من شرهم ، والإستعانة عليهم باللاتين أو البيزنطيين ، مما أدى الى ظهور القوارق بين الطائفتين بشكل جلي واضح ، كان له أبعد الأثر في مستقبل البلاد السياسي ؛ إذ حال دون إتحاد أهلها ، وسهل غزوها ، ومكّن الفاتح الأجنبي من أن يستعين بفريق على فريق ، وحال دون نشوء دولة بربرية واحدة أو شعب متكاتف متناسق .

أفاد الرومان من هذه الحال فائدة كبرى ، فاستعانوا بفريق على فريق ، فأمكنهم ذلك من البلاد ، وثبت قدمهم فيها . أما البيزنطيون ، فلم يوفقوا الى الفائدة من تلك الحال ، مما جعل سلطانهم على البلاد ضعيفاً واهياً^(١) .

(١) فتح العرب للمغرب (٦ - ٧) .

و - ديانة البربر :

كانت ديانتهم قبل المسيح المجوسية ، وبعد ظهور المسيحية ^(١) ، وكانوا في بعض الأحيان يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم ، وقد أخذ البربر دين المسيحية قبل الإسلام عن الروم ، لأنهم كانوا مغلوبين لهم ^(٢) .

ولكن المسيحية انتشرت بين القبائل البربرية التي كانت تعيش قريباً من ساحل البحر الأبيض المتوسط وفي المدن ، لأنهم كانوا بتماس شديد مع الروم المسيحيين ، أما القبائل البربرية البدوية التي كانت تعيش في الصحراء ، فقد كان انتشار المسيحية بينهم محدوداً .

وكانت سياسة الروم في إفريقية سبباً في القضاء على ما كان قد انتشر من المسيحية بين أهلها ، إذ وقف الأهليون موقف العدو من الروم وكل ما يتصل بهم من دين وحضارة ، بل أخذ بعضهم يهاجم الأديرة والكنائس حينما ضعف أمر الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي ، بل كادت المسيحية أن تكون خيلاً زائلاً إبان الفتح الاسلامي للبلاد ^(٣) .

ويبدو أن البربر لم تكن لهم أديان ثابتة قبل الإسلام : كانوا وثنيين أو يهوداً ، وكانوا قد اعتنقوا المسيحية في القرون الأولى ثم نسوها حين استعادوا استقلالهم ^(٤) .

٢ - الأفارقة :

مع أن هذه التسمية نسبة الى إفريقية ، إلا أنه يفهم أن الأفارقة يختلفون عن البربر وعن الروم . وعلى ذلك يمكن أن يكون الأفارقة هم أهل البلاد

(١) جاء الروم الى افريقية مرتين : مرة قبل الوندال ، ومرة بعدهم . انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٨) .

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٨) .

(٣) فتح العرب للمغرب (٢٨٠) .

(٤) فتح العرب للمغرب (٢٨١) .

الذين اختلطوا بالروم ، فأصبحوا من المولدين ، ودخلوا في خدمتهم وانصبغوا بالحضارة الرومانية كما دخلوا في المسيحية . ورغم أن كثيرين من هؤلاء الأفارقة دخلوا في الإسلام ، فإن الكثيرين منهم ظلّوا يتكلمون لغة خاصة بهم ربما كانت مزيجاً من اللاتينية والبربرية أو لهجة محلية^(١) .

٣ - يهود :

وجد العرب أيام الفتح جماعات من يهود في إفريقية ، ويرى بعض الكتاب أن الأفكار اليهودية بدأت تعرف طريقها الى البلاد عن طريق الفينيقيين ، وذلك قبل أن تهجر جماعات من يهود الى المغرب على أيام الرومان ، وقد عمل هؤلاء المهاجرون على نشر اليهودية بين بعض قبائل البربر^(٢) .

٤ - السودان :

بلاد المغرب وثيقة الصلة من الناحية الجغرافية ببلاد السودان الغربية ، ونلاحظ أن كتاب اليونان القدماء يطلقون اسم الأحباش (الأثيوبيين) على أهل الأقاليم الجنوبية من المغرب . والحقيقة أن واحات الصحراء كانت همزة الوصل بين المغرب والسودان ، فكان من الطبيعي ان تكون بالتالي منطقة المزج بين العنصرين الأبيض والأسود^(٣) .

٥ - الروم والفرنج :

رغم أن البلاد كانت خاضعة للرومان ثم للروم لمدة طويلة منذ انهيار قرطاجنة أمام روما ، إلا أن هؤلاء ظلّوا يكوّنون جماعة منفصلة عن البربر . حقيقة أنه حدث تزاوج واختلاط بين الجماعتين ، إلا أن الإمتزاج كان محدوداً لم يتجاوز التحالف أو الجوار في الخدمة العسكرية في بعض الأحيان .

(١) تاريخ المغرب العربي (٥٢) .

(٢) تاريخ المغرب العربي (٥٢ - ٥٣) .

(٣) تاريخ المغرب العربي (٥٤ - ٥٥) .

وفيما بين الحكم الروماني والحكم البيزنطي وقعت البلاد تحت حكم الوندال الجرمان الذين دخلوها عن طريق إسبانيا في القرن الخامس الميلادي . ورغم القضاء على الوندال نرى أن بعضهم تمكن من النجاة وأنهم لجأوا الى داخل البلاد حلفاء أو لاجئين عند بعض القبائل ، ومن الطبيعي أن يكون قد حدث اختلاط بينهم وبين البربر ، والأقرب الى الحقيقة أن يكون ذلك هو تفسير وجود الشقرة والزرقة بين بعض جماعات البربر ، بدلاً من القول : بأن النموذج للرجل البربري هو الرجل الاشقر^(١) .

وكلمة : الفرنج ، يقصد منها الفرنسيس ، قال ابن خلدون : « وهذه الأمة المعروفة بالإفرنجية ، وتسميها العامة بالإفرنسيس ، نسبة الى بلد من أممات أعمالهم تسمى : فرانسة ... الخ »^(٢) .

تاريخ المغرب قبل الإسلام^(٣)

١ - عصر ما قبل التاريخ :

ظلّ تاريخ المغرب مجهولاً الى عصر الفينيقيين ، أما قبل ذلك فلا نعرف عنه إلا قليلاً ، لأن المغاربة الأقدمين الذين كانوا يعيشون في تلك العصور ، لم يكتبوا تاريخهم . ولكن علماء الآثار ، استطاعوا أن يحصلوا على بعض المعلومات عن تلك العصور الغابرة نتيجة لما اكتشفوه من الآثار .

تدلّ تلك الآثار ، على أن المغرب كان مسكوناً بالإنسان منذ عهد بعيد ، أي قبل أكثر من عشرة آلاف سنة . وتدلّ تلك الآثار على أن سكان المغرب الأولين كانوا سوداً ، وأن شمال إفريقية وجنوب أوروبا ، كانت تسكنهما أمة سوداء ثم انقرضت .

(١) تاريخ المغرب العربي (٥٦) .

(٢) انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٩) .

(٣) انظر تاريخ المغرب (٢٧/١ - ٥٩) .

وتدلّ تلك الآثار، على أن الصحراء الكبرى كانت فيها بحيرات وأنهار، وكان هواؤها معتدلاً، وكانت تسكنها أمم؛ فلما غيّرت الطبيعة ما كان فيها من جمال وماء هاجر منها أهلها وقصدوا شمال إفريقيا.

وتدلّ تلك الآثار أيضاً، على أن الحاميين منذ عهد قديم، استوطنوا بلاد المغرب، وأنهم أتوا إليها من بلاد العرب، ولا يزالون يسكنون المغرب حتى اليوم، وهم سكان المغرب الأقدمون.

هذه المعلومات القليلة، لا تعطي صورة واضحة عما كان يجري في المغرب في ذلك العصر، فلا نعرف كيف كان أولئك المغاربة الأقدمون يعيشون، وما كانوا يفعلون.

٢ - عصر الفينيقيين :

أ - الفينيقيون أمة عربية قديمة من الأصل السامي، اشتهرت منذ القدم بالتجارة والأسفار البحرية، وكانت مواطنهم فلسطين وسواحل الشام، ومن أشهر مدنها: صيدا وصور وطرابلس الشام وبيروت، وكانوا يترددون على الشمال الإفريقي منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وأنشأوا على ساحله محطات تجارية كثيرة لنقل بضائعهم إلى الأسواق التي تروج فيها، وكانت عنايتهم بالتجارة والصناعة بالدرجة الأولى في شؤون حياتهم^(١).

والفينيقيون من الكنعانيين كعصر المغاربة الأقدمين، وفي سنة (٣٥٠٠) قبل الميلاد هاجرت إلى الشام أمم من الكنعانيين وسكنت أمة منهم في القطر الذي سماه اليونان : فينيقيا.

وتقع فينيقيا في شواطئ أرض الشام، في المنطقة المحصورة بين جبال لبنان والبحر الأبيض المتوسط، يبلغ اتساعها نحو خمسين كيلو متراً، ويبلغ طولها نحو خمسمائة كيلو متراً، وهي تمتد من جزيرة (أرواد)^(٢) شمالاً

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١٢ - ١٣).

(٢) أرواد : اسم جزيرة في البحر الأبيض المتوسط. انظر التفاصيل في قسم البلدان (٢٠٧/١).

الى مدينة (عكا) جنوباً . وقد أطلق اليونانيون على هؤلاء الكتانين كلمة :
الفينيقيين ، نسبة الى الكلمة اليونانية : فينكس ، ومعناها عندهم : النخل
واللون الأحمر ، لأن هؤلاء الكتانين كانوا يلبسون اللون الأحمر وكانوا
يصورون النخل على نقودهم .

وعاشت هذه الأمة العظيمة أكثر من (٣١٧٠) سنة ، وأحسنّت الى
الإنسانية ، وعنها تعلّمت الإنسانية القراءة والكتابة .

وينقسم تاريخ الفينيقيين الى عصرين : العصر الأول - عصر صيدا ،
والعصر الثاني - عصر صور .

ب - عصر صيدا : من سنة (٣٥٠٠) قبل الميلاد الى سنة (١٢٠٩)
قبل الميلاد .

في هذا العصر أسّس الفينيقيون عدّة مدن في فينيقيا ، وكانت أعظم مدنها
هي مدينة صيدا ، وكانت عاصمتهم ، ولهذا سمي هذا العصر بعصر
صيدا . وقد دامت عظمة هذه المدينة نحو (٢٣٠٠) سنة ، وقد أجمع
المؤرخون على أن الفينيقيين كانوا أول من ركب البحر وأول من صنع السفن
البحرية .

وكانوا في تلك العصور القديمة أعظم أمة تجارية صناعية ، فكانوا ينظمون
قوافل تسير في البر الى الهند وبابل وآشور وبلاد فارس لتبيع مصنوعاتهم
في تلك الأقطار ، كما نظموا قوافل بحرية كانت تذهب الى شواطئ البحر ،
تعرض المصنوعات الفينيقية على أمم البحر الأبيض المتوسط ، وكانوا يشترون
من هذه الأمم المواد الخام لمصنوعاتهم .

ولما عظم أمرهم وكثر عددهم ، صاروا يرسلون الى شواطئ الأقطار
البعيدة جاليات منهم لتؤسس مدناً فينيقية تجارية ، لتكون مركز الإتصال
بينهم وبين تلك الأمم .

أسّسوا في إقليم طرابلس الغرب مدينة (بزيوم) وأطلقوا على تلك

الجهة كلمة (يزاسين) ، ومعنى ذلك في لغتهم : الأرض الكثيرة المياه ، وهم الذين أنشأوا في تونس إقليم (زوجيتان) وسموا تلك الجهة بهذا الإسم^(١).

وظلوا سادات البحر الأبيض المتوسط يفعلون فيه ما يشاءون ، ولا ينازعهم فيه أحد الى سنة (١٥٠٠) قبل الميلاد ، ففي هذا العصر ظهرت في البحر سفن أمم جديدة ، أخذت الحضارة والصناعة وأصول الملاحة من الفينيقيين ، وكان من أعظم هذه الأمم أمة الإغريق ، التي صارت تحارب سفن الفينيقيين وتضايقهم في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وكانت لفينيقيا مستعمرات كثيرة في البحر الأسود ، فلما ضايقها الإغريق تركت تلك الجهة وولت وجهها شطر بلاد المغرب ، فمن هذا التاريخ اشتد اتصال الفينيقيين بالمغاربة ، وأحدثوا في شمال إفريقية مدناً كثيرة .

وفي سنة (١٢١٥) قبل الميلاد ، انتصر بنو إسرائيل على الكنعانيين الذين كانوا في فلسطين ، وأرغموهم على الهجرة منها ، فهاجر بعضهم الى أرض إخوانهم الفينيقيين ، فنقلهم هؤلاء على سفنهم الى شمال إفريقية ، ونزلوا على إخوانهم الكنعانيين الأقدمين .

وكان هؤلاء الكنعانيون الذين أتت بهم السفن الفينيقية الى المغرب ، على جانب عظيم من الحضارة والقوة ، كما تصفهم التوراة بذلك — وقد خلقوا في فلسطين أكثر من ستين مدينة كانت من أرقى المدن في تلك العصور ، وكانوا على جانب عظيم من الفنى .

ويحدثنا مؤرخو اليونان فيقولون : إنهم كتبوا في شمال إفريقية على الرخام الأبيض هذه الكلمات : « إننا لحقنا بهذه الديار هرباً من قاطع السبل يوشع بن نون » .

وفي سنة (١٢٠٩) قبل الميلاد ، استوطن قوم من جزيرة (كريت)

(١) تونس الحالية كانت تسمى : زوجيتانيا . انظر فتح العرب للمغرب (٢) .

الشواطىء الشامية ما بين غزة وعسقلان ، وعرفوا عند المؤرخين بالفلستينيين ؛
وهؤلاء هم الذين قضوا على مدينة صيدا وخرّبوها على حين غفلة من أهلها ،
وبذلك انتهى العصر الأول للفينيقيين سنة (١٢٠٩) قبل الميلاد .

لقد استفاد المغاربة من اتصالهم بالفينيقيين أهل صيدا كثيراً ، فهم الذين
علّموهم الكتابة والقراءة والفلاحة والصناعة .

وهم الذين حملوا الى المغرب أمة عظيمة غنية من الكنعانيين ، حملت
معها حضارتها وغناها ، وأسست في المغرب مدناً كثيرة انقرضت كلّها ولم
لم يبق لها أثر (١) .

ج - عصر صور : من سنة (١٢٠٩) قبل الميلاد الى سنة (٣٣١) قبل
الميلاد .

في هذا العصر تزعم أهل مدينة صور الإمبراطورية الفينيقية ، وصارت
صور من أعظم مدن العالم ، وكانوا يسمونها : أمّ البحار ، لأنها كانت أعظم
مدينة تجتمع فيها سفن العالم .

وقد استطاع الفينيقيون أن يعيدوا مجدهم الذي كان لهم في العصر الأول
في أقصر وقت ، وقد قوي اتصال أهل صور بأهل إفريقية وكوّنوا في
موريتانيا (٢) ونوميديا وزوجيتان مدناً كثيرة .

وقد استولوا على جزيرة (مالطة) وجعلوها محطة لسفنهم التي كانت
تسير في البحر الأبيض المتوسط .

وظلّ الفينيقيون متمتعين بسيادة البحر الى سنة (٣٣١) قبل الميلاد ،
ففي هذه السنة احتلّ الإسكندر المقدوني مدينة صور وخرّب معظمها وأذاق
أهلها العذاب الأليم . وبهذا الحادث انتهى مجد الفينيقيين وعظمتهم ، وورث
ملكهم أبناؤهم القرطاجيّون ؛ وقد عاش أهل صور متمتعين بالعرز (٨٧٨)

(١) انظر تاريخ المغرب (٣١/١ - ٣٣) .

(٢) تريب Mauretania . وقد رسمها البكري : مرطانية في وصف إفريقية (٢١٠) .

سنة ، وعاشت الأمة الفينيقية أكثر من (٣١٧٠) سنة .

وقد خلف أهل صور آثاراً كثيرة في المغرب ضاع أكثرها ، ومن أشهر آثارهم الباقية : أصنام هرقل ، وهو هيكل عظيم كانوا يتقربون إليه بالأضاحي على مذهب الفينيقيين ، وكانت أصنام هرقل في الجبال المحيطة بمضيق جبل طارق ، ومن أجل ذلك سميت هذه الجبال : بأصنام هرقل .

وكان تأثير الفينيقيين في الحضارة الإنسانية عظيماً ، فهم الذين اخترعوا الحروف الهجائية ، وعنهم أخذتها جميع أمم الأرض ، وهم الذين اخترعوا الزجاج ، وهم أول من ركب البحر ، وهم الذين اخترعوا السفن البحرية ، وهم أول من أتقن فن الملاحة ، وهم أول من عرف بحار العالم وأحاط علماً بما في هذه الأرض من أراضٍ ، وهم الذين علموا اليونان العلوم والفلسفة^(١) .

٣ - عصر قرطاجنة :

أسّس الفينيقيون مدينة قرطاجنة في القطر الذي يسمى اليوم : تونس ، سنة (٨٤٠) قبل الميلاد^(٢) تقريباً .

ومعنى كلمة قرطاجنة ، المدينة الجديدة ، أو القرية الحديثة ، وقد أسّستها أميرة فينيقية كانت تسمى (أليسا) أو (ديدون) ، والسبب في بناء هذه المدينة ، أن هذه الأميرة كانت متزوجة بأحد رجال الدين الفينيقيين ، وكان من أكبر أخطاءها العالم حينذاك . وقد قتله ملك الفينيقيين ليأخذ أمواله ، وكان هذا الملك أخطاً للأميرة : أليسا ، ففرّت منه بعد أن قتل زوجها ، وأخذت معها كثيراً من أموال زوجها وكثيراً من أعيان صور ونبلاتها ، واستقرت

(١) انظر تاريخ المغرب (٣٨ - ٣٥/١) والظر وصف الكتب القديمة للحضارة الفينيقية في تاريخ المغرب (٣٨/١ - ٤٠) .

(٢) ولعل أنها بنيت سنة (٨٨٠) ق . م . وذكر بعض المؤرخين أنها بنيت في عهد همام ملك يهودا سنة (٨٤٦) ق . م . انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١٣) .

هي وجماعتها في هذه المدينة الجديدة ، التي صارت بعد زمن أعظم مدن العالم ، وكان سكانها أكثر من مليون نسمة ^(١) ، واستطاع أهلها أن يكونوا إمبراطورية عظيمة ، كانت من أعظم إمبراطوريات العالم في العصور القديمة ، فكانت تتكوّن من شواطئ شمال إفريقية وتملك أغلب أرض إسبانيا ، وكثيراً من جزائر البحر الأبيض المتوسط .

وكان أسطولها أعظم أساطيل الدنيا ، وبلغ أهلها من الحضارة والرفي الى درجة كبيرة ، وعاشت متمتعة بالعظمة والرفاهية أكثر من ستة قرون ونصف من (٨٤٠) الى (١٤٦) قبل الميلاد .

وفي سنة (٤٨٠) ق . م . صار القرطاجنيون يغيرون على القبائل البربرية التي كانت تسكن السواحل حتى أخضعوها لسلطانهم ، وشمل نفوذهم من حدود برقة الشرقية الى بحر الظلمات ، كما شمل ساحل أوروبا الجنوبي الى جبل طارق الذي كان يسمى إذ ذاك : أحمدة هرقل ^(٢) .

وفي سنة (٢٦٤) قبل الميلاد ، اشتبكت في صراع عنيف على الرومان دام أكثر من مائة سنة ، وأخيراً تغلب عليها الرومانيون سنة (١٤٦) قبل الميلاد وقضوا عليها القضاء النهائي ^(٣) ، ومحو آثارها من الوجود ، فتحوّلت زعامة الدنيا من شمال إفريقية الى جنوب أوروبا .

كان القرطاجنيون كجدودهم الفينيقيين ، على جانب عظيم من الحضارة ، غير أنه لم يصل إلينا من آثار حضارتهم إلا أقلّ القليل ، لأن أعداءهم الرومان طمسوا على كل شيء يتصل بالقرطاجنيين ، ولم يبق من آثارهم إلا بعض آثار مدنها في إسبانيا وشمال إفريقية ، والمذكورة التي كتبها البحار القرطاجني (حنون) عن رحلته البحرية ، وكتاب في الفلاحة ، وبعض معلومات

(١) انظر تفاصيل قصتها في كتاب هينيل (٢٠/١ - ٤٨) .

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤) .

(٣) انظر تفاصيل تلك الحروب في كتاب : هينيل .

قليلة عنهم في كتب المؤرخين اليونانيين - ومن هذه الآثار الباقية نستطيع أن نفهم أن قرطاجنة كانت على جانب عظيم من الحضارة ، وأن حضارتها كانت أرقى من حضارة الرومان ، وأن القرطاجنيين كالفينيقيين نشروا حضارتهم في العالم عن طرق السلم والتجارة .

وقد تحدث الفيلسوف أرسطاليس عن نظام الحكم في قرطاجنة ، فقال : « إن قرطاجنة دستوراً انفردت بكماله عن سائر الدول ، ولها شرائع غاية في الحسن ، ومن الدليل على ما وعته من الحكمة ، أنها مع ما للأمة عندها من السلطان ، لم نجد لها قط بدلت شكل الحكم ، ولا نشبت فيها فتنة » . ثم يقول : « إن القضاء عند القرطاجنيين أفضل منه عند اليونانيين ، لأنهم لا يرضون له أغفال الناس ، بل يولونه أحسنهم طريقة ، وأحدهم سيرة » . ومن كلام هذا الفيلسوف العظيم ، نفهم أن قرطاجنة كانت تتمتع بحكومة عادلة ، وأنها كانت على جانب عظيم من الحضارة .^(١)

لقد كان نظام الحكم في قرطاجنة أشبه بالجمهوري ، وكان يدير شؤون الحكم فيها مجلس مكون من مائة عضو من الأعيان والتجار ، وكان لهم رئيسان ينتخبان في كل سنة ، وكانت ديانتهم الوثنية ، وأكبر آلهتهم : بعل^(٢) .

وكانت معاملة أهل قرطاجنة للأمم المتوحشة التي كانت تسكن في شواطئ إفريقية معاملة مبنية على الإحترام والصدق وحسن السياسة^(٣) .

وكان القرطاجنيون يبعثون إلى شواطئ البحار سفنهم مملوءة بالموث والرجال لاستكشاف الأراضي وتأسيس المدن . وفي القرن السادس قبل الميلاد بعث مجلس الشيوخ القرطاجني إلى السواحل الإفريقية الربان : حنون ، ليكشف تلك الشواطئ ويؤسس بعض المدن ، وقد خرج في ثلاثين ألفاً

(١) تاريخ المغرب (١ / ٤٣ - ٤٤) .

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١٤) .

(٣) تاريخ المغرب (١ / ٤٤) .

من الرجال والنساء ، ومعهم ستون سفينة عظيمة لكل منها خمسون مجدفاً . وقد كتب هذا الربان مذكرة رفعها الى حكومته ، ووصلت الينا عن طريق ترجمتها باللغة اليونانية . وما يخص المغرب من هذه المذكرة ما يلي : « بعد أن أجرنا أصنام هرقل ويومين ، أنشأنا أول المدن وسميناها (ثيميرية) (١) ، وهي مطلة على سهول رحبة ، ثم أقلعنا منها نحو الشرق الى : (سلو) (٢) ، وقد بسقت فوق أرضه أشجار غضة ، فبنينا هناك معبداً للإله (بوصيدن) ، ثم عكفنا الى الشرق مسيرة نصف يوم ، فاذا بنا على سمت بحيرة قريبة من الشاطئ تكاتف عليها القصب ورعت حولها القبيلة (٣) . وعلى مسيرة يوم أنشأنا عدة قرى قريبة من الساحل سميناها : حصن قريكون - غيته - عكرة - مليطة - أرني . ومن ثم انتهت بنا السفن الى : لكسوس (٤) ، وهو نهر غراق منحدر من هضاب ليبيا ، وعلى مشارعه قبيلة : لكسته ، وقد سرحت مواشها على ضفتيه ، وهي قبيلة عظيمة مضيافة ، آخيئنا وأقمنا عندها أياماً » ، ثم يقول : « وقد استصبحنا معنا تراجم من قبائل لكسته ، وانطلقنا بمراكبنا نحو الجنوب » ، وهكذا صار يقص علينا ما شاهده في شواطئ إفريقيا الى أن وصل الى غينيا .

ومن هذا التقرير يظهر ، أن أهل قرطاجنة وسكان شواطئ المغرب كانوا أصدقاء ويتفاهمون مع بعضهم . وأنهم بنوا للمغاربة كثيراً من المعابد والقرى ، وأن الفيل كان موجوداً في المغرب في تلك العصور ، وأن أهل قرطاجنة استوطنوا المغرب الأقصى في تلك المدن التي ذكرها حنون في رحلته ، والتي كانت موجودة بين الصورة وأغادير (٥)

(١) هي المسماة الآن بالمهدية .

(٢) رأس كتين .

(٣) كان الفيل في المغرب في هذا العصر ، ثم انقرض .

(٤) هو نهر سوس .

(٥) تاريخ المغرب (٤٥/١ - ٤٦) .

ومن آثار أهل قرطاجنة في المغرب من المدن - وهي التي بقيت من بين
أكثر من ثلاثمائة مدينة انقرضت كلها - :

تينجيس : طنجة .

لكسوس : مدينة قرب العرائش انقرضت .

روسادير : مليلية ، وكان العرب يسمونها : مليله .

جدير^(١) .

٤ - عصر الرومان :

أ - أصبحت الدولة الرومانية أعظم دولة في العالم بعد قضائها على قرطاجنة ،
فقد وقعت ثلاث حروب بين الرومان والقرطاجنيين في المدة ما بين سنة
(٢٦٤) الى (١٤٦) ق . م .

الحرب الأولى : ابتدأت من سنة (٢٦٤) ق . م ، وانتهت سنة (٢٤١) ق . م ،
انهزم فيها الجيش الروماني في إفريقية ، وانهزم فيها الجيش القرطاجني في صقلية .

والحرب الثانية : ابتدأت سنة (٢١٨) ق . م ، وانتهت سنة (٢٠٢)
ق . م ، انتصر بها (هنبعل) القائد القرطاجني في إيطاليا في معركة (كان)^(٢) .
وقتل فيها من الرومان ما يربو على سبعين ألفاً ، وكانت سنة (٢١٦) ق . م ،
وكان (هنبعل) من أكبر قواد القرطاجنيين ، وكاد يقضي في هذه المعركة
على روما لولا تقاعس دولته عن إمداده بالمال والجند لخلاف كان بينه وبين
بعض الرؤساء . وانتصر عليه الرومان في معركة (زاما)^(٣) سنة (٢٠٢)

(١) تاريخ المغرب (٤٥/١) .

(٢) كان : بلدة في غرب إيطاليا كانت تابعة لها ، والآن تابعة لفرنسا وتقع في جنوبها .
وهنبعل هو : هانيبال .

(٣) زاما : هي (جاما) ، وهي قرية قرب الكاف غربي المملكة التونسية ، ويسمونها الروم :
زاما . انظر تفاصيل هذه المعركة في كتاب : هنبعل (٢٩/٢ - ٤٠) .

ق . م ، فقرّ الى الشام ومات في إنطاكية .

والحرب الثالثة: ابتدأت سنة (١٤٩) ق . م ، وانتهت سنة (١٤٦) ق . م ، رجحت فيها كفة الرومان على القرطاجنيين ، واستمات القرطاجنيون في الدفاع عن عاصمتهم . وانتهاز البربر فرصة رجحان كفة الرومان فانضموا اليهم بزعامة (ماكسن) البربري ، فملك الرومان قرطاجنة وخرّبوها وأحرقوها بالنار ، فأصبحت أثراً بعد عين ، وكان ذلك سنة (١٤٦) قبل الميلاد^(١) .

ولكن المغاربة أبوا الخضوع للرومان ، فكانت بينهم وبين الرومانيين حروب طويلة ، وكان كلما تقدم الرومانيون في فتح البلاد ، ترحل القبائل من أمامهم وتلجأ الى الجبال والأماكن الوعرة ، بحيث لا يقدر الرومانيون أن يتوصلوا اليها .

أما السواحل ، فقد احتل الرومان منها سواحل تونس أولاً ، ثم سواحل الجزائر عقب القضاء على قرطاجنة ؛ أما سواحل المغرب الأقصى ، فإنهم لم يستطيعوا أن يحتلّوها إلا في سنة (٤٢) بعد الميلاد ، أي بعد سقوط قرطاجنة ؛ (١٨٠) سنة ، وكانوا يسمّون هذه السواحل : موريتانيا ، ولم يتعد احتلالهم مدينة (سلا)^(٢) التي كانت تسمى : (سلا كولونيا) ، ولم يخضع باقي بلاد المغرب الأقصى للرومان إلا مدة قصيرة .

كان الرومان يعاملون المغاربة معاملة قبيحة ، لأنهم كانوا يحتقرون الشعوب التي يملكونها ، لهذا كان المغاربة كثيراً ما يثورون عليهم ؛ وأشهر الزعماء الذين ثاروا على الرومان هو (تاكفراس) سنة (١٧) ميلادية ، فقد حرّض هذا الزعيم المغاربة على العصيان فأجابه الى ذلك وحاربوا الرومان ، واستمرت الحروب بينهم نحو سبع سنوات ، ولكن الرومان تغلبوا عليهم .

(١) انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١٥) نقلا عن تاريخ مختصر تونس (حسن حسني عبد الوهاب).

(٢) سلا : مدينة بأقصى المغرب : انظر التفاصيل في معجم البلدان (٩٩/٥) .

كانت عاصمة المغرب الأقصى في عصر الرومان مدينة تينجيس (طنجة) ، وكانت من أعظم المدن الرومانية في ذلك العصر ، وكانوا يسمّون المغرب : موريثانيا الغربية أو التانجيسية .

ومن أشهر المدن التي كانت على البحر الأبيض المتوسط مدينة روسادير (مليية) . أما المدن التي كانت لهم على شاطئ المحيط الأطلسي فهي مدينة ليكسوس ومدينة سلا كولونيا ، وأشهر المدن التي كانت لهم في الداخل مدينة : فيوبولس .

وكانت تربط هذه المدن طرق معبّدة تشبه الطرق العصرية ، وكانت هذه الطرق محمية بأبراج وقلاع تصدّ الغارات التي يقوم بها المغاربة على المدن الرومانية ، وكان في المغرب مدن رومانية أخرى كثيرة . وقد ظل المغرب خاضعاً للرومان الى سنة (٤٢٩) ميلادية ، ففي هذه السنة أعلن الحاكم العام الروماني (بونيفاس) العصيان على حكومة روما ، التي كانت ضعيفة في ذلك العصر ؛ وقد استعان بأعداء الرومان على حرب دولته ، وهم (الوندال) ^(١) الذين كانوا يحتلون في ذلك الوقت جنوب إسبانيا ، فأسرع ملك الوندال وهو (جينسريك) الى بلاد المغرب ومعه (٨٠,٠٠٠) جندي ، وانضم اليهم كثير من المغاربة لأنهم كانوا يكرهون الاحتلال الروماني لبلادهم . ولكن (بونيفاس) أدرك أنه أخطأ عندما رأى الونداليين يحتلون المغرب لأنفسهم ، فصار يحاربهم الى أن انتصروا عليه ، فاحتلوا شواطئ المغرب وتونس والجزائر ، وجعلوا عاصمتهم مدينة (قرطاجنة) . وغادر (بونيفاس) بلاد المغرب سنة (٤٣٩) ميلادية ، وبقيت فيها بعض الجيوش التي أرسلتهم اليها الامبراطورية الشرقية لاعانة روما سنة (٤٣٥) ميلادية ، وفي هذه السنة خرج آخر جندي للرومان من المغرب ، وبذلك انتهى عصر الرومان الذي دام (٣٩٣) سنة ^(٢) .

(١) صهرم الأصل الجرمانى (الألمان) .

(٢) تاريخ المغرب (١/٥١ - ٥٣) .

ب - وعند مقارنة حكم القرطاجنيين بحكم الرومان ، نجد أن القرطاجنيين كانوا يعتبرون المغاربة إخواناً لهم ، لأنهم أبناء عمهم . وقد استفاد المغاربة كثيراً من القرطاجنيين ومن الفينيقيين قبلهم ؛ فلما انتهى عصر قرطاجنة كان المغاربة متقدمين في الحضارة والقوة ، وورثوا عن قرطاجنة كثيراً من المدن ، وتعلموا عنهم أنواعاً كثيرة من العلوم .

وفي عصر الرومان ، خسر المغاربة ما قد اكتسبوه من حضارة في عصر القرطاجنيين ، لأن الرومان كانوا يعتبرون المغاربة عبيداً لهم : لا يحترمونهم ، ولا يريدون أن يتعلم المغاربة من حضارتهم شيئاً . لهذا كان احتلال الرومان للمغرب خسارة عظيمة أصابت المغاربة ، لأن قرطاجنة كانت دولة مغربية تزعم الدنيا ، فلما انقرضت أصبح المغاربة عبيداً خاضعين لعدوهم الذي قضى عليهم وعلى زعامتهم .. لهذا كان المغاربة يكرهون الاحتلال الروماني ، ولم يستفيدوا منه إلا قليلاً

٥ - عصر الوندال :

الوندال هم من الأصل الجرمني (الألمان) زحفوا في القرن الرابع الميلادي على إسبانيا فاحتلّوها وأقاموا بها دولة عظيمة .

ولما ضعفت الدولة الرومانية صارت تهاجمها القبائل المتبربرة من شمال أوروبا وتستولي على أراضيها ، وكان من جملة القبائل التي هاجمت الامبراطورية الرومانية قبائل الوندال . وبعد أن احتلوا فرنسا تقدّموا إلى إسبانيا واستقروا في جنوبها في إقليم الأندلس ، وإليهم ينسب هذا الإقليم ، فقد كان يسمى : فاندلوسيا نسبة إليهم .

كان ملك روما تنوب عنه امرأة في حكم إفريقية يقال لها : (إبلالديا) ومقر حكمها قرطاجنة ، وكان (يونيفاس) حاكم ولاية الرومان على إفريقية يطعن عليها ويهزأ بحكمها ، فلم تطلق صبراً على معاكسته إياها . وفي سنة

(٤٢٩) (١) ميلادية ، أرادت أن تنتقم منه ، فشقّ عصا الطاعة على روما واستدعى (بونيفاس) الروماني (جنسريك) ، وكان ملكاً عظيماً كَوْن للوندال أسطولاً عظيماً ، فكانت سفنهم تبعث الرعب في قلوب سكان البحر الأبيض المتوسط . ولبي جنسريك طلب بونيفاس ، واجتاز من اسبانيا الى المغرب واحتل مدن إفريقية الواحدة بعد الأخرى الى أن احتل قرطاجنة سنة (٤٣٥) (٢) م وقضى على ملك روما في إفريقية ، وجعل قرطاجنة عاصمة لمملكته الجديدة ، وأصبح الشمال الإفريقي كله ممتلكات وندالية بعد أن كانت رومية .

واستفحل أمر الوندال ، فاحتلوا روما سنة (٤٥٥) م وأطلقوا أيدي الجند فيها خمسة عشر يوماً ، فنهبوا كل ما فيها من ذخائر نفيسة ، وعبثوا بالنظام الروماني في إفريقية حتى قضوا على آثاره فيها .

ومكث جنسريك أكثر من ثلاثين سنة قاهراً منصوراً ، تخشاه الدولتان الشرقية والغربية ، فلما مات سنة (٤٧٧) م تولى ابنه (هنريك) وكان قاسياً على الكاثوليك ، فقبض سنة (٤٨٣) م على خمسة آلاف من رهبانهم وشردهم في الصحراء واغتصب أموالهم وكنائسهم . وفي سنة (٥٢٣) م تولى على الوندال (هلدريك) ، وكان ضعيف الإرادة منحل العزيمة ، منحل العزيمة ، فخلعوه وولوا مكانه (جليمير) ، فاستنجد (هلدريك) المخلوع بجوستنيان قيصر القسطنطينية لاسترجاع ملكه ، فكانت فرصة اغتنمها جوستنيان لطرد الوندال واسترجاع إفريقية ، فهاجم ، فهاجم (بيليساريوس) القائد الرومي قرطاجنة سنة (٥٤٤) م وأسر ملك الوندال (جليمير) واسترد جميع الأملاك التي كانت تابعة للوندال الى بيزنطة (القسطنطينية) ، فزال دولة الوندال من إفريقية بعد أن ملكتها نحو مائة سنة (٣) .

(١) وقيل سنة (٤٢٧) م .

(٢) وقيل سنة ٤٣٩ م .

(٣) انظر تاريخ المغرب (١/٥٥ - ٥٦) وتاريخ الفتح العربي في ليبيا (١٦ - ١٧) وفيه : إن الروم احتلوا قرطاجنة سنة ٥٣٤ م .

٦ - عصر الروم (١) :

أ - استعاد جوستنيان إفريقية في بضعة شهور على يد قائده الماهر بيليساريوس ، فلم يكذب يغلب من بها من حكّام الوندال حتى أعلن إن إفريقية قد ردت إليه ، وبعث إليها من القسطنطينية بالقوانين والأنظمة والقيود مما لا يتفق مع طبيعة البلاد ، فكانت قوانينه فاصلاً بين الحاكم والمحكوم لا سبباً من أسباب الاتصال بينهما . ولم يلبث الأفارقة أن عصوا قانونه ، فسارع اليهم يرغمهم على طاعته فبدأ النزاع الذي أصبح خصومة مشبوبة لا يكاد يحمدها بين الروم وأهل البلاد ، وأصبح مع الزمن مدار تاريخ إفريقية خلال القرن الذي انقضى بين وفاة جوستنيان وإشراق شمس الإسلام عليها .

ب - كان للدين مكانة من اهتمام الروم حكومة وشعباً ، وكانت بيزنطة كلها من الإمبراطور الى أصغر رعاياه يغرمون بجنون الحصومات الدينية غراماً شديداً . وكان الغالب أن تخفي المنازعات الدينية تحتها آراء وخصومات سياسية شتى ، وكانت مصلحة الدولة لا مجرد الرغبة في التجديد الديني ، هو الدافع للأباطرة الى ما أتوا من الأمر في كثير من الأحيان .

وكان للانحلال الاجتماعي أثر بالغ على انحلال الدولة ، فقد كانت نفوس الناس قد وهنت ، وكان الأباطرة أنفسهم أسبق الناس الى حلقات الملاعب والمسرات ، وكانت النساء كذلك سباقات اليها يخالطن الرجال في تبدل انتهى بالمجتمع كله الى تدهور سريع ، ومن هنا نشأت الدسائس والمؤامرات التي تتصل بهذه الألوان من العبث ، فنخرت عظام الدولة الواهنة ، وأخذت دائرتها تتسع حتى شملت بلاط الإمبراطور ، فأحاطته مسرحاً لكثير من الخصومات والجرائم والآثام . وكلما انتصر في القصر حزب ارتفعت له في نواحي الدولة أعلام ، بعضها أنصار ، وبعضها مذاهب مختلفة في الدين

(١) اعتمدنا كتاب : فتح العرب للمغرب (١١ - ٤٧) في إيراد أكثر ما جاء في هذه الفقرة

من معلومات .

والسياسة ، وكلما مات حاكم نزل البلاء بأشياعه وأتباعه ومناصريه في العقيدة والرأي وندمائه في المباحج والشراب .

ج - وكانت بيزنطة كلما ازداد بها الضعف انسلخ عنها جزء من أملاكها ، وكلما اشتد ساعد جار اقتطع منها على قدر ما يستطيع ، حتى إذا كان القرن السادس واشتد ساعد الفرس أقبلوا ينهبون أرض الدولة انتهاباً ، فاقتطعوا أكثر آسيا الصغرى والشام ومصر ، وأخذوا يستعدون للمضي الى شمال إفريقيا ، فلم يكن للدولة بد من ان تبذل ما قد بقي في كيانها الواهن من قوة لتدفع خطرهم ، حتى إذا تمكنت من ذلك على يد هرقل ، لم يبق لها بعد ذلك من القوة ما يقيمها على أرجلها ، إذ كانت الحروب قد كلفتها الثمن الغالي ، فأنشأت تعتصر دماء من بقي لها من الرعايا ، حتى كادت توردهم موارد التلف ، فبدأوا يحتجون ويعترضون ، فلجأ الحكام الى العنف لإسكات أصوات الناقمين منهم ، فاشتد الحقد وتأصلت الكراهية بين الجانبين . ولم يكد الفريقان بحسبان بما بينهما من خلاف بسيط في مسائل الدين ، حتى خيّل لهم الحقد الدفين أن الخلاف بعيدٌ يتناول كل مرافق الحياة ، فنشبت الفتنة وأهوى الحاكم على رأس المحكوم بسياط الظلم ، وأبى المحكوم أن يجيب أو يطيع ، فعظم الإضطهاد وسالت الدماء ، واشتعلت بعض نواحي الدولة كمصر وإفريقية بهذه النار الحامية فأنت على ما فيها ..

د - وكان جوستنيان على ما يبدو على شيء من العلم بطبيعة إفريقية ، فأفردها من بين ولاياته بنظام خاص دقيق ينطوي على الحذر الشديد من أهلها ، ويرمي الى جعلها مورداً من موارد المال والثروة للدولة ، فلم تكذب بشائر الفتح ترد عليه حتى رفع إفريقية الى مصاف ولايات الدولة الكبرى ، وأقام على حكومتها عاملاً مدنياً لا عسكرياً .

وكانت إفريقية البيزنطية لا تشمل المغرب كله من حدود مصر الى المحيط ومن البحر الى قلب الصحراء ، وإنما كانت جزءاً صغيراً يبدأ من حدود مصر

ويضم برقة وطرابلس وتونس وجبال الأوراس ، ثم يأخذ في الاقتراب من الساحل حتى ينتهي عند طنجة وسبتة . أما في الجنوب ، فلم يكن يتعدى نصف إمتداد إفريقية الرومانية ، فكان أقصى اتساعه سهل تونس وهضبة الأوراس ، ووقفت حدوده الجنوبية عند (تبسه) ومسكولا (*Mascula*) وتمجاد (*Thamugadi*) ولميزه (*Lambeiis*) وطبنة (*Tabna*) والمسيلة (*Masila*) ، أما فيما عدا ذلك فكانت حدوده ملاصقة للساحل لا تكاد تتعدى أرباض المواني من أمثال تيفش (*Tipasa*) وقيصريّة (*Caesaria*) وتانس (*Tenes*) ووهران (*Oran*) .

وكانت البلاد مقسمة الى سبعة أقسام إدارية :

يحكمها	(١) الولاية القنصلية (شمال تونس الحالية)	<i>Proconsularium</i>
قناصل	(٢) الولاية الداخلية (بيزاسيوم)	<i>Byzacium</i>
<i>Consulaies</i>	(٣) طرابلس	<i>Tripolitania</i>
	(٤) نوميديا	<i>Numidia</i>
يحكمها	(٥) موريتانيا الأولى	<i>Mauritania Sitifensis</i>
مديرون	(٦) موريتانيا الثانية وتشمل	<i>Mauritania Cesariensis</i>
<i>Praesides</i>	(شمال مراكش)	<i>Mauritania Tingtana</i>
	(٧) سردينيا	

وقد امتد سلطان الدولة في أول الأمر الى أبعد من هذا الحد الرسمي ، فدخل في طاعتها نفر من بدو البربر الضارين على حدود الصحراء ، وأقيمت المحارس على طول الرباط الأخير لكي تضمن طاعة هؤلاء للدولة وترد عنها أذاهم ، ولكن سلطانها أخذ يضعف شيئاً فشيئاً ، فأخذت تنسحب الى الشمال ، حتى لم يبق من املاكها آخر الأمر الا ساحل ضيق وبضع محارس حصينة في الداخل ، مثل تيبسه وسببيلة ، واحتل البربر ما خلا ذلك من الحصون

وكانت برقة البيزنطية لا تكاد تعدو مدائنها الخمس (أنطابلس) ، وكذلك طرابلس لم تعد تغور الساحل مثل (سرت Syrt) وطرابلس نفسها وصبرة وقابس .

٥- وجمع جوستينيان لحاكم إفريقية كل السلطات ، فكان هذا الحاكم يحمل من تبعات الحكم فوق ما يطبق .

كان هذا الحاكم مكلفاً بأن يجمع من الولاية مالا طائلاً ، وكان عليه كذلك أن يرسل الى العاصمة كل عام عدداً من السفن المحملة بالغلال لغذاء أهل القسطنطينية ، فكان العبء ثقيلاً على ولاية فقيرة كإفريقية . ومن البديهي أن تعجز الولاية عن النهوض بذلك العبء الثقيل ، فلجأت الحكومة الى أخذ السكان بالعنف للحصول على الأموال بالضغط والإرهاب ، فاشتطت مع رعاياها اشتطاطاً بالغا ، فلم يجد هؤلاء بداً من ترك مزارعهم ومتاجرهم والنجاة بأنفسهم ، واحتراف اللصوصية وقطع الطرق والاعتداء على الآمنين .

هكذا كانت حكومة إفريقية البيزنطية مليئة بالنقص والأخطاء من أول الأمر ، فكان مقدراً لهذه الحكومة ولأي حاكم يقوم بأمرها الفشل التام .

وكان لا بد من حراسة البلاد حتى يتيسر الاحتفاظ بها والاستمرار في جباية الضرائب ، فاتجهت عناية الدولة الى إقامة حاميات قوية في حصون متقاربة ، واقامت في كل حصن حامية تستطيع حمايته والدفاع عنه . وأسرفت الدولة في ذلك إسرافاً يسترعي النظر ، فلم تكتف بحامية واحدة بل أقامت ثلاث حاميات في حصون متعاقبة عمقا ، وقسمت البلاد الى أربع مناطق عسكرية لكل منها عاصمتها التي ترابط فيها قوة ضاربة بقيادة قائد أو دوق (Dux) ، فأصبحت البلاد شبكة من الحصون والقلاع ، ولما كانت الموارد ضئيلة لم يكن بالإمكان المحافظة على هذه التحصينات في حالة حسنة ، بل عجز الروم عن مجرد الاحتفاظ بها ، فاذا عرفنا أن هذه المنشآت لم تكن مبنية البناء إذ أُلهمت على عجل ، استطعنا أن نعرف مدى قوة هذا النظام الدفاعي لإفريقية البيزنطية .

طبيعي بعد ذلك أن تكون إفريقية البيزنطية ضعيفة من الناحية الحربية .

و - ولم تكن العلاقات بين الحكاميين والمحكومين على ما يرام ، إذ كان الروم مضطرين الى الغلو في تقرير الضرائب واستعمال العنف في جبايتها ، لكثرة ما تستلزمه الإدارة والدفاع والبناء من تكاليف . واشتدّ ضغط الحياة فارتفعت الأصوات بالشكوى في كل مكان ، وأخذت أسباب الاضطراب تتوافق وتتكاثر ، فأنشأ الجند يشغبون ويغيرون على مزارع الأهليين ويروعون الآمنين ، وتحولوا شيئاً فشيئاً الى طلاب مغنم وقطاع طرق ، وعجزت الحكومة عن ردّهم الى الطاعة ، فأصبحوا من عوامل القوضى والاضطراب . وتهاون من بقي منهم على الطاعة في القيام بواجباتهم العسكرية ، فتقاعدوا عن القتال أو تهاونوا فيه أو ادّعوا الحاجة الى الطعام أو اضطنعوا التعب واعتذروا بشدة البرد ، وإذا ساروا الى القتال دخلوا الميدان من غير استئذان وخرجوا منه دون انتظار أوامر قائدهم ، وربما تركوه دون تردد ساعة الخطر !!!

وكان البربر يرقبون ذلك فتزداد جرأتهم على الحكام وتحرك الثورة في نفوسهم ، ولم يلبث الإرهاق الذي أصاب أهل البلاد أن مهد لهم السبيل ليعلموا ما يضررون من كراهية وحقد .

واستبانت الدولة أن حكم إفريقية لم يعد بالأمر الهين ، فأخذت تميل الى الاعتماد على الأساليب العسكرية في التفاهم مع الأهليين ، فتحوّلت إفريقية الى ولاية عسكرية يشرف على أمورها قائد عسكري ، لكي يستطيع أن يداوم الحرب مع الأهليين ويثبت لهم ، ولكنه لم يستطع أن يردّهم الى الطاعة .

وهكذا فشل الحكم البيزنطي في إفريقية وعجزت الدولة عن السيطرة عليها فعلياً ، فأصبح جندها في حال أقرب الى الاستقلال ، وبدأ قادتها يفكرون في الانفصال وإعلان أنفسهم حكاماً بأنفسهم .

ز - دخلت المسيحية الى المغرب عن طريق مصر وربما عن طريق روما كذلك خلال القرن الثاني الميلادي ، فاعتنقها كثير من البربر ، والنشر الرهبان

بين البربر ، فكانت المسيحية سبيلاً للاتصال بين الرومان في العصر الروماني (١٤٦ ق.م الى ٤٣٥ م.م) وبين الأهلين ، وكانت الكنائس وسطاً صالحاً للاتصال والتفاهم ، وبهذا وفق الرهبان فيما عجز الحكام دونه وهو اجتذاب نفر من أهل البلاد .

وقامت الدولة الرومانية باتخاذ الاجراءات التي رأتها كفيلة بالمحافظة على وحدتها السياسية وخاصة على أيام الإمبراطور دسيوس (Decius) الذي طلب في سنة (٢٥٠ م) من جميع رعاياه أن يعلنوا عن وطنيتهم بإعلانهم التمسك بالديانة الوطنية المتمثلة في عبادة الأباطرة الى جانب آلهة روما ، والتنصل من كل العبادات الأخرى ، وخاصة المسيحية والمانوية . وترك كثير من المسيحيين ديانتهم واضطهدت الدولة النصرى وعطّلت كنائسهم وصادرت أملاكهم . وعلى عهد دقلديانوس (٢٧٠ - ٢٧٥ م) اشتدت الدولة ضد المسيحيين الذين تمسكوا بدينهم وقاموا بما يشبه العصيان المدني ، فرفضوا الخدمة العسكرية . وفي أوائل القرن الرابع الميلادي ، توثقت العلاقات بين الدولة والكنيسة ، حتى أن الكنيسة أعلنت حرمان من يلقي السلاح من رحمتها .

ورغم أن الكنيسة نجحت في تنظيم نفسها بفضل هذا التحالف وأنشأت كثيراً من الكنائس ، فإن المسيحية بقيت على سواحل المغرب مع الرومان ولم تصل الى القبائل الوطنية في المغرب الأقصى . وإلى جانب ذلك عرفت المسيحية الانحرافات المذهبية المتأثرة بالأفكار الآتية من المشرق البعيد عن طريق مصر ، مثل مذهب الحلول الإلهي ومذهب المانوية الثنوية . ثم إن الكنيسة المغربية عرفت انقساماً خاصاً بها ، وهو المذهب الدوناتى - نسبة الى صاحبة دونات (Donat) الكبير أسقف الوطنيين الذي رفض الإعراف بشرعية انتخاب سيليان اسقفاً لقرطاجنة ، فأعلن دونات طلب الاستشهاد واستجاب له كل الساخطين على الدولة وخاصة من طبقات الكادحين^(١) .

(١) انظر : تاريخ المغرب العربي (٦٥ - ٦٦) .

ورفع البربر علم الثورة على الرومان : ثورة سياسية في الواقع دينية في الظاهر ، وعيناً حاولت كنيسة قرطاجنة القضاء على الدوناتية .

ولم يلبث الوندال أن أقبلوا خلفاء للرومان على إفريقية ، فأنشأوا بضطهدون الدونانتيين وأعداءهم معاً ، وفرضوا على الناس مذهبهم الآريوسي - الذي يقول بطبيعة المسيح البشرية - واضطهدوا الكاثوليك وصادروا أملاك الكنيسة وأموالها .

بهذا تفرق أمر المسيحيين في إفريقية واختلف أتباعها شعباً وأحزاباً ، فلم يلبث أن ارتدّ عنها الكثيرون ، وضعف أثرها في الداخل ، فكان على جوستينيان أن يحاول نشرها في البلاد من جديد .

واهتم جوستينيان اهتماماً بالغاً بإعادة المسيحية الى إفريقية ، فأعاد بناء كثير من الكنائس وأنشأ بعضها ، وشجّع البعثات التبشيرية ، فأخذت المسيحية تنشط من جديد ، وانتشرت بين القبائل البربرية المحيطة بصبرة (Sabrata) وفي طرابلس وفي بعض نواحي نوميديا مثل وادي شلف (حول تلمسان) .

بيد أن الكنيسة الإفريقية لم تكن خلال العصر البيزنطي على حال يبعث على الأمل في مستقبل المسيحية في البلاد ، فكانت إدارتها مختلفة النظام إذ تلاشى النظام الكنسي ، واقترب القسس ذنوباً كثيرة تدل على العصيان أو التدهور الأخلاقي والفساد . وكانت الدوناتية وخصوصيتها المشبوبة مع الكنيسة البيزنطية عاملاً آخر من عوامل ضعف هذه الأخيرة ، إذ استطاع دعايتها أن يفرّوا الى داخل البلاد نجاةً من الإضطهاد ، وهناك كانوا يثيرون الناس على الكنيسة البيزنطية فيفر منهم الكثيرون ، بل أخذ البعض يعتمد نفسه من جديد وفق طقوس الدونانتيين .

وكانت الكنيسة الغربية قد أخذت تنهض نهضة عظيمة في ذلك الزمن بفضل جهود جريجوري الأكبر ، وكانت الحصومة ناشبة بينها وبين كنيسة بيزنطة ، فوجد جريجوري في تفرق أمر المسيحية في إفريقية فرصة طيبة يتدخل بها في

شؤون كنيسة إفريقية ليكسب رعاياها الى صفه ، فاستعان بقساوسة ذوي قدرة وشهرة ، فأخذ مسيحيو إفريقية يتجهون نحو روما متأثرين بما كان جريجوري يذيعه فيهم من نداءات وبما يبذله قساوسته من جهد وبما حرصت عليه الكنيسة الغربية من إعزاز لأمر الدين وإخلاص في نشره ، وبذلك ازدادت العلاقات العامة بين بيزنطة وإفريقية ضعفاً على ضعف .

من ذلك الحين أخذت طائفة دينية من أتباع كنيسة روما ، تنشأ في إفريقية وتكسب لمبادئها أنصاراً يعتزّون بها ويخاصمون فيها غيرهم من أصحاب المذاهب القائمة في إفريقية ، مما جعل المنازعات الدينية أحدّ وأقسى ، وزاد في انحلال البلاد التي كانت - لهذا الزمن - قد تفككت تفككاً بالغاً لا يرجى معه أمل في صلاح أمورها .

كانت سياسة البيزنطيين إذن ، قاضية على الآثار القليلة التي خلفها الرومان في نفوس أهل البلاد ، بل دفعت هذه السياسة بالبربر البدو الى العدوان على الولايات البيزنطية التي قامت فيها معالم الحضارة ، ولو لم تكن المسيحية قد ثبتت بعض الثبات في بعض النواحي كالزراة وتلمسان لما كان للبيزنطيين أي أثر في حضارة أهل البلاد .

ج - تبين الأباطرة أن نظام الحكم الذي وضعه جوستنيان لإفريقية لم يحقق الغرض المراد منه ، إذا استمرت الثورات تقلق البلاد وتفصل أجزاءها عن جسد الدولة جزءاً جزءاً . وثبت في أذهانهم أنه لا بدّ أن يراعى في النظام الجديد تغليب الناحية العسكرية على الناحية المدنية ، وجعل الاولى فوق الثانية ومشرفة عليها بعكس ما رسم جوستنيان . وأقيم على الولاية حاكم عسكري له الاشراف التام على كل مرافقها وموظفيها بما فيها الحاكم المدني . وأقيم على الأقسام الادارية الجديدة حكام عسكريون يلقبون : بالدوق (Dux) وعلى المدن قواد عسكريون على رأس حاميات .

وكان تحويل إفريقية البيزنطية من ولاية مدنية الى منطقة عسكرية نذيراً

بفشل البيزنطيين في حكم البلاد ولإيذاناً بوقوف كل الجهود السلمية والاصلاحية التي كان يرجى قيامها في ظلهم !

وفي سنة (٦٠٨ م) أقام مورييس (Maurice) على إفريقية الطريق (هرقل) . هو قائد ماهر من أصل أرمني ، ونُذِب لمعاونته في إدارة البلاد أخوه (جريجوريوس) ، فبدءا يعملان معاً ليعيدا الأمور الى نصابها في إفريقية المضطربة ، ولكن هرقل لم يكد يبدأ العمل حتى فوجيء سنة (٦٠٢ م) بثورة في القسطنطينية انتهت بقتل مورييس وإقامة فوكاس إمبراطوراً .

ولم يستطع هرقل أن يقف مكتوف اليدين أمام ما كان يسمع به من مظالم فوكاس ، فلم يلبث أن اتجه وجهة معادية وانشأ يعمل على الانفصال عن الدولة ، وكان أولى الخطوات التي اتخذها لبلوغ ذلك ، أن حجز في قرطاجنة السفن التي تنقل القمح الى القسطنطينية كل عام ، فلم يلبث المتورون من فوكاس أن اعتبروه منقذاً للدولة وتوجهوا بأمالهم نحوه ، واثالث عليه الرجى تستحبه الى المبادرة بانقاذ الدولة مما صارت اليه .

يبد أن هرقل كان في الستين من عمره ، وقد علت به السنّ عن أن ينهض بعمل كهذا فندب ابنه هرقل لانفاذه . فلم يجد هذا صعوبة في إسقاط فوكاس والقبض على أشياعه وتسليمهم للجمهور الساخط يفعل بهم ما يريد ، فلما تمّ له ذلك أحبّ أن يعود الى إفريقية ، ولكن رجال الدولة وأساقفتها ألحوا عليه في قبول التاج حتى قبل ، فاحتفل بتتويجه سنة (٦١٠ م) .

وساد الهدوء النسبي في إفريقية خلال السنوات الأخيرة من الحكم البيزنطي ، لأن هرقل الكبير بعد أن أصبح ابنه امبراطوراً لم يعد يعنى بشؤون إفريقية كثيراً ، فزال الضغط عن أهل البلاد وشعروا بشيء من الحرية . وكان هرقل يعرف لأهل إفريقية يدهم التي أسدوها اليه والى ابنه ، وفضلهم فيما صار اليه من ملك وسلطان ، ولما كان من حسن عونهم

له فيما أراد من إسقاط فوكاس ، فأحسن معاملتهم وتقرب منهم ، فركنوا الى الهدوء والسكون ، فكانت البلاد أهدأ حالاً وأكثر ازدهاراً في ذلك الحين منها في أي وقت آخر من العصر البيزنطي .

ط- ومات هرقل الكبير سنة (٦١٠ م) فخلفه أخوه جريجوريوس الذي كـ . يساعده منذ زمن طويل في إدارة البلاد ، ولكنه لم يلبث على حكومتها إلا زمناً قصيراً ، إذ خلفه عليها بطريق اسمه (قيصريوس) (Caesarius) ، ثم أعقبه نقيتاس (Nicetas) ابن جريجوريوس وابن عم الإمبراطور الذي كان ساعده الأيمن . في الهجوم على القسطنطينية . وخلف نقيتاس في ولاية إفريقية ابنه جريجوريوس ، وهو الذي يسميه المؤرخون العرب (جرجير) .

طبيعي أن تنشأ بين آل جريجوريوس وأهل إفريقية من روم وبربر علاقات طيبة ، فقد طسال بهم العهد في حكم هذه البلاد . وكان الحكام الثلاثة الذين تولوا الأمر من هذه الأسرة ذوي خبرة وكفاية وكياسة ، وكان لهم من الخطوة عند الأباطرة والقربى منهم ما زاد شأنهم نباهة . وانتعشت إفريقية في أيام جريجوريوس بعض الانتعاش ، بسبب الهدوء القصير الذي تمتعت به في ظل أبيه وجدّه ، لذلك فإن غالبية مؤرخي شمال إفريقية متفقون على أن العرب وجدوا البلاد ساعة دخولهم كثيرة الزروع وافرة الثمرات .

ازدهرت البلاد إذن ازدهاراً طارئاً قصير الأجل في أواخر أيام الحكم البيزنطي ، لأن الهدوء الذي سادها في ظل آل جريجوريوس وركون البربر الى السلام - لحسن سياسة هذه الأسرة ، كانا قمينين بأن ينهضا بالبلاد بعض النهوض ، وربما اقتصر الانتعاش الى الولاية القنصلية وقرطاجنة وأرباضها ، وبعض المدائن الكبرى في سهل تونس وهضبة الأوراس .

ي- في ذلك الحين ، كانت الانقسامات الدينية قد اشتدت في بيرنطة

وأخذ سعيها يمتد فيحرق ولاياتها بلظاه ، وكان الروم قد توزعتهم المذاهب المختلفة شيعاً وفرقاً ، تتصارع وتحترب وتهبط بالدولة الى درك عميق . وأحب هرقل أن يخلص بيلاده من تلك الفوضى ، فأنشأ يتصل بكبار رجال الدين في دولته يستطلع رأيهم ، حتى استقر رأيه آخر الأمر على إصدار مذهب وسط ترضى عنه الطوائف كلها ، فلم يكد المجلس الديني الذي عقده في سنة (٦٣١ م) يصدر المذهب الجديد ، حتى ثار الناس كلهم عليه ، وأنكروه جميعاً ... فلم يجد هرقل بداً من أن يصطنع الشدة في إرغام الناس على اتباعه ، فاضطهد الكثيرين من رعاياه اضطهاداً شديداً ، وشقي به قبط مصر خاصة لما أصابهم على يد (قبرس) الذي ندبه هرقل هرقل لتطبيق هذا المذهب في مصر .

وتلقى الإفريقيون مذهب هرقل الجديد بالسخط ، وأصر أساقفتهم ورجالهم على ألا يعدلوا بمذهبهم القديم مذهباً آخر ، واستعدوا للقاء أي شر يراد بهم في سبيل العقيدة . وكانوا قد طال بهم العهد وهم يتوجهون بالولاء لروما لا الى بيزنطة في مسائل الدين ، فأحسوا حين اطلعوا على المذهب الجديد والأوامر المتصلة به أنهم يبتعدون عن الدولة مرة أخرى .

ومات هرقل وتولى قسطنطين الثالث عرش الإمبراطورية ، وكان عدواً للمذهب الذي ابتدعه هرقل ، فلم تكد شكوى أساقفة إفريقية تصل الى علمه حتى أمر بإخراج الرهبان الذين يرفضون العودة الى أحضان الكنيسة من الأديرة ومصادرة أملاك الأديرة الخارجة ، وبهذا انقلب الحال ، ونزل الإضطهاد بأشباع الإمبراطور القديم . وكان جريجوريوس نفسه أرثوذكسياً ، فرضيت نفسه عن حكومة القسطنطينية ، فخيل للناس أن ما وهى من العلائق لا بد معقود مرة أخرى بين بيزنطة وإفريقية .

ولكن الأيام لم تمهل المتفائلين إلا قليلاً ، إذ قتل قسطنطين في مايس (مايو) سنة (٦٤١ م) ، وكانت الإمبراطورة (مارتينه) التي قيل

لأنها دبّرت موت قسطنطين ليتولى ابنها هرقل الصغير مكانه ، كانت على مذهب هرقل ، فبدأت ترد الى الأرثوذكسية ما أسلفت من أذى الى مذهبها ، فتوترت العلاقات مرة أخرى بين جرجير (جريجوريوس) والدولة .

وحوالي سنة (٦٤٠ م) أقبل على إفريقية رجل من أشهر رجال الدين في القرن السابع ، إذ كان له فيما بعد أثر بعيد في مصير إفريقية السياسي والديني ، وهو الراهب : مكسيم . وأنشأ هذا الراهب بيت في رهبان إفريقية تعاليمه ، ليعدّ هؤلاء القساوسة السذج البسطاء الذين أضعفهم الإنقسام ، لكي يكافحوا ويثبتوا لمهارة البيزنطيين واقتدارهم على السفسة في أمور الدين . وبهذا أصبح ذلك الرجل معقد آمال أهل إفريقية للنجاة مما يراد بهم من مسمات ، فاشتد ساعده بولائهم ، وصارح الدولة بأن الله لن يرضى عن الإمبراطورية الرومانية ما دام هرقل وآله على عرشها .

ولقيت هذه الآراء هوى في نفس جريجوريوس ، فأخذ يبذل العون لمكسيم ، ويشجعه على الإستمرار فيما هو آخذ فيه من مناهضة الدولة وصرف الناس عنها ، فلم يكد رهبان إفريقية يرون أنهم في أمن من غدر الدولة بحماية جريجوريوس ، حتى اجتمعوا ووجهوا للإمبراطور خطاباً يسألونه أن يترك ما هو سائر فيه من ابتداع وإفساد في الدين .

كذلك صادفت حركة مكسيم قبولاً لدى البابوية ، فلم تردد في بذل العون له حتى يستطيع أن يثبت للكنيسة الشرقية ، وكان مكسيم يميل للبابوية ويحببها إلى أتباعه ، . فصار لها في افريقية مكان مرموق .

وهكذا أسلمت الدولة البيزنطية رعاياها الى البابوية من الناحية الدينية كما ستسلمهم للعرب المسلمين من الناحية السياسية .

وبذلك كانت الظروف كلها موالية لجريجوريوس ليخرج على الدولة ، فلم يكد البابا تيودور يلح منه هذا الميل حتى صارحه : « بأن الله يرضى

عن ثورته ويقدر له التوفيق فيها ، وأهاب بالقسس ، فأحاطوا بجريجوريوس
يستحثونه على المبادرة بإفناذ هذا الأمر .

يبد أن طائفة أخرى من قساوسة إفريقية ، لم يكن يرضيهم هذا الانفصال ،
ويغلب على الظن ، أن مخاوف هذا الفريق لم يكن مرجعها الميل الى الكنيسة
الشرقية ، وإنما كان سببها الخوف من الفتح الاسلامي الذي كان قد أنى
منذ سنوات ثلاث على برقة وطرابلس ، وأخذ ينذر إفريقية نفسها بمثل
هذا المصير^(١) .

كانت هذه هي حالة المسيحية في المغرب قبل ظهور الاسلام : مذاهب
منشقة ، وجدل بيزنطي ، ومنافسة بين الكنيسة البيزنطية والكنيسة الكاثوليكية ،
وكانت سياسة الروم في إفريقية سبباً في القضاء على ما كان قد انتشر من
المسيحية بين أهلها ، فوقف الأهلون موقف العدو من كل ما يتصل بهم
من دين وحضارة^(٢) .

• • •

وبعد ..

كيف بدأ نور الاسلام يضيء دروب المغرب ؟ كيف أصبحت العربية
لغة المغرب ؟ من هم الذين أدخلوا هذا النور في العقول والقلوب معاً في
أرجاء المغرب ؟ من هم الذين أدخلوا لغة القرآن في أنحاء المغرب ؟ كيف
تغلغل الاسلام عقيدة والعربية لغة بين سكان المغرب ؟

من هم الذين شيدوا صروح الاسلام على أسس رصينة متينة ، وأشادوا
لغة القرآن على دعائم قوية ثابتة في المغرب ، بحيث تكسرت على أسسها ودعائمها
محاولات الصليبيين والاستعمار لتبديل عقيدة أهلها ولغتهم ، وبقي الاسلام
والعربية سائدين عبر القرون ، وسيبقان سائدين حتى يرث الله الأرض

(١) فتح العرب للمغرب (١١ - ٤٧) .

(٢) فتح العرب للمغرب (٢٨٠) .

ومن عليها .

من هم القادة الفاتحون الذين رفعوا رايات الإسلام عالية في المغرب ،
ونشروا لغة القرآن في ربوعه ؟

ذلك ما ستقرأه في هذا الكتاب ، الذي يصدر والمغرب يرفل في استقلاله
بعد توضيحات كثيرة بالأنفس والأموال من أجل الحفاظ على إسلام المغرب
وعروبه ، وحسبنا أن نذكر باجلال وإكبار جهاد ليبيا ضد الإيطاليين ،
وتونس والجزائر والمغرب ضد الفرنسيين ، وحسبنا أن نذكر ثورة الجزائر
التي ضحت بمليون شهيد لتثبت أنها بلد إسلامي عربي ، لا قطعة من فرنسا .
ولست أشك أن العرب المسلمين ، وغير العرب المسلمين ، في المغرب
وفي غيره ، سيقفون مبهورين أمام عظمة أولئك الفاتحين ، وسيقول كل
عربي مسلم : « أولئك آبائي ، فجئني بمثلهم » ... وهيئات .

والحمد لله الذي يسر لي التفرغ لكتابة تاريخ قادة فتح المغرب ،
وصلى الله على القائد الأول والزائد الأكبر ، محمد بن عبدالله ، وعلى
آله وصحبه أجمعين .

القادة الجامعون

١. عمرو بن العاص السهمي^(١).
٢. عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري .
٣. معاوية بن حديج السكوني .
٤. عقبة بن نافع الفهري .
٥. أبو المهاجر دينار .
٦. زهير بن قيس البلوي .
٧. حسان بن النعمان الأزدي الغساني .
٨. موسى بن نصير اللخمي .

(١) انظر : قادة فتح الشام ومصر (١٢٣-١٦٣) .

عبد سدين سعد بن أبي سرح القرشي العامري فاتح إفريقيا " (تونس)

نسبه وأيامه الأولى :

هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح^(١) بن حبيب بن جذيمة^(٢) ابن حنبل بن عامر بن لؤي القرشي العامري^(٣)، ويكنى : أبا يحيى^(٤) .
واسم أبي سرح : الحسام^(٥) . وكان من المنافقين^(٦) الكفار^(٧) .
وأمه أشعرية واسمها : مهابة بنت جابر^(٨) الأشعري ، أَرْضَعَتْ عثمان

(١) إفريقية اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية ، ويمتدحها إلى قبالة جزيرة الأندلس ، والجزيرتان في شمالها ، فصقلية منحرفة إلى الشرق والأندلس منحرفة إلى جهة الغرب وحد إفريقية من مراكش الغرب إلى بجاية ، وقيل إلى مليانة . وقال آخر : حدها من برقة شرقاً إلى طنجة غرباً وعرضها من البحر إلى الرمال التي في أول بلاد السودان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٠٠/١) وآثار البلاد وأخبار العباد ص (١٤٨) .

(٢) في الاستيعاب (٩١٨/٣) : ابن أبي السرح .

(٣) في الاستيعاب (٩١٨/٣) : ابن جذيمة بن نصر بن مالك بن حنبل بن عامر بن لؤي ، وفي أسد الغابة (١٧٣/٢) : ابن جذيمة بن مالك بن حنبل بن عامر بن لؤي .

(٤) طبقات ابن سعد (٤٩٦/٧) ، وانظر تهذيب الاسماء واللغات (٢٦٩/١) وجمهرة أنساب العرب ص (١١٠) . وفي أسد الغابة (١٧٣/٣) : إنه كان من قريش الظواهر وليس من قريش البطاح .

(٥) الإصابة (٧٦/٤) وأسد الغابة (١٧٣/٣) والاستيعاب (٩١٨/٣) . وتهذيب الاسماء واللغات (٢٦٩/١) والروض الآنف (٢٧٤/٢) ومعالم الإيمان (١١٠/١) .

(٦) معالم الإيمان (١١٠/١) والنجوم الزاهرة (٧٩/١) .

(٧) المعارف ص (٣٠١) والإصابة (٧٧/٤) .

(٨) الإصابة (٧٧/٤) .

(٩) الإصابة (٧٦-٧٧/٤) .

ابن عفان ، فعبد الله بن سعد أخو عثمان بالرضاعة^(١) .

أسلم عبد الله قديماً^(٢) قبل فتح مكة المكرمة ، وهاجر الى المدينة المنورة ، فهو من السابقين الأولين^(٣) ، وكان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم افتتن وخرج من المدينة الى مكة مرتداً^(٤) ؛ فنزلت فيه : (ومن قال : سأنزل مثلما أنزل الله !؟)^(٥) .

ولما فتح المسلمون مكة المكرمة ، عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسلمين بقتل نفر من الكفار سمّاهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة ، منهم عبد الله بن سعد ، ففر ابن سعد الى أخيه بالرضاعة عثمان بن عفان ، فغيبه حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن اطمأن الناس وأهل مكة ، فاستأمن له ، فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلاً ثم قال : « نعم » ؛ فلما انصرف عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله من أصحابه : « لقد صمّت ليقيم اليه بعضكم فيضرب عنقه » ، فقال رجل من الأنصار : « فهلا أومأت إليّ يا رسول الله » ؛ فقال : « إن النبي لا يقتل بالاشارة »^(٦) ؛ فأسلم عبد الله ذلك اليوم وحسن إسلامه

(١) تهذيب الاسماء واللقبات (٢٦٩/١) ومعالم الايمان (١١٠/١) وطبقات ابن سعد (٧/٤٩٧) والاستيعاب (٩١٨/٣) وأسد الغابة (١٧٣/٣) والنجوم الزاهرة (٧٩/١) وسيرة ابن هشام (٢٨/٤) .

(٢) ذيل المذيل للطبري (٣٢) وطبقات ابن سعد (٤٩٦/٧) .

(٣) شذرات الذهب (٤٤/١) .

(٤) طبقات ابن سعد (٤٩٦/٧) وانظر أسد الغابة (١٧٣/٣) والاستيعاب (٩١٨/٣) والسيرة الخلبية (٣٦٤/٣) ، وجاء فيها : نزل فيه قوله تعالى : (ومن أظلم من افترى على الله كذباً) اقول : والآية الكريمة من سورة الاحراف (٧ : ٣٧) ولم أجد ما يوقد نزولها في عبد الله بن سعد في تفسير ابن كثير والبغوي والزمخشري والبيضاوي . وانظر البيان المغرب في أخبار المغرب (٤/١) وتهذيب الاسماء واللقبات (٢٦٩/١) .

(٥) المعارف ص (٣٠٠) والآية الكريمة من سورة الانعام (٦ : ٩٣) . انظر تفسيرها في البغوي (٣٦٠/٣) والكشاف (٤٦١/١) .

(٦) سيرة ابن هشام (٢٨-٢٩) . وفي الاستيعاب (٩١٨/٣) وأسد الغابة (١٧٣/٣) -

ولم يظهر منه بعد ذلك ما ينكر عليه^(١).

لقد بايعه رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ على الاسلام وقال :
« الاسلام يَجِبُ ما قبله »^(٢) ؛ ولكن عبد الله كان يفرّ من رسول الله
صلى الله عليه وسلم أينما رآه خجلاً منه ، فذكر ذلك عثمان لرسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال : « الاسلام يَجِبُ ما كان قبله » ، فكان عبد
الله بعد ذلك يجلس مع رسول الله ﷺ ويسلم عليه^(٣).

أسلم عبد الله وحسن إسلامه وعُرف فضله وجهاده^(٤) ، فأصبح
وثيق الايمان كامل الشعور بجلال الاسلام وتبعاته ، وكل قول يخالف ذلك
لا قيمة له من الناحية التاريخية الصحيحة .

جهاده :

١ - في مصر :

كان عبد الله مع جيوش المسلمين التي فتحت أرض الشام ، فلما سار
عمرو بن العاص لفتح مصر ، كان عبد الله معه قائداً للميمنة منذ توجه من
(قَيْسَارِيَّة)^(٥) الى أن فرغ من حربه^(٦) ، فشهد فتح مصر وكان

= ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجاب الأنصاري : « إن النبي لا ينبغي أن يكون له خاتنة الأعين » .
وانظر السيرة الحلبية (٣٦٤/٣) وتهذيب ابن عساكر (٤٣٢/٧) . وفي البيان المغرب (٤/١) :
إن عبد الله بن سعد استجار بدار عثمان بن عفان ، فأخذ له عثمان الأمان من النبي صلى الله عليه وسلم .
(١) أسد الغابة (١٧٣/٣) والاستيعاب (٩١٨/٣) وتهذيب الاسماء واللغات (٢٧٠/١)
وجوامع السيرة ص (٢٣٢) .

(٢) طبقات ابن سعد (٤٩٧/٧) .

(٣) تهذيب ابن عساكر (٤٣٤/٧) .

(٤) الروض الآنف (٢٧٤/٢) .

(٥) قيسارية : بلد على ساحل بحر الشام تمد من أعمال فلسطين ، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام ،
وكانت قديماً من أعيان أمهات المدن ، واسعة الرقعة طيبة البقعة . انظر التفاصيل في معجم البلدان
(١٩٥/٧) .

(٦) فتح مصر والمغرب ص (٨٥) وانظر رياض النفوس (٤٤/١) .

صاحب ميمنة عمرو بن العاص في فتوحاته^(١) وفي حروبه هناك كلها^(٢)؛ وكان عمرو بن العاص يبعثه الى أطراف (إفريقية) غازياً ويمدّه بالجنود فيعود من غزواته ظافراً غانماً^(٣).

وتولى عبد الله (صعيد) مصر بعد فتحها ، وكان عمر بن الخطاب هو الذي ولاّه (الصعيد)^(٤) فعقد عثمان بن عفان لعبد الله على مصر كلها مضافاً للصعيد وغيره^(٥) وعزل عمرو بن العاص عن مصر ، وكان ذلك سنة خمس وعشرين الهجرية^(٦).

٢ - فتح إفريقية

لما ولي عبد الله بن سعد مصر والمغرب ، بعث المسلمين في جرائد الخيل ، فأصابوا من أطراف إفريقية وغنموا^(٧) ، فكتب عبد الله الى عثمان ابن عفان وأخبره بقرب إفريقية من بلاد المسلمين واستأذنه في غزوها^(٨).

(١) معالم الايمان (١١١/١) والروض الآنف (٢٧٤/٢) والإصابة (٧٧/٤) والنجوم الزاهرة (٨٣/١) . وقد جاء ذكر الصحابة الذين شهدوا فتح مصر في : فتح مصر والمغرب ص (١٣٥) ومنهم عداة بن سعد .

(٢) الاستيعاب (٩١٩/٣) وأسد الغابة (١٧٣/٣) .

(٣) ابن الاثير (٣٣/٣) والطبري (٣١٠/٣) وفي رياض النفوس (٤٤/١) : انه دخلها سنة سبع وعشرين هجرية .

(٤) الصعيد : بلاد واسعة كبيرة فيها عدة من عظام المدن منها أسوان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٠/٥) والمسالك والممالك ص (٤٠) وآثار البلاد وأخبار العباد ص (٢١٣) .

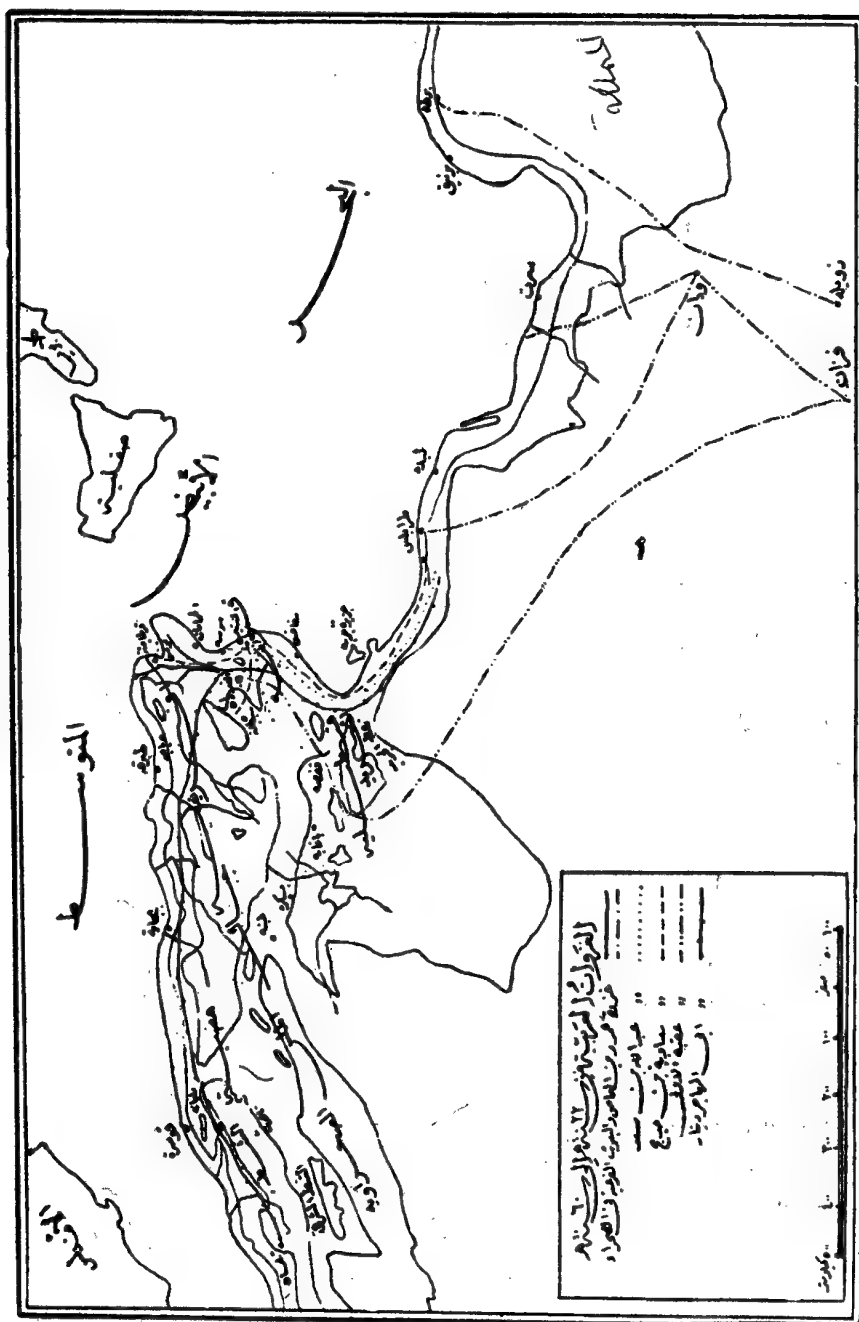
(٥) فتح مصر والمغرب ص (٢٣٣) .

(٦) النجوم الزاهرة (٦٦/١) .

(٧) النجوم الزاهرة (٧٩/١) وتهذيب الاسماء والغات (٢٧٠/١) وفتح مصر والمغرب ص (٢٣٥) والبلاذري ص (٢٢٤) وأسد الغابة (١٧٣/٣) والإصابة (٧٧/٤) . وفي ابن الاثير (٣٤/٣) وابن خلدون (١٢٨/٢) ملحق) وابي الفدا (١٦٧/١) : ان عبد الله تولى مصر سنة ست وعشرين هجرية .

(٨) البلاذري ص (٢٢٧) وفتح مصر والمغرب (٢٤٦) .

(٩) فتح مصر والمغرب (٢٤٦) وابن الاثير (٣٤/٣) .



واستشار عثمان من عنده من الصحابة ، فأشار أكثرهم بالاقدام على غزو إفريقيا ، فجهز عثمان العساكر من المدينة وأمدّ عبد الله بجيش عظيم ، وخرج في هذه الغزاة ممن حول المدينة خلق كثير ^(١) ، كان فيهم : عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر والحسن والحسين ، لذلك سمي هذا الجيش : جيش العبادة ^(٢).

وسار عبد الله بن سعد بجيشه البالغ تعدادة عشرين ألفاً ^(٣) سنة ست وعشرين هجرية ^(٤) الى (إفريقية) ، فلما وصلوا الى (برقة) ^(٥) لقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين - وكان عقبة ومن معه حاميه هناك ، فساروا جميعاً الى (طرابلس) ^(٦) الغرب فنهبوا من عندها من الروم ^(٧).

وتقدم عبد الله بجيشه نحو (إفريقية) ، وبث السرايا في كل ناحية ، وكان ملكهم (جرجير) ^(٨) ملكه من (طرابلس) الى (طنجة) ^(٩) ،

(١) البلاذري ص (٢٢٨) .

(٢) انظر ابن خلدون (١٢٨/٢) الملحق .

(٣) البلاذري ص (٢٤٧) .

(٤) ابن خلدون (١٢٩/٢) الملحق . وفي البلاذري ص (٢٢٨) : إن عثمان كتب الى عبد

الله في سنة سبع وعشرين يأمره بغزو إفريقية .. انتهى . وفي معالم الايمان (١١١/١) : أن عثمان ولاه إفريقية سنة سبع وعشرين هجرية .

(٥) برقة : اسم صقع كبير يشمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وإفريقية ، واسم مدينتها انطابلس ، وتفسيره الخمس مدن . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٣/٢) والمسالك والممالك ص (٣٣) .

(٦) طرابلس الغرب : أو طرابلس المغرب ، مدينة من عمل إفريقية مبنية من الصخر على ساحل بحر الروم ، خصبة واسعة الكورة حصينة جداً . انظر التفاصيل في المسالك والممالك ص (٣٣) ومعجم البلدان (٣٤/٦) .

(٧) ابن الأثير (٣٤/٣) وابن خلدون (١٢٩/٢) ملحق .

(٨) جرجير : هو جرجير يوس . انظر فتح العرب للمغرب ص (٨٣) .

(٩) طنجة : مرفأ على مضيق جبل طارق شمال المغرب ، وهو قاعدة لمنطقة دولية في الوقت -

وكان مستقر ملكه في مدينة يقال لها : (قَرطاجَنَّة) ^(١) ، وكان (هرقل) قبصر الروم قد ولّاه إفريقية فهو يحمل اليه الخراج كل سنة .

والتقى المسلمون بجيش جرجير البالغ عدده مائة ألف وعشرين ألفاً بمكان يدعى : (عقوبة) ^(٢) بينه وبين مدينة (سَبِيْطِلَة) ^(٣) يوم وليلة ، فنشبت معركة حامية بين الطرفين هناك ^(٤) .

وراسل عبد الله بن سعد ملك الروم جرجير يدعوه الى الاسلام أو الجزية ، فامتنع منهما وتكبر عن قبول أحدهما .

واستأنف عبد الله القتال ، فاستمرت الحرب أياماً حتى وصل للمسلمين مدد بقيادة عبد الله بن الزبير ، وحين سمع جرجير بوصول هذا المدد الى المسلمين فتّ ذلك في عضده .

ورأى عبد الله بن الزبير أن قتال المسلمين يبدأ من الصباح ويستمر حتى الظهر ، فاذا أذن الظهر عاد كل فريق الى خيامه ، كما أنه افتقد في اليوم التالي عبد الله بن سعد في المعركة ، فسأل عنه فقيل : « إنه سمع منادي جرجير يقول : من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي ! وهو يخاف ! » ، فحضر ابن الزبير عنده وأشار عليه بأن يأمر منادياً بنادي : « من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوّجته ابنته ، واستعملته على

= الحاضر ، وكانت طنجة مرفأً للفينيقيين في القرن السادس قبل الميلاد. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٢/٦) والمساكن والممالك ص (٣٤) .

(١) قرطاجنة : ويطلق عليها اسم قرطاجا ، وهي مدينة لا تزال آثارها باقية بالقرب من مدينة تونس ، ويقال ان مدينة تونس قد بنيت من خرابها . والاسم مكون من جزئين : قرطا ، بمعنى مدينة ، وأضيف اليها جنة لطيبها وزهرتها . وقد كانت قرطاجنة مقر امبراطورية جبارة قاومت الرومان وهاجمت روما في أيام هنيبال . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٢/٧) .

(٢) عقوبة : موقع بينه وبين (سيطة) يوم وليلة . انظر البلاذري ص (٢٢٨) .

(٣) سيطة : مدينة من مدن إفريقية ، بينها وبين القيروان سبعون ميلاً . انظر معجم البلدان (٣٣/٤) .

(٤) ابن الاثير (٣٤/٣) وابن خلدون (١٢٩/٢) ملحق

بلاده ، ، ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشد من عبد الله .

وقال ابن الزبير لعبد الله بن سعد : « إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في إمداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة سالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهين ، ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملأوا ، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ، ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة ، ففعل الله ينصرنا عليهم » ، فأحضر ابن سعد جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم ، فوافقوه على ذلك .

وفي اليوم التالي ، فعل ابن سعد ما اتفقوا عليه ، وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم وخبوهم عندهم مسرجة ، وحضر الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً ، فلما أذن الظهر همّ الروم بالانصراف على العادة ، فلم يمكنهم عبد الله بن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أنعبهم ؛ ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، وألقى كل من الطرفين سلاحه ، وكان قد بلغ التعب من الروم حداً بالغاً . وأخذ ابن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وهاجم بهم الروم ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم ؛ وحملوا حملة رجل واحد وكبّروا ، فلم يتمكن الروم من أخذ سلاحهم حتى غشيه المسلمون ، فقتل جرجير قتله ابن الزبير ، وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأخذت ابنة الملك جرجير سبية .

وحاصر ابن سعد (سُبَيْطِيَّة) ، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها ، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار . وبعث عبد الله جهوشه في البسلاد ، فبلغت (قَنْصَةَ) (١) ، فسبوا

(١) لفصة ، بلد صغير في طرف إربيلية من ناحية المغرب ، بينها وبين الكيروان ثلاثة أيام .
الظر الفاصيل في معجم البلدان (١٣٨/٧) .

وغنموا ، كما سَير جيشاً الى حصن (الأجم) ^(١) وقد احتفى به أهل تلك البلاد ، فحصره وفتح بالأمان ، فصالحه أهل إفريقية على ألف وخمسمائة ألف دينار ^(٢) ، فأرسل عبد الله بن الزبير الى عثمان بالبشارة بفتح إفريقية ، وعاد ابن سعد الى مصر بعد أن أمضى بإفريقية سنة وثلاثة أشهر ^(٣) .

وفي رواية : أن عبد الله بثّ السرايا ففرّقها في البلاد فأصابوا غنائم كثيرة واستاقوا من المواشي ما قدروا عليه ، فلما رأى ذلك عظماء إفريقية اجتمعوا فطلبوا الى عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قطار من ذهب على أن يكفّ عنهم ويخرج من بلادهم ، فقبل ذلك ^(٤) . ومعنى ذلك أن هؤلاء دفعوا هذا المبلغ ليكفّ المسلمون أيديهم عنهم وتتوقف الحرب ويسود السلام بين أهل إفريقية من جهة وبين المسلمين من جهة أخرى . فاجتمع أهل إفريقية على الطاعة والاسلام وحسن إسلامهم ^(٥) ؛ وليس معنى ذلك خروج المسلمين من إفريقية نهائياً كما توهم بعض المؤرخين ^(٦) ، وأكبر دليل على ذلك إن إفريقية انتقضت فعاد عبدالله لحربها كما سيرد ذلك.

(١) الأجم : العجم - الأعجم ، كانت معروفة أيام البيزنطيين باسم (*Thysdoras*) وكانت مركزاً حربياً هاماً طوال العصر البيزنطي . انظر فتح العرب للمغرب ص (٨٣) .

(٢) وهذا ما يساري ثلاثمائة قطار من ذهب . انظر البلاذري ص (٢١٨) .

(٣) ابن الأثير (٣٤٠/٣ - ٣٥٠) وابن خلدون (١٢٩/٢ ملحق) . وانظر فتح مصر وإفريقية

(٢٤٦ - ٢٤٩) والبلاذري (٢٢٧ - ٢٢٩) وتهذيب الاسماء واللغات (٢٧٠/١) ومعالم الإيمان

(١١١/١) والبيان المغرب (٨ - ٤/١) وفي النجوم الزاهرة (٧٩/١) : ان جيش عبد الله كان

مفرقة آلاف . وانظر البدء والتاريخ (١٩٩/٥) وأسد الغابة (١٧٢/٣) ومعجم البلدان (٢٠١/١)

(٤) البلاذري (٢٢٨) ومعجم البلدان (٣٠١/١) .

(٥) النجوم الزاهرة (٨٠/١) .

(٦) انظر : فتح العرب للمغرب ص (١٠٩) ، فقد ورد فيه : لم يوافق عبد الله بن سعد فيما

لصد اليه من فتح إفريقية ، ولم تزد رحلته على غارة طال أمدها وكثرت أحداثها ، ولكنها القهت دون

أن تخلف وراءها أثراً كبيراً .. القهت . وإذا كان الفشار الاسلام فيها وغطوها للمسلمين ليس أثراً

كبيراً ، فما هو الأثر الكبير ١٩٩

لقد افتتح عبد الله بن سعد إفريقية سهلها وجبلها ^(١) ، وفتح الله على يديه فتحاً عظيماً ^(٢) ، وأذلت تلك الواقعة الروم بإفريقية وأصابعهم رعب شديد ^(٣) فإذا كان كل ذلك ليس فتحاً (مستداماً) بل (غارة) ، فكيف يكون الفتح ؟؟

٣ . في قُبْرُس ^(٤) :

وفي سنة ثمان وعشرين للهجرة ، أجاب عثمان بن عفان معاوية بن أبي سفيان حين كان على أرض الشام إلى فتح (قُبْرُس) وقال له : « لا تنتخب الناس ولا تفرع بينهم ! خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه » ، فسار المسلمون من الشام إلى (قبرس) ، وسار إليها عبدالله بن سعد من مصر ، فاجتمعوا عليها ؛ فصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة ^(٥) .

وبذلك فتح المسلمون (قبرس) وكان لعبدالله فضل كبير في فتحها .

٤ . في النُوبَة ^(٦) :

بعث عمرو بن العاص عقبة بن نافع الفهري لفتح (النُوبَة) ، فلقي المسلمون بالنوبة قتالاً مريراً ، إذ كان أهلها ماهرين برمي السهام ، فرشقوا المسلمين بالنبل حتى جرح عامتهم ، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحُدُق مفقودة .

(١) النجوم الزاهرة (٧٩/١) .

(٢) تهذيب الاسماء واللفات (٢٧٠/١) .

(٣) البيان المغرب (٨/١) .

(٤) قبرس : جزيرة في بحر الروم . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٦/٧) .

(٥) ابن الأثير (٣٦٠-٣٧) ، وانظر الطبري (٣١٨/٣) والاستقصا لدول المغرب

الأقصى (٣٥/١) وابن خلدون (١٣٠/٢ - ١٣١ . ملحق) وتاريخ أبي الفدا (١٦٧/١) .

(٦) النوبة : بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر ، أول بلادهم بحد أسوان . انظر التفاصيل في

معجم البلدان (٣٢٢/٨) .

ولم يصالحهم عمرو بن العاص ولم يزل يهاجمهم بين حين وآخر حتى عزل عن مصر وولي ابن سعد ، فغزاهم سنة إحدى وثلاثين هجرية ، فقاتله الأساود من أهل النوبة قتالاً شديداً ، فأصببت يومئذ عيون كثير من المسلمين ، فقال الشاعر :

لم تر عيني مثل يوم (دُمُقْلَة) ^(١) والخيل تعدو بالدروع مثقلة
فسأل أهل النوبة عبد الله بن سعد الهدنة ، فهادنهم الهدنة الباقية الى اليوم ؛ وصالحهم : على أنهم لا يغزونها ولا يغزو النوبة المسلمين ، وأن النوبة يؤدون كل سنة الى المسلمين كمية من السبي ، وأن المسلمين يؤدون اليهم كمية من القمح والعدس في كل سنة مقابل السبي ، وعقد لأهل (مقرة) ^(٢) بعد دخول جيش المسلمين (دنفلة) عقداً يضمن استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الاطمئنان الى حدودهم الجنوبية ويفتح النوبة للتجارة والحصول على عدد من الرقيق في خدمة الدولة الاسلامية ، وقد اختلط العرب بالنوبة والبجة واعتنق كثير منهم الاسلام ^(٣) .

٥ . في إفريقية ثانية :

وفي سنة ثلاث وثلاثين هجرية ، أعاد عبد الله الكرة على إفريقية حين نقض أهلها العهد ، فانتصر عليهم وأعاد النظام الى ربوعهم ، وأقرهم

(١) دمقلة : مدينة كبيرة في بلاد النوبة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٢/٤) .

(٢) مقرة : (Maqurra) : مدينة بالنوبة .

(٣) فتح مصر والمغرب (٢٥٢ - ٢٥٣) وانظر البلاذري (٢٣٨ - ٢٣٩) وتهذيب الاسماء (٢٧٠/١) . وانظر نص العقد بين عبد الله بن سعد وبين أهل النوبة في المواقف والاعتبار (١٩٩/١) طبعة بولاق ، وانظر الروض الأنف (٢٧٤/٢) ومعجم البلدان (٨٢/٤) حول هدنة عبد الله بن سعد الباقية الى الآن . وانظر الاستيعاب (٩١٩/٣) وأسد الغابة (١٧٤/٣) والاصابة (٧٧/٤) وتهذيب ابن عساكر (٤٣٢/٧) حول حدوث هذه الغزوة سنة إحدى وثلاثين هجرية . وفي جمل فتوح الاسلام - ملحق بجوامع السيرة لابن حزم ص (٣٤٥) : غزاهم عبد الله بن سعد فصالحهم على رقيق يؤدونه ، وبني على باب مدينة ملكهم مسجداً . وشرط عليهم حفظه أبداً ، ثم اسلمت البجة كلهم .

على الاسلام والحزبية (١).

لقد كان فتح إفريقيا فتحاً (مستداماً) بدون شك ، ولم يكن (غارة) من الغارات .

٦ . في غزوة ذات الصواري .

وفي سنة أربع وثلاثين هجرية (٢) غزا عبد الله غزوة : ذات الصواري ، في البحر من ناحية الاسكندرية (٣) ، فلقبه قسطنطين بن هرقل في جمع لم تجمع الروم مثله مذ كان الاسلام ، فخرجوا في خمسمائة مركب أو ستمائة (٤) ، والمسلمون في مائتي مركب (٥) .

وحين علم عبد الله بخبر قدوم الروم بهذا الحشد الكثيف ، قام بين ظهراني الناس فقال : « بلغني أن ابن هرقل قد أقبل اليكم في ألف مركب ، فأشيروا عليّ ! » ، فما كلمه رجل من المسلمين .

وجلس عبد الله قليلاً ليرجع الى سامعيه أفئدتهم ، ثم قام الثانية وكلمهم ، فما كلمه أحد . وجلس ثم قام الثالثة فقال : « إنه لم يبق شيء » ، فأشيروا عليّ ! » ، فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعاً مع عبد الله بن سعد فقال : « أيها الأمير ! إن الله جلّ ثنائه يقول : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين) (٦) ، فقال عبد الله : « اركبوا باسم الله » ، فركبوا ، وإنما كان في كل مركب نصف شحنته ، إذ قد خرج النصف الآخر

(١) النجوم الزاهرة (٨٠/١) وابن الأثير (٥٢/٣) .

(٢) فتح مصر والمغرب (٢٥٥) والنجوم الزاهرة (٨٠/١) والاستيعاب (٩١٩/٣) وتهذيب ابن عساكر (٤٣٢/٧) .

(٣) النجوم الزاهرة (٨٠/١) .

(٤) الطبري (٣٤٠/٣) وابن الأثير (٤٤/٣) . وفي فتح مصر والمغرب (٢٥٥) والنجوم الزاهرة (٨٠/١) : أن عدد مراكب الروم كان ألف مركب .

(٥) فتح مصر والمغرب (٢٥٦) والنجوم الزاهرة (٨٠/١) .

(٦) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ٢٤٩) .

الى البر للقتال في منطقة أخرى^(١).

وقدم أهل الشام وعليهم معاوية بن أبي سفيان وعلى البحر عبد الله بن سعد ، وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم ؛ فأرسي المسلمون والروم ، وسكنت الريح ، فقال المسلمون : الأمان بيننا وبينكم ! فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرءون القرآن ويصلّون .

وأصبحوا وقد أجمع الروم أن يقاتلوا ، فقرّبوا سفنهم وقرب المسلمون سفنهم ، فربطوا بعضها الى بعض ؛ وصف عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ويأمرهم بالصبر .

واقتل الطرفان بالسيوف والخنجر ، فقتل من المسلمين بشر كثير ، وقتل من الروم ما لا يحصى ؛ وصبر المسلمون يومئذ صبراً لم يصبروا مثله في موطن قط ، فجح قسطنطين ملك الروم وقائدهم في هذه المعركة فانهزموا ولم ينج منهم إلا الشريد^(٢) .

في هذه المعركة بالذات تعرّضت حياة عبد الله لخطر داهم ، فقد قرن مركبه بمركب من مراكب الروم ، فكاد مركب العدو يجر مركب عبد الله إليهم ، إلا أن أحد رجاله ضرب السلسلة التي تربط المركبين بالسيف ، فقطعها^(٣) وبذلك نجا عبد الله من الموت أو الأسر .

لقد أظهر عبد الله في معركة (ذات الصواري)^(٤) بطولة فائقة ، تلك الغزوة التي أبعدت خطر الروم بعد اندحارهم عن مصر وأرض الشام .

(١) فتح مصر والمغرب ص (٢٥٦) .

(٢) الطبري (٢٤٠/٣ - ٢٤١) وابن الأثير (٤٤/٣) وانظر ابن خلدون (١٣٠/٢ ملحق) .

(٣) فتح مصر والمغرب ص (٢٥٧) .

(٤) سبت هذه المعركة بذات الصواري ، لكثرة صواري المراكب واجتماعها ، انظر النجوم الزاهرة (٨٠/١) .

الإنسان :

عاد عبد الله بن سعد الى مصر من غزوة (ذات الصواري) سنة خمس وثلاثين الهجرية ، فوافاه خبر من ثار على عثمان بن عفان . وخرج عبد الله من مصر متوجهاً الى عثمان ^(١) ، إذ استدعى عثمان عماله وجمعهم وشاورهم وقال لهم : « إن لكل امرئ وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي ؛ وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا إليّ أن أعزل عمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبّون ؛ فاجتهدوا رأيكم ! » ؛ فكان رأي عبد الله من بين المؤتمرين : « إن الناس أهل طمع ، فاعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم » ^(٢) .

وُقِتلَ عثمان بن عفان واستخلف علي بن أبي طالب ، فعزل عبد الله عن مصر وولاه لقيس بن سعد بن عبادة ^(٣) ، فكان عزله عن مصر سنة ست وثلاثين الهجرية بعد أن حكمها نحواً من عشر سنين ^(٤) ، إذ لم يزل والياً بمصر حتى قتل عثمان بن عفان ^(٥) .

وسار عبد الله الى (الرَّمْلَة) ^(٦) أو الى (عَسْقَلَان) ^(٧) لما بلغه مقتل عثمان وحصول الفتنة واعتزل الفتنة ^(٨) ولم يبايع لعلي ومعاوية ^(٩) ،

(١) النجوم الزاهرة (٨٠/١ - ٨١) .

(٢) ابن الأثير (٥٧/٣) والطبري (٣٧٣/٣) .

(٣) النجوم الزاهرة (٨١/١) ، وانظر ابن الأثير (١٠٦/٣) والبلاذري ص (٢٢٩) .

(٤) النجوم الزاهرة (٨٢/١) .

(٥) طبقات ابن سعد (٤٩٧/٧) والنجوم الزاهرة (٧٩/١) .

(٦) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٨٦/٤) .

(٧) عسقلان : مدينة من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين . راجع

التفاصيل في معجم البلدان (١٧٤/٦) .

(٨) معالم الايمان (١١٢/١) والروض الآنف (٢٧٤/٢) وتهذيب الاسماء واللغات (٧٠/١)

وتهذيب ابن عساكر (٤٣٣/٧) .

(٩) النجوم الزاهرة (٨٣/١) ومعالم الايمان (١١٢/١) وأسد الغابة (١٦٤/٣) .

فأقام بعسقلان، ودعا على نفسه قائلاً: «اللهم اجعل خاتمة عملي صلاة الصبح»، فلما طلع الفجر من يوم وفاته توضعاً ثم صلى الصبح، فقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب والعاديات، والثانية بأم القرآن وسورة (١)، ثم سلم عن يمينه، ثم ذهب ليسلم عن يساره، فقبض الله روحه سنة ست وثلاثين هجرية (٢) (٦٥٦ م)، ودفن بموضع معروف يقال له: مقابر قريش بعسقلان (٣) قبل اجتماع الناس على معاوية (٤).

يتبغي أن نجعل حداً فاصلاً بين عبد الله بن سعد في إسلامه الأول وعبد الله بن سعد في إسلامه الثاني، لأن الوقائع تبين أن الرجل يختلف كثيراً في الدور الأول عنه في الدور الثاني. فعبد الله الأول فتي يافع لا يكاد يحسن فهم الأشياء، فيستهين بثقة الرسول صلى الله عليه وسلم به، وتؤثر فيه دعايات قريش، ويحجب عنه صغر السن عظمة النبي صلى الله عليه وسلم، فلا يلبث أن يفتن (٥) ويرتد إلى الشرك ويلقي بنفسه في أحضان قريش، ويقول في نزق: «كان عملي عليّ: عزيز حكيم، فأقول: أو علم حكيم، فيقول كل صواب» (٦)؛ فلا يبالي أن يفترى الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم مجاراةً لقريش فيما كانت تتخذ من الأساليب للقضاء على الإسلام. أما عبد الله الثاني، فجندي باسل وقائد ممتاز وإداري حازم،

(١) تهذيب الاسماء واللقب (٢٧٠/١) والنجوم الزاهرة (٨٣/١).

(٢) معالم الايمان (١١٢/١) والروض الآنف (٢٧٤/٢) والنجوم الزاهرة (٨٣/١) وتهذيب الاسماء واللقب (٢٧٠/١)، وانظر شذرات الذهب (٤٤/١) والاستيعاب (٩٢٠/٣) وأسد الغابة (١٧٤/٣) والاصابة (٧٧/٤) والسيرة الحلبية (٣٦٤/٣) وابن الأثير (١١٤/٣) ورياض النفوس (٤٥/١).

(٣) تهذيب ابن عساكر (٤٣٤/٧) وانظر النجوم الزاهرة (٨٣/١).

(٤) معالم الايمان (١١٢/١).

(٥) طبقات ابن سعد (٤٩٦/٧).

(٦) أسد الغابة (١٧٣/٣) وتهذيب ابن عساكر (٤٣٣/٧) والسيرة الحلبية (٣٦٤/٣).

والمعارف ص (٣٩٠).

وهو فوق ذلك وثيق الإيمان كامل الشعور بجلال الإسلام وتبعاته^(١) ،
 حسن إسلامه ولم يظهر منه شيء ينكر عليه بعد ذلك^(٢) وحسن حاله^(٣) :
 بأمر بقراءة القرآن ويأمر بالصبر في المعارك^(٤) ، ويعتزل الفتنة الكبرى
 ورعاً ؛ وهو أحد العقلاء النجباء من قريش وفارس بني عامر بن لؤي والمقدم
 فيهم^(٥) . ولما ولي مصر أحسن السيرة في الرعية وكان جواداً كريماً^(٦) ،
 وكان محموداً في ولايته^(٧) ، له مواقف محمودة في الفتوح^(٨) ؛ وقد
 أخطأ بعض المؤرخين في الحكم عليه لأنهم أخذوه بجريرة فعلته الأولى ،
 وهي ارتداده عن الإسلام ، فأنكروا عليه كثيراً من فضله ومزاياه قائلاً
 وإدارياً وإنساناً .

والحق ، أن عبد الله بن سعد ، قد عانى كثيراً من نكران فضله في حياته
 وبعد موته على حد سواء ، وكان لتولي مصر أثر كبير في بعث كوامن الحسد
 ضده في نفوس منافسيه وضد عثمان بن عفان أخيه بالرضاعة لأنه ولّاه مصر .

كان عبد الله على (صعيد) مصر ، فقدم عمرو بن العاص على عثمان وسأله
 عزل ابن أبي سرح عن (الصعيد) ، فامتنع عثمان عن ذلك وعزل عمرو
 ابن العاص عن مصر وعقد لعبد الله بن سعد على مصر كلها مضافاً للصعيد
 وغيره^(٩) ؛ إذ وفد عمرو إلى عثمان بعد استخلافه وكلمه في عزل عبد

(١) فتح العرب المغرب ص (٧٨) .

(٢) الاستيعاب (٩١٨/٣) وأسد الغابة (١٧٢/٣) .

(٣) جبهة أنساب العرب ص (١٧٠) .

(٤) الطبري (٣٤١/٣) .

(٥) معالم الإيمان (١١١/١) والاستيعاب (٩١٨/٣) وأسد الغابة (١٧٢/٣) وتهذيب ابن

صاكر (٤٣٢/٧) ورياض النفوس (٤٤/١) .

(٦) النجوم الزاهرة (٧٩/١) .

(٧) الاصابة (٧٧/٤) .

(٨) النجوم الزاهرة (٨٣/١) والاصابة (٧٧/٤) .

(٩) النجوم الزاهرة (٦٦/١) .

الله عن (الصعيد) ، فقال عثمان : «ولاه عمر بن الخطاب الصعيد وليس بينه وبينه حرمة ولا خاصة ، وقد علمت أنه أخي في الرضاة ، فكيف أعزله عما ولاه غيره ؟! » ؛ فغضب عمرو وقال : «لست راجعاً الى عملي ذلك ! » ، فكتب عثمان الى عبد الله بن سعد يومئذ على مصر كلها ، فجاءه الكتاب بـ (القيوم) (١) بتوليته خلفاً لعمرو بن العاص (٢) .

وفي رواية أخرى ، أن عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص عن خراج مصر واستعمل عليه عبد الله بن سعد ، فاختلفا ؛ فكتب عبد الله الى عثمان : «إن عمرأ كسر عليّ الخراج » ، وكتب عمرو الى عثمان : «إن عبد الله قد كسر عليّ مكيدة الحرب » ، فعزل عثمان عمرأ واستقدمه واستعمل بدله عبد الله على حرب مصر وخراجها (٣) ؛ وكتب اليه يعلمه أن الاسكندرية فتحت مرة عنوة وانتقضت مرتين ، وبأمره أن يلزموا رابطة لا تفارقها وأن يدرّ عليهم الأرزاق ويعقب بينهم في كل ستة أشهر (٤) .

وفي رواية ثالثة ، أن الإسكندرية انتقضت فافتتحها عمرو بن العاص وقتل المقاتلة وسبي النرية ، فأمر عثمان برد السبي الذين سبوا من القرى الى مواضعهم للعهد الذي كان لهم ، ولم يصح عنده نقضهم ، وعزل عمرو ابن العاص وولى عبد الله مكانه على مصر (٥) .

ومهما يكن من شيء ، فقد ثار الخلاف بين عمرو بن العاص وبين عبد الله بن سعد ، فأراد عثمان أن يحسم هذا الخلاف ويولي عبد الله مصر ويعزل

(١) القيوم : ولاية غربية بينها وبين القسطنطينية أياممفازة لا ماء بها ولا مرعى مسيرة يومين . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٤١٤/٦) .

(٢) فتح مصر والمغرب ص (٢٢٣) ، وانظر التجوم الزاهرة (٧٩/١) .

(٣) الطبري (٣١٤/٣ - ٣١٥) وابن الأثير (٣٣/٣) وابن خلدون (١٢٨/٢) ملحق والبلاذري ص (٢٢٤) .

(٤) البلاذري ص (٢٢٤) وفتح مصر والمغرب ص (٢٥٨ - ٢٥٩) .

(٥) الاستيعاب (٩١٩/٣) وانظر البدء والتاريخ (١٩٧/٥ - ١٩٨) .

عنها عمراً ، لأن السيطرة على عبد الله أسهل بكثير من السيطرة على عمرو ، كما أن عبد الله له مزايا توهله لتسم هذا المنصب الرفيع ، بالإضافة إلى أنه أخو عثمان بالرضاعة ، وأنه مخلص غاية الاخلاص لعثمان : لا ينسى يده عليه حين استأمن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا ينسى عثمان لعبد الله يده عليه حين أشار على عبد الرحمن بن عوف أن يبايع عثمان قائلاً : « إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان » (١) .

ولست أشك أن عبد الله كان كفواً كل الكفاية لمنصبه قائداً وإدارياً ، وأن من حق عثمان أن يولي الأكفاء الذين يثق باخلاصهم له ويستطيع السيطرة عليهم بيسر وسهولة ، ولكن عزل عثمان لعمر بن العاص عن مصر ، جعل عمراً يطعن على عثمان وعلى عبد الله بن سعد ، ويؤلب على عثمان ويسعى في إفساد أمره ؛ فلما بلغه قتل عثمان - وكان معزلاً بفلسطين قال : « إني إذا نكأت قرحة أدميتها » (٢) .

ولم يحاول عمرو أن يكتم نغمته على عثمان وعامله على مصر عبد الله بن سعد حتى على عثمان نفسه ، فقد قال عثمان لعمر : « كيف تركت عبد الله بن سعد ؟ » ، قال : « كما أحببت ! » ، فقال : « وما ذاك ؟ » ، فقال : « قوي في ذات نفسه ، ضعيف في ذات الله » ، فقال : « لقد أمرته أن ينبع أثرك » ، فقال : « لقد كلفته شططاً » (٣) .

وجي عمرو خراج مصر وجزيئها ألفي ألف ، وجباها عبد الله بن سعد أربعة آلاف ألف ، فقال عثمان لعمر : « إن اللقاح بمصر درت بعدك ألبانها » ، فقال : « ذاك لأنكم أعجفتم أولادها » (٤) .

(١) ابن الأثير (٢٧/٣) .

(٢) الاستيعاب (٩١٩/٣) وأسد الغابة (١٧٤/٣) .

(٣) البهقي (١٤٢/٢) .

(٤) البلاذري ص (٢١٧) .

ولم يكن عمرو بن العاص وحده ناقصاً على عثمان وعلى عماله ومنهم عبد الله بن سعد ، بل كان كثير من الذين يطعمون بمنصب عبد الله بن سعد يتقنون عليه - حتى في أخرج الظروف والمواقف لم ينسوا هذه النعمة عليه ؛ فقد أقام عبد الله أياماً بذات الصواري ، فكان أول ما تكلم به محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر في أمر عثمان في هذه الغزوة ، إذ أظهروا عيبه وما غيرَ وما خالف به أبا بكر وعمر ، يقولان : « استعمل عبد الله بن سعد رجلاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أباح دمه ونزل القرآن بكفره ... ونزع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستعمل سعيد بن العاص وابن عامر » ، فبلغ ذلك عبد الله بن سعد فقال : « لا تركبا معنا » ، فركبا في مركب ما فيه أحد من المسلمين ؛ ولقوا العدو وكانا أنكل المسلمين قتالاً ، فقبل لهما في ذلك ، فقالا : « كيف تقاتل مع عبد الله بن سعد ؟ استعمله عثمان ، وعثمان فعل كذا وكذا » ، فأرسل اليهما عبد الله ينهما أشد النهي ، وقال : « والله لولا أناي لأدري ما يوافق أمير المؤمنين ، لعاقبتكما وحسبتكما »^(١) ؛ وفعلاً ثار محمد بن أبي حذيفة بن عتبة وسرب المصريين الى عثمان فحصره^(٢) مُتَهِزاً فرصة استدعاء عبد الله الى المدينة المنورة لمواجهة عثمان ، كما شهد محمد بن أبي بكر قتل عثمان^(٣) ، فقال عبد الله بن سعد معلقاً على تأمر محمد بن أبي حذيفة : « أبعد الله محمد بن أبي حذيفة ! بنى على ابن عمه وسعى عليه ، وقد كان كفله ورباه وأحسن إليه ، فأساء جواره ووثب على عماله ، وجهز الرجال اليه حتى قتل ؛ ثم ولي عليه من هو أبعد منه ومن عثمان ، ولم يمتعه بسلطان بلاده حولاً ولا شهراً ، ولم يره بذلك أهلاً »^(٤) ، يقصد عدم إقراره من علي بن أبي طالب على مصر

(١) الطبري (٣٤١/٣ - ٣٤٢) وابن الأثير (٤٥/٣) .

(٢) تهذيب ابن عساكر (٤٣٣/٧) .

(٣) ابن الأثير (٦٩/٣) والطبري (٣٩٢/٣) .

(٤) تهذيب ابن عساكر (٤٣٣/٧) .

بعد توليه الخلافة .

ولعلّ عبد الله بن سعد استأثر بقسط وافر من شغب عبد الله بن سبأ الذي كان يهودياً فأظهر الإسلام وطاف بلاد المسلمين ليلفتهم عن طاعة الأئمة ويلقي بينهم الشر^(١) ، واستقر بمصر في أيام عمرو بن العاص فحرّض الناس على الاستعفاء منه وسألوا تولية عبد الله بن سعد فأشركه عثمان مع عمرو وجعله على الخراج وولى عمرأ على الحرب ولم يعزله ، ثم دخل بينهما حتى كتب كل واحد منهما الى عثمان بالذي بلغه عن صاحبه ، فلما عُرِّل عمرو عن مصر وجه ابن سبأ همّة للشغب على عبد الله بن سعد^(٢) .

ولكن ، هل كان عبد الله وحده موضع نقمة منافسيه على الحكم ومنافسي عثمان بن عفان ونقمة ذوي الميول الهدامة الذين كانوا يعملون بوحى عبد الله بن سبأ ؟ إن عثمان وعماله جميعاً كانوا موضع تلك النقمة ، فبعث عثمان رجالاً يتق بهم^(٣) الى الأمصار فرجعوا بأخبار عماله ولم ينكروا شيئاً على عماله ؛ فبعث الى عمال الأمصار ليقدموا عليه في موسم الحج : عبد الله بن عامر وعبد الله بن سعد ومعاوية بن أبي سفيان ، وأدخل معهم سعيد بن العاص وعمرو بن العاص^(٤) ، فقال : « ما هذه الشكاية والاذاعة ؟ ! إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم ، وما يعصب هذا إلا بي ! » ، فقالوا : « ألم تبعث ؟ ! ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ؟ ! ألم يرجعوا ولم يشافهم أحد بشيء ؟ ! والله ما صدقوا ولا برّوا ، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً » ، ولا يحل الأخذ بهذه الإذاعة ، فقال عثمان : « أشيروا علي » ، فأبدى كل واحد منهم رأيه في كيفية معالجة هذا الشغب الظالم ، وكان رأي عبد الله : « اخذ من الناس الذي

(١) تهذيب ابن عساكر (١٢٨/٧) .

(٢) الطر الطائيل في تهذيب ابن عساكر (١٢٨/٧ - ١٣٠) .

(٣) هم : محمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وعمار بن ياسر وعبد الله بن عمر . الطر ابن الأثير

(٤) (٥٩/٣) والطبري (٣٧٩/٣) .

(٥) (٥٩/٣) والطبري (٣٨٠ - ٣٧٩/٣) وابن الأثير (٦٠/٣) .

عليهم ، إذ أعطيتهم الذي لهم » (١)

تُرى ، هل كان عمال عثمان لا يستحقّون مناصبهم ؟ أم أن الشغب عليهم كان أمراً مصنوعاً يلقى في السر فيتحدّث به الناس ، كما قال سعيد ابن العاص لعثمان ؟

لقد كان ينقص عثمان بن عفان رضي الله عنه شيء غير قليل من شدّة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسيطرته ، لذلك تجرّأ الناس عليه في أمور لم يكونوا يتجرّؤون في أمثالها على عمر ، وما أصدق عثمان حين قال : « ألا فقد والله عبني عليّ ما أقررت لابن الخطاب بمثله (٢) » ، فكان عبد الله من جملة ضحايا ابن عثمان وسماحته .

فقد كان الناقمون على عبد الله يرددون قصة ارتداده عن الإسلام حين كان في يافعا ، بينما عفا عن زلته هذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « الإسلام يجبّ ما قبله » ، فكان عبد الله بعد ذلك يجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) .

إن عبد الله لم يكن موضع ثقة عثمان فحسب ، بل كان موضع ثقة عمر ابن الخطاب أيضاً ، إذ ولّاه قيادة الميمنة في جيش عمرو بن العاص الذي فتح مصر (٤) ، وولاه (الصعيد) بعد فتح مصر (٥) ، وما أصعب أن يكون المرء موضع ثقة عمر فيؤليه قيادة الرجال وإدارة البلاد .

لقد حسن إسلام عبد الله ، وكان أميراً محموداً (٦) ، اختط بمصر داره اللاصقة بقصر الروم يقال لها : دار الحنيئة ، والدار التي يقال لها : دار

(١) ابن الأثير (٦٠/٢) والطبري (٢٨٠/٢) .

(٢) ابن الأثير (٥٨/٢) .

(٣) تهذيب ابن عساكر (١٢٢/٢) .

(٤) معالم الإيمان (١١١/١) والظر رهاص اللوس (١٤/١) .

(٥) النجوم الزاهرة (٧٩/١) .

(٦) فتح مصر والمغرب (١٥٤) .

الموز ، وبني قصرأ كبيراً يعرف بقصر الجين في أيام عثمان ، وقد أمر بينائه حين خرج الى المغرب لغزو إفريقية^(١) . وحين عاد من إفريقية قال عبد الله للمقداد بن الأسود الكندي : « كيف ترى بنيان هذه الدار ؟ » ، فقال له المقداد : « إن كنت بنيتها من مالك فقد أسرفت ، وإن كنت بنيتها من مال الله فقد أفسدت » ، فقال عبد الله : « لولا أن يقول قائل : أفسد مرتين لهدمتها »^(٢) ، وهذا دليل على أنه يتذكر إذا ذكر ، وأن شعوره الديني مرهف لذلك يرضخ للحق ويعترف بالخطأ .

وقد نزل (السَّبْخَة) التي في شرقي (القَيْرَوَان)^(٣) ، ولذلك سمي المكان : باب عبد الله ، واختط هناك مسجداً يعرف به^(٤) .

وكان شاعراً ، قال في حصار عثمان^(٥) :

أرى الأمر لا يزداد إلا تفاقمًا
وأنصارنا بالمكنين قليل
وأسلمنا أهل المدينة ، والهوى
هوى أهل مصر ، والدليل ذليل
وله حديث واحد عن النبي صلى الله عليه وسلم^(٦) :

إن عبد الله كان والياً قديراً وفاتحاً عظيماً وموئناً خفياً ، وكانت له مزايا إنسانية عالية وأعمال مشرفة ، وكل قول يخالف ذلك لا يستند على مصادر التاريخ الصحيح .

(١) فتح مصر والمغرب ص (١٥٥) .

(٢) فتح مصر والمغرب وتهذيب (١٥٥) ابن عساكر (٤٣٣/٧) .

(٣) القيروان : مدينة عظيمة بإفريقية ، وهي مدينة صمرت بالاسلام في أيام معاوية بن أبي سفيان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٣/٧) .

(٤) معالم الايمان (١١١/١) ورياض النفوس (٤٤/١) .

(٥) الروض الآنف (٢٧٤/٢) وتهذيب ابن عساكر (٤٤٣٧) .

(٦) الاصابة (٧٧/٤) .

القائد :

كان عبد الله فارس بنى عامر بن لوئي^(١) ، وقد أثبت شجاعة فائقة في معاركه ، خاصة في معركة (ذات الصّواري) ، وكان قديراً على وضع الخطط العسكرية المناسبة . وكان يحرص على إنجاز استعداداته الضرورية قبل كل معركة يخوضها : ينجز تحشيد قواته ، ويكمل قضاياها الإدارية ، ويرسل العيون والأرصاد لتزويده بأنباء العدو المفصلة - كل ذلك بمعاضده على وضع خطة مثلى تؤمن له النصر المبين .

وكان يمتاز باستشارة ذوي الرأي من رجاله قبل المعركة وفي أثناءها ، ولا يأنف أبداً من الإنصياح للرأي الصائب بكل رحابة صدر ، بل كان يشجع كل من له رأي سليم على إظهاره ليطبّقه فوراً ، وتلك ميزة صاحب الشخصية الرصينة القوية التي لا تؤثر عليها تقولات الناس .

والظاهر من سير معاركه التي خاضها ، أنه كان يؤثر أن يكون في ساحات القتال (غازياً) على أن يكون في القصور (والياً) . فقد شهد فتح أرض الشام ومصر وفتوحات عمرو بن العاص كافة قبل أن يتولى هو مصر ، فلما أصبح والياً عليها بعد عمرو بن العاص ، أمضى سنتي ست وعشرين وسبع وعشرين في فتح إفريقية ، وأمضى سنة ثمان وعشرين في فتح (قبرس) ، وأمضى سنة إحدى وثلاثين في النوبة ، وأمضى سنة ثلاث وثلاثين في استعادة فتح إفريقية ، وأمضى سنة أربع وثلاثين في (ذات الصّواري) ، فلما عاد سنة خمس وثلاثين من (ذات الصّواري) وإفاه خبر من ثار على عثمان ، ف قضى أيامه الباقية في سفره الى الحجاز وفي مكوثه هناك للمعاونة عثمان على معالجة موقفه المتأزم ؛ أي أن عبد الله قضى سبع سنوات من مدة حكمه مصر غازياً وقضى ثلاث سنوات فقط بين أهله ، ولا بد أن هذه السنوات الثلاثة قضاهما هي الأخرى أو قضى أكثرها على أقل تقدير لإنجاز استعداداته

(١) تهذيب الاسماء واللغات (٢٧٠/١) .

للقتال ، إذ أن الاستعدادات لخوض معركة ما لا تقل أهمية عن خطة خوض المعركة ، وكل نقص في الاستعدادات يؤدي الى الفشل .

إن حرص عبد الله على قيادة رجاله بنفسه ، ورغبته في مشاركتهم بتحمل أعباء القتال ، وقضائه أكثر مدة حكمه بعيداً عن أهله وعن مأمته غزياً ، كل ذلك يدل على أنه طراز نادر من القادة الممتازين .

وكان قائداً (تعرضياً) يهتم كثيراً بتطبيق مبدأ (المباغثة) أهم مبادئ الحرب .

لقد كان قائداً ممتازاً حرياً بمنصبه القيادي ، وأعماله الباهرة في الفتح أدلة واضحة على أنه من أبرز قادة الفتح الإسلامي قابلية ومقدرة وكفاية ونضحية .

لقد كان عبد الله قائداً ممتازاً .

عبدالله في التاريخ :

يذكر التاريخ لابن سعد فتحه بلاد تونس الخضراء وشرقي الجزائر (إفريقية) وقبرس والنوبة ، ونشره الإسلام في ربوعها .

ويذكر له معاركه البحرية بالتقدير والإعجاب خاصة معركة (ذات الصواري) .

ويذكر له أنه قضى حياته كلها مجاهداً لإعلاء كلمة الله .

رضي الله عن الصحابي الجليل ، الإداري الحازم ، البطل الشجاع ، القوي الأمين ، القائد الفاتح ، عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري القرشي .

مَعَاوِيَةُ بْنُ حُذَيْجٍ السَّكُونِي

فَاتِحَ بَنْزَرَتِ^(١) وَنُؤَيْتِ^(٢) وَجَلُولَا^(٣)

نسبه وأيامه الأولى :

هو معاوية بن حُذَيْجٍ^(٤) بن جَفْنَةَ بن قنبرة^(٥) بن حارثة بن عبد شمس ابن معاوية بن جعفر بن أسامة بن سعد بن أشْرَسَ بن شبيب بن السَّكُونِ السَّكُونِي^(٦) ، يكنى : أبا نُعَيْمٍ^(٧) ، وقيل : أبا عبد الرحمن^(٨) .

قيل : إنه خولاني وليس بشيء ، والصحيح إنه سَكُونِي . أما قولهم :

(١) بنزرت : مدينة بإفريقية (تونس) بينها وبين مدينة تونس يومان ، وهي مشرفة على البحر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٩٢/٢) وتقوم البلدان (١٤٢ - ١٤٣) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٥٩) .

(٢) سوسة : مدينة يحيط بها البحر في جنوبي شرقي تونس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥ / ١٧٣) وتقوم البلدان (١٤٤) .

(٣) جلولا : مدينة مشهورة بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلا ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٢٩/٣) والمشتراك لوضعا (١٠٦) ، وهي الآن خراب يعرف مكانها بمين جلولا ، انظر الفتح العربي في ليبيا (٦٤) .

(٤) في أسد الغابة (٣٨٣/٤) : خديج .

(٥) في جمهرة أنساب العرب (٤٢٩) : قنبرة ، وكذلك في تهذيب التهذيب (٢٠٣/١٠) .

(٦) الاستيعاب (١٤١٣/٣) وأسد الغابة (٣٨٣/٤) وجمهرة أنساب العرب (٤٢٩)

والإصابة (١١١/٦) .

(٧) جمهرة أنساب العرب (٤٢٩) والإصابة (١١١/٦) وتهذيب التهذيب (٢٠٣/١٠)

ومعالم الايمان (١١٣/١) .

(٨) الاستيعاب (١٤١٤/٣) والإصابة (١١١/٦) .

إنه سكوني ، وقيل : تُجبي ، وقيل : كندي ، فمن يرى هذا يظنه متناقضاً ، ، والحقيقة : إن السكُون من كِنْدَة^(١) ، وولد السكون شيباً ، فولد شيب أشرس ، فولد أشرس عدياً وسعداً أمهما : تُجيب بها يُعرف أولادهما ، فكل تجبي سكوني ، وكل سكوني كندي^(٢) ؛ فمن نسبته إلى جدّه الأقرب قال : سكوني ؛ ومن نسبته إلى جدّه الأبعد قال : كندي ؛ وكلاهما صواب^(٣) .

وأمه هي كبشة بنت معدي كرب الشاعرة^(٤) .

صحب النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه^(٥) ، وقد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٦) ، وهاجر إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه^(٧) ووفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٨) .

والظاهر أنه كان صغيراً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يشهد غزواته . لذلك نال معاوية شرف الصحبة وما أعظمه من شرف ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد .

(١) السكون بن أشرس بن ثور وهو كندة . انظر اسد الغابة (٣٨٣/٤) .

(٢) أسد الغابة (٣٨٤/٤) ، وانظر جمهرة أنساب العرب (٤٢٩) .

(٣) معالم الإيمان (١١٣/١) .

(٤) الاعلام (١٧١/٨) .

(٥) طبقات ابن سعد (٥٠٣/٧) ورياض النفوس (١٧/١) والخلاصة النقية (٤) وجمهرة أنساب العرب (٤٢٩) والاستقصا (٦٨/١) . وفي تهذيب التهذيب (٢٠٣/١٠) : إنه مختلف في صحبته . والأول أصح لتواتره .

(٦) الإصابة (١١١/٦) وانظر الخلاصة النقية (٤) ومعالم الإيمان (١١٣/١) وتهذيب التهذيب (٢٠٣/١٠) .

(٧) تهذيب التهذيب (٢٠٣/١٠) .

(٨) الاستقصا (٦٨/١) والإصابة (١١١/٦) .

١ - في مصر والنوبة :

أ- شهد ابن حديج فتح مصر مع عمرو بن العاص ، وكان رسوله الى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه بفتح مصر والاسكندرية^(١) ؛ وقد ذكر معاوية ابن حديج قصة وفادته على عمر بن الخطاب بفتح الاسكندرية فقال : « بعثني عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب بفتح الاسكندرية ، فقدمت المدينة في الظهيرة ، فأنتخت بإحلي باب المسجد ، فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب ، فرأني شاحباً علي ثياب السفر ، فأتني وقالت : من أنت ؟ قلت : أنا معاوية بن حديج رسول عمرو بن العاص ... فانصرف عني ثم أقبلت تشتد أنسمع حفيف إزارها على ساقها حتى دنت مني ، فقالت : قم فأجب ! أمير المؤمنين يدعوك ... فتبعتها ، فلما دخلت فاذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه باحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى ، فقال : ما عندك ؟ قلت : خير يا أمير المؤمنين ، فتح الله الاسكندرية ... فخرج معي الى المسجد فقال للمؤذن : أذن في الناس : الصلاة جامعة ... فاجتمع الناس ، ثم قال لي : قم فاخبر أصحابك ، فقممت فأخبرتهم ؛ ثم صلي ودخل منزله واستقبل القبلة ، فدعا بدعوات ثم جلس ، فقال : يا جارية ! هل من طعام ؟ فأنت بخبز وزيت ، فقال : كل ! فأكلت على حياء . ثم قال : يا جارية ! هل من تمر ؟ فأنت بتمر في طبق ، فقال : كل ! فأكلت على حياء ؟ ثم قال : ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد ؟.. فقلت : قلت أمير المؤمنين قاتل^(٢) ! فقال : لبست ما قلت أو بشس ما

(١) الإصابة (١١١/٦) وفتح مصر والمغرب (١٣٧) والإستقصا (٦٨/١) والخلاصة النقية (٤) ومعالم الايمان (١١٣/١) وتهذيب التهذيب (٢٠٣/١٠) .
(٢) القاتلة : الظهيرة ، يقال : أتاناً عند القاتلة ، وقد يكون بمعنى (القيلولة) أيضاً وهي النوم في الظهيرة ، تقول : قال من باب باع وقيلولة أيضاً ومقيلاً فهو : قاتل ، وقوم كقولهم وقمّل أيضاً بالتشديد . والقيل : شرب نصف النهار ، يقال : قيله فتقمّل ، أي سقاه نصف النهار فشرّب .

ظننت ! لئن نمتُ النهار لأضيعن الرعية ، ولئن نمتُ الليل لأضيعن نفسي ، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ١٢. (١)

إن إيفاد معاوية بشيراً بالفتح ، دليل على ثقة عمرو به واعتماده عليه وأنه كان شخصية لامعة في جيش المسلمين الذي فتح مصر في جهاده وعقله ومنطقه وتصرفه . كما أنه دليل على أنه كان مقبولاً من عمر بن الخطاب ، إذ لا يمكن أن يبعثه عمرو دون أن يكون موضع ثقة عمر وتقديره .

ب - وفي سنة إحدى وثلاثين الهجرية شهد ابن حديج فتح (النوبة) (٢) تحت لواء عبد الله بن سعد بن أبي مروح ، فذهبت عينه يوم (دمقلة) (٣) من بلاد النوبة (٤) ، فأصبح أعور (٥) .

٢ - في الريقية :

غزا ابن حديج لإريقية ثلاث مرات : الأولى سنة أربع وثلاثين الهجرية في خلافة عثمان بن عفان (٦) ، حين كان عبد الله بن سعد بن أبي مروح والياً على مصر ، وكان معه جماعة من المهاجرين والأنصار ، ففتح مناطق شاسعة دغم غنائم عظيمة واتخذ قبرواناً عند (القرن) (٧) ، ولم يزل فيها حتى خرج إلى مصر (٨) .

(١) فتح مصر والمغرب (١١٩ - ١٢٠) .

(٢) النوبة : بلاد واسعة مريضة في جنوبي مصر . أول بلادهم بعد أسوان . انظر معجم البلدان (٣٢٣/٨) .

(٣) ديمقلة : مدينة كبيرة في بلاد النوبة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٢/٤) .

(٤) فتح مصر والمغرب . وانظر معالم الايمان (١١٥/١) وتلهيب التهذيب (٢٠٤/١٠) .

(٥) معالم الايمان (١١٥/١) .

(٦) معالم الايمان (١١٣/١) ورياض النفوس (١٨/١) وانظر فتح مصر والمغرب (٢٦١) .

(٧) القرن : موضع مدينة القيروان . انظر كتاب فتح العرب للمغرب (١٢٠) .

(٨) انظر تاريخ المغرب الكبير (٢٢/٢) .

وغزا معاوية إفريقية سنة إحدى وأربعين الهجرية^(١) ، ففتح مدينة
(بنزرت) ، وكان معه عبد الملك بن مروان^(٢) .

ولما سمع الروم بما أعطى البربر من أموال لعبد الله بن سعد بن أبي سرح
ولمعاوية بن حديج ، أجبروا البربر في إفريقية على أن يعطوهم مثل ذلك
فاعتذروا لأن ذلك ليس في طاقتهم ، ولأنهم كرهوا معاملة الروم واستعبادهم
وظلمهم لهم ؛ فوقع القتال بين خليفة (جرجير) ملك إفريقية وبين القائد
الرومي ، فهزم هذا القائد خليفة جرجير ففرّ إلى الشام واتصل هناك بمعاوية
ابن سفيان وزين له فتح إفريقية واصفاً له خيراتها وثرائها ، ودلّاه على
عورات الروم ؛ فبعث معاوية بن حديج لفتحها^(٣) فغزاها سنة خمس
وأربعين الهجرية^(٤) .

فقد وجهه معاوية بن أبي سفيان في جيش كثيف تعدده عشرة آلاف
رجل^(٥) ، معهم عبدالله بن عمر بن الخطاب وجماعة من الصحابة والتابعين
من بينهم عبد الملك بن مروان^(٦) .

ومضى معاوية حتى وصل إلى (إفريقية) وكانت تضطرم نارا^(٧) ،
فزل يبيشه على (قمونية)^(٨) وهي قيروان إفريقية^(٩) ، وكان عامل

(١) معالم الإيمان (١١٤/١) . أما في فروع مصر والمغرب (٢٦١) فيذكر أنه غزاها سنة
أربعين . والأول أصح لأن معاوية استقر ملكه سنة إحدى وأربعين هجرية .

(٢) معجم البلدان (٢٩٣/٢) .

(٣) تاريخ المغرب الكبير (٢٢/٢) .

(٤) رياض النفوس (١٧/١) والبيان المغرب (١٧/١) والاستقصا (٦٩/١) والخلاصة
الثقة (٤) .

(٥) الاستقصا (٦٩/١) والخلاصة الثقة (٤) .

(٦) رياض النفوس (١٧/١ - ١٨) .

(٧) ابن الأثير (٣٥/٢) والبيان المغرب (١٧/١) وابن خلدون (١٢٩/٢ الملحق) .

(٨) قونية : مدينة بإفريقية كانت موضع القيروان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٦٢) .

(٩) رياض النفوس (١٨/١) .

(جرجير) وهو ملك (سَبْطَلَة)^(١) على رأس ثلاثين ألف مقاتل كان القيصر قد وجَّههم من القسطنطينية في البحر للدفاع عن العرب المسلمين عن إفريقية ، فلم تغن قوات الروم شيئاً ، إذ قاتلهم معاوية فهزمهم عند حصن (الأجم)^(٢) ، ثم بثّ السرابا في البلاد وبعث عبدالله بن الزبير الى (سوسة) ففتحها^(٣) .

وبعث رُوَيْفِع بن ثابت الأنصاري بجراً الى (جربة)^(٤) ففتحها ثم عاد أدراجه الى طرابلس الغرب التي كان أميراً عليها^(٥) .

وبعث عبد الملك بن مروان الى (جَلُولَاء) ففتحها^(٦) .

واستقر معاوية في جبل (القَرْن)^(٧) وجعله مقراً له ، فبقي هناك ثلاث سنين^(٨) ، فبنى بناحية القرن مساكن سماها : (قيروان)^(٩) ، واحتفر بها آباراً تسمى : آبار حديد ، وهذه الآبار خارج باب تونس منحرفة عنه الى الشرق عند مصلى الجنائز^(١٠) .

-
- (١) سبيلة : مدينة تبعد عن القيروان سبعون ميلاً وعن قفصة مرحلة واحدة ، وكانت عاصمة إفريقية في القديم . انظر تقويم البلدان (١٤٠) ومعجم البلدان (٣٣/٥) .
- (٢) الأجم : الأجم - المعجم - الأصنام ، كانت معروفة أيام البيزنطيين باسم (Thysderas) وكانت مركزاً حربيّاً هاماً طول حكمهم . انظر فتح العرب للمغرب (٨٣) .
- (٣) الاستقصا (٦٩/١) وانظر ابن الاثير (٢٥/٣) وابن خلدون (١٢٩/٢ - ١٣٠ الملحق) .
- (٤) جربة : جزيرة في تونس قرب قابس كان يسكنها البربر . انظر معجم البلدان (٧٣/٣ - ٧٤) .
- (٥) انظر ترجمة دويغ بن ثابت الأنصاري في الجزء الثاني من هذا الكتاب . وانظر تاريخ المغرب الكبير (٢٢/٢) وفتح العرب للمغرب (١٢٦) ومعجم البلدان (٧٣/٣ - ٧٤) والاصابة (٢١٤/٢) والعب (٥٤/١) وشدرات الذهب (٥٥/١) .
- (٦) البيان المغرب (١٠) والاستقصا (٦٩/١) وابن خلدون (١٣٠/٢ الملحق) وسترده ترجمة عبد الملك بن مروان في الجزء الثاني من هذا الكتاب .
- (٧) القرن : جبل بإفريقية . انظر معجم البلدان (٦٦/٧) ، وهو الجبل المعروف اليوم بجبل (وولات) . انظر تاريخ المغرب الكبير (٢٥) .
- (٨) معالم الايمان . (١١٤/١) .
- (٩) رياض النفوس (١٩/١) والخلاصة النقية (٥)
- (١٠) معالم الايمان (١١٣/١ - ١١٤) .

إنه غزا إفريقية مراراً كثيرة كان آخرها سنة خمسين الهجرية^(١) ، ولكن المؤرخين اقتصروا على ذكر ثلاث غزوات منها ، وهي أهم غزواته على ما يظهر .

وعاد معاوية بعد ذلك الى مصر بعد أن خلد آثاراً حسنة في إفريقية^(٢) ، وهو الذي بعث عقبة بن نافع سنة خمسين الهجرية لغزو إفريقية^(٣) .

٣ - في البحر :

أ - كان معاوية أول من غزا جزيرة (صقلية)^(٤) ، إذ بعث اليها عبدالله بن قيس^(٥) فأصاب أصناماً من ذهب وفضة مكللة بيوهر^(٦) ، وقد وجه معاوية جيشه هذا في مائتي مركب^(٧) ، وكان ذلك سنة ست وثلاثين الهجرية^(٨) .

(١) تهذيب التهذيب (٢٠٤/١٠) والاصابة (١١١/٦) .

(٢) الاستقصا (٦٩/١) والخلاصة النقية (٥) .

(٣) البلاذري (٢٣٧) .

(٤) صقلية : من جزائر البحر الأبيض المتوسط . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٢/٥) .

(٥) سترد قصة حياته في كتاب قادة فتح الافدلس والبحار .

(٦) البيان المغرب (١٩/١) .

(٧) الاستقصا (٦٩/١) والخلاصة النقية (٥) .

(٨) البيان المغرب (١٢/١) . وفي كتاب : فتح العرب للمغرب (١٢٥) : يذكر بعض المؤرخين غزوة بعث معاوية في ذلك الحين الى صقلية ويعملون ذلك قبل فتح بنزرت ، وواضح أنهم أخطأوا فوصفوا هنا حملة معاوية بن حديج التي بعث عليها معاوية سنة (٢٧) أو (٢٨) في خلافة عثمان ، ففزا رودس ثم صقلية ... انتهى .

اقول : إن البلاذري في (٢٣٧) يذكر : غزا معاوية بن حديج الكندي أيام معاوية بن أبي سفيان صقلية ، وكان أول من غزاها ولم تزل تغزى بعد ذلك . ثم يذكر : سبي عداقه بن قيس بن غلد صقلية فأصاب أصنام ذهب انتهى . وما ذكرناه أعلاه يظهر أن ابن حديج لم يغز هو صقلية بل بعث عبدالله بن قيس إليها ، وأن هذه الغزوة كانت (غارة) ولم تكن (فتحة) . وقد ورد نص واضح حول ذلك في البيان المغرب (١٠) : أغزى معاوية جيشاً في البحر الى صقلية في مائتي مركب ، فسبوا وغنموا وأقاموا شهراً ثم انصرفوا ... انتهى . كما أن غزوة معاوية سنة ٢٧ أو ٢٨ ، كانت لجزيرة قبرس لا لصقلية أو رودس .

ب - وفي سنة تسع وأربعين الهجرية وجّه معاوية عقبة بن نافع الفهري في البحر لغزو الروم بأهل مصر^(١).

الإنسان :

كان معاوية صحابياً صحب النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه^(٢) أربعة أحاديث^(٣) منها ما رواه : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : غلوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها»^(٤). وهاجر الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه^(٥) ووفد على عمر الفاروق رضي الله عنه بفتح الإسكندرية^(٦) ، وكان عثمانياً^(٧).

وكان معاوية بمصر حين غلب عليها محمد بن أبي حذيفة بعد أن خرج عنها أميرها عبدالله بن سعد بن أبي سرح الى عثمان بن عفان^(٨).

وبقي معاوية موالياً لعثمان بن عفان لا يشارك المصريين الذين غادروا مصر الى المدينة لمحاصرة عثمان ، فاعتزل محمد بن أبي حذيفة وبارزه^(٩) وناصبه العداء السافر حرصاً على الوحدة وإطاعة للخليفة القائم ، وبقي معاوية صامداً على ولائه لعثمان لا يخشى ابن أبي حذيفة التأثير على الخليفة

-
- (١) البيان المغرب في أخبار المغرب (١٣/١) و (١٩/٢) .
 - (٢) طبقات ابن سعد (٥٠٣/٧) وانظر البداية والنهاية (٦١/٨) ورياض النفوس (١٧/١) وتهذيب التهذيب (٢٠٣/١٠ - ٢٠٤) ودول الاسلام (٢٧/١) والإسقصا (٦٨/١) والخلاصة النقية (٤) ومعالم الايمان (١١٣/١) وجمهرة أنساب العرب (٤٢٩) وتهذيب الاسماء واللقاب (١٠٢/٢) .
 - (٣) اساء الصحابة الرواة - ملحق بمجموع السيرة لابن حزم - (٢٩١) .
 - (٤) أسد الغابة (٣٨٤/٤) والاصابة (١١١/٦) ومعالم الإيمان (١١٥/١) .
 - (٥) تهذيب التهذيب (٢٠٣/١٠) .
 - (٦) البداية والنهاية (٦١/٨) وانظر طبقات ابن سعد (٥٠٣/٨) .
 - (٧) تهذيب التهذيب (٢٠٤/١٠) والبيان المغرب (١٨/١) وطبقات ابن سعد (٥٠٣/٧) .
 - (٨) ابن الأثير (٦٢/٣) .
 - (٩) الولاة والقضاة (١٥) .

عثمان والذين شايعوه من أهل مصر^(١).

وعاد عبدالله بن سعد أدراجه الى مصر ليحول دون الفتنة ، ولكن محمد بن أبي حذيفة وأصحابه منعوه من دخولها ، فعاد الى فلسطين وبقي هناك حتى قتل عثمان^(٢) ، فسجن الثائرون معاوية في داره^(٣) ، خوفاً من سطوته ورجولته .

وفي رواية ، أن عبدالله بن سعد بن أبي سرح بعث معاوية بن حديج الى المدينة لنجدة عثمان^(٤) ، ولكن عثمان قتل قبل أن يدركه معاوية أو تدركه جيوش الأمصار^(٥) ، فعاد معاوية من حيث أتى .

وبعث محمد بن أبي حذيفة الى معاوية وهو أرمد ليكرمه على البيعة ، ولكن أحد أصدقائه^(٦) دفع عن معاوية ما كره ، فبايع معاوية شيعة عثمان وعقدوا له عليهم ، فكان أول من بايع على الطلب بدم عثمان ؛ فسار برجاله الى (الصعيد) من أرض مصر^(٧) .

ومضى معاوية حتى بلغ (برقة) ثم رجع الى الإسكندرية^(٨) ، واستقر به المطاف في (خربة) ^(٩) ومعه أصحابه وبعض رجالات العرب^(١٠).

وتولى قيس بن سعد الأنصاري مصر لعلي بن أبي طالب ، وكان صاحب راية الأنصار مع النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة ، وكان من ذوي

(١) الولاة والقضاة (١٧) .

(٢) ابن الأثير (٦٢/٣) والولاة والقضاة (١٧) .

(٣) الولاة والقضاة (١٨) .

(٤) الطبري (٣٨٨/٣) وابن الأثير (٦٢/٣) .

(٥) ابن الأثير (٦٦/٣) والطبري (٤٠٢/٣) .

(٦) هو كنانة بن بشر . انظر الولاة والقضاة (١٨) .

(٧) الولاة والقضاة (١٨) .

(٨) الولاة والقضاة (١٩) .

(٩) خربة : من كور مصر حوالي الاسكندرية . انظر معجم البلدان (٤١٤/٣) .

(١٠) للولاة والقضاة (٢١) .

الرأي والبأس^(١) ، فبعث قيس الى أهل (خربتا) : «إني لا أكرهكم على البيعة ، وإني كافٌ عنكم » ، فهادنهم وجبى الخراج ليس أحد ينازعه^(٢) .

وكان قيس بن سعد من أثقل الناس على معاوية بن أبي سفيان لقربه من الشام مخافة أن يُقبل اليه عليٌّ في أهل العراق وقيس في أهل مصر فيقع معاوية بينهما^(٣) ، كما كان قيس من ذوي الرأي الدهاء ، فكان معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص جاهدین أن يخرجاه من مصر ، وكان قد امتنع منهما بالدهاء والمكيدة ، فلم يقدرا أن يدخلوا مصر حتى كاد معاوية بن أبي سفيان قيساً من قيس علي بن أبي طالب ، فكان معاوية بن أبي سفيان يحدث رجالاً من ذوي الرأي من قريش فيقول : « ما ابتدعت من مكيدة قط أعجب إليّ من مكيدة كدت بها قيس بن سعد . حين امتنع مني قيس قلت لأهل الشام : لا تستبوا قيساً ولا تدعوا الى غزوه ، فإن قيساً لنا شيعه : تأتينا بكتبه ونصيحته ، ألا ترون ماذا يفعل بإخوانكم النازلين عنده : (خربتا) ، يُجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ويؤمن سربهم^(٤) ويحسن الى كل راتب^(٥) يأتيه منهم ! » قال معاوية : وطفقت أكتب بذلك الى شيعتي من أهل العراق ، فسمع بذلك جواسيس (علي) بالعراق ، فأنهاه الى محمد بن أبي بكر وعبدالله بن جعفر ، فأنهم (علي) قيساً ، فبعث اليه بأمره بقتال أهل (خربتا) وبخربتا يومئذ عشرة آلاف ، فأبى

(١) ابن الأثير (١٠٦/٣) .

(٢) ابن الأثير (١٠٧/٣) والطبري (٥٥١/٣) .

(٣) الطبري (٥٥١/٣) .

(٤) سرب : السارب ، الذاهب كل وجهه في الأرض ، ومنه قوله تعالى : (وسارب بالنهار) أي ظاهر ، وبابه دخل . والسرب بالكسر : النفس ، يقال : فلان آمن سربه ، أي في نفسه ، وهو أيضاً القطيع من الغنم والظباء والوحش والخيل والحمير والنساء . والسرب : بفتحين ، بيت في الأرض . والسرب الحيوان وتسرب ، دخل في بيته ، ومنه قوله تعالى : (فاتخذ سبيله في البحر سرباً) .

(٥) راتب : دائم ، ثابت . وأمر راتب ، أي دائم ثابت .

قيس أن يقاتلهم وكتب الى علي : إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ ، وقد رضوا مني بأن أؤمن سربهم وأجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، وقد علمت أن هواهم مع معاوية ، فليست مكايدهم بأمر أهون من الذي أفعل بهم ، وهم أسود العرب منهم بؤسر بن أبي أرطاة ومسلىة بن مخلد ومعاوية بن حديج ، فأبى عليه إلا قتالهم ، فأبى قيس أن يقاتلهم وكتب الى علي : إن كنت تتهمني فاعزلي وابتع غيري» (١).

وعزل علي بن أبي طالب رضي الله عنه قيساً وولى مكانه محمد بن أبي بكر الصديق مصر ، فلقني قيس محمد بن أبي بكر فقال له فيما قال : «..... دع معاوية بن حديج ومسلىة بن مخلد وبؤسر بن أبي أرطاة ومن ضوى اليهم على ما هم عليه تكشفهم عن رأيهم ، فإن أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم ، وإن تخلفوا فلا تطلبهم...» ، فعمل محمد بخلاف ما أوصاه قيس ، فكتب الى ابن حديج والخارجة معه يدعوهم الى بيعته ، فلم يجيبوه ، فبعث رجالاً هدموا دور الخارجة ونهبوا أموالهم وسجنوا ذرارهم ، فبلغهم ذلك ، فنصبوا له الحرب وهمتوا بالنهوض إليه ، فلما علم أنه لا قوة له بهم أمسك عنهم (٢).

وبعد معركة (صيفين) بين علي ومعاوية ، كتب معاوية الى مسلمة ابن مخلد ومعاوية بن حديج يحثها على الطلب بدم عثمان ويعدهما المواساة في سلطانه ، فلما وقفا على كتاب معاوية أجاب مسلمة بن مخلد عن نفسه وعن ابن حديج : «أما بعد : فإن الأمر الذي بذلنا له أنفسنا واتبعنا به أمر الله أمر نرجو به ثواب ربنا والنصر على من خالفنا وتعجيل النعمة

(١) الولاة والقضاة (٢١) وانظر الطبري (٢/٥٥١-٥٥٥) وابن الأثير (٣/١٠٧-١٠٨) حول مكايذة معاوية بن أبي سفيان لعل بن أبي طالب لتشكيكه باخلاص قيس بن سعد بن عباد له .

(٢) الولاة والقضاة (٢٧) .

على من سعى على إمامتنا . وأما ما ذكرت من المواساة في سلطانك ، فتالله أن ذلك أمر ماله نهضنا ولا إياه أردنا ، فعجل إلينا بنحملك ورجلك ، فإن عدونا قد أصبحوا لنا هائنين ، فإن يأتنا مدد يفتح الله عليك ، والسلام ، فأمر معاوية عمرو بن العاص أن يتجهز إلى مصر ، وبعث معه ستة آلاف رجل^(١) .

وكان علي ومعاوية حين أجمعا على الحكمين ، أغفل علي أن يشترط على معاوية ألا يقاتل أهل مصر^(٢) ، فسار عمرو بن العاص حتى نزل أداني أرض مصر ، فاجتمعت إليه العثمانية^(٣) ، وكان ابن حديج على الخارجة^(٤) من أهل مصر ، فأحاطوا بأصحاب محمد بن أبي بكر^(٥) واقتلوا قتالا شديداً ، فانهزم أهل مصر ، فدخل عمرو بأهل الشام القسطنطينية^(٦) .

وخرج معاوية بن حديج في طلب محمد بن أبي بكر حتى قتله^(٧) ، فلما رأته نائلة امرأة عثمان قبّلت رجله وقالت : « أدركت نأري من ابن الخثعمية » تعني محمد بن أي بكر^(٨) .

وفي سنة سبع وأربعين الهجرية ، ولأه معاوية بن أبي سفيان مصر بعد عبدالله بن عمرو بن العاص ، فمرّ به عبدالرحمن بن أبي بكر ، فقال له : « يا معاوية ! قد أخذت جزاءك من معاوية ؟؟ .. قد قتلت أخي محمد بن أبي بكر لتلي مصر ، فقد وليتها » ، فقال : « ما قتلت محمداً

(١) ابن الأثير (١٤٣/٣) .

(٢) الولاة والقضاة (٢٨) .

(٣) ابن الأثير (١٤٣/٣) .

(٤) الولاة والقضاة (٢٩) .

(٥) ابن الأثير (١٤٣/٣) .

(٦) الولاة والقضاة (٢٨) .

(٧) البيان المغرب (١٨/١) وابن الأثير (١٤٤/٣) وأسد الغابة (٣٨٤/٤) والاستيعاب (١٤١٤/٣) .

(٨) الولاة والقضاة (٣٠) وكان محمد بن أبي بكر من قتلته عثمان .

إلا بما صنع بعثمان ، فقال عبدالرحمن : « فلو كنت إنما تطلب بدم عثمان ما شاركت معاوية فيما صنع ، حيث عمل عمرو (يقصد عمرو بن العاص) بالأشعري (يقصد أبا موسى الأشعري) ما عمل ، فوثبت أول الناس فبايعته ^(١) » .

وفي سنة خمسين الهجرة عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج عن إفريقية وأقره على ولاية مصر ، ووجهه الى إفريقية عقبة بن نافع الفهري ^(٢) ثم عزله عن مصر سنة إحدى وخمسين الهجرة ^(٣) ، فمات بها سنة اثنتين وخمسين الهجرة ^(٤) (٦٧٢ م) .

كان معاوية بن حديج من الثقة ^(٥) يُعَدّ من أهل مصر وحديثه عندهم ^(٦) ، وكان محله بمصر عظيماً ^(٧) ، عاقلاً حازماً واسع العلم مقداماً ^(٨) .

لقد اجتهد أن يكون بعيداً عن الفتن ، فقاوم أهل مصر الذين أرادوا سوءاً بعثمان ، فلما قُتِل عثمان مظلوماً ، بقي معاوية مُصِيراً على المطالبة بدمه ، فكان عثمانياً في أيام علي ببلاد مصر ^(٩) .

(١) ابن الأثير (١٨١/٣) والبيان المغرب (٤٧/١) ، وفي البيان المغرب (١٨/١) : إنه تولى مصر لمعاوية سنة ثمان وأربعين الهجرة .

(٢) البيان المغرب (١٩/١) .

(٣) الخلاصة النقية (٤) .

(٤) الإصابة (١١١/٦) والبدایة والنهاية (٦١/٨) وشذرات الذهب (٥٨/١) والعبّر (٥٧/١) وتهذيب التهذيب (٢٠٤/١٠) ودول الاسلام (٢٧/١) وفي الإصابة (١١١/٦) إنه ولي مصر ليزيد بن معاوية وقد نقل ذلك الزركلي في الاعلام (١٧١/٨) ، وهذا خطأ ، لأن يزيد تولى الخلافة سنة ستين الهجرة . انظر البدایة والنهاية (١١٥/٨) وابن الأثير (٢/٤) والعبّر (٦٤/١) وشذرات الذهب (٦٥/١) .

(٥) البدایة والنهاية (٦١/٨) .

(٦) اسد الغابة (٣٨٤/٤) والاستيعاب (١٤١٤/٣) .

(٧) اسد الغابة (٣٨٤/٤) .

(٨) الاعلام (١٧١/٨) .

(٩) البدایة والنهاية (٦١/٨) .

وأرى أنه كان مخلصاً لعثمان الخليفة القائم ، وبقي مخلصاً له حتى بعد قتله ، ولم يكن في موقفه هذا طالباً دنيا ولا راجياً حزاء ، كما تدل على ذلك مواقفه التي ذكرناها .

لقد بنى مساكن بناحية (القرن) وسماها : قيرواناً^(١) ونشر الإسلام بين البربر^(٢) وحفر الآبار في محل القيروان^(٣) وخلّد آثاراً حسنة في مصر والمغرب^(٤) .

إنه كان إنساناً ممتازاً وإدارياً حازماً .

الخلاصة :

كان معاوية من الأبطال الصناديد ، ومن الدهاة المحنكين ، ومن رجالات الفتح الكبار .

وكان من ضباط ركن عمرو بن العاص في فتح مصر ومن ضباط ركن عبدالله بن سعد بن أبي سرح في فتح إفريقية والنوبة ، فلما تولى القيادة كان خيرياً بالمغرب عارفاً لشؤونه وطبيعة أرضه ونقاط الضعف في أهله ، وخبرة معاوية هذه سهّلت له فتح كثير من بلاد المغرب .

والذي يتّبع قصة جهاده بإمعان ، يجد أن معاوية كان يهوى الجهاد ، فكان يفضل دائماً أن يكون غازياً في ساحات الوغى على أن يكون والياً في باحسات القصور .

لقد كان جندياً بالطبع ، وكان من أسود العرب^(٥) .

سألت عائشة أم المؤمنين يوماً بعض رجاله فقالت : وكيف كان

(١) رياض النفوس (١٩/١) .

(٢) الاستقصا (٦٨/١) .

(٣) الاستقصا (٦٨/١) والخلاصة النقية (٤) .

(٤) الخلاصة النقية (٤) .

(٥) الولاة والقضاة (٢١) .

أميركم في غزاتكم ؟ » تعني معاوية بن حديج ، فقالوا : « ما قمنا عليه شيئاً » ، وأثنوا عليه خيراً ، وقالوا : « إن هلك بغير أخلف بغيراً ، وإن هلك فرس أخلف فرساً ، وإن أبى » خادم أخلف خادماً » ، فقالت : « استغفر الله ! إن كنت لأبغضه من أنه قتل أخي ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم من رفق بأمي فارفق به ، ومن شق عليهم فاشقق عليه » (١) ، وهذا دليل على سهره على مصالح رجاله وحرصه على راحتهم وإرضائهم وإعطائهم ما يستحقون ...

لقد كان معاوية شجاعاً مقداماً ، ذا شخصية قوية نافذة ، له قابلية ممتازة على إعطاء القرارات الصائبة ، يتحمل المسؤولية ولا يتهرب منها ، ذا إرادة قوية ثابتة ، يعرف مبادئ الحرب ويطبقها ، ويعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم ، يثق برجاله ويثقون به ويبادلونه حباً بحب وتقديراً بتقدير ، له تجربة طويلة في الحرب وماض ناصع في الجهاد .

لقد كان معاوية قائداً ممتازاً .

معاوية في التاريخ :

قضى معاوية حياته كلها مجاهداً في سبيل الله في البر والبحر على حد سواء . إن التاريخ يذكر له أنه نشر الإسلام بين عدد لا يُحصى من البربر ، ونشر لغة القرآن بينهم .

ويذكر له أنه فتح بلاداً شاسعة من شمال إفريقيا في تونس والجزائر والمغرب ويذكر له أنه أول من أغزى (صِغْلِيَّة) ، فمهّد للعرب المسلمين فتحها بعد ذلك .

ويذكر له أنه كان قائد القادة من الصحابة والتابعين . رضي الله عن الصحابي الجليل ، الإداري الحازم ، أمير البحر وقائد البر معاوية بن حُذَيْج السَّكُونِي .

(١) أبى : أبناً وإبناً ، مرب ، فهو أبى وأبى .

(٢) أسد الغابة (٢٨٤/٤) والاستيعاب (١٤١٤/٣) .

عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ الْقُرَشِيُّ

فَاتِحَ زَوَيْلَةَ^(١) وَغَدَامِسَ^(٢) وَبَعْضَ كُورِ^(٣) السُّودَانِ وَفَزَانَ^(٤)
وَعَامَةَ بِلَادِ الْبَرْبَرِ^(٥) وَبِأَغَايَةَ^(٦) وَبِلَادَ الزَّائِبِ^(٧) وَطَنْجَةَ^(٨)
وَالشُّوسِ^(٩) الْأَدْنَى^(١٠) وَالشُّوسِ الْأَقْصَى^(١١) وَاخْتَطَّ الْقَيْرَوَانَ^(١٢)

« يَا رَبِّ ! لَوْلَا هَذَا الْبَحْرُ لَخُصِيتُ
مَجَاهِدًا فِي سَبِيلِكَ »
(عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ)

نَسَبُهُ وَأَهْلُهُ :

هُوَ عُقْبَةُ بْنُ نَافِعِ بْنِ عَبْدِ الْقَيْسِ بْنِ لَقَيْطِ بْنِ عَامِرِ بْنِ أُمَيَّةَ^(١٣)
ابْنِ الضَّرْبِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ فِهْرِ الْقُرَشِيِّ^(١٤) .

(١) زَوَيْلَةُ : مَدِينَةٌ مِنْ مَدَنِ فَزَانَ الْقَدِيمَةِ ، تَقَعُ فِي الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ (مَرْزُق) بِنَحْوِ (١٥٠) ك.م. وَتَبْعِدُ عَنْ مَدِينَةِ طَرَابُلُسَ إِلَى الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ بِنَحْوِ (٧٧٠) ك.م. وَيَسْمَرُ عَنْهَا الْخُرُوصُونَ بِـ (زَوَيْلَةُ السُّودَانِ) إِحْتِرَازًا عَنْ زَوَيْلَةِ إِفْرِيقِيَّةِ الَّتِي بَنَاهَا حَبِيبُ اللَّهِ الْمُهَلَّبِيُّ بِقُرْبِ تُونِسَ ، وَكَانَتْ زَمَنَ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ عَاصِمَةُ فَزَانَ بِدَلِ مَرْزُقِ . الْفَرَّ : تَارِيخُ الْفَتْحِ الْعَرَبِيِّ فِي لِبْيَا (٢٤) وَمَعْجَمُ الْبُلْدَانِ (٤١٨/٤ - ٤١٩) وَأَثَارُ الْبِلَادِ (٩٤) وَالْمُفْتَرَكُ وَفَصَحًا (١٣٦) وَالْمَسَالِكُ وَالْمَهَالِكُ (٢٤) .

(٢) غَدَامِسُ : إِسْمُهَا الْبَرْبَرِيُّ الْقَدِيمُ (سِيدَامُوس) ، وَهِيَ وَاحِدَةٌ مِنْ وَاحِدَاتِ طَرَابُلُسَ الْغَرْبِ الصَّحْرَاوِيَّةِ ذَاتِ شَكْلِ مَسْتَدِيرٍ تَقْرِيبًا ، وَتَقَعُ فِي الْجَنُوبِ الْعَرَبِيِّ مِنْ مَدِينَةِ طَرَابُلُسَ عَلَى بَعْدِ (٥٠٠) ك.م. عَلَى جِهَةِ الْمَسَافَةِ ، أَمَّا جِلُّ الطَّرِيقِ الَّتِي يَمُرُّ بِالْعَزِيزِيَّةِ وَبِهَرِ الْعَمِّ ، وَلِهَذَا ، وَقَالُوا لَمْ يَذْهَبْ إِلَى سِيدَانُونَ ، لَقَبْعِدَ عَنْهَا حَوَالِي (٦٥٨) ك.م. وَهِيَ مِنْ أَلَدَمِ مَرَاكِزِ الْخَطِّارَةِ فِي صَحْرَاءِ طَرَابُلُسَ . الْفَرَّ : تَارِيخُ الْفَتْحِ الْعَرَبِيِّ فِي لِبْيَا (٧٣) وَمَعْجَمُ الْبُلْدَانِ (٢٦٨/٦) وَتَقْوِيمُ الْبُلْدَانِ (١٤٦) .

(٣) كُورَةٌ : جَمْعُهَا كُورٌ ، وَالْكُورَةُ كُلُّ صُتْعٍ يَفْعَلُ عَلَى عَدَةِ قُرَى ، وَلَا يَدُ لَهَا الْقُرَى

أبوه : نافع بن عبد القيس الفهري ، كان ممن نخس بزینب بنت رسول

من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها اسم الكورة كقولهم : كورة نهر الملك .. الخ انظر معجم البلدان (٣٦/١) .

(٤) فزان : واحة من واحات طرابلس الجنوبية ، يحدها من الشمال الجبال السود (المروج) ، ومن الجنوب جبال (التبر) وحدود السودان ، ومن الغرب الطريق الذي يصل بين خدامس وغات ، ومن الشرق خط الطول في الدرجة (١٨) . وطولها من الشرق الى الغرب (٩٠٠) كم . ومن الشمال الى الجنوب (٨٠٠) كم . وارتفاعها على سطح البحر نحو (٥٠٠) متر ، وفيها وديان يبلغ انخفاضها في بعض الأماكن نحو (١٥٠) متراً تحت سطح البحر ، ومساحتها أكثر من (٣٠٠) ألف كيلو متر مربع . انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٧٥) ومعجم البلدان (٣٧٤/٦ - ٣٧٥) .

(٥) بلاد البربر : تمتد من جبال المغرب من برقة الى آخر المغرب والبحر المحيط وفي الجنوب الى بلاد السودان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٠٤/٢ - ١٠٦) .

(٦) باغاية : مدينة كبيرة في أقصى إفريقية بين مجانة وقسنطينة ، وهي حصن بربري قديم ، وكان سكانها من البربر والروم . انظر معجم البلدان (٤١/٢) وتاريخ المغرب الكبير (٤٢) .

(٧) بلاد الزاب : بلاد واسعة من مدنها بسكرة وقسنطينة وقفصة . وهي كورة عظيمة ونهر جرار بأرض المغرب على البر الأعظم عليه بلاد واسعة وقرى متواطة بين تلمسان وسجلماسة ، والنهر متصلط عليها . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٤/٤ - ٣٦٥) والمشارك وضعاً (٢٢٩ - ٢٣٠) . وفي تاريخ المغرب الكبير (٤٢/٢) أن بلاد الزاب يطلق عليها اليوم : ولاية قسنطينة .

(٨) طنجة : مدينة قديمة على البحر بيننا وبين سبت مسيرة يوم واحد . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٢/٦) والمسالک والممالك (٣٤) وتقوم البلدان (١٣٢) .

(٩) السوس الأدنى : كورة كبيرة بالمغرب مدینتها طنجة . والسوس مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها : قمونية . وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين وبعدة المحيط الاطلسي . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٢/٥) والمشارك وضعاً (٢٥٩) .

(١٠) السوس الأقصى : أقصى بلاد البربر على المحيط ، والسوس الأقصى اسم مدينة إلا أنها كورة عظيمة ذات مدن وقرى وسعة وخصب يحصها طوائف من البربر . انظر التفاصيل في المسالك والممالك (٣٤) والمشارك وضعاً (٢٥٩) ومعجم البلدان (١٧٢/٥) .

(١١) القيروان : مدينة كبيرة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٣/٧ - ١٩٥) والأعلام الفلسفة (٣٤٧ - ٣٤٨) والمسالك والممالك (٣٤) وتقوم البلدان (١٤٤ - ١٤٥) وآثار البلاد (٢٤٢) .

(١٢) الإصابة (٨١/٥) وأسد الغابة (٤٣٠/٣) . وفي نسب لريش (٤٤٥) : إله عطية بن نافع .

الله صلى الله عليه وسلم لما توجّهت مهاجرة الى المدينة المنورة^(١) فأفرعها ، وكانت حاملاً فألقت ما في بطنها بعد أيام^(٢) ، وقد مات قبل فتح مكة مشركاً في رواية^(٣) ، وفي رواية أخرى : أنه أسلم وكان مع عمرو بن العاص في فتح مصر ، وبعثه عمرو الى (بَرْقَة)^(٤) ، وقد بقي الى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه^(٥) .

وأمه : سبّية من (عَنْزَة) اسمها : النابغة ، فهو أخو عمرو بن العاص لأمه^(٦) . وفي رواية : أنه ابن خالة عمرو بن العاص^(٧) ، وفي رواية : أن عمرو بن العاص خاله^(٨) ، وفي رواية : أنه ابن أخي العاص ابن وائل السهمي لأمه^(٩) ، وعلى كل فعقبه من أقرباء عمرو بن العاص من جهة الأم أولاً ومن جهة الأب أيضاً على اعتبار أنهما من قريش . ولد عقبه قبل الهجرة بسنة واحدة^(١٠) (٦٢١ م) ، وفي رواية ، أنه ولد قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنة واحدة^(١١) ، وهذه الرواية

ابن عبد قيس بن لقيط بن أمية .

(١٣) جمهرة أنساب العرب (١٧٦ - ١٧٧) ونسب قريش (٤٤٤) وانظر الخلاصة النقية (٥) والاستقصا (٦٩/١) والبيان المغرب (١٩/١) .

(١) الإصابة (٨١/٥) وانظر سيرة ابن هشام (٣٠٢/٢) .

(٢) أنساب الأشراف (٣٩٧/١) .

(٣) الإصابة (٨١/٥) .

(٤) برقة : اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وإفريقية ، واسم مدينتها إنطابلس ، وتفسيره الخمس مدن . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٣/٢) .

(٥) انظر التفاصيل في الإصابة (٢٢٦/٦) .

(٦) جمهرة أنساب العرب (١٦٣) .

(٧) المغرب في حل المغرب (١٩/١) - طبعة جامعة فؤاد الأول ، وأحد الغاية (٤٢٠/٢) والاستيعاب (١٠٧٥/٣) .

(٨) الإصابة (٨١/٥) .

(٩) سير اعلام النبلاء (٣٤٩/٣) .

(١٠) الخلاصة النقية (٥) .

(١١) البيان المغرب (١٣/١) وبغية الرواد (٧٦/١) .

لا صحة لها ، لأن عقبة شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص واختط بها ^(١) ، وكان فتح مصر سنة عشرين الهجرية ^(٢) ، كما تولى قيادة جيش من جيوش المسلمين في فتح (زويلة) سنة إحدى وعشرين أو اثنتين وعشرين الهجرية ، فليس من المعقول أن يشهد عقبة غمار الحرب وعمره عشر سنين وأن يتولى قيادة جيش وعمره إحدى عشرة أو اثني عشرة سنة !

لقد نشأ عقبة في بيئة إسلامية خالصة ذات طابع عسكري بحت ، فحمل سلاحه مجاهداً في العصر الذهبي للفتح الإسلامي الخالد ، وبرز في ساحات القتال متحملاً قسطه الأوفى من الجهاد بحرص واندفاع وتجرد وإقدام .

نشأ في بيئة إسلامية خالصة ، فقد ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تصح له صحبة ^(٣) ، ويقال : له صحبة ولا يصلح ^(٤) ، وعلى كل حال فهو صحابي بالمولد وهو آخر من ولي المغرب من الصحابة ^(٥) ، وقد تولى منصب القيادة في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكانوا لا يؤثرون في الفتوح غير الصحابة ^(٦) ، وكان عمر بن الخطاب لا يولي إلا الصحابة ولا يرضى أبداً أن يعمل صحابي تحت قيادة غير صحابي .

ونشأ في بيئة ذات طابع عسكري بحت : أهله من بني (فيهر) لهم ماض مشرف في الحروب ولهم حاضر مشرف في الفتح ، وأقرباؤه وعلى رأسهم عمرو بن العاص هم أبرز قادة الفتح ، وقومه قريش هم قادة الفتح

(١) الإصابة (٨١/٥) وسير أعلام النبلاء (٣٤٩/٢) .

(٢) ابن الأثير (٢١٨/٢) .

(٣) الإصابة (٨١/٥) وأسد الغابة (٢٤٠/٣) وتجريد أسماء الصحابة (٣١٦-٣١٧) .

والاستيعاب (١٠٧٥/٢) .

(٤) الإصابة (٨١/٥) .

(٥) الاستقصا (٦٩/١) .

(٦) الإصابة (١٩٤/٢) .

وأمرء الأمصار ، وكانت أيامه التي عاشها منذ أول شبابه أيام الفتح الإسلامي الذهبية وأيام الجهاد الخالدة .

لقد تهيأ الجو المناسب والظروف المناسبة والبيئة المناسبة لعقبة ، فاجتمع في تكوينه : الطبع الموهوب ، والعلم المكتسب ، ليكون قائداً من ألع قادة الفتح الإسلامي على الاطلاق خاصة في مناطق المغرب العربي .

جهاده :

١ - في مصر وليبيا والنوبة :

أ - شهد عقبة فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص واختط بها كما أسلفنا ، فاكسب عقبة من معارك فتح مصر ومن أساليب عمرو بن العاص في إدارة القتال خبرة عملية ، وبرزت مواهبه القيادية بصورة مبكرة حينذاك .

ب - بعثه عمرو بن العاص على رأس جيش من العرب المسلمين الى (زَوَيْلَة) ، فافتتحها صلحاً^(١) وصار ما بين (برقة) و (زويلة) مسلماً للمسلمين^(٢) ، وكان ذلك سنة إحدى وعشرين الهجرية^(٣) . وقد كتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب يعلمه : أنه قد ولي عقبة بن نافع الفهري المغرب ، فبلغ (زويلة) ، وأن من بين (زويلة) و (برقة) سلم كلهم حسنة طاعتهم ، قد أدى مسلمهم الصدقة ، وأقر معاهدتهم بالجزية ، وأنه قد وضع على أهل (زويلة) ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطبقونه ، وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها على الفقراء ، ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل الى مصر ، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ومن أهل الصلح صلحهم^(٤) .

(١) ابن الاثير (٨/٣) والطبري (٢٢٧/٣) والبلاذري (٢٢٦) .

(٢) المغرب في حل المغرب (٤٥/١) والطبري (٢٢٧/٣) .

(٣) ابن الاثير (٨/٣) والطبري (٢٢٧/٣) .

(٤) البلاذري (٢٢٦) .

ج- وفي هذه السنة ، أي سنة إحدى وعشرين الهجرية ، بعث عمرو الى (النوبة)^(١) ، فلقى المسلمون من (النوبة) قتالاً شديداً ، ثم انصرف المسلمون من (النوبة)^(٢) ، وبذلك كان عقبة أول من مهد لفتح (النوبة) من المسلمين^(٣) .

د- لقد قدّر عمرو بن العاص أهمية الحدود الغربية والجنوبية لمصر ، لذلك بعث عقبة الى (زويلة) وسار هو الى (ليبيا) وبعث عقبة الى (النوبة) ، وبذلك كان لعقبة فضل كبير على تأمين الحدود الغربية والجنوبية لمصر .

هـ- وحين كان عمرو بن العاص على مصر ، كان عقبة على رأس المسلمين حامية (برقة) . وعزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر سنة خمس وعشرين^(٤) وعقد عثمان لعبدالله بن سعد بن أبي سرح على مصر كلها مضافاً (للصعيد)^(٥) وغيره^(٦) ، فأقر ابن أبي سرح عقبة على منصبه قائداً لحامية (برقة) .

و- وسار عبدالله بن سعد بن أبي سرح بجيشه البالغ تعدادة عشرين

(١) النوبة : بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر ، أول بلادهم بعد أسوان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٢/٨) .

(٢) اليمقوي (١٣٤/٢٥) .

(٣) يرى بعض المؤرخين أن غزو زويلة والنوبة شيء واحد وغزوة واحدة لمكان واحد ! وأرى أن هاتين الغزوتين اللتين حدثتا في سنة واحدة هما غزوتان منفصلتان : الأولى انتهت صلحاً والثانية انتهت بقتال شديد .

(٤) النجوم الزاهرة (٧٩/١) وتهذيب الأسماء واللغات (٢٧٠/١) والولاء والقضاة (١١) . وفي اللبر (٢٩/١) : أنه عزل سنة سبع وعشرين الهجرية .

(٥) الصعيد : بلاد واسعة كبيرة فيها مدن عظام منها أسوان وهي أوله من ناحية الجنوب ثم قوص وقفت وأخميم والبهنسا وغير ذلك . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٠/٥) .

(٦) النجوم الزاهرة (١٦/١) .

ألفاً^(١) سنة ست وعشرين الهجرية^(٢) ، فلما وصلوا الى (برقة) لقيهم عقبة فيمن معه من المسلمين الذين كانوا حامية هناك ، فساروا جميعاً الى (طرَابُلُس) الغرب فنهبوا من عندها من الروم^(٣) .

وشهد عقبة فتوحات ابن أبي سرح في إفريقية ، وأبلى في جهاده تحت راية ابن أبي سرح أعظم البلاء .

ز - لقد كان عقبة على رأس حامية (برقة) ، يحمي الحدود الغربية لمصر ، فلا يدع الروم يهاجمون مصر من اتجاه ليبيا ، وقد حافظ على تلك المنطقة حتى في أخطر الظروف والأحوال .

كما أنه حمى منطقة (برقة) من الروم ، فأصبحت تلك المنطقة القاعدة المتقدمة للمسلمين التي ينطلقون منها الى فتح (إفريقية) ؛ لذلك كان عقبة ذا فائدة عظيمة للمسلمين من الناحية العسكرية .

٢ - في البحر :

أ - بقي عقبة في (برقة) بعد ابن أبي سرح أيضاً في أيام معاوية بن حُذَيج السكوني ، وفي سنة تسع وثلاثين الهجرية غزا عقبة الروم في البحر بأهل مصر^(٤) .

ب - وفي سنة تسع وأربعين الهجرية في أيام معاوية بن حُذَيج السكوني ، غزا عقبة الروم في البحر ، فشتا هناك بأهل مصر^(٥) .

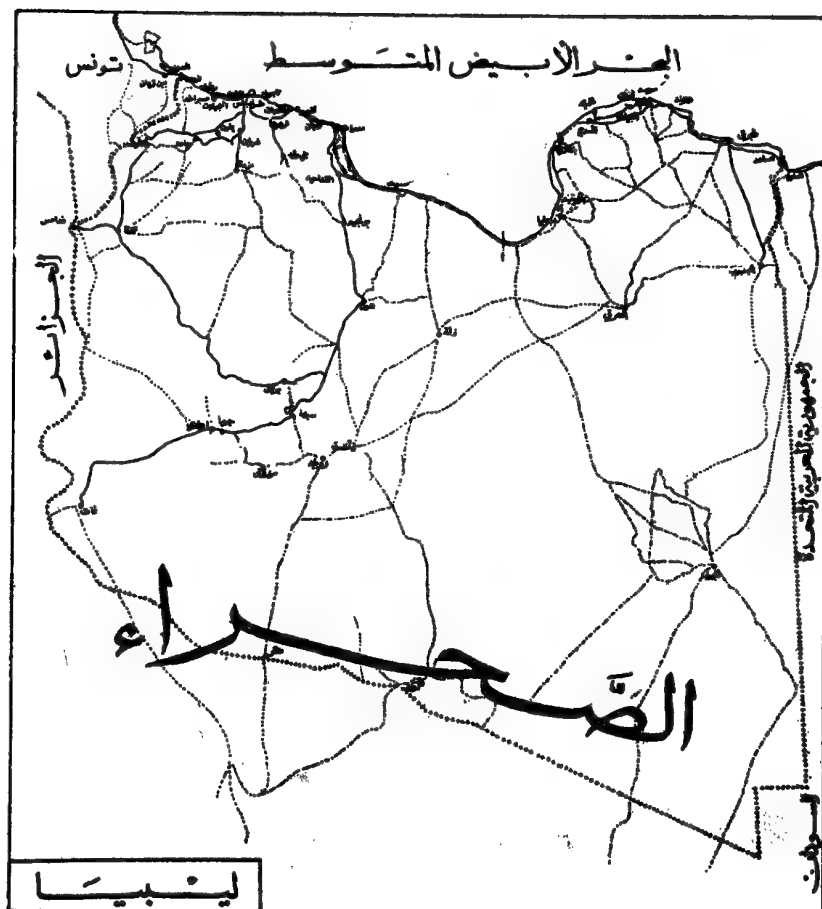
(١) البلاذري (٢٤٧) .

(٢) ابن خلدون (١٢٩/٢) الملحق) .

(٣) ابن الأثير (٣٤/٣) وابن خلدون (١٢٩/٢) الملحق) .

(٤) الطبري (١٧٣/٤) وابن الأثير (١٨١/٣) .

(٥) البيان المغرب (١٣/١) وابن الأثير (١٨١/٣) .



٣ - من ليبيا الى القيروان :

أ. الفتح :

بقي عقبة في (برقة) بعد عثمان بن عفان وفي أيام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، وفي سنة إحدى وأربعين الهجرية ، استعمل عمرو ابن العاص عقبة على (إفريقية)^(١) ، فانتهى الى (لواته)^(٢) ، وكانوا قد صولحوا فكانوا على صلحهم حتى نقضوا زمن معاوية بن أبي سفيان ، فغزاهم عقبة ففتحوا ناحية (أطرابلس) ، فقاتلهم عقبة حتى هزمهم ، فسألوه أن يصالحهم ويعاهدهم ، فأبى عليهم وقال : « إنه ليس لمشرك عهد عندنا . إن الله عز وجل يقول في كتابه : (كيف يكون للمشركين عهد ؟) ، ولكن أبايعكم على أنكم توفوني ذاتي ، إن شئنا أقررناكم وإن شئنا بعناكم »^(٣) . وعقد عمرو لعقبة على (هواره)^(٤) فأطاعواهم و (لواته) ثم كفروا ، فغزاهم عقبة من سنته فقتل وسي^(٥) . وفي سنة

(١) كانت مصر وإفريقية ولاية واحدة في أيام ولاية عمرو بن العاص أيام معاوية بن أبي سفيان .
(٢) لواته : من أشهر قبائل البربر ، كانت زمن الفتح العربي الإسلامي تسكن برقة ، وهي من أكبر بطون البربر البتر ، ينسبون الى (لو) الأصفر بن (لو) الأكبر ، و (لو) الأصغر هو (نغزوا) ، والبربر إذا أرادوا الجمع زادوا الألف والتاء فقالوا : « لوات » ، فلما حربته العرب حملوه على الأفراد ، ولحقوا به الهاء . انظر كتاب : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١١ - ١٢) ، وانظر الولاية والقضاة (٣٢) . وفي جمهرة أنساب العرب (٤٩٨) ، وردت : (لواته) يفتح اللام . وأن (لواته) من القبط ، ولا صفة لذلك بل هم من البربر .
(٣) الولاية والقضاة (٣٢) .

(٤) هواره : وردت في ابن الأثير (١٦٧/٣) : (مزانة) ، وفي ابن خلدون (١٠/٣) : (مرانة) ، ووردت في : الولاية والقضاة (٣٢) وفي تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٦٦) : (هواره) ، وهي أشهر قبائل البربر ، وهي بطن من (البرانس) تنسب الى (هوار بن أوريغ بن برنس) جد البرانس . ومن بطون هواره : غريان وورغل وسراة وسلاته وبجريس . وسلاته وغريان وبجريس أبناء هوار . وكانت مواطنهم زمن الفتح حول طرابلس الى ما يقارب سرت والى قصر ميمون من ناحية الجنوب . وكانت هواره ظواغن وأهلين ، ومنهم من رحل الى بلاد السودان ، وما زالوا يقال لهم : (هكار) قلبت المعجمة واهاء كافاً أعجمية . انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١١ - ١٢) .

(٥) في الولاية والقضاة (٣٣) : أن ذلك جرى سنة ثلاث وأربعين الهجرية .

اثنتين وأربعين الهجرية افتتح عقبة (غداميس) وقتل وسى . وفي سنة ثلاث وأربعين الهجرية افتتح كوراً من كور السودان^(١) . وافتتح (ودان)^(٢) ثانية وهي من (برقة) وذلك سنة ست وأربعين الهجرية^(٣) ، فقد خرج عقبة في هذه السنة حتى نزل بـ (مغداش)^(٤) من (سُرت)^(٥) ، وكانت (ودان) نقضت عهدها الذي عاهدت عليه بـسر بن أبي أرطاة سنة ثلاث وعشرين الهجرية ، فترك عقبة جيشه بـ (مغداش) في أرض (سُرت) ، واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي ، وسار إليها في أربعمئة فارس وأربعمئة جمل وثمانمئة قربة ماء: على كل جمل قربتان لحمل الماء ، فلما وصلها أبى أهلها إلا العصيان وعدم الطاعة ، فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلداً بلداً ، وقبض على ملكهم فجدع أذنه ،

(١) ابن الأثير (١٩٧/٣) وابن خلدون (١٠/٣) والبر (٥١/١) وشنرات الذهب (٥٣/١) .

(٢) ودان : مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية ، ويتبعها : زلة وهون وسوكة وما جاورها ، ويطلق على الكل : بلاد ودان ، وكانت ودان زمن الفتح الاسلامي هي العاصمة ، وتقع ودان في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو (٧٦٩) كلم ، والى جنوبي سرت بنحو (٢٨٠) كلم ، انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٧) ، وانظر معجم البلدان (٤٠٥/٨) والمشارك وعضاً (٤٣٥) .

(٣) معجم البلدان (٤٠٥/٨) .

(٤) مغداش : بلد قريب من (سرت) في طرابلس الغرب بليبيا . انظر هامش : فتوح مصر والمغرب (٢٦٢) .

(٥) سرت : مدينة قديمة تقع على الخليج المسى بها الآن ، وهذا الخليج يمتد من مدينة مصراته الى الجنوب حتى بويرات الحسون ، ثم يتجه شرقاً الى العقيلة على مسافة (٥٨٥) كلم ، من مصراته ، ثم يتقوس الى الشمال حتى مدينة بني غازي مسافة (٢٨٥) كلم ، ومدينة بني غازي ، في الشرق تقابلها مدينة مصراته في الغرب ، ويقع خليج سرت جنوبي الخط الوهمي الذي يصل بين المدينتين .

وسرت تبعد عن البحر الى الجنوب بنحو أربعة كيلومترات ، وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس الغرب بنحو (٥٥٤) كلم ، وكانت محاطة بسور من التراب ، وهي غير سرت المعروفة الآن ، لأن سرت الحديثة انشئت في العهد العثماني سنة ١٣٠٣ هـ . انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٢٦) وانظر معجم البلدان (٦٢/٥) .

فقال : « لَمْ فعلت هذا بي ١٩ » ، فقال عقبة : « فعلت هذا بك أدباً لك . إذا مسست أذنك ذكرته فلا تحارب العرب ! » ، واستخرج منهم ما كان بُسر بن أبي أرطاة فرضه عليهم سنة ثلاث وعشرين الهجرية : ثلاثمائة رأس وستين رأساً من العبيد .

ولما استتب الأمر لعقبة في بلاد (ودّان) ، سأل عقبة أهلها : « هل من ورائكم من أحد ؟ » ، فقليل له : (جرّمة) (١) ، فسار إليها ثمانين ليال من (ودّان) ، فلما دنا منها دعا أهلها إلى الإسلام ، فأجابوا ، فنزل منها على ستة أميال . وخرج ملكهم يريد عقبة ، فأرسل عقبة خيلاً فحالت بين ملكهم وبين موكبه ، فأمشوه راجلاً حتى أتى عقبة وقد لغّب (٢) ، وكان ناعماً ، فجعل يبصق الدم ، فقال له : « لم فعات هذا بي وقد أتيتك طائعاً ١٩ » ، فقال عقبة : « أدباً لك ! إذا ذكرته لم تحارب العرب » ؛ وفرض عليهم ثلاثمائة عبد وستين عبداً .

ومضى عقبة من فوره لإنجاز فتح بلاد (فزّان) حتى أتى على آخرها ، ونشر الإسلام في ربوعها ، وهذه أول مرة دخل فيها العرب بلاد فزّان فاتحين (٣) .

وسأل عقبة أهل (فزّان) : « هل من ورائكم أحد ؟ » ، فقالوا : « أهل (خاّور) (٤) » ، وهو قصر عظيم على رأس المفازة في وعودة على ظهر

(١) جرمة : اسم قصبة بناحية فزان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٩/٣) وهي عاصمة بلاد فزان في أيام الفتح الاسلامي . وسميت جرمة باسم أمة : الجرمنت ، وهي أمة قديمة كانت تسكن فزان . انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٦٩) .

(٢) اللغّب : التعب والاعياء .

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٢ - ٢٦٣) وانظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٦٩) .

(٤) خاور : أكبر مدينة في كورة كاوار ، وهي قصبة كاوار . وتقع في جنوبي فزان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٩٤/٣) .

جبل ، وهو قصبة (كاوار) (١) ؛ فسار اليه خمس عشرة ليلة ، فلما وصل اليه دعا أهله الى الإسلام فأبوا ، وطلب منهم الجزية فامتنعوا بمحصنهم ، فحاربهم وأقام على حصارهم شهراً دون جدوى . وتقدم بجيشه جنوباً لفتح بقية بلاد (كاوار) ، ففتحها حتى أتى على آخرها وقبض على ملكهم وقطع لإصبعه ، فقال : « لِمَ فعلت هذا بي ؟ » ، فقال عقبة : « أدباً لك ! إذا أذت نظرت الى إصبعك لم تحارب العرب » ... ثم فرض عليهم ثلاثمائة عبد وستين عبداً (٢) .

وكان في نية عقبة أن يمضي قدماً في مجاهل الصحراء ، فسأل أهل (كاوار) : « هل من ورائكم أحد ؟ » ، فقال الدليل : « ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة » ، فانصرف عقبة راجعاً ، فمرّ بقصر (خاور) ، فلم يعرض له ولم ينزل بهم ، ثم سار ثلاثة أيام فأمنوا وفتحوا مدينتهم . وأقام عقبة بمكان اسمه اليوم (ماء قرّس) ولم يكن به ماء ، فأصابهم عطش شديد أشفى منه عقبة وأصحابه على الموت ، فصلى عقبة ركعتين ودعا الله . وجعل فرس عقبة يبحث يديه في الأرض حتى كشف عن صفاة ، فانفجر الماء منها ، فجعل الفرس يمص ذلك الماء . وأبصره عقبة فنادى في الناس : « أن احتفروا » ، فحفروا سبعين حيسياً (٣) وشربوا واستقوا ، فسمي ذلك المكان لذلك : (ماء قرّس) .

ورجع عقبة الى (خاور) من غير طريقه التي كان أقبل منها ، فلم يشعروا به حتى طرقتهم ليلاً ، فوجدتهم مطمئنين قد تمهدوا في أسرابهم ، فاستباح ما في المدينة من ذريّاتهم وأموالهم ، وقتل مقاتلتهم .
لقد كانت هودة عقبة المفاجئة بجيشه الى (خاور) حركة بارعة جداً ،

(١) كاوار : ناحية واسعة في جنوبي لزان بها مدن كثيرة ومياه جارئة ولخل كثير . الظاهر معجم البلدان (٢١٠/٧) .

(٢) لفرج مصر والمغرب (٢٦٣) و تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٦٩ - ٧٠) .

(٣) الحسي : الحفرة القريبة العمق .

طبّق بها عقبة مبدأ (المباغنة) بالزمان ، فأطبق على (خاور) في وقت لم يتوقعه أهلها .

وانصرف عقبة بعد فتح (خاور) حتى نزل بموضع (زويلة) اليوم ، ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر ، وقد جمعت خيولهم وظهورهم .

لقد أقدم عقبة على التغلغل في الصحراء بقوات قليلة خفيفة ، لأن الحركة في الصحراء صعبة جداً بقوات كبيرة لقلّة المياه فيها ، ولأنه قدّر أنه لن يصادف في تغلغله قوات ضاربة كبيرة للعدو ، لأن قوات الروم النظامية لن تستطيع القتال في مثل هذا الميدان ، وإنما ميدانها المناطق الساحلية التي تتوفر فيها المياه والقضايا الإدارية الأخرى ، فليس أمام عقبة غير قوات سكّان الصحراء الأصليين ، وهؤلاء قليلون يمكن التغلب عليهم بقوات خفيفة قليلة كما فعل عقبة ...

ذلك ما حدا بعقبة على الإقدام لفتح تلك المناطق الصحراوية بقوات خفيفة منتخبة ، وفعلًا أجز واجبه وحقق هدفه في الفتح الصحراوي بسهولة ويسر .

وسار عقبة بجيشه الى المغرب ، وجانب الطريق الأعظم^(١) وأخذ الى أرض (هواره)^(٢) ، فافتتح كل قصر بها^(٣) . ومضى الى (صيفر)^(٤) ، فافتتح قلاعها وقصورها . ثم بعث خيلاً الى (غداميس) فاستعاد فتحها

(١) يقصد بالطريق الأعظم : الطريق الساحلي جنوبي جبل النوبة . انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٧١) .

(٢) هواره : وردت في فهرج مصر والمغرب (٢٦٤) : مزاته ، والصحيح ما ذكرناه ، وهواره قبيلة بربرية .

(٣) من تلك القصور : قصر ميمون من ناحية الجنوب : جنوبي طرابلس الغرب - سرت .

(٤) صفر : وردت كذا في فهرج مصر والمغرب (٢٦٤) ، واسمها الحالي : صفر ، وهي مدينة في شمال المغرب ، في قلب جهال أطلس الوسطى .

ثانية ، والظاهر أنها نقضت عهدا بعد فتحها الأول ، فاضطر عقبة الى فتحها ثانية . وتوجه الى (قَفْصَة)^(١) فافتتحها ، ثم افتتح (قَسْطِيلِيَّة)^(٢) ثم انصرف الى (القَيْرَوَان)^(٣) .

لقد طهر عقبة بهذا الفتح كل المقاومات المعادية بين (برقة) و (القيروان) ، فأصبحت هذه المنطقة خالصة للمسلمين ، حرية أن تكون قاعدة وصينة تنطلق منها القوات الإسلامية لفتح شمال إفريقيا حتى المحيط الأطلسي .

ب . القاعدة الأمينة (القيروان) :

وصل عقبة الى (القيروان) الذي كان في مدينة (قَمُونِيَّة)^(٤) والذي كان معاوية بن حُذَيْج قد بناه من قبل ، فلم يعجب به^(٥) ، فقد كان مكان (القيروان) وهو ناحية في الوسط الشرقي لإفريقية ليست ضاربة في الشمال فتكون جبلية ولا ضاربة في الجنوب فتكون رملية ، وكان (القيروان) منه بجانب سبخة . لقد كان العرب منذ أيام عبدالله بن سعد بن أبي سرح يؤثرون (قمونية) لزولهم ، لأنها بسيط من الأرض ، كثير

(١) قفصة : بلدة بتونس وكان لها شأن كبير في عهد الرومان . انظر فتوح مصر والمغرب (٢٦٤) ، وهي بلدة صغيرة في طرف إفريقية (تونس) من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بينها وبين القيروان ثلاثة أيام . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٨/٧) .

(٢) قسطيلية : إحدى بلاد الزاب الكبير بالمغرب ، تقع في أقصى بلاد المغرب على حدود الصحراء . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٨/٧) وفتوح مصر والمغرب (٢٦٤) .

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٤) .

(٤) قمونية : مدينة بإفريقية كانت موضع القيروان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٦٢/٧) والقيروان معرب : كاراوان الفارسية ، وتكلمت به العرب قديماً ، والنسبة اليه : قيرواني وقيريوي ، ويطلق على القافلة وعلى الجيش ومناخ القافلة وموضع اجتماع الناس في الحرب ، ويظهر أنه أطلق على المكان لزول الجيش فيه أو القافلة . انظر كتاب : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٧١) .

(٥) فتوح مصر والمغرب (٢٦٤) وأسد الغابة (٤٢٠/٣ - ٤٢١) والاستيعاب (١٠٧٦/٣) .

المراعي ، جيد الهواء ، خصب التربة ، كثير المياه^(١) ، ولكن مكان (قمونية) ليس صالحاً - من الناحية العسكرية - ليكون قاعدة أمانة لقوات المسلمين ، لأن بعض غير المسلمين يسكنون (قمونية) مع المسلمين ، وقد يكون بعض هؤلاء رتلًا خامسًا^(٢) على المسلمين ، وما أخطر ذلك على المسلمين وهم في جهاد دائب لفتح إفريقية ونشر الإسلام في ربوعها . والقيروان معناه : مدينة أو معسكر أو مسلحة^(٣) ، ولفظ قيروان فارسي معرب أصله : كروان أو كربان ، ومعناه قافلة ، أو مراح القوافل ، ويفهم من لسن العرب أنه كان مستعملاً حتى في الجاهلية بهذا المعنى ، إذ روى أن امرئ القيس قال في وصف غارة له :

وغارة ذات قيروان كأن أسرابها الرعال^(٤)

ومن معاني القيروان : معظم المعسكر ، والقافلة من الجماعة ، وموضع اجتماع الناس والجيش ، ومحط أنقال الجيش ، وقيل : هي الجيش نفسه . وليس هناك ما يؤيد القول : بأن القيروان ، كان علماً على مدينة قديمة بإفريقية ، اختطت القيروان مكانها ، فلم يبق إلا القول بأن عقبة وأصحابه أرادوا به محطاً لقوافلهم ومراحاً لمعسكرهم^(٥) .

قال عقبة لرجاله : « إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام ، فإذا تركها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ؛ فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر » ، فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين قرب البحر لينم لهم الجهاد والرباط . وقال لعقبة بعض أصحابه : « قربها من البحر ليكون

(١) تاريخ المغرب الكبير (٢/٢٨) .

(٢) الرتل الخامس : ما يطلق عليه في مصر : الطابور الخامس ، وهم من المخربين والجواسيس .

(٣) المسلحة : جمعها ، مسلح . والمسلحة هم الجماعة المسلحون المعنونون للقتال .

(٤) معجم البلدان (٧/١٩٣) .

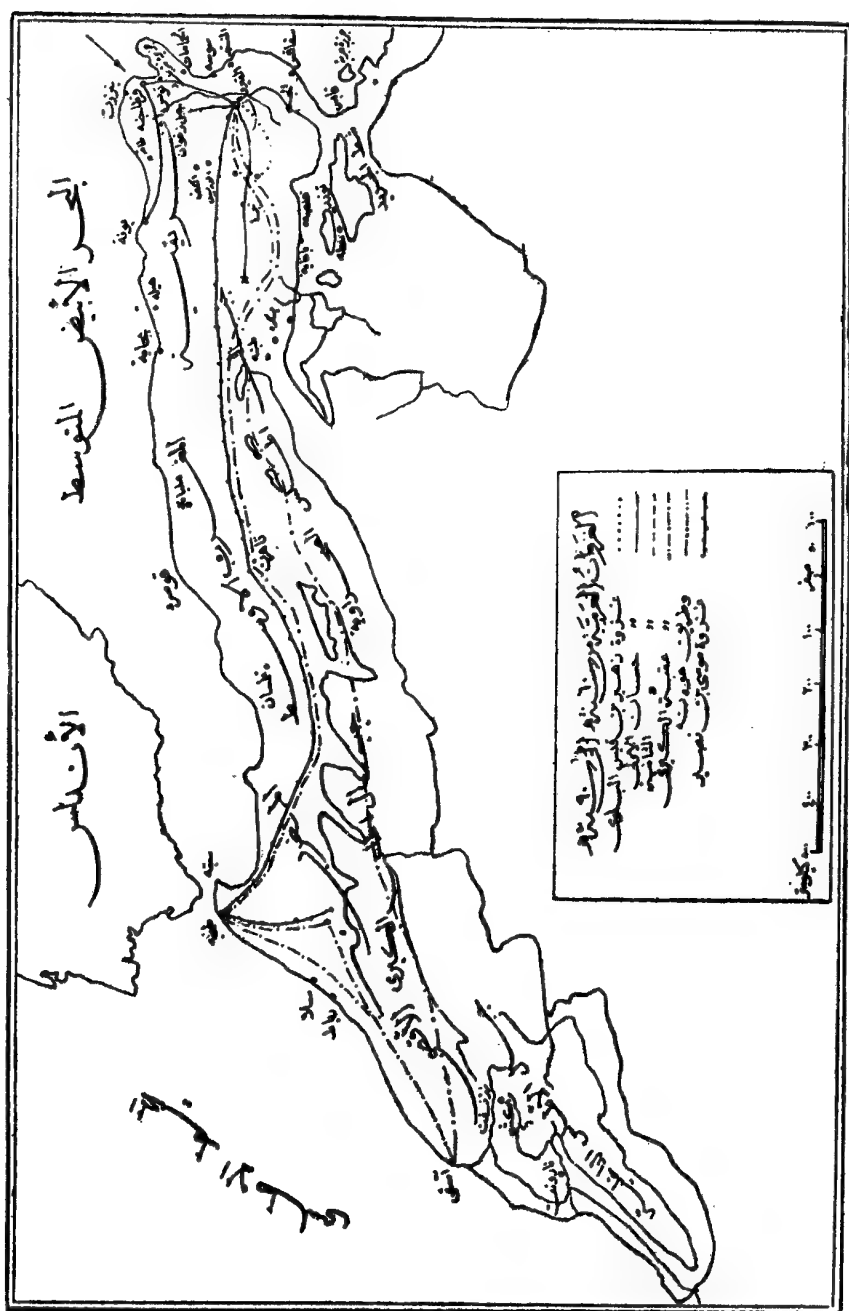
(٥) فتح العرب للمغرب (١٥٣ - ١٥٤) وانظر معالم الأيمان (٧/١) .

أهلها مرابطين ، فقال لهم : « إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها ، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها معه صاحب البحر ، لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجة حتى يستره الليل ، فهو يسير الى ساحل البحر الى نصف الليل ، فيخرج ، فيقيم في غارته الى نصف النهار ، فلا تدركها منه غارة أبداً . فإن كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير (١) ، فأهلها مرابطون ، ومن كان على البحر فهم حرس لهم ، وهم عسكر معقود الى آخر الدهر ، ومبستهم في الجنة » ؛ فاتفق رأيهم على ذلك فقال : « قربوها من السبخة » ، فقالوا : « نخاف أن تهلكنا الذئاب ويهلكنا بردها في الشتاء وحرها في الصيف » ، فقال : « لا بدّ لي من ذلك ، لأن أكثر دوابكم الإبل ، وهي التي تحمل عسكرنا ، والبربر قد تنصّروا وأجابوا النصارى الى دينهم ، ونحن إذا فرغنا من أمرها لم يكن لنا بدّ من المغازي والجهاد ، ونفتح الأول منها فالأول ، فتكون إبلنا على باب مصرنا في مرعاها آمنة من غارة البربر والنصارى ، فركب الى موضع (القيروان) اليوم وكان غيضة كثير الأشجار مأوى الوحوش والحيات ، فأمر بقطع ذلك وإحراقه (٢) .

وكان مع عقبة عشرة آلاف فارس ، وانضاف اليه من أسلم من البربر ،

(١) تقصير الصلاة .

(٢) انظر رياض النفوس (٦/١ - ٧) والبيان المغرب (١٣/١ - ١٤) ، وفيهما : أن رجاله قالوا له : « إنك أمرتنا بالبناء في شمار وغياض لا ترام ، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من دواب الأرض » ، وكان في عسكره خمسة عشر رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر ذلك تابعون ، فدعا الله عز وجل وجعل أصحابه يؤمنون على دعائه . ومضى الى السبخة وواديها ونادى : « أيها الحيات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارحلوا عنا فإننا نازلون ، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه » . ونظر الناس بعد ذلك الى أمر معجب ، من أن السباع تخرج من الشمار تحمل أشبالها ، الذئب يحمل جروه ، والحيات تحمل أولادها ، ونادى في الناس : « كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا » . فلما خرج ما فيها من الوحش والهوام ، وهم ينظرون إليها نزل عقبة الوادي وأمرهم أن يقطعوا الشجر . وانظر آثار البلاد (٢٤٢) وابن الاثير (١٨٤/٢) وأسد الغابة (٤٢٠/٣ - ٤٢١) .



فكثّر جمعه فأمر ببناء القيروان سنة خمسين الهجرية ، وأنجز بناءها سنة خمس وخمسين الهجرية ، وبني المسجد الجامع وبني الناس مساجدهم ومساكنهم وكان يحيطها ثلاثة آلاف وستمائة باع ، فأصبحت المدينة عسكراً للمسلمين وأهلهم وأموالهم يأمنون من ثورة تكون من أهل البلاد ، فقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة (القيروان) وأمنوا واطمأنوا على المقام ، فثبت الإسلام فيها . وكان عقبة في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتذهب ، ودخل كثير من البربر في الإسلام ، واتسعت خطة المسلمين ورسخ الدين^(١) ، وصارت القيروان مدينة كبيرة وعاصمة الإسلام في المغرب^(٢) ، وأصبحت القيروان القاعدة الأمانة للمسلمين في شمال إفريقيا .

٤ . من القيروان الى المحيط :

في سنة خمس وخمسين الهجرية استعمل معاوية بن أبي سفيان مسلماً ابن مخلد الأنصاري الخرجي على مصر وإفريقية وعزل عقبة عن إفريقية^(٣) ، فاستعمل مسلماً على إفريقية مولى له يقال له : أبو المهاجر دينار ، فقدم إفريقية وأساء عزل عقبة واستخفّ به^(٤) وسجنه وأقره حديداً^(٥) فأقام في الحبس شهوراً ثم أطلقه^(٦) حين أتاها كتاب معاوية بن أبي سفيان بتخليه سبيله وإشخاصه إليه^(٧) .

-
- (١) ابن الأثير (١٨٤/٣) وانظر ابن خلدون (١٠/٣) . وفي البيان المغرب (١٦/١) : أن محيطها كان (١٣٦٠٠) ذراعاً .
(٢) تاريخ المغرب الكبير (٢٨/٢) .
(٣) البيان المغرب (١٦/١) .
(٤) ابن الأثير (١٨٤/٣) .
(٥) فتوح مصر والمغرب (٢٦٥) .
(٦) المعقوبي (٢٠٤/٢) .
(٧) فتوح مصر والمغرب (٢٦٥ - ٢٦٦) .

وسار عقبة الى الشام وعاتب معاوية على ما فعله به أبو المهاجر ، فاعتذر معاوية اليه ووعدته أن يعيده الى عمله^(١) ، وفي رواية : أنه توجه الى الشام فلما قدم على معاوية وجده قد توفي^(٢) ، فردّه يزيد والياً على (إفريقية) سنة اثنتين وستين الهجرية^(٣) .

وسار عقبة الى (إفريقية) من الشام حتى قدم على (القيروان) بعشرة آلاف فارس ، فأخذ أبا المهاجر وحبسه وقيّده وأخذ ما معه من الأموال ، وجدّد بناء (القيروان) ، وشيدها ونقل اليها الناس ، فعمرت وعظم شأنها^(٤) .

وخرج عقبة بأصحابه وبكثير من أهل (القيروان) الى المغرب بعد أن ترك في (القيروان) جنداً مع النراري والأموال ، واستخلف بها زهير بن قيس البلوي^(٥) . وخرج بأبي المهاجر معه موثقاً ، فلما بأولاده قبل مغادرته (القيروان) وقال لهم : « إني قد بعث نفسي من الله عزّ وجل ، فلا أزال أجاهد من كفر بالله »^(٦) ، ثم قال : « يا بني ! أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها : إياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن ، فإن القرآن دليل على الله عزّ وجل ، واخلوا من كلام العرب ما يهتدي به الليب ويدلكم على مكارم الأخلاق ، ثم انتهوا عما وراءه . وأوصيكم ألا تدابنوا ولو لبسّم العباء ، فإن الدين ذل بالنهار وهمّ بالليل ، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبقى لكم الحرمه في الناس ما بقيتم . ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم

(١) ابن الأثير (١٨٤/٣) .

(٢) دياض النفوس (٢٢/١) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٧٤٩/٣) .

(٤) دياض النفوس (٢٢/١) .

(٥) في دياض النفوس (٢٢/١) : أنه استخلف على القيروان عمر بن علي القرشي وزهير بن

قيس البلوي .

(٦) ابن الأثير (٤٢/٤) .

دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى ؛ ولا تأخلوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط ، فهو أسلم لكم ، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا . ثم قال : « عليكم سلام الله ، وأراكم لا ترونني بعد يومكم هذا » ، ثم قال : « اللهم تقبل نفسي في رضاك ، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك » (١) .

وسار عقبة في عسكر عظيم حتى انتهى الى مدينة (بأغاية) ، لا يدافعه أحد ، والروم يهربون في طريقه يمينا وشمالا ، فحاصرها وقد اجتمعوا بها وقاتلهم قتالا شديدا (٢) ، فانهزموا عنه وقتل فيهم قتلا ذريعا ، وغنم منهم غنائم كثيرة . واحتفى المنهزمون داخل أسوار المدينة ، فكره المقام عليهم (٣) .

ورحل عتبة فزل على (تيليمستان) (٤) وهي من أعظم مدائنهم ، فانضم اليها من حولها من الروم والبربر ، فخرجوا اليه في جيش ضخم لجب . والتحم القتال ووقع الصبر ، حتى ظن المسلمون أنه القناء ، ولكنهم هاجموا الروم هجوما عنيفا حتى ألجأوهم الى حصونهم ، فقاتلوهم الى أبوابها ، وأصابوا منهم غنائم كثيرة (٥) .

وسار عقبة الى بلاد الزاب ، فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب ، فقبل له (أربة) (٦) وهي دار ملكهم ، وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية

(١) رياض النفوس (٢٢/١) .

(٢) رياض النفوس (٢٣/١) .

(٣) ابن الأثير (٤٢/٤) .

(٤) تلمسان : مدينة بالمغرب اسما القديم . أقادير ، حل بعد مرحلة من وهران . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٠٩/٢) .

(٥) رياض النفوس (٢٣/١) .

(٦) أربة : اسم مدينة بالمغرب من أعمال الزاب ، وهي أكبر مدينة بالزاب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٦/١) وقد وردت في رياض النفوس (٢٣/١) : أدلة تصحيحها .

كلها عامرة ، فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى ، وهرب بعضهم الى الجبال ، فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى ، ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم^(١) .

ورحل عقبة الى (تَاهَرْت)^(٢) ، فاستغاث الروم بالبربر ، فأجابوهم ونصروهم ، فقام عقبة في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « أيها الناس ! إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه ، بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان على من كفر بالله الى يوم القيامة ، وهم أشرافكم والسابقون منكم الى البيعة ، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجمته بيعة رابحة . وأنتم اليوم في دار غربة ، وإنما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر اليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاء وإعزازاً لدينه ، فأبشروا ! فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى ، وربكم عز وجل لا يسلمكم ، فאלقوهم بقلوب صادقة ، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لا يردّ عن القوم المجرمين ، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه ، والله لا يردّ بأسه عن القوم المجرمين » . والتقى المسلمون بأعدائهم وقاتلوهم قتالاً شديداً^(٣) ، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ، ولكنهم انتصروا أخيراً ، فانهزمت الروم والبربر ، وأخذهم السيف وكثر فيهم القتل ، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم^(٤) .

وسار عقبة حتى نزل على (طَنْجَة) ، فلقية بطريق من الروم^(٥) اسمه

(١) ابن الأثير (٤٢/٤) وانظر رياض النفوس (٢٣/١) .

(٢) تاهرت : اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب ، يقال لأحدهما : تاهرت القديمة ، وللأخرى : تاهرت المحدثه . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٥٤/٢) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٦٩) .

(٣) رياض النفوس (٢٣/١ - ٢٤) .

(٤) ابن الأثير (٤٢/٤) .

(٥) في تاريخ المغرب الكبير (٤٤/٢) : إنه وليان النصارى ، ملك خضارة ، وهو بربري . -

(يليان) فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه^(١١). وأراد عقبة فتح الأندلس، فقال له يليان: «أترك كفتار البربر خلفك وثرمي بنفسك في مجبوحة الهلاك مع الفرنج، ويقطع البحر بينك وبين المدد^(١٢)»، فقال عقبة: «وأي كفتار البربر؟»، فقال: «في بلاد السوس، وهم أهل نجدة وبأس». فقال عقبة: «وما دينهم؟»، فقال: «ليس لهم دين ولا يعرفون أن الله حق، وإنما هم كالبهائم»، وكانوا على دين المجوسية يومئذ، فتوجه عقبة، فنزل على مدينة (وكيلي) ^(١٣) بازاء جبل (زَرْهُون) ^(١٤) وهي يومئذ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين (سَبُو) ^(١٥) و (ورغة) ^(١٦)، وهذه المدينة هي المسماة اليوم على لسان العامة بـ (قصر فرعون)، فافتتحها عقبة وغنم وسبي^(١٧).

وانتهى عقبة الى (السوس الأدنى) وهو مغرب طنجة، فقاتل جموع البربر الكثيرة وقتل منهم قتلاً ذريعاً، وبعث خيله في كل مكان هربوا اليه، ثم سار حتى وصل الى (السوس الأقصى)، وقد اجتمع له البربر في عالم لا يحصى، فلقبهم وقاتلهم وهزمهم. وسار عقبة حتى بلغ (مالبان) ^(١٨)، ورأى البحر المحيط، فقال: «يا رب! لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك» ^(١٩)، ثم قال: «اللهم اشهد. إني قد بلغت المجهود»، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى

= وفي فتح العرب المغرب (١٩٢): إنه قوطي من اسبانيا كما يؤكد مورخو الاندلس.

(١) ابن الأثير (٤٢/٣).

(٢) وليل: مدينة بالمغرب قرب طنجة. انظر معجم البلدان (٤٣٤/٨).

(٣) زرهون: جبل بقرب فاس. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٨، ٤).

(٤) سبو: نهر بالمغرب قرب طنجة. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٢/٥).

(٥) ورغة: نهر بالمغرب، ولم أشر على ذكره في معجم البلدان.

(٦) الاستقصا (٧٣/١).

(٧) مالبان: بلد في أقصى بلاد المغرب ليس وراءه غير البحر المحيط. انظر معجم البلدان

(٣٦٧/٧).

(٨) ابن الأثير (٤٢/٣ - ٤٣).

لا يعبد أحد من دونك»^(١)

٥ . الشهيد :

رجع عقبة إلى (القيروان) ، فلما انتهى إلى ثغر (إفريقية) وهي (طُبُسنة)^(٢) أذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا ويقدموا (القيروان) فوجاً فوجاً ثقة منه بما نال العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه^(٣) .

ومال عقبة بخيل يسيرة يريد (تَهَوْدَة)^(٤) ، وكان معه حوالي ثلاثمائة فارساً^(٥) ، فلما رآه الروم في قلّة طمعوا فيه فأغلقوا الحصن وشنموه وهو يدعوهم إلى الاسلام فلم يقبلوا منه^(٦) ،

وبعث الروم إلى (كَسَيْيْلَة)^(٧) الذي كان في عسكر عقبة مضمرّاً للغدر ، فلما أرسل إليه الروم أظهر ما كان يضمّره وجمع أهله وبني عمه وقصد

(١) رياض النفوس (٢٥/١) وانظر ما جاء من ذلك مختصراً في الحرب والاسلام (١٤٠) .

(٢) طينة : بلدة في طرف إفريقية مما يلي المغرب على سفة الزاب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٨/٦) .

(٣) ابن الأثير (٤٣/٤) ورياض النفوس (٢٥/١) .

(٤) تهودة : اسم لقبيلة من البربر بناحية إفريقية ، لم أرض تعرف بهم ، انظر معجم البلدان (٤٣٨/٢) وهي مدينة في جنوب جبال أوراس وفي الجنوب الشرقي لمدينة طينة وتبعد عنها بمسافة ٣٧ ميل . انظر تاريخ المغرب الكبير (٤٦/٢) .

(٥) الخلاصة النقية (٥) والاستقصا (٧٤/١) .

(٦) ابن الأثير (٤٣/٤) .

(٧) كسيلة بن لزوم الأوربي البرنسي : كان أمير أهل البرانس كلهم ، وكان نصرانياً جمع الجمرع من البربر والفرنج وزحف نحو المسلمين فهزمه أبو المهاجر وأسره فأسلم كسيلة على يدي أبي المهاجر ، وكانت قيادة أوربة لكسيلة منذ سنة (٨٥١) . وقد حسن إسلام كسيلة فاستصفاه أبو المهاجر واتصلت بينهما صداقة موصولة الأسباب . وكسيلة هذا هو الذي قتل عقبة بن نافع سنة ثلاث وستين الهجرية ، فسأله الجو وخضع له المغرب من أقصاه إلى أقصاه واحتل القيروان وطرد جميع العرب من بلاد المغرب ، وخضع له الروم الذين كانوا في المغرب أيضاً ، وكون في المغرب دولة مغربية ظلت أكثر من خمس سنوات ، وقد قتله زهير بن قيس البلوي سنة تسع وستين الهجرية . انظر ابن الأثير (٤ / ٤٤ - ٤٤) وتاريخ المغرب (٦٤/١) والاستقصا (٨١/١) والبرانس من قبائل البربر ، وأوربة بن من بطون البرانس .

عقبة، فقال أبو المهاجر : «عاجله قبل أن يقوى جمعه» ، وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة ، فزحف عقبة على (كسيلة) ، ففتح كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه ؛ فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي :

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمت عنائي الحديد وأغلقت مصارع من دوني تُصم المناذيا
فبلغ عقبة ذلك ، فأطلقه وقال له : «إلحق بالمسلمين وقم بأمرهم ، وأنا أغتيم الشهادة» ، فلم يفعل وقال : «وأنا أيضاً أريد الشهادة» . وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا الى البربر وقتلواهم ، فقتل المسلمون جميعهم^(١) ومعهم عقبة ، وقتل معه زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين في أرض الزاب ؛ (تهوذة)^(٢) .

الإلسان :

استشهد عقبة سنة ثلاث وستين الهجرية^(٣) (٦٨٣ م) في معركة (تهوذة) ، وكان مولده قبل الهجرة بسنة واحدة كما أسلفنا (٦٢١ م) ، وقبره يزار بالزاب^(٤) ، كما أن أجداث الصحابة الشهداء الذين استشهدوا معه بمكانهم من أرض الزاب يزارون لهذا العهد ، وقد جعل على قبورهم اسمته ثم جصّصت ، واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة وهو في عداد المزارات^(٥) .

كان صحابياً بالولادة، وكان إدارياً حازماً : اختطف القيروان سنة

(١) ابن الاثير (٤٣/٤) .

(٢) الاستقصا (٢٤/١) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣٤٩/٣) والتهذيب والنهاية (٢١٧/٨) وابن الاثير (٥/٥) والإصابة (٨١/٥) .

(٤) الخلاصة للثقة (٥) .

(٥) الاستقصا (٧٤/١) .

خمسین المجرية ، والقيروان اليوم حيث اختطها عقبة ^(١) ، كما اختط المسجد الأعظم وكان يصلي فيه ^(٢) ، فكانت هذه المدينة منذ اختطاطها إسلامية بحتة لا يسكنها غيرهم كما قال عقبة : « ... ولست أرى نزول المسلمين بين أظهرهم (غير المسلمين) رأياً ، ولكن رأيت أن أبني ههنا مدينة يسكنها المسلمون ^(٣) » ، كما أصبحت القيروان مقراً لعسكر المسلمين ^(٤) .

فقد كان عقبة على جانب عظيم من الورع والتقوى ، وكان مجاب الدعوة ^(٥) ، ولا نعلم أنه شارك في الفتنة الكبرى بين علي بن أبي طالب وبين معاوية بن أبي سفيان بلسانه أو بسيفه ، بل كان حينذاك حامية في ثغور المسلمين في منطقة (برقة) . كما لا نعرف أنه أثرى من الفتح أو شغل نفسه بالغنائم والبناء ، بل إنه كرّس حياته كلّها للجهاد ، وكان يوصي ولده بقوله : « لا تقبلوا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من ثقة وإن لبستم العباء ، ولا تكتبوا ما يشغلكم عن القرآن » ^(٦) .

وكان له عقب ، وولده بمصر والشام وإفريقية ^(٧) ، وكان ذا شجاعة وحزم وديانة ^(٨) .

لقد كان مثلاً حياً للسلف الصالح من العرب المسلمين خلقاً وورعاً وشجاعة وحزماً ، وقد نشر الإسلام في مناطق واسعة من شمال إفريقية وخاصة بين قبائل البربر ذات الشجاعة والرجولة والإقدام ، الذين كانوا

(١) الاستيعاب (١٠٧٦/٣) .

(٢) رياض النفوس (٧/١) .

(٣) آثار البلاد (٢٤٢) .

(٤) أبو الفدا (١٨٧/١) .

(٥) الاستيعاب (١٠٧٧/٣) وأسد الغابة (٤٢١/٣) وسير أعلام النبلاء (٣٤٩/٣) .

(٦) الإصابة (٨١/٥ - ٨٢) .

(٧) الإصابة (٨١/٥) .

(٨) سير أعلام النبلاء (٣٤٩/٣) .

نصارى ، وفشا الإسلام الى أن اتّصل ببلاد السودان وبالبحر المحيط . (١)

القائد :

١ - كان عقبة من أولئك الرجال الذين ابتلوا بإفراط المعجبين به قائداً لإنساناً ، وتفريط الناقلين له قائداً .

أفرط المعجبون بقيادته - وخاصة من المؤلفين القدامى - فجعلوا منه القائد الأول والأخير في فتح (إفريقية) ، وأسبغوا على أعماله العسكرية طابع الخوارق والكرامات .

وأفرط المعجبون به لإنساناً ، فجعلوا منه شخصية هي أقرب الى أولياء الله الصالحين منها الى الرجل المجاهد الصابر المحتسب الذي نذر نفسه لله ولعقيدته .

وكان من تفريط الناقلين به قائداً ، أنهم جعلوا منه قائداً فاشلاً : لا هدف له من حملته الكبرى ولا خطة له في إدارة الحرب ، وحتى لم يعمل على نشر الإسلام حسب خطة مرسومة وغاية واضحة (٢) .

فما هي حقيقة قيادة عقبة بعيداً عن الإفراط والتفريط واستناداً على الحقائق التاريخية العسكرية البحتة دون تحيز ومحاباة ولا تجنب وتجاهل ؟؟

٢ - كان عمرو بن العاص أول من اكتشف مزايا عقبة العسكرية ، فولاه بموافقة عمر بن الخطاب وفي أيام خلافته قيادة جيش من جيوش المسلمين .

ولست أشك أن توليته مثل هذا المنصب لم يكن لأنه كان قريب القرابة لعمرو بن العاص ، إذ أن عمراً كان له أقرباء كثيرون ، فلماذا يؤثر عقبة بالقيادة على غيره من ذوي قرباه ؟! وقد يتساهل من يؤثر أقرباءه على غيرهم من

(١) جمل فتوح الاسلام لابن حزم - ملحق بمجموع السيرة (٣٤٤) .

(٢) انظر فتح العرب للمغرب (٢٠٢ - ٢٠٣) ، وآمل أن يمد المؤلف القائل بالنظر فيما كتبه عن عقبة في الطبقات الجديدة لهذا الكتاب القيم .

الناس في إعطائهم المناصب الإدارية التي تؤمن لهم الراحة والسلطة والمال ، أما أن يؤثرهم بالمناصب القيادية على غيرهم ، فأمر فيه نظر ، إذ أن مثل هذه المناصب تقود أصحابها الى حتوفهم وتقود رجالهم الى المهالك ، وتودي بسمعه من ولائهم القيادة الى الخضيض !... فليس بالمتوقع من مثل عمرو ابن العاص - وهو من هو دهاء - وبعد نظر - أن يولي مناصب القيادة أحد أقربائه لأنه قريبه فقط دون أن يكون قديراً على قيادة الرجال ممارساً لإدارة القتال . وإذا جاز أن يجري مثل ذلك في أيام غير أيام عمر بن الخطاب ، فمن المستحيل أن يجري مثل ذلك في أيام عمر بن الخطاب (١) .

لقد تولى عقبة منصب القيادة بعد أن بذل جهوداً مشقة في فتح مصر ، وبعد أن لمس عمرو بن العاص بنفسه تلك الجهود ، لذلك لم يستطع أمراء مصر بعد عمرو أن يعزلوا عقبة عن منصبه القيادي وبقي قائداً حتى سنة خمس وخمسين الهجرية في أيام مسلمة بن مخلد ، ولم يكن عزله حينذاك لعجزه ، وإنما كان لأسباب أخرى سترد وشيكاً .

ولم يخيب عقبة ظن عمرو بن العاص به ، فنجح في فتح (زويلة) وأمن الحدود الغربية لمصر وصار ما بين (زويلة) و(برقة) مسلماً للمسلمين ، وذلك سنة إحدى وعشرين الهجرية . كما أن عمرو بن العاص بعث في ذلك العام الى (النوبة) ، فكان أول من مهد لفتح النوبة من المسلمين وأمن الحدود الجنوبية لمصر .

وقد تسنم عقبة منصب قيادة حامية (برقة) لحماية الحدود الغربية لمصر ، فحمى تلك الحدود في أيام عمرو بن العاص في عهد عمر بن الخطاب وأوائل عهد عثمان بن عفان ، فلما عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولاهما عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة خمس وعشرين الهجرية أقر عقبة على منصبه وكان من أبرز قادته الذين عاونوه في فتح (إفريقية) أيام عثمان بن عفان .

(١) انظر الشروط التي كان يلاحظها عمر بن الخطاب في تولية القادة في كتاب : (الفاروق القائد) (٤٣ - ٤٨) الطبعة الثانية .

وبقي عقبة في أيام علي بن أبي طالب على حامية (برقة) فلم يعزله عنها قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الذي تولى مصر سنة سبع وثلاثين الهجرية لعل بن أبي طالب^(١) ، ولم يعزله عنها محمد بن أبي بكر الصديق الذي تولى مصر سنة سبع وثلاثين الهجرية لعل بن أبي طالب أيضاً^(٢) .

وأصبح عقبة على (إفريقية) منذ سنة إحدى وأربعين الهجرية حين استعمله عمرو بن العاص في أيام ولايته الثانية على مصر ، وبقي عليها في أيام عبد الله بن عمرو بن العاص وفي أيام عتبة بن أبي سفيان الذي تولى مصر سنة ثلاث وأربعين الهجرية^(٣) وفي أيام عقبة بن عامر الجهني .

وفي أيام معاوية بن حديج السكوني الذي تولى مصر سنة سبع وأربعين الهجرية^(٤) أقر ابن حديج عقبة على قتال إفريقية ، وهو الذي بعثه سنة خمسين الهجرية لغزو إفريقية^(٥) .

وبعد عزل ابن حديج عن إفريقية سنة خمسين الهجرية ، أقر معاوية ابن أبي سفيان عقبة عليها ووجهه لفتحها^(٦) .

هكذا بقي عقبة قائداً في إفريقية طيلة أيام عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وشرطاً من أيام معاوية بن أبي سفيان ، وعمل بإمرة عدد كبير من أمراء مصر طيلة عهود هؤلاء الخلفاء الأربعة ، أي منذ سنة إحدى وعشرين الهجرية إلى سنة خمس وخمسين الهجرية ، فلم ينزعه عن قيادته خليفة ولا أمير ، وهذا دليل واضح على ما كان يتمتع به من كفاية وكياسة ومقدرة ، لأنهم جميعاً كانوا بحاجة ماسة إلى خبرته الطويلة المفيدة

(١) الولاة والقضاة (٢٠) .

(٢) للولاة والقضاة (٢٧) .

(٣) الولاة والقضاة (٣٥) .

(٤) ابن الأثير (١٨/٣) والبيان المغرب (٤٧/١) .

(٥) البلاذري (٢٣٧) .

(٦) البيان المغرب (١٩/١) .

في شؤون إفريقية ، ولأنه كان جندياً فحسب متفرغاً للجهاد بعبداً عن التيارات السياسية .

لقد أصبح عقبة على مرّ الأيام خيراً بقتال إفريقية ، وكان سيفه دائماً للعرب المسلمين ... لا عليهم ...

٣- فما هي حصيلة أعماله في هذه الفترة من تولّيه منصب القيادة في إفريقية ؟

فتح (زويلة) ، ومهّد لفتح (النوبة) ، وأمن الحدود الغربية والجنوبية لمصر قاعدة الفتح الإسلامي الرئيسة في إفريقية ، وعاون ابن أبي سرح وابن حديج في فتح إفريقية ، وحسّى (برقة) القاعدة الأمامية للفتح في إفريقية من الروم ومن البربر حتى في أيام الفتنة الكبرى والحروب الداخلية بين علي بن أبي طالب وبين معاوية بن أبي سفيان ، وغزا البحر مرتين ، وافتتح (غدامس) وكوراً من كور السودان ، واستعاد (ودّان) ، وفتح (فزان) حتى أتى على آخرها ، وفتح بلاد (كاوار) حتى أتى على آخرها أيضاً ، وفتح قصر (خاور) مطبقاً مبدأ (المباغطة) على أحسن وجه .

لقد كان عقبة في هذه الفترة من قيادته أوّل من فتح (زويلة) وأوّل من مهّد لفتح (النوبة) وأوّل من أدخل العرب فاتحين الى (فزان) ، وأوّل من نشر الإسلام في ربوع ليبيا ، وأوّل من تغلغل فاتحاً في الصحراء الليبية .

وأخيراً توجّ أعماله ببناء (القيروان) القاعدة الأمينة المتقدّمة للمسلمين ، حتى إذا أنجز بناءها سنة خمس وخمسين الهجرية ، واستعدّ لاستئناف الفتح مستنداً على تلك القاعدة الأمينة ، جرت الرياح بما لا تشتهي السفن ، إذ عزل عقبة عن (إفريقية) في الوقت الذي تهيّأت له كل الأسباب والاستعدادات لفتح المغرب الأوسط والأقصى ، فلم يدرك مناه ولم ينفذ كل خططه في الفتح .

تلك هي مجمل حصيلة أعماله في ميادين الحرب والدعوة في فترة ولايته الأولى ، فهل هناك من يستطيع غمزه بالتقصير أو اتهمه بأنه تولى القيادة لأنه من أقرباء عمرو بن العاص فحسب ؟؟

وإذا لم تكن هذه المفاخر — بل بعضها ، كافية لتقدير قيادة عقبة ، فماذا بإمكان أي قائد أن يفعل ليستحوذ على التقدير والإعجاب ؟؟
لقد كانت نتائج أعمال عقبة في هذه الفترة مدعاة للفخر والإعزاز ، وهي من الناحية العسكرية الفنية تستحق كل التقدير والإكبار .

٤ — فلماذا عُزل عن (إفريقية) بعد كل هذه الجهود وهذا الجهاد ؟

في سنة خمس وخمسين الهجرية استعمل معاوية بن أبي سفيان مَسْلَمَةَ بن مُخَلَّد الأنصاري على مصر وإفريقية ، فعزل مسلمة عقبة عن إفريقية واستعمل مولى له يقال له : أبو المهاجر دينار .

ولم يعزل معاوية أو مسلمة عقبة عن إفريقية لريبة أو تقصير ، ولكن معاوية أراد أن يكافئ مسلمة الذي كان من أبرز أعوانه على إخلاصه له ، فولاة مصر مكافأة له ووفاء بحقه عليه .

فقد كان مسلمة عثمانياً في أيام عثمان ، ولم يتزعزع أبداً عن إخلاصه لعثمان ، حتى بعد قتله : فقد أرسل مسلمة هو وصحبه في أيام عثمان من ينجبره بشغب محمد بن أبي حذيفة عليه^(١) ، وكان مع الخارجين على أمير مصر لعلي بن أبي طالب قيس بن سعد بن عباد^(٢) ومحمد بن أبي بكر من بعده^(٣) . وقد شهد مع معاوية معركة (صفين) ، وكان من أكبر أعوان عمرو بن العاص في استعادة مصر من أميرها محمد بن أبي بكر وكان ممن شهد قتله^(٤) ،

(١) الولاة والقضاة (١٥) .

(٢) الولاة والقضاة (٢١) .

(٣) الولاة والقضاة (٢٧) وانظر العبر (٤١/١) .

(٤) أسد الغابة (٣٦٥/٤) .

وكان من الذين وطّدوا أركان الدولة الأموية في مصر ، فلم يكن لمعاوية مناص من تولية مسلمة بعد أن ولي من قبله أمثاله من أعوانه المقرين اليه والمخلصين له كعمرو بن العاص ومعاوية بن حديج .

أما مسلمة فقد وليّ أبا المهاجر دينار مولاه على (إفريقية) ، لأنه كان من رجاله المقرين اليه الذين صمدوا الى جانبه في أيام الشدة ، والذين كانوا من أكبر أعوانه في السلم والحرب ، ومن الطبيعي أن يعتمد كل أمير جديد على أقرب أعوانه في تسيير دفة الحكم في البلاد التي يتولّاها . قيل لمسلمة : « لو أقررت عقبة فإن له جزالة وفضلاً ! » ، فقال مسلمة : « إن أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية ولا كبير نيل ، فنحن نحب أن نكافئه »^(١).

لذلك لم يستطع معاوية ولا يزيد من بعده أن يعيد عقبة الى (إفريقية) على الرغم من خبرته الطويلة فيها ومعرفته الدقيقة لمسالكتها ومدخلها ومخارجها وسكانها قبل أن يتوفى مسلمة سنة اثنتين وستين الهجرية^(٢).

لقد كان عزل عقبة عن إفريقية ليس كرهاً له بل بحجة بمسلمة وأبي المهاجر ومكافأة لهما على خدماتهما وإخلاصهما للحاكمين حينذاك .

٥ - بعد موت مسلمة بن مُخَلَّد ، اضطر يزيد بن معاوية على إعادة عقبة الى (إفريقية) فاستعمله عليها سنة اثنتين وستين الهجرية^(٣) ، وقال يزيد : « أدركوها قبل أن يخربها »^(٤) ، ويريد بذلك : أدركوا (إفريقية) قبل أن يخربها أبو المهاجر . وعلى الرغم من أن أبا المهاجر أبلى بلاء حسناً في أعماله ، بل قام بأعمال مجيدة هناك كما سيرد تفصيله عند الحديث عنه ، ولكن ليس كل قائد يستطيع أن يملأ الفراغ الذي يملأه عقبة .

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٦٦) .

(٢) الولاة والقضاة (٤٠) والإصابة (٩٨/٦) والعبر (٦٦/١) وشذرات الذهب (٧٠/١) .

(٣) ابن الأثير (١٨٤/٣ - ١٨٥) .

(٤) رياض النفوس (٢٢/١) .

وأكد أنيّن بوضوح ، أن الحاجة الملحة الى عقبة هي التي جعلت يزيد يولي (إفريقية) ، وإلاّ فلا نعرف أن عقبة شغل نفسه في التيارات السياسية التي سادت في أواخر أيام عثمان وفي أيام الفتنة الكبرى وفي عهد معاوية ، فليس له ذكر في الفتن الداخلية ولا في الحروب التي دارت رحاها بين المسلمين ولا في محاولة معاوية أخذ البيعة لابنه يزيد ...

لقد كان عقبة جندياً فقط ، لا تستهويه السياسة من قريب ولا بعيد .
فما هي حصيلة أعماله في عهد ولايته الثانية على (إفريقية) التي امتدت سنة واحدة وبضعة شهور ؟؟

بدون مبالغة ولا تحيز ، فإنه في خلال هذه الفترة القصيرة ، قد حقق أعمالاً عسكرية باهرة بلغت حدّ الروعة والإعجاز .

لقد انطلق بكل اندفاع وحماسة لتحقيق آماله وأمانيه في فتح إفريقية من (القيروان) حتى المحيط الأطلسي ، وأنجز ذلك في وقت قد لا يصدق العقل عند دراسته من الناحية العسكرية البحتة ، ولكنّ هذا هو الذي حدث فعلاً استناداً الى النصوص التاريخية الموثوق بها !!

لم يكد يصل الى (القيروان) إلا وترك الدراري والأنتقال فيها ، وترك قوة مناسبة من رجاله لحمايتها ، ثم اندفع متغلباً في مجاهل المغرب متنقلاً من نصر الى نصر ناشراً الإسلام داعياً الى الله ، حتى وصل الى بلاد (أسفى)^(١) على المحيط الأطلسي وأدخل قوائم فرسه في البحر المحيط ، ووقف ساعة ثم قال لأصحابه : «إرفعوا أيديكم» ، ففعلوا ، فقال : «اللهم إني لم أخرج بطراً ولا أشراً ، وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تعبد ولا يُشرك بك شيء . اللهم إنا معاندون لدين الكفر ، ومدافعون عن دين الإسلام ، لكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال

(١) أسفى : بلدة على شاطئ البحر المحيط بأقصى المغرب . انظر معجم البلدان (١/ ٢٣٢) .

والإكرام ، ثم انصرف راجعاً^(١) .

وقد أخذ عليه بعض المؤرخين الأجانب وبعض المؤرخين العرب بعض المآخذ حول أعماله العسكرية في هذه الصفحة من صفحات معاركه ؛ ولعلّ أهمّ تلك المآخذ هي : عدم تأمين خطوط مواصلاته الطويلة التي قارب طولها ألفي كيلو متر من القيروان الى ساحل المحيط ، وأنه ترك بعض المدن المعادية دون أن يفتحها ودون أن يؤمّن ظهره وخط رجعتة تاركاً أعداءه متحصنين وراء ظهره ، وأنه لم يكن له هدف واضح ولا خطة معينة^(٢) .

وأفترض هنا أن دافع هذا النقد هو عدم التخصص في النواحي العسكرية ، وبتعبير آخر: أن هؤلاء المؤلفين لم يكونوا عسكريين من ذوي الاختصاص وقد يفترض غيري دوافع أخرى لهذا النقد .

إن تأمين خطوط المواصلات الطويلة في تلك الأزمان ، كان بوضع حاميات في المراكز المهمة كالمدن والقرى والمراحل ومحلات عبور الأنهار ، وهذا ما فعله عقبة ، وإذا كان قد وضع حامية في (القيروان) وهي مدينة إسلامية ، فهل يغفل عن وضعها في المراكز المهمة الأخرى؟؟؟!

وإذا أغفل التاريخ ذكر تدابير عقبة في تخصيص تلك الحاميات والمسالك التي تهدف الى حماية خطوط مواصلاته ، فهل معنى ذلك أنه لم يعمل على وضع تلك الحاميات والمسالك الضرورية لتأمين خطوط مواصلاته؟!

إن خطوط المواصلات ، وهي التي تربط القاعدة الرئيسة أو المتقدمة بالجبهة ، هي الشرايين التي إذا لم تؤمّن بكل دقة لتتدفق عليها وبواسطتها الإمدادات والقضايا الادارية ، كان مصير القائد وقواته الفناء الأكيد ، فهل هناك قائد واحد في الدنيا كلها يغفل عن حماية خطوط مواصلاته ليلاتي

(١) الاستقصا (٧٤/١) .

(٢) انظر فتح العرب للعرب (٢٠٢ - ٢٠٤) والفتوحات العربية الكبرى (٦٣٤ - ٦٤١) .

هو ورجاله الموت والفناء؟؟

إنّ تأمين خطوط المواصلات أمر بدمي لا يغفل عنه أي قائد ، فكيف يغفل عنه قائد مثل عقبة ؟

أما أن عقبة ترك بعض المدن دون أن يفتحها ، فقد حدث فعلاً ، ولكن لا غبار على تصرفه هذا من الناحية العسكرية .

إن المبادئ العسكرية في حصار المدن تقول : « إذا لم تكن المدينة هدفاً سوقياً (ستراتيجياً) ، وخشي القائد مغبة تعطيل قواته لحصارها ، فيمكنه تخصيص قوة مناسبة لمراقبتها ومنع العدو فيها من قطع خط المواصلات ، والانصراف بعد ذلك الى أهدافه الأخرى ؛ لأن بقاء قواته الضاربة مدة طويلة لمحاصرتها سيضيع الوقت على القائد سدى وسيحرمه من تحقيق أهدافه الأخرى » .

ولست أشك أن عقبة طبق هذا المبدأ في تغلغله عمقاً في (إفريقية) ، فقد كانت المدن التي أجّل فتحها أهدافاً غير سوقية ، كما أن القوات المعادية التي تدافع عنها لا قيمة لها من الناحية العسكرية ، وكان قراره في ترك حصارها وإبقاء قوة مناسبة لمراقبتها ولحماية خطوط مواصلاته قراراً صائباً جداً .

أما الإدعاء بأن عقبة لم يكن له هدف واضح ولا خطة معينة للفتح ، فهذا ادعاء متهاافت ، إذ كان هدفه هو هدف الفتح الإسلامي في كل مكان وهو : نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله ، وهذا ما صرّح به عقبة وما كان يتوخاه . أما خططه العسكرية فهي التي أمنت له الانتصارات المتوالية بأقصر وقت وبأقل جهود وبقوة مناسبة ، وإلا فكيف استطاع الانتصار على أعدائه في معارك متسلسلة وفي عقر ديارهم ؟

٦ - سلك عقبة في ذهابه من (القيروان) الى المحيط طريق الأطلس التلي ، أما رجوعه فعلى شمال الأطلس الصحراوي ، لأنه أقرب طريق الى

(القيروان) ، وقد نجا بتغيير طريقه من الفخاخ التي بنيت له^(١) ، ذلك لأن ابن الكاهنة البربري خرج في أثر عقبة بعد مغادرته (القيروان) ، فكان كلّمًا رحل من منهل^(٢) دفنه ابن الكاهنة ، فلم يزل كذلك حتى انتهى عقبة الى (السوس) ولا يشعر عقبة بما صنع البربري^(٣) .

وأرى أن من جملة الأسباب التي حدثت بعقبة على تبديل طريق عودته ، هو أنه شعر بما فعله ابن الكاهنة من تغوير المياه ، إذ أن المياه ضرورية للقوات ولحيواناتها ، فلا يمكن أن يغفل مثل عقبة عن استحصال المعلومات اللازمة عنها .

كما أنه بدّل طريق عودته ، لأن قوات الروم والبربر ذات شأن وقوة على جانبي طريق الذهاب القريبة من البحر والمدن ، وهي أقل شأنًا وقوة في طريق العودة الصحراوي ، لذلك فالمقاومات المحتملة للمسلمين السائرين على هذه الطريق تأتي من سكانه البربر بالدرجة الأولى ومن حلفائهم الروم بالدرجة الثانية بعكس المقاومات المحتملة على الطريق القريبة من الساحل والآهلة بالسكان والمدن .

كما قدّر أن الصحراء هي ميدان قتال العرب وليس ميدان قتال الروم ، لذلك كان قرار عقبة عن تبديل طريق عودته قراراً صائباً حقاً .

ولكن محذور طريق العودة هو قلة مياهه ، وهذا العامل هو الذي حدا بعقبة إلى أن يبعث بقواته لإرسالة حتى بقي أخيراً ومعه قوات قليلة تبلغ الثلاثمائة فارساً أو تزيد على هذا العدد الضئيل قليلاً .

هذا هو الجواب للمتسائلين عن : « كيف أرسل عقبة قواته أمامه بقدمات متعاقبة وبقي مع قوات قليلة ؟ » .

(١) تاريخ المغرب الكبير (٤٥/١) .

(٢) النهل : مكان شرب الماء . وابن الكاهنة هو كسيلة .

(٣) فوج مصر والمغرب (٢٦٨) .

إن قلّة المياه في طريق عودته هي التي اضطرتّه على إرسال قواته بقدمات متعاقبة ، لأن قلّة المياه تجعل الحركة على هذه الطريق بقوات جسيمة أمراً مستحيلاً .

وإذا كان القائد الذي يعرف مسؤولياته ويقدرها حقّ قدرها يكون دائماً في (المقدمة) أثناء التقدّم وفي الهجوم ، فهو دائماً يكون في (المؤخرة) أثناء الانسحاب والعودة ، وهذا ما فعله عقبة فعلاً ، إذ بقي مع (الساقة) في عودته من المحيط الى (القيروان) ، وأشرف على حماية قواته حتّى وصلت الى ماثبتها سالمة وسقط هو وساقته شهداء من أجل القسم الأكبر من قوات المسلمين .

ألم يكن بإمكان عقبة أن يتقدّم قواته فيصل مع المقدمة الى مدينة (القيروان) ؟ ألم يكن بإمكانه أن يرافق القسم الأكبر من قواته ويترك قيادة الساقة لبعض من يعتمد عليهم من قادته فيكون هو بعيداً عن الأخطار ؟

لقد كان بإمكانه أن يفعل ذلك غير ملوم ، ولكنّ حرصه على أرواح قواته وسلامتها ، ولكنّ تقاليده العسكرية العريقة ، ولكنّ تطبيقه أسلوب القتال الذي ينصّ على : أن يكون قائد القوم أقرب ما يكون الى الخطر ليعطي بمثاله الشخصي لرجاله أروع الأمثال ... كلّ ذلك أبى عليه إلا أن يزجّ بنفسه في الخطر المحدق لتنجو قواته الضاربة من خطر محيق ..

٧ - بقي علينا أن نجيب عن أسباب إساءة أبي المهاجر دينار عزل عقبة ؟ وهل كان ذلك مجرد اجتهد منه أم كان مدفوعاً من غيره ؟

الظاهر أن الشعبية التي كان يتمتع بها عقبة في إفريقية بين العرب والبربر المسلمين كانت طاغية ، لذلك قدّر أبو المهاجر أنه لن يستطيع السيطرة على ولايته بسهولة ويسر ما لم يحجز حرية عقبة ولو الى فترة وقتية ، والظاهر ايضاً أنه لم يكن ليقدم على مثل هذا العمل ما لم يأخذ موافقة مسلمة بن مخلد سلفاً .

والدليل أن أبا المهاجر كان يخشى عقبة ، أن معاوية لما أمر بإطلاق سراح عقبة ، أرسله برسل من قبله حتى أخرجه من (قابس) (١) وهو حنق على أبي المهاجر (٢) ، فدعا عقبة على أبي المهاجر ، فبلغ ذلك أبا المهاجر ، فلم يزل خائفاً منذ بلغته دعوته (٣) ، مما يدل على أن أبا المهاجر كان يقدر عقبة كل التقدير ، وأنه كان لعقبة مكانة مرموقة في نفس أبي المهاجر .

وحين قدم عقبة مصر ركب اليه مسلمة بن مخلد ، وأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبو المهاجر ، وأنه قد أوصى أبا المهاجر به خاصة (٤) ، وهذا الإدعاء لا يرى ساحة مسلمة من إقدام أبي المهاجر على حجز حرية عقبة بعلمه ، إذ لم يكن بإمكان مسلمة إلا أن يعتذر إلى عقبة بمثل هذا الإدعاء — خاصة بعد استنكار معاوية لاعتقال عقبة وبعد أن أمر بإطلاق سراحه ، وبعد أن علم بأن عقبة في طريقه الى الشام لعرض ظلامته على معاوية بن أبي سفيان .

ولكنني اتبين من إقدام مسلمة على الموافقة على اعتقال عقبة وإقدام أبي المهاجر على اعتقاله ، رغبتهما في إثارة المصلحة العامة على المصلحة الشخصية لعقبة ، إذ قدراً أن عقبة لن يسكت بسهولة على عزله ، فاذا سكت هو فلن يسكت أنصاره وأقرباؤه من العرب ومن قريش بالذات .

ولكن ، هل كان عقبة من الذين يشغبون على أمرائهم خضوعاً لمصالحهم الشخصية ؟ أكاد أجزم بأنه ليس من أولئك النفر من الناس ، فقد كان عقبة مؤمناً حقاً ، ومثله يدوس بقدميه كل مصلحة شخصية له ، ولكنه حنق على اعتقاله أشد الحنق ، واستنكر عزله لأن ذلك حال بينه وبين تنفيذ خططه التوسعية في الفتح .

-
- (١) قابس : مدينة بين طرابلس وسفاقس ثم المهديّة على ساحل البحر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٧) وتقوم البلدان (١٤٢ - ١٤٣) .
(٢) رياض النفوس (٢١/١) .
(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٢٦) .
(٤) فتوح مصر والمغرب (٢٢٦) .

وما يقال عن اعتقال عقبة ، يقال عن اعتقال أبي المهاجر الذي اعتقله عقبة في ولايته الثانية ، فقد أحسن أبو المهاجر في عمله واستمال قلوب كثير من أتباعه ، خاصة من البربر وعلى رأسهم أميرهم (كسيلة)^(١) ، الذي كان صديقاً حميماً لأبي المهاجر ، فقد صالح أبو المهاجر بربر إفريقيا وفيهم (كسيلة) وأحسن إليه ، وكان (كسيلة) قد أسلم وحسن إسلامه وصحب أبا المهاجر^(٢) .

٨- وأخيراً ، كلل عقبة حياته الحافلة بالجهاد المليئة بالنشاط والحركة لخدمة الإسلام ونشره بتضحيته بحياته ، فسقط شهيداً مع أصحابه الأبطال .
فهل كانت خاتمته المفجعة والمشرقة في آن واحد نتيجة لإهماله وعدم تقديره عواقب الأمور ، أم أن هذه الخاتمة لم تكن متوقعة في تقدير موقفه العسكري ؟

الذي يتتبع الحوادث منذ بداية الفتح في إفريقيا على يد عقبة وعمر بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ومعاوية بن حديج وغيرهم من القادة الفاتحين الى إمارة عقبة الثانية ، لا يجد أثراً ملحوظاً للبربر في الدفاع عن إفريقيا ، وكل ما لاقاه العرب المسلمون من مقاومة كانت من الروم ؛ ولا يخلو الأمر أن يكون مع الروم جماعة من الأفارقة والبربر يؤدون مهمة الجند ، أو المحافظة على الأمن في الحصون والمدن ، ولكن لا توجد تلك التجمعات الكبيرة والجموع المحتشدة من البربر لرد العرب المسلمين ولمقاومة فتحهم مثل ما حدث في أيام عقبة في إمارته الثانية . وكانت كل مقاومة الروم مقتصورة على المدن الساحلية وعلى محاور الطرق الساحلية . كان العرب المسلمون يسلكون أيام الفتح الطرق التي تمر في قلب بلاد البربر وفي وسط منازلهم ، فكأنهم يهرون بركة وهي موطن (لواته) ومنها يهرون ؛ (سرت)

(١) رياض النفوس (٢١/١) .

(٢) ابن الأثير (٤٢/٤) .

وما بعدها الى طرابلس ، وهي موطن (هواره) ، ويقع على جنوب طريقهم الى إفريقية جبل (نَقُوسَة)^(١) وهو موطن من موطن قبائل البربر القوية ؛ ومع ذلك لم يذكر المؤرخون لتلك القبائل البربرية أي نشاط عدائي لمقاومة الفتح الإسلامي قبل إمارة عقبة الثانية^(٢) .

لعلّ من أسباب عدم مقاومة البربر للفتح الإسلامي قبل إمارة عقبة الثانية ، - أو على الأصح - قبل عودة عقبة من المحيط الى (القيروان) ، إذ أنه في أيام تقدّمه من القيروان الى المحيط سار لا يدافعه أحد^(٣) ، أن البربر كانوا ينظرون الى الروم نظرة المستعمر الغاشم ، فانتهزوا فرصة الفتح الإسلامي فخلّوا بينهم وبين الروم انتقاماً من الروم ، كما أن البربر نظروا الى الفاتحين الجدد نظرة المحرّر لهم من ربقة الإستعمار الذي طال تعسّفه واستغلاله لمواردهم . كما أن الفاتحين بذلوا جهدهم لنشر الإسلام في صفوف البربر ، فعاون البربر المسلمون إخوانهم العرب المسلمين في الفتح .

ولكنّ عقبة أخطأ في معاملة رؤساء البربر ، فلما ولي عقبة عرّفه أبو المهاجر محلّ كسيلة وأمره بحفظه فلم يقبل واستخفّ بكسيلة . وأتى عقبة بغنم فأمر كسيلة بذبحها وسلخها من السلاّخين ، فقال كسيلة : « هؤلاء فتياي وغلماني يكفونني المؤونة » ، فشتّمه وأمره بسلخها ، ففعل ... فقبح أبو المهاجر هذا عند عقبة ، فلم يرجع ! فقال له : « أوثق الرجل فلاني أخاف عليك منه » ، فتهاون به عقبة ، فأضمر كسيلة الغدر ؛ فلما رأى الفرصة سانحة له جمع أهله وبني عمه وقصد عقبة^(٤) . وقيل : إن كسيلة إنما أتى ناصراً لأبي المهاجر ، لأنه كان صديقه ، فقتل أبو المهاجر في التحام القتال ولم يعلم به^(٥) .

(١) نقوسة : جبال في المغرب بعد إفريقية عالية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٠٥/٨) .

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٧٩) .

(٣) رياض النفوس (٢٣/١) .

(٤) ابن الأثير (٤٣/٤) .

(٥) رياض النفوس (٢٥/١) .

لقد أدرك أبو المهاجر خطأ عقبة في اضطهاده كسيلة ، فنصح عقبة أن يتألف كسيلة ولا يستهين به ، فقال لعقبة : « أصلح الله الأمير ! ما هذا الذي صنعت ؟ ! » كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس التميمي وعُيينة بن حصن ، وأنت تجميء إلى رجل هو خيار قومه في دار عزّه ، قريب عهد بالكفر ، فتفسد قلبه ! توثق من الرجل ، فلإني أخاف فتكه ! » ، فتهاون عقبة ، فلما انصرف كسيلة نكث البربر ما كانوا عليه (١) .

لقد كان عقبة من أولئك القادة الذين يقسون على رؤساء أعدائهم ليكونوا عبرة لأمثالهم فلا يقدمون على محاربة المسلمين ، وقد كان خالد ابن الوليد يطبّق هذا المبدأ في حربه الفرس والروم ، فنجح خالد وفشل عقبة ، لأن الفرس والروم لم يكونوا قبائل تعتدّ بالكرامة الشخصية وتؤمن بأخذ الثأر ، وتجلّ رؤساءها وتدين لهم بالطاعة ، وتعتبر كلّ اعتداء عليهم اعتداء على قبائلهم كما كان البربر ، وكما كان العرب أنفسهم ، فهم يعتبرون كلّ ذلك من جملة تقاليدهم العريقة التي لا يجحدون عنها قيد أنملة ويرون أن التغاضي عن الأخذ بتلك التقاليد عاراً دونه كلّ عار .

فكيف يُسلم البربر عظيماً من عظمائهم ورئيساً من رؤسائهم وهو كسيلة إلى المدلة والهوان ؟

لقد استثار عقبة بمعاملة كسيلة معاملة فيها كثير من التحدي وكثير من الاستهانة به ذوي قرباه وأهله وقبيلته ، فعمل هؤلاء على جمع الحشود الضخمة من البربر حتى بلغ جمعهم خمسين ألفاً من المقاتلين (٢) ، فما كان أخرى بعقبة أن يتألف كسيلة وأمثاله لتكون سيوفهم له كما كانت لأبي المهاجر من قبله لا عليه كما أصبحت من بعد !

(١) رياض النفوس (٢٦/١) .

(٢) رياض النفوس (٢٦/١) .

لقد كان عقبة قائداً لامعاً يليق للمعاصم ، أما للسياسة فلا ...

٩ . لقد عمل عقبة على نشر الإسلام في ربوع إفريقيا عملاً دائماً ، بل كان أول الفاتحين من العرب المسلمين الذين بدأوا بنشر رايات الإسلام في ليبيا ، وكان أول من تغلغل في مجاهل الصحراء الليبية وأول من تغلغل في مناطق إفريقية جديدة مثل (فزان) والمغرب الأوسط والأقصى ، ولو لم يعمل عقبة وغيره من الفاتحين على نشر الاسلام بين البربر لكان مصير العرب المسلمين في إفريقيا بعد نكسة عقبة في معركة (تهوذة) مهلداً بالفناء ؛ فقد أسر محمد بن أوس في نفر يسير من أصحاب عقبة الذين شهدوا معه تلك المعركة واستشهد فيها عقبة ، فخلّصهم صاحب (قفصة) وبعث بهم الى (القيروان)^(١) لأنه كان مسلماً . بل إن كسيلة نفسه حين دخل القيروان وكان بها أصحاب الأتفال والذراي من المسلمين ، فطلبوا الأمان منه فآمنهم^(٢) ، مما يدل على خشيته من الذين بقوا على الإسلام من رجال قبيلته ورجال القبائل البربرية الأخرى .

لقد جمع كسيلة جميع أهل المغرب ، وزحف الى (القيروان) ، فانقلبت إفريقيا نارا^(٣) مما يدل على أن ثورة عظيمة شملت البلاد بأسرها بعد انصراف المسلمين وسقوط (القيروان) في يد (كسيلة) ، فكيف نحلل هذه الثورة إلا بأنه كان في إفريقيا حينذاك نفر عظيم لم يرضهم سقوط (القيروان) في يد (كسيلة) ، فأثارهم ذلك وثارَت المنازعات بينهم وبين أنصاره ؟ ومن يكون هؤلاء الذين ثاروا تلك الثورة إلا بربراً مسلمين أو أنصاراً للمسلمين ؟ ذلك أن كل جند العرب قد عادوا الى (برقة) مع زهير بن قيس البلوي ، فكان أولى بإفريقية أن يهدأ حالها بعد انصراف

(١) ابن الأثير (٤٣/٤) .

(٢) ابن الأثير (٤٣/٤) .

(٣) رياض النفوس (٢٨/١) .

المسلمين منها وخلصها للبربر والروم^(١).

لقد أشعل الفائقون وعلى رأسهم عقبة جدوة الإيمان بين سكان (إفريقية) ،
وهيهات أن تحبو حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن الانصاف ألاّ نلقي اللوم كله على عقبة في استشارة البربر في شخص
رئيس من رؤسائهم (كسيلة) تلك الاستشارة التي أدت الى نكسة الفتح
الاسلامي إلى فترة امتدت الى سنة تسع وستين الهجرية^(٢) ، ذلك لأنه منذ
حركته من (القيروان) الى المحيط ، وعودته من المحيط الى (القيروان)
لم تصله أية إمدادات عسكرية من يزيد بن معاوية ومن خلفائه من بعده ،
فاضطر الى الإصطلاء بناره معتمداً على ما لديه من رجال ؛ والحرب في
طبيعتها تحتاج الى الإمدادات المستمرة بالرجال والقضايا الادارية ، خاصة
إذا طالت خطوط المواصلات كما هو الحال في حرب عقبة ، تلك الخطوط
التي امتدت الى أكثر من ألفي كيلومتر ، وتلك الحرب التي سقط فيها
كثير من الشهداء والجرحى والمرضى .. الخ

وكانت الدولة الأموية في تلك الأيام تعاني كثيراً من الفتن الداخلية: في
العراق وخراسان والحجاز واليمن ، وكان عليها أن تعالج بما لديها من قوات
تلك الفتن. لذلك لم تستطع أن تمدّ الجبهة الإفريقية بما تحتاجه من جيوش ،
حتى تولى عبد الملك بن مروان ، فذكر عنده من بالقيروان من المسلمين ،
فأنفذ الجيوش إلى إفريقية لاستنقاذهم وذلك سنة تسع وستين الهجرية^(٣) .

ولكن ، هل كان تغلغل عقبة بالفتح عمقاً من القيروان الى المحيط شراً

كله ؟؟

لا شك أن ذلك التغلغل العميق في إفريقية لم يكن شراً كله على العرب

(١) فتح العرب لمغرب (٢٠٧) .

(٢) ابن الأثير (٤٣/٤) .

(٣) ابن الأثير (٤٣/٤) ، وسيرد تفصيل ذلك في ترجمة زهير بن قيس البلوي في هذا الكتاب.

المسلمين كما يتبادر إلى أذهان غير العسكريين لأول وهلة ، بل كان فيه خير كثير على الفتح الإفريقي ، وقد عاد بالنفع عليهم وعلى الفتح في المدى البعيد ، ونتائج الحرب ليست كلها آتية ، بل منها ما يظهر نفعه في الحال أو في المستقبل القريب أو البعيد ...

لقد حصل الرواد الأولون للفتح الذين جابوا أقطار إفريقية وأمصارها ومجاهلها من (القيروان) إلى المحيط على معلومات مفيدة لا تثنى عن طبيعة الأرض : مداخلها ومخارجها ، ومسالكها وخواص أرضها ومنابعها ومواطن الخيرات فيها ومواطن الجذب في أنحائها .

وحصلوا على معلومات قيمة لا تثنى أيضاً عن طبيعة سكانها : أجناسهم ومزايهم وقوتهم وأساليب قتالهم وأساليب معيشتهم ومواطن القوة والضعف فيهم ، وكيف يمكن التغلب عليهم وكيف يمكن تجنب الزلل في معاملتهم ، وما هي الطرق الناجعة لحربهم .

وحصلوا على معلومات عن تسليحهم وتجهيزهم وتنظيمهم ومواردهم الإدارية وعدد حصونهم وقوتها وكيف يمكن التغلب عليها .

هذه المعلومات عن طبيعة الأرض التي يجري القتال عليها ، وعن العدو وعن تسليحه وتنظيمه وتجهيزه وموارده ، ضرورة جداً من الناحية العسكرية ، وهي التي تيسر لكل قائد الفرص الكاملة للانتصار ، وبدونها يسير القائد أعمى في الظلام ، وما أسهل اندحار الأعمى الذي يسير في الظلام .

وهذه المعلومات تحصل تارة من الأدلاء وتارة من العيون والأرصاد ، وتارة بمقارن الاستطلاع ... كما تحصل تارة بالقتال حين لا يكون من القتال مفر .

ومثل هذه المعلومات لا يردّد القائد لكي يحصل عليها أن يستفيد من كل منابعه ومن ضمنها القتال .

إن استشهاد عقبة وأصحابه لم يذهب عبثاً ، بل زوّد المسلمين بمعلومات

حيوية لا تنضب عن عدوهم وعن أرضه ، وقد اقتطف المسلمون ثمرات
استشهاد عقبة بعد ست سنوات من استشاده ، فكان فتح إفريقية الى المحيط
فتحاً (مستداماً) منذ كان حتى اليوم .

ولو قدر لعقبة أن يبقى حياً لما استطاع أن يديم ما فتحه ، لأن الدولة
الأموية كانت تدور في دوامة من الفتن والاضطرابات الداخلية حينذاك ،
وكانت مشغولة عن كل شيء خارجي حتى الفتح لأنها مكرسة كل طاقتها
ومواردها المادية والمعنوية للقضاء على تلك الفتن والاضطرابات .

يكفي أن نذكر من تلك الفتن والاضطرابات : كارثة استشهاد الحسين
ابن علي ووقعة الحرة بالمدينة المنورة سنة ثلاث وستين الهجرية^(١) ، وثورة
عبد الله بن الزبير وحصار مكة سنة أربع وستين الهجرية^(٢) ، وتوجه مروان
ابن الحكم الى مصر لاستعادتها من أصحاب ابن الزبير سنة خمس وستين
الهجرية^(٣) ، وحدثت الوباء العظيم بمصر وثورة المختار بالعراق ووقعة
الحازر بالعراق سنة ست وستين الهجرية^(٤) ، ونشوب القتال المرير بالعراق
بين المختار الثقفي وبين مصعب بن الزبير سنة سبع وستين الهجرية^(٥) ،
حتى لقد اضطر عبد الملك بن مروان الذي تولى الخلافة سنة خمس وستين
الهجرية الى دفع الأتانة لملك الروم كل جمعة ألف دينار خوفاً منه على
المسلمين^(٦) ، وحتى تفرق المسلمون الى درجة وقوف أربعة ألوية في عرفات
في سنة واحدة في موسم الحج هي سنة ثمان وستين الهجرية^(٧) ، هذا بالإضافة
الى الفتن الأخرى كثورات الخوارج وثورات أقرباء بني أمية ... الخ .

(١) الفهر (١ / ٦٧) .

(٢) الفهر (١ / ٦٩) .

(٣) الفهر (١ / ٧١) .

(٤) الفهر (١ / ٧٣) .

(٥) الفهر (١ / ٧٥) .

(٦) ابن الأثير (٤ / ١١٩) .

(٧) ابن الأثير (٤ / ١١٥) .

فهل كان بإمكان بني أمية - وهذا وضعهم وهذا ما يعانونه ، أن يديموا جيوش إفريقيا بالإمدادات ؟ وهل كان بإمكان عقبة أن يديم ما فتحه بدون إمدادات ؟

لقد كانت غزوة عقبة التي امتدت من (القيروان) الى المحيط ، فشلاً تعبويًا^(١) ، ولكنها كانت على كل حال نصراً سوقياً (ستراتيجياً)^(٢) ولا يعد الفشل التعبوي شيئاً يذكر الى جانب النصر السوقي.

١٠ - فما هي سمات قيادة عقبة ؟

كان عقبة يؤمن أن رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده وكثرة ذكره ، والاستعانة به والتوكل عليه والفرع اليه ومسألته التأيد والنصر والسلامة والظفر ، وكان يؤمن أن النصر هو من الله جل ثناؤه^(٣) ، وكان يعتقد أن الانتصارات الاسلامية هي انتصارات عقيدة يحملها الى العالم مؤمنون صادقون ، ويدود عنها حماة قادرون .

وكان يحب رجاله ويحبونه ، ويثق بهم ويشقون به ، وقد بلغت ثقتهم به حداً جعلهم يعتقدون أنه مجاب الدعوة ؛ فكان يتفقد أصحابه فيما يعود عليهم بالنفع ، ويستزيد محسنهم بالكرمة ، ويفض الطرف عن مسيئهم في الأمور الطفيفة غير ذات البال ، ويستعقب مقصّرهم بحسن الأدب استعتاب مستعقب له ، غير مغتم للزلة ولا معترض للعثرة ، ولا مستريح إلى كشف غامض العورة^(٤) .

وكان ميمون النقيبة ، كامل العقل ، طويل التجربة ، بعيد الضوت ،

(١) التعبية : الأعمال العسكرية في المعركة . والفشل التعبوي يؤثر على نتائج معركة محدودة ولا يؤثر على نتائج الحرب كلها .

(٢) السوق : الاستفادة من المعارك للحصول على الغرض من الحرب . والنصر السوقي ، يعني نتائج الحرب كلها لا نتائج معركة واحدة . انظر الرسول القائل (١٨٣) - الطبعة الثالثة .

(٣) مختصر سياسة الحروب (١٥) .

(٤) مختصر سياسة الحروب (١٦) .

بصيراً بتدبير الحرب ومواضعها ومواضع الفرص والحيل والمكايدة ،
يحسن تعبئة أصحابه ، ويدخل الأمن عليهم والخوف على عدوهم ، مع
طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو ، وكان حسن السيرة عفيفاً صارماً
حذراً متيقظاً سخياً (١) .

وكان ذا شجاعة وحزم وديانة (٢) مستقيماً فصيح القول نزيهاً شريفاً ،
ولكنه كان يفتقر الى الكياسة والدبلوماسية (٣) ، فقد كان جندياً فحسب
من أنخص قلمه الى قمة رأسه ، ولم يكن يعرف أساليب السياسة وأحاييلها
ولفها ودورانها .

وكانت له قابلية على إصدار القرارات السريعة الصائبة ، ذا إرادة قوية
ثابتة وشخصية رصينة مثزنة ، يتحمل مسؤوليته كاملة بلا تردد ، له نفسية
لا تتبدل في حالي النصر والاندحار ، يعرف نفسيات مروؤسيه وقابلياتهم ،
وله ماض ناصع مجيد .

وعند تطبيق أعماله العسكرية على مبادئ الحرب ، نجد أنه طبق مبدأ
(المباغته) في حروبه ، وكانت حروبه (تعرضية) ، يعمل على (تحشيد
قوته) قبل المعركة ، و (يقتصد بالمجهود) ويطبق مبدأ (الأمن) ويعمل
على (إدامة المعنويات) ويدلل (الأمور الإدارية) كافة لقواته ، ويحسب
لها أدق حساب .

لقد كان عقبة من ألمع القادة الممتازين الذين برزوا في الصدر الأول من
أيام الفتح الإسلامي .

عقبة في التاريخ :

يذكر التاريخ لعقبة ، أنه كان من أبرز قادة الفتح الإسلامي ، ومن

(١) مختصر سياحة الحروب (١٧) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٣ / ٣٤٩) .

(٣) الفتوحات العربية الكبرى (٦٣٦) .

أحرص دعاة الدين الإسلامي .

لقد كان أول من نشر الإسلام في زويلة والصحراء الليبية وفي النوبة والسودان وفي أصقاع كثيرة من المنطقة الشاسعة الكائنة بين القيروان والمحيط الأطلسي . « فأسلم البربر وكانوا نصارى ، وفشا الإسلام الى أن اتصل ببلاد السودان وبالبحر المحيط »^(١) .

وكان نشر الإسلام في إفريقية - نهاية الإستعمار الفكري فيها وبداية الإستقلال الفكري ، ذلك الاستقلال الذي أمدَّ إفريقية المسلمة بطاقات لا تنضب من القوة والمنعة وبالمصل الواقي من المبادئ الوافدة التي بذلت جهوداً جبارة منذ انحسار مد الفتح الاسلامي حتى اليوم لتحويل تلك البلاد عن عقيدتها - دون جدوى .

ويذكر له أنه فتح أو شارك في فتح كل أصقاع إفريقية العربية المسلمة : (مصر وليبيا والجزائر وتونس ومراكش وموريتانيا والسودان) ، فكان فتحه وفتح أصحابه القادة الفاتحين فتحاً (مستداماً) ، لأنه كان فتح عقيدة ومبادئ لا فتح استغلال واستعباد .

لقد شارك في فتح مصر وكان أول من فتح زويلة والصحراء الليبية وبعض كور السودان ، وأول من وصل الى المحيط الأطلسي ، وأول من مهد لفتح (النوبة) ، وأول من أدخل العرب فاتحين الى (فزان) ، وأول من بنى القيروان (لتكون مدينة عربية إسلامية خالصة ولتكون القاعدة المتقدمة للفتح الإسلامي في إفريقية .

لقد كان له جهاد مشرف في أيام ولايته الأولى لنشر الإسلام في البلاد الكائنة من قناة السويس الى القيروان وفتح تلك المناطق أو المشاركة في فتحها .

وكان له جهاد مشرف في أيام ولايته الثانية لنشر الإسلام في البلاد الواقعة

(١) جبل فتوح الاسلام - ملحق بمجموع السيرة - لابن حزم (٢٤٤) .

ما بين القيروان والمحيط الأطلسي .

لقد انتهى في فتحه الأول بالعرب المسلمين الى أعماق الصحراء ، وانتهى في فتحه الثاني الى المأهول من إفريقية الى المحيط .

واخيراً ، بذل روحه الغالية رخيصة لبناء صرح الفتح الإسلامي في إفريقية ، فبقي ذلك الصرح شامخاً صلباً صلباً متماسكاً نهات تحت أقدامه محاولات الصليبيين في القرون الوسطى ومحاولات الاستعمار الحديث لتكون تلك البلاد قطعة من أوروبا ... فكان قدوة حية لأحفاده البررة الذين تساقطوا شهداء ليبقوا مسلمين طيلة القرون الطويلة ، ويكفي أن نذكر أن مليون شهيد قدموا أرواحهم رخيصة لتبقى الجزائر فقط قطعة من مكة المكرمة والمدينة المنورة وبغداد دار السلام والشام والقاهرة .

تري ! هل يعرف أبناء مصر والسودان وليبيا والجزائر وتونس ومراكش وموريتانيا (١) اليوم من هو عقبة وماذا قدم من أجلهم من تضحيات جسام ؟ وهل يعرفون أنه كان من أوائل قادة الفتح الذين أدخلوا العرب في بلادهم ومن أوائل رواد الدعوة الذين أدخلوا الإسلام في ربوعها ؟؟

رضي الله عن القائد الفاتح ، الفارس الشجاع ، البطل الشهيد ، عَقْبَةُ ابن نافع الفِهري القرشي .

(١) أمل من حكومات وشعوب إفريقية العربية المسلمة أن تدرس سيرة هذا القائد البطل في مدارسها ، وأن تطلق اسمه على كلياتها وشوارعها ومعالمها ، وأن تخلد ذكره بإنشاء المكتبات والمستشفيات والمعاهد والكتليات باسمه ، وتنتشر البحوث عنه . وآمل من الحكومة المغربية أن تعمل على تحقيق مكان وقوفه على ساحل المحيط الأطلسي وتنشيء جامعاً شامخاً هناك .

إن ذلك أقل ما نأمله من إفريقية العربية المسلمة ، ليعرف أبنائها البررة مكانة عقبة وأثره في جعل بلادهم عربية إسلامية .

أبو المهاجر دينار فاتح المغرب الأوسط

توليته إفريقية :

أبو المهاجر دينار هو مولى مَسْلَمَة بن مُخَلَّد الأنصاري^(١) فهو مولى الأنصار^(٢) ، وكان من التابعين^(٣).

ولأه مَسْلَمَة بنُ مُخَلَّد الأنصاري (إفريقية) بعد عُقْبَة بن نافع الفِهري وذلك سنة خمس وخمسين الهجرية (٦٧٤ م) ، فقدمها في هذه السنة^(٤) ، فأساء أبو المهاجر عزل عقبة بن نافع وسجنه وأقره حديداً ، حتى أتاه كتاب معاوية بن أبي سفيان بتخليته سبيله وإشخاصه اليه^(٥).

وقد كان قيل لمسلمة بن مخلد : « لو أقررت عقبة ، فإن له جزالةً وفضلاً » ، فقال مسلمة : « إنَّ أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية ولا كبير نيل ، فنحن نُحِبُّ أن نكافئه » ، فلما قدم أبو المهاجر (إفريقية) كره أن ينزل في الموضع الذي اختطه عقبة بن نافع ، ومضى حتى خلّفه

(١) ابن خلدون (١٠/٣) والبلاذري (٢٣٠) والاستقصا (٧١/١) وابن الأثير (١٨٤/٣) والبيان المغرب في أخبار المغرب (١٧/١) ورياض النفوس (١٩/١) .

(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٦٥) . وفي الاستقصا (٧١/١) وقيل : إنه مولى بني غزوم .
(٣) رياض النفوس (١٩/١) .

(٤) الاستقصا (٧١/١) وفي رياض النفوس (٢١/١) : أنه وصل الى إفريقية سنة سبع وخمسين الهجرية ، والرواية الأولى أصح ، لأنه ليس من المعقول أن يبقى ستين بعيداً عن منصب .

(٥) فتوح مصر والمغرب (٢٦٥ - ٢٦٦) .

بمبيلين ، فابتنى ونزل (١) ، وبذلك هُجرت مدينة (القيروان) التي ابتناها عقبه لفترة من الزمن امتدت حتى عاد عقبة إلى منصبه في (إفريقية) سنة اثنتين وستين الهجرية (٢) .

لقد أخلص أبو المهاجر مسلمة ، ولكن إخلاصه وحده لم يكن ليؤهله الى تسلم منصب قيادي رفيع في (إفريقية) لو لم تكن له مزايا عسكرية وإدارية أخرى أهلته لتسلم مثل منصبه الرفيع .

جهاده :

عقد مسلمة بن مخلد لأبي المهاجر على الجيش الذي خرج معه الى (إفريقية) (٣) ، وبعد إنجاز أبي المهاجر تدايره الادارية وإعداده خطط الفتح ، سار بجيشه الى (قرطاجنة) (٤) عاصمة الروم في شمال (إفريقية) ، لأن الروم لا زالوا قوة في ساحل المغرب من (بنزرت) (٥) الى (طنجة) (٦) ، وأن هذا الساحل الحصص المتحضر هو مرتفعهم ومواطنهم ، فلا بد من تطهير تلك المناطق منهم (٧) ليتخلص المسلمون نهائياً من مستعمري (إفريقية) القدامى وليحولوا بينهم وبين إشاعة التآمر والدس على الفتح الإسلامي .

ونازل أبو المهاجر (قرطاجنة) ، فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية ، فشدد أبو المهاجر عليهم الحصار . ولما علموا بأن المسلمين لن يبرحوا حتى

(١) فتح مصر والمغرب (٦٦٦) .

(٢) انظر ترجمة عقبة بن نافع الفهري في هذا الكتاب (٩٠-١٣٦) .

(٣) فتح مصر والمغرب (٢٦٦) وانظر رياض النفوس (٢١/١) .

(٤) قرطاجنة : بلد قديم من نواحي إفريقية ، وكانت مدينة عظيمة شامخة البناء أسوارها من الرخام الأبيض ، وهي على ساحل البحر بينها وبين تونس اثنا عشر ميلا . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٢/٧) .

(٥) بنزرت : مدينة بينها وبين تونس يومان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٩٢/٢) .

(٦) طنجة : مدينة قديمة على البحر ، بينها وبين سبتة مسيرة يوم واحد . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٢/٦) والمساكن والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٣٢) .

(٧) تاريخ المغرب الكبير (٣٤/١) .

يحققوا هدفهم بفتح (قرطاجنة) ، طلبوا الصلح ، فصالحهم أبو المهاجر بإخلاء جزيرة (شريك) ^(١) التي كان الروم يتخذونها دوماً مثابةً لتهشيد جيوشهم قبيها قبل مهاجمة المسلمين ^(٢) ، وذلك لكي يتخذها أبو المهاجر قاعدة أمامية لجنوده يرتكز في عملياته العسكرية عليها ، وبهذا أثبت أبو المهاجر سلباً بأنه ينظر بعيداً من الناحية العسكرية ، فيفضل المواقع السوقية (الاستراتيجية) التي تفيده في الفتح على المال الذي كان بإمكانه أن يفرضه على أهل (قرطاجنة) مقابل إقراره الصلح بين الطرفين .

وفي رواية : أن أبا المهاجر بعث حنش بن عبد الله الصنعاني - صنعاء الشام - الى جزيرة شريك ^(٣) ، ففتحها ^(٤) .

وكان هدف أبي المهاجر فتح جزيرة شريك أن يراقب الروم ويصدّهم إذا همّوا بالمسير الى المسلمين أثناء غزوه للبلاد ، لأن بإمكان قوة الروم المرابطة في تلك المنطقة أن تهدد بسهولة ويسر خطوط مواصلات أبي المهاجر في حالة تغلغل قواته غرباً وجنوباً .

وسار أبو المهاجر مع الساحل باتجاه الغرب لا يعترض طريقه أحد ، حتى وصل (ميسلة) ^(٥) في الجنوب الشرقي لـ (بجاية) ^(٦) وتبعد عنها بحوالي خمسين ميلاً ، فوجدها مستعدة للقتال ، وكان فيها طائفة من البربر

(١) جزيرة شريك : كورة بافريقية بين سوسة وتونس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٩٩/٣) . وهي في الواقع شبه جزيرة . انظر الخريطة المرفقة .

(٢) انظر معجم البلدان (١٠٠/٣) .

(٣) هو شريك العبي ، وكان أحد العاملين على هذه الجزيرة فسميت باسمه ، وشريك هذا هو والد قرة بن شريك حامل مصر المشهور .

(٤) الاستقصا (٧١/١) .

(٥) ميلة : مدينة صغيرة بالقصى افرقية بينها وبين بجاية ثلاثة أيام . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٦/٨) .

(٦) بجاية : مدينة على ساحل البحر ، بين افرقية والمغرب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٢/٢) .

والروم قد تحصنوا فيها ، فنازلها أبو المهاجر وفتحها وغنم ما فيها واستقر فيها^(١) .

كانت (ميلة) تتوسط المغريين الأدنى والأوسط ، فهي أحسن مكان يراقب أبو المهاجر منه أمور البربر والروم في تلك الأصقاع ، فجعل أبو المهاجر (ميلة) مقره وأقام فيها سنتين^(٢) ، وكان خلال هذه المدة يتصل بالبربر وينشر فيهم الدين ، ويربهم حقيقة المسلمين .

وكانت الزعامة في المغريين الأوسط والأقصى لقبيلة (أوربة)^(٣) لكثرة عددها وغناها وحضارتها ومناعة مواقعها ، وكان رئيسها كسيلة ابن لمزم الأوربي ؛ وكان كسيلة قوي الشخصية ذكي الفؤاد ، غيوراً على وطنه ، وكان البربر يجلّونه ويحبونه ، وكان نصرانياً متمسكاً بدينه . ورأى كسيلة أبا المهاجر في (ميلة) فعلم أنه لا بدّ أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى ؛ فذهب في المغريين الأوسط والأقصى يدعو البربر لمكافحة العرب والاستعداد لحربهم ولإجلالهم عن البلاد . واستطاع كسيلة أن يجمع جيشاً من البربر والروم ، فسمع أبر المهاجر يجمعه ، فسار إليه .

وكان كسيلة قد عسكر بـ (تلمسان)^(٤) ، فقصده أبو المهاجر ، والتقى الجيشان هناك ، فدارت معركة حامية بينهما ، فانتصر المسلمون وأسر كسيلة ، فحمّل إلى أبي المهاجر ، فأحسن إليه أبو المهاجر وقربه ، وعامله معاملة الملوك^(٥) . وتمكن أبو المهاجر من البلاد وظفر بكسيلة فأظهر الإسلام

(١) تاريخ المغرب الكبير (٢/٣٤ - ٣٥) .

(٢) النجوم الزاهرة (١/١٥٧) .

(٣) أوربة : تنقسم الأمة البربرية إلى قسمين كبيرين ، كل قسم يحتوي على قبائل كثيرة ، وهذان القسمان هما : البرانس والبر . والبرانس تشتمل على قبائل كثيرة أكبرها هي هواره وكثامة وزوارة وصنهاجة وأوربة ومصودة . انظر التفاصيل في تاريخ المغرب الكبير (٢/٣٥) .

(٤) تلمسان : مدينة بالمغرب اسمها القديم : أقادير ، على بعد مرحلة من وهران . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٤٠٩) .

(٥) انظر تاريخ المغرب الكبير (٢/٣٨) والاستقصا (١/٧١) .

فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه^(١) ، وانتهى الى العيون المعروفة بعيون أبي المهاجر^(٢) ، فهو أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط^(٣) فصالح أبو المهاجر بربر (إفريقية) وفيهم كسيلة الأوربي وصالح عجم (إفريقية) ، ثم رجع الى (القيروان) وأقام بها^(٤) .

الشهيد :

ردّ يزيد بن معاوية عقبة بن نافع الفهري الى (إفريقية) سنة اثنتين وستين الهجرية^(٥) ، فخرج عقبة سريعا^(٦) ، فوصل الى (القيروان) مجدداً وقبض أبا المهاجر أميرها وأوثقه في الحديد^(٧) وأساء عزله وغزا به معه وهو في الحديد^(٨) .

وأراد عقبة أن ينهض إلى (طنجة) فقال له أبو المهاجر : « ليس بطنجة عدو لك ، لأن الناس قد أسلموا ، وهذا رئيس البلاد - يريد كسيلة - فابعث معه والياً » ، فأبى عقبة إلا أن يخرج بنفسه^(٩) .

وكان كسيلة في جيش عقبة قد استصحبه معه في غزواته ، وكان يستهين به ويمتنهه ، فأمره يوماً بسلخ شاة بين يديه ، فدفعها كسيلة الى غلمانها ، فأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره ، فقام اليها كسيلة مغضباً وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته . وبلغ ذلك أبا المهاجر وهو

(١) الاستقصا (٧١/١ - ٧٢) .

(٢) رياض النفوس (٢١/١) والاستقصا (٧٢/١) .

(٣) الاستقصا (٧٢/١) .

(٤) رياض النفوس (٢١/١) .

(٥) رياض النفوس (٢٢/١) والاستقصا (٧٢/١) وابن الأثير (٤٢/٤) .

(٦) فتوح مصر والمغرب (٢٦٧) .

(٧) ابن الأثير (٤٣/٤) .

(٨) فتوح مصر والمغرب (٢٦٧) .

(٩) رياض النفوس (٢٦/١) .

معتقل عند عقبة ، فبعث اليه ينهاه ، ويقول : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب ، وأنت تعتمد الى رجل جبار في قومه وبنادار عزه ، حديث عهد بالشرك ، فتفسد قلبه ؟ ! توثق من الرجل فلإني أخاف فتكه » ، فتهاون به عقبة ، فلما انصرف نكث البربر ما كانوا عليه . وأقبلت النفرة الى عقبة ، فقال له أبو المهاجر : « عاجله قبل أن يجتمع أمره »^(١) .

وغشى كسيلة عقبة بقرب (تَهْوُذَة)^(٢) في جيش كثيف ، فنزل عقبة عن فرسه وقال : « أطلقوا أبا المهاجر » ، ثم قال له : « إالحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين ، وأنا أغنم الشهادة » ، فقال أبو المهاجر : « وأنا أغنم الشهادة مثلك » ، فكسر كل واحد منهما غمد سيفه ، وكسر المسلمون أعماد سيوفهم ، وقاتلوا حتى قتلوا^(٣) .

وفي رواية أن أبا المهاجر كان موثقاً بالحديد ، فزحف عقبة على كسيلة ، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه ، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي :

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأغلقت مصارع من دوني تصمّ المناديا

فبلغ عقبة ذلك ، فأطلقه وقال له : « إالحق بالمسلمين وقم بأمرهم ، وأنا أغنم الشهادة » ، فلم يفعل^(٤) . وقيل : إن عقبة أمر بتخلية أبي المهاجر ، فقاتل وهو موثق بالحديد^(٥) ، فقتل عقبة ومن معه ، وقتل أبو المهاجر

(١) رياض النفوس (٢٦/١) وانظر الاستقصا (٧٤/١) .

(٢) تهوذة : اسم لقبيلة من البربر بتاحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم . انظر معجم البلدان

(٤٣٢/٢) .

(٣) رياض النفوس (٢٦/١ - ٢٧) .

(٤) ابن الأثير (٤٣/٤) .

(٥) رياض النفوس (٢٧/١) .

وهو موثوق في الحديد^(١)، وكان مقتل عقبة وأصحابه ومنهم أبو المهاجر^(٢) سنة ثلاث وستين الهجرية^(٣) (٦٨٣ م) وقتل مع عقبة زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين في أرض الزاب بـ (تهودة)، وقد جعل على قبورهم أسنمة ثم جصّست، واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة، وهو في عداد المزارات^(٤).

الانسان :

نجهل كل شيء عن أصل أبي المهاجر ومولده ونشأته الأولى، ولعلّ معاملة أبي المهاجر القاسية لعقبة كان لها أثر بالغ في اغفال بعض المؤرخين لذكره، على الرغم ما كان يتمتع به من مزايا سامية وخصال حميدة. فهل كان أبو المهاجر معتدياً على عقبة في سجنه؟ الظاهر أن أبا المهاجر كان منفذاً لأوامر مسلمة بن مخلد ليس إلا، إذ ليس من المعقول ولا من المنطقي أن يُقدم أبو المهاجر وهو مولى على سجن عقبة الصحابي العامري القرشي مخالفاً لأوامر مسلمة بن مخلد وبدون موافقته^(٥)، وإنما حبسه - كما يبدو - لأنه كان يتمتع بشعبية طاغية ما كان لأبي المهاجر أن ينجح في أعماله وعقبة طليقاً حراً. يدلّنا على ذلك أن معاوية لما أمر بإطلاق سراح عقبة، أطلقه أبو المهاجر وأرسله برسل من قبله حتى أخرجوه من (قابس)^(٦)،

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٦٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣٤٩/٣) والبدية والنهاية (٢١٧/٨) وابن الأثير (٤٣/٤) والاصابة

(٨١/٥).

(٣) الاستقصا (٧٤/١).

(٤) الاستقصا (٧٤/١).

(٥) في فتوح مصر والمغرب (٢٦٦) : فلما قدم عقبة مصر ركب إليه مسلمة بن مخلد، فأقسم له بالله لقد خالفته ما صنع أبو المهاجر، ولقد أوصيه بك خاصة ... التي. ومن المحتمل أن يكون مسلمة قد اعطى من تقصيره من عقبة بذلك ليس إلا.

(٦) قابس : مدينة بين طرابلس وسفاس ثم المهديّة على ساحل البحر. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٧) وتلويح البلدان (١٤٢ - ١٤٣). وانظر رياض النفوس (٢١/١) حول إخراج عقبة.

فلو لم يكن أبو المهاجر يخشى عقبة لما أرسله مخفوراً الى حدود ليبيا ، وعلى كل ، فان حبس عقبة كان أحد تدابير الأمن التي اتخذها أبو المهاجر منعاً للفتن والشغب الذي كان يتوقعه من أنصار عقبة ، ولم يكن هذا الاجراء إلا من أجل المصلحة العامة التي هي فوق مصالح الأشخاص مهما يكونوا .

وما يقال عن سجن عقبة ، يقال عن سجن أبي المهاجر بعد ولاية عقبة الثانية ، إذ أصبح لأبي المهاجر شعبية طاغية أيضاً خاصة عند البربر وزعيمهم كسيلة بالذات ، لأن ابا المهاجر حين ظفر بكسيلة عرض عليه الإسلام فأسلم ، فأحسن اليه أبو المهاجر واستعفاه ، وكان في عسكر المسلمين حتى عزل أبو المهاجر^(١) ، وقيل : إن كسيلة إنما أتى ناصراً لأبي المهاجر ، لأنه كان صديقه ، فقتل أبو المهاجر في التحام القتال ولم يعلم به^(٢) .

لقد كان أبو المهاجر يوقر عقبة ويعرف ما له من المقام العظيم . فقد بلغ أبا المهاجر أن عقبة دعا عليه وقال : « اللهم لا تمنني حتى تمكّني من أبي المهاجر دينار بن أبي دينار » ، فلم يزل أبو المهاجر خائفاً منذ بلغته دعوته^(٣) ، فكيف يعاقبه أبو المهاجر ويسميء اليه بعد ذلك من تلقاء نفسه ؟ وكيف يفعل ذلك إلا مضطراً راغماً^(٤) ؟؟

وقد أثبت أبو المهاجر بأنه لم يحقد على عقبة لأن عقبة حبسه وقيد حريته ، فقد أسدى لعقبة من النصيح والمشورة على الصعيدين العسكري والإداري ، وهو سجين وأخيراً بذل نفسه رخيصة في سبيل عقيدته ، ففضل الموت شهيداً بيد صديقه الحميم كسيلة على النجاة بحياته بيد هذا الصديق الحميم مشاركاً عقبة الذي سجنه مصيره المشرف ، فحسر كل شيء إلا الشرف !

لقد كانت سيوف المسلمين للمسلمين لا عليهم ، وكانت سيوفهم على

(١) رياض النفوس (٢٥/١ - ٢٦) .

(٢) رياض النفوس (٢٥/١) .

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٦) وانظر رياض النفوس (٢١/١) .

(٤) أنظر فتح العرب المغرب (١٥٢) .

أعدائهم حتى ولو كان أولئك الأعداء أو لا زالوا من الأصدقاء ..

فمن حق أبي المهاجر أن يعرف العرب المسلمون حقّه عليهم ، ومن حقّه ألاّ يغمطوا هذا الحق ، وأن يذكروه بالفخر والتقدير والاعزاز ، ويكفي أن يذكروا قوله : « ألقى الله في حديدي »^(١) ، مفضلاً الموت الأكيد بعزة على العيش الأكيد بذلة ، ليعرفوا مبلغ عمق إيمانه وعظم بضمحيته في سبيل مبادئه وعقيدته وشرفه .

لقد كان أبو المهاجر مخلصاً وفياً شهماً غيوراً ، وكان مؤمناً حقاً وعلى شيء كثير من الحكمة وبُعد النظر .

المصادر :

كان الناس قبل أبي المهاجر يغزون إفريقيا ثم يقفلون منها الى (الفسطاط)^(٢) ، وأول من أقام بها حين غزاها أبو المهاجر : أقام بها الشتاء والصيف ، واتخذها منزلاً^(٣) ... وتلك عبارة يفهم منها أمر على جانب عظيم من الأهمية ، وهو أن (إفريقية) أصبحت مقراً يقيم به المسلمون ويطمثون فيه دون أن يعودوا الى مصر بعد كل غزوة ، أي أنها أصبحت رغم تبعيتها لمصر ولاية إسلامية مستقلة الشخصية بعض الشيء ، وهذه هي الخطوة الأولى نحو ظهور ولاية إفريقية إسلامية ؛ فقد كان الناس قبل أبي المهاجر يغزون (إفريقية) ثم يقفلون منها الى الفسطاط ، أما في ولاية أبي المهاجر وما بعدها ، فإنهم يقيمون بها العام كله ، ويخرجون للغزو من قيوّانها ثم يعودون اليه مرة أخرى . وقد صاحب هذا التغير السياسي الذي جدّ على المركز السياسي

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٦٨) .

(٢) الفسطاط : مدينة محدثة بناها عمرو بن العاص لما فتح ديار مصر في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان في موضع الفسطاط قصر قديم يقال له : قصر الشمع ؛ وكان فسطاط عمرو حيث الجامع المعروف بجامع عمرو في القاهرة الآن . انظر التفاصيل في تقويم البلدان (١١٨-١١٩) ومعجم البلدان (٢٨٠/٦) والمساكن والمساكن (٤٠) .

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٦) .

للبلاد تحول جوهري في سير الفتوح فيها ، فقد أصبحت غاية الغزوات
لإنعام فتح (إفريقية) وجعلها بلداً إسلامية كمصر والشام سواء بسواء (١).
ومن الإنصاف هنا ، أن نذكر لعقبة بن نافع الفهري فضله في هذا
المجال ، فقد عمل جاهداً لبناء (القيروان) ليكون القاعدة المتقدمة للمسلمين
في إفريقية : تخرج منها جيوشهم للفتح ، وتعود إليها بعد إنجاز مهمتها ،
وتتحصن فيها عند الخطر ، وتكون مستودعاً لأرزاقهم وعتادهم وموادهم
الإدارية الأخرى . وما كان تحول أبي المهاجر عنها ليقضي على قيمتها
العسكرية الحاسمة ، بل بقيت الأغراض التي بنيت من أجلها مدينة القيروان
قائمة .

ولكن ليس معنى ذلك أنه لا فضل لأبي المهاجر في هذا التطور السياسي
الذي جدّ على سير الفتوح في (إفريقية) ، بل كان لما اتسم به أبو المهاجر
من بُعد النظر أثره الكبير الحاسم على هذا التطور ، ولعل خير دليل على بعد
نظره وعزمه الأكيد على جعل الفتح الإسلامي في (إفريقية) ليس مجرد
غارات تستهدف جمع الأموال والغنائم ، هو ما فعله أبو المهاجر في مصالحة
أهل (قرطاجنة) بشرط إخلاء جزيرة (شريك) التي يتخذها الروم قاعدة
متقدمة لحركاتهم ضد المسلمين ، حتى يحرم الروم من تلك القاعدة الحيوية ،
وحتى يستفيد منها المسلمون كقاعدة متقدمة لهم في حركاتهم ضد الروم .

لقد فضل أبو المهاجر جزيرة (شريك) الموقع السوقي (الإستراتيجي)
على المال والغنائم ، وهذا دون شك ، قرار عسكري في منتهى الأهمية ،
وله دلالاته الواضحة على ما كان يتمتع به أبو المهاجر من بعد نظر وتفكير
عسكري سليم .

فقد أراد أبو المهاجر من ذلك أن يكون الفتح الإسلامي في (إفريقية)
فتحاً مستداماً تترسخ به أقدام المسلمين في (إفريقية) ، وتكون (إفريقية)

(١) فتح العرب المغرب (١٥٦ - ١٥٧) .

به بلاداً إسلامية أسوة بالبلاد المفتوحة الأخرى ، وألاً يقتصر الفتح الإسلامي في (إفريقية) على الغارات التي قد يكون من نتائجها الربح المادي فقط دون الربح المعنوي الذي هو الهدف الأول للفتح الإسلامي ، هذا الربح المعنوي الذي يهدف الى نشر الإسلام في ربوع البلاد المفتوحة ، فيكون بذلك فتحاً فكرياً يبقى على الزمن لا استعماراً من أجل المنافع المادية ؛ لذلك استقرّ أبو المهاجر في (ميلة) سنتين يدعو البربر الى الإسلام ، وينشر هذا الدين في ربوعهم ؛ فأقبلوا يدخلون في دين الله أفواجا .

لقد صاحب أبو المهاجر مسلمة بن مخلّد الأنصاري مدة طويلة في حروبه : في فتح مصر وفي القضاء على الفتن الداخلية ، فلما تولى (إفريقية) كان مهيباً للقيادة نظراً لتجربته الطويلة في معاناة الحروب .

وفي أيام قيادته في (إفريقية) عانى أبو المهاجر حرب الحصار لقرطاجنة فأجبر أهلها على طلب الصلح والرضوخ الى شروط أبي المهاجر ، وهذا النوع من الحروب يتميز القائد الذي يعانيها بالضبط الشديد والصبر الجميل .

كما عانى حروب الميدان حول (تلمسان) ، وناهض جيوشاً كثيفة للبربر ، وهذا النوع من الحروب ، يتميز القائد الذي يعانيها بالشجاعة والإقدام ، وبالقابلية على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة ، وبالحرص على جمع المعلومات عن العدو وعن أرض المعركة ، وبالكفاية الممتازة في إدارة المعركة التعبوية .

لقد كان أبو المهاجر من أولئك القادة الذين يقاتلون بسيوفهم وعقولهم : يقاتل بسيفه عندما لا يجد مفرّاً من ذلك ، ويقاتل بعقله فيعامل الناس بالحسنى وبالسياسة الحكيمة وبالمنطق السليم وبالعقيدة البناءة المنشئة ؛ فإذا كان لسيفه بعض الأثر على انتصاره ، فقد كان لعقله أكبر الأثر على هذا الانتصار .

لقد جعل أبو المهاجر رأس سلاحه في حربه تقوى الله والاستعانة به والتوكل عليه والفرع اليه ومسألته التأيد والنصر ، وكان محباً لرجاله محبوباً

منهم ، يثق بهم ويثقون به ، وكان كامل العقل ، طويل التجربة ، بصيراً بتدبير الحرب ومواقفها ومواقع الفرص والحيل والمكايدة ، حسن التنمية ، حسن السيرة عفيفاً صارماً حذراً متيقظاً شجاعاً سخياً ، بعيد النظر ، صحيح القرارات والخطط .

وعند تطبيق أعمال أبي المهاجر العسكرية على مبادئ الحرب ، نجد أنه طبق مبدأ (اختيار المقصد وإدامته) ، فهو لم ينس أن هدفه نشر الإسلام لجعل الفتح مستداماً ، فهو داعية أولاً وقائد ثانياً ، وأنه طبق مبدأ (التعرض) ، فكانت معاركه كلها تعرضية ، وأنه طبق مبدأ (تحشيد القوة) قبل البدء بحركاته ، فاستفاد من كل مقاتل مسلم ، ولم يبق في القيروان إلا الشيوخ والنساء ^(١) ، وأنه طبق مبدأ (الإقتصاد بالمجهود) فلم يفرض بقواته دون مبرر ، وأنه طبق مبدأ (الأمن) فلم يستطع العدو مباغتة قواته في أية معركة ، وأنه طبق مبدأ (المرونة) فكانت لقواته قابلية ممتازة على الحركة ، وأنه طبق مبدأ (التعاون) فوحد جهود رجاله لإحراز النصر ، وأنه طبق مبدأ (إدامة المعنويات) ومبدأ (الأمور الإدارية) بشكل ملحوظ .

لقد كان أبو المهاجر قائداً ممتازاً .

أبو المهاجر في التاريخ :

يذكر التاريخ لأبي المهاجر فتحه للمغرب الأوسط ونشره الإسلام في ربوعه .

ويذكر التاريخ لأبي المهاجر ، عمله الدائب المنظم لنشر الإسلام بين قبائل البربر بالسياسة الحكيمة والحسنى والمنطق والحجة البالغة .

(١) رياض النفوس (٢١/١) .

ويذكر له ، أنه آثر الاستشهاد مع أبناء عقيدته ، على الحياة مع أصدقائه
الشخصيين وأعداء عقيدته .

رضي الله عن التابعي الجليل ، الداعية الموهوب ، القائد الفاتح ، الإداري
الحازم ، السياسي المحنك ، البطل الشهيد ، أبي المهاجر دينار .

زُهَيْرُ بْنُ قَيْسِ الْبَلَوِيِّ^(١)
فاتح منطقة مدينة تونس^(٢)
وقائد المعركة الحاسمة^(٣) في إفريقية على البربر

« إنما قدمت للجهاد ، ولم أقدم لحب الدنيا »

(زهير بن قيس البلوي)

نسبه وأيامه الأولى :

هو زهير بن قيس البلوي^(٤)، يكنى أبا شدّاد^(٥)، يقال له صحبة^(٦)،
وجزم بعضهم بصحبته ، فقال : « هو من الصحابة »^(٧) . شهد فتح مصر^(٨)،
وكان فتحها سنة عشرين الهجرية^(٩) ، ومعنى ذلك أن زهيراً ولد في أيام

(١) بل : يفتح الباء وكسر اللام . علي بن أبي طالب وزن علي ، من قضاة . انظر جمهرة
أنساب العرب (٤٧٩) ، ومن بطون قضاة بل بن عمرو بن مالك بن لحاف بن مالك بن قضاة .
انظر المنتخب في ذكر قبائل العرب (٤٠) .

(٢) تونس : بالضم ثم السكون والنون تضم وتفتح وتكسر . مدينة كبيرة محدثة بإفريقية على
ساحل بحر الروم عمرت من أنقاض قرطاجنة ، وكان اسم تونس في القديم : ترشيش وهي على ميلين
من قرطاجنة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٣٢/٢) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٧٣)
وتقويم البلدان (١٤٢ - ١٤٣) والمسالك والممالك (٣٣) .

(٣) المعركة الحاسمة : هي معركة لسحق جيش العدو الذي هو هدف الحركات الخطيرة ، وبذلك
تستسلم بلاده لعدم وجود قوة ضاربة تدافع عنها .

(٤) الإصابة (١٧/٣) وأسد الغابة (٢١١/٢) وتهذيب ابن عساكر (٣٩٣/٥) .

(٥) الإصابة (١٧/٣) .

(٦) الإصابة (١٧/٣) وأسد الغابة (٢١١/٢) والاستقصا (٧٦/١) .

(٧) تهذيب ابن عساكر (٣٩٣/٥) .

(٨) الإصابة (١٧/٣) .

(٩) ابن الأثير (١٨/٢) والمعبر (٢٣/١) وشذرات الذهب (٣١/١) وأبو الفدا (١٦٣/١) .

الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو صحابي بالمولد .

روى زهير عن جماعة الصحابة وروى عنه جماعة من التابعين^(١) ، وقد عدّه بعضهم من الصحابة الذين شهدوا فتح مصر^(٢) ، فلذلك نال زهير شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد ، إذ من الواضح أنه كان صغيراً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

جهاده :

١ - شهد زهير فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص ، وغزا (إفريقية) ووليها^(٣) ، وفي سنة اثنتين وستين الهجرية ردّ يزيد بن معاوية عقبة بن نافع الفهري الى (إفريقية)^(٤) فاستخلف على (القيروان) زهيراً^(٥) وترك معه جنداً تعدادهم خمسة آلاف رجل مع الذراري والأموال لإعمار القيروان والمحافظة عليها من الغزاة^(٦) .

٢ - ولما استشهد عقبة بن نافع الفهري في (تَهَوُذَة)^(٧) سنة ثلاث وستين الهجرية^(٨) (٦٨٣ م) قصد (كسيلة بن لَمَزَمَ القيروانَ في جمع كثير من الروم والبربر ، فعزم زهير على القتال ، فخالفه حَنَشُ

(١) انظر التفاصيل في الإصابة (١٧/٣) وتهذيب ابن حساكر (٢٩٣/٥) .

(٢) رياض النفوس (٦٠/١) والاستقصا (٧٦/١) .

(٣) رياض النفوس (٦٠/١) .

(٤) رياض النفوس (٢٢/١) والاستقصا (٧٢/١) .

(٥) ابن الأثير (٤٣/٤) . وفي رياض النفوس (٢٢/١) ونفوح مصر والمغرب (٢٦٧)

انه استخلف على القيروان عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي .

(٦) انظر تاريخ المغرب الكبير (٤٨/٢) .

(٧) تهوذة : اسم لقبيلة من البربر بناحية إفريقية لم أرض تعرف بهم . انظر معجم البلدان

(٤٣٨/٢) .

(٨) سمر أعلام التلاوة (٣٤٩/٣) والبداية والنهاية (٢١٧/٨) وابن الأثير (٤٣/٤)

والإصابة (٨١/٥) .

الصنعاني وعاد^(١) إلى مصر فتبعه أكثر الناس ، فاضطر زهير إلى العودة معهم ، فسار إلى (بَرْقَة)^(٢) وأقام بها^(٣) .

وقد زحف كسيلة البرنسي إلى القيروان سنة أربع وستين الهجرية وانزاعها من يد المسلمين في المحرم^(٤) ، فعظم البلاء على المسلمين ، فقام زهير بن

(١) حش الحشاني : هو حش بن عباد بن عمرو بن حنظلة أبو رشيد من صعا دمشق . روى عن فضالة بن عبيد ورويف بن ثابت وأبي هريرة وأبي سعيد ، وروى عنه ابنه وهيب بن الحجاج وجماعة . غزا المغرب وسكن إفريقية وعداده في المصريين وهو تابعي كبير ثقة . دخل الأندلس وكان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة وقدم مصر بعد قتل علي وغزا المغرب والأندلس . كان حش إذا فرغ من عشائه وحواليه وأراد الصلاة من الليل أوقد المصباح وقرب المصحف وإفاد فيه ماء ، فكان إذا وجد الناس استنشق بالماء ، وإذا تعافى في آفة نظر في المصحف ، وكان إذا جاءه سائل مستطم لم يزل يصيح بأهله : « أطعموا السائل » ، حتى يطعم . نزل مصر ومات سنة مائة الهجرية ، وكان فيمن ثار مع ابن لزيير على عبد الملك بن مروان ، فألقاه به عبد الملك في وثاق فخاضه ، وذلك لأن عبد الملك حين غزا المغرب مع معاوية بن حديج نزل عليه بإفريقية سنة خمسين الهجرية ، لحفظ له ذلك . وكان حش أول من ولي عشور إفريقية في الإسلام ، وكان له عقب بمصر . غزا الأندلس مع موسى بن نصير وله بها آثار ، ويقال : إن جامع سرقسطة من ثغور الأندلس من بنيائه وأنه أول من اعتضه . وفي رواية : أن أبا المهاجر دينار بعث حش للصنعاني إلى جزيرة شريك (في إفريقية) فافتتحها . أنظر التفاصيل في تهذيب ابن حساكر (٩/١١) ومعجم البلدان (٣٩٢/٥-٣٩٣) والاستقصا (٧١/١) ، وقد جاء في ابن الأثير (٤/٤٣) ... فخالفه جيش للصنعاني .. انتهى ، والصحيح هو حش لا جيش كما هو واضح .

(٢) برقة : اسم صقع كبير يشمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية واسم مدينتها : إسطابلس ، وتفسيره : الخمس مدن . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٣/٢) .

(٣) ابن الأثير (٤/٤٣) .

(٤) الاستقصا (١٧/١) . وفي فروع مصر والمغرب (٢٩٩) : ثم زحف ابن الكاهنة (كسيلة) إلى القيروان يريد عمر بن علي وزهير بن قيس ، لقتاله قتالا شديداً ، فهزم ابن الكاهنة وقتل أصحابه . وخرج عمر بن علي وزهير بن قيس إلى مصر لاجتماع ملا البربر ، وأقام ضغفاء أصحابهما ومن كان خرج معهما من موالي إفريقية بأطرابلس ، وكان مقتل كسيلة في سنة أربع وستين الهجرية ... انتهى .

ومن الواضح أن هذه الرواية مرفوعة ، إذ أن كسيلة هو الذي جمع البربر والروم سنة أربع وستين الهجرية لقتال المسلمين في (القيروان) ، فإذا استطاع المسلمون قتله وقتل أصحابه ، فلماذا ينسحبون من (القيروان) ؟؟

قيس خطيئاً في الناس ، فقال : « يا معشر المسلمين ! إن أصحابكم قد دخلوا الجنة ، وقد من الله عليهم بالشهادة ؛ فاسلكوا سبيلهم يفتح الله لكم دون ذلك » ؛ فقال حنش الصنعاني : « لا والله ، ما نقبل قولك ، ولا لك علينا ولاية ، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصاة من المسلمين إلى مشرقهم » ، ثم قال : « يا معشر المسلمين ! من أراد منكم القبول إلى مشرقه فليتبعني » ، فأتبعه الناس ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته ؛ منهض في أثره ولحق بقصره بـ (برقة) ، فأقام بها مرابطاً إلى دولة عبد الملك بن مروان . وأقبل كسيلة البرنسي بعساكره ، فلما قرب من (القيروان) خرج من كان فيها من العرب هارين ، إذ لم يكن لهم طاقة بقتاله لعظيم ما اجتمع معه من البربر والروم ، فأمن كسيلة من بقي في القيروان من المسلمين ، وأقام بالقيروان أميراً على سائر إفريقية والمغرب كله وعلى من فيه من المسلمين ، إلى أن ولي الخلافة عبد الملك بن مروان^(١) . ولم يبق بالقيروان من المسلمين إلا أصحاب الذراري والانتقال ، فأمنهم كسيلة وثبت قدمه بالقيروان واستمر أميراً على البربر ومن بقي بها من العرب . واضطرم المغرب ناراً ، وفشت الردة في البربر ، إلى أن استقلّ عبد الملك بالخلافة وأذهب آثار الفتنة من المشرق ، فالتفت إلى المغرب^(٢) ليصفي حسابه هناك .

وفي رواية ، أن زهيراً خليفة عقبة في القيروان ، لما بلغه ما جرى على عقبة ، رعب رعباً شديداً ، وأراد الإنصراف إلى مصر ، فمنعه أحد أصحابه^(٣) وقال : « لا تفعل ، فإنها هزيمة إلى مصر » ، ثم برز للعدو فكان أول من برز لضرب خبائه ، فلما رأى زهير هزمه ،

(١) الاستقصاء (١٨/١) : ولده ورثه في الاستقصاء (٧٥/١) في خطاب زهير : ... فاسلكوا سبيلهم أو يفتح الله عليكم .

(٢) الاستقصاء (٧٥/١) .

(٣) عنه ابن حبان الحصري . الظر رهاص الفلوس (٢٨/١) .

عزم معه ، وكان معه ستة آلاف رجل : ألفان من البربر ، وأربعة آلاف من العرب . وزحف زهير الى كسيلة وقاتله قتالاً شديداً ، فانهزم كسيلة وقتل من أصحابه مالا يحصى وتفرقوا^(١) .

والظاهر أن الرواية الأولى هي أصح الروايات ، إذ لم يكن بمقدور العرب المسلمين وهم قليلون مقاومة كسيلة بعد أن اجتمع عليه الروم والبربر ، وبعد أن ارتفعت معنوياتهم نتيجة لانتصارهم على عقبة بن نافع في (تهوذة) واستشهاده واستشهاد زهاء ثلاثمائة رجل من أصحابه معه ، خاصة وأن الرجال الذين كانوا مع زهير في القيروان على قتلهم ، لم يكونوا من المحاربين الممتازين ، إذ ليس هناك قائد يمكن أن يستغني عن خمسة آلاف أو ستة آلاف ويبقيهم في الخلف وهم من محاربي الدرجة الأولى ؛ بل إن القادة يتركون في الخلف وراءهم محاربي الدرجة الثانية من كبار السن ، أو ذوي العاهات أو من غير الشجاعة... الخ ، ومثل هذا الجيش لا يستطيع صدّ جيش لجب كجيش كسيلة يتمتع بمعنويات عالية فائقة .

لذلك انسحب زهير من القيروان الى (برقة) ، وكان قراره هذا صحيحاً من الناحية العسكرية ، لأن اشتباكه مع العدو وهو لا يملك القوة الكافية لإحراز النصر ، يؤدي الى كارثة عسكرية تحل بجيشه دون مبرر ولا جدوى .

٣ - ولما استقلّ عبد الملك بن مروان بالخلافة بعد قضائه على الفتن الداخلية كان زهير مرابطاً في (برقة) منذ استشهاد عقبة بن نافع الفهري^(٢) ، فذكر عند عبد الملك من بالقيروان من المسلمين وأشار عليه أصحابه بإنفاذ الجيوش الى إفريقية لاستنقاذهم^(٣) من يد (كسيلة) وأن يُعزّز الإسلام بها كما كان في أيام عقبة ، فقال لهم عبد الملك : « من للأمر مثل عقبة ؟ ! » ،

(١) رياض النفوس (٢٨/١ - ٢٩) .

(٢) الاستقصا (٨١/١) .

(٣) ابن الأثير (٤٣/٤) .

فاتفق رأيهم ورأي المسلمين على زهير ، وكان من رؤساء العابدين وأشرف المجاهدين ؛ فوجه اليه عبد الملك ، وأمره بالخروج على أعنة الخيل فيمن معه من المسلمين لغزو إفريقية ، فسرّ ذلك زهيراً وسارع الى الجهاد^(١) .

ولكن زهيراً كتب الى عبد الملك يعلمه بكثرة الروم والبربر^(٢) ، وبقلّة من معه من الرجال والأموال ، فأرسل عبد الملك الى أشرف العرب لينحشدوا اليه الناس من الشام ، وأفرغ عليهم أموال مصر ؛ فسارع الناس الى الجهاد ، واجتمع منهم خلق عظيم ، فأمرهم أن يلحقوا بزهير ؛ فلما وصلوا اليه خرج بهم الى (إفريقية) . فلما دنا من (القيروان) نزل بقرية يقال لها (قلشانة)^(٣) وذلك في سنة تسع وستين الهجرية ، فبلغ ذلك كسيلة - وكان في خلق عظيم من الروم والبربر ، فدعا كبارهم وأشرفهم ، وشاورهم وقال لهم : «أرى أن نزل بـ (ممّس)^(٤) لثلاث ركبتنا من بالقيروان فهلك^(٥) ، ولأن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ، ونخاف إن قاتلنا زهيراً أن يثب هؤلاء وراءنا ، فإذا نزلنا (ممّس) أمتاهم وقاتلنا زهيراً ، فإن ظفروا بهم تبعناهم الى (طرابلس) وقطعنا أثرهم من إفريقية ، وإن ظفروا بنا تعلّقنا بالجبال ونجونا^(٦) . كما أن الماء بـ (ممّس) كثير ، فأجابوه الى ذلك . ورحل الى (ممّس) فبلغ ذلك زهيراً ، فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح^(٧) .

(١) رياض النفوس (٢٩/١) .

(٢) الاستقصا (٨١/١) .

(٣) وردت في رياض النفوس (٣٠/١) : قرشانة ، ووردت في معجم البلدان (١٤٧/٧) قلشانة ، وهي مدينة بإفريقية بضواحي القيروان . انظر معجم البلدان (١٤٧/٧) وهامش رياض النفوس (٣٠/١) ،

(٤) وقد وردت في ابن الأثير (٤٣/٤) : ممّس وهي في الهضبة في الجنوب الشرقي لجبال أوراس في الجزائر الآن .

(٥) رياض النفوس (٣٠/١) وفي ابن خلدون (١٨٧/٤) : أن زهيراً زحف سنة سبع وستين .

(٦) ابن الأثير (٤٣/٤ - ٤٤) .

(٧) ابن الأثير (٤٤/٤) ورياض النفوس (٣٠/١) . والبيان المغرب (٢٠/١) .

وفي اليوم الرابع زحف زهير في آلاف من المقاتلة ، وجمع له كسيلة
 قبيلة البرانس^(١) وسائر البربر ولقيه ؛ (ممس) من نواحي القيروان . وأشرف
 زهير على عسكر كسيلة في آخر النهار ، فأمر الناس بالزول ؛ فلما أصبح
 زحف اليه . وأقبل كسيلة ومن معه ، فالتحم الفريقان ، ونزل الضر وكثر
 القتل في الجانبين حتى يشن الناس من الحياة ، ولم يزالوا كذلك حتى انهزم
 كسيلة وقتل . ومضى الناس في طلب البربر والروم ، فلحقوا كثيراً منهم
 وقتلوه ، وجدوا في طلبهم الى وادي (مكوية) واد ؛ (طنجة) بالمغرب ،
 وفتح (شِقْبَنَارِيَّة) ^(٢) وقلاعاً أخر^(٣) ، وفتح مدينة (تونس) ^(٤) ،
 وفي هذه الواقعة ذل البربر وفنت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم ^(٥) ،
 وقتل رجال البربر والروم ملوكهم وأشرفهم ^(٦) ، وفزع أهل إفريقيا
 واشتد خوفهم ، فلجأوا الى الحصون والقلاع ^(٧) واضمحل أمر الروم
 فلم يعد لهم شأن يذكر^(٨) . وخاف البربر من زهير والعرب خوفاً شديداً ،
 وكسرت شوكة (أورية) ^(٩) من بينهم ، واستقرّ جمهورهم بديار المغرب
 الأقصى وملكوا مدينة (وكيلي) وكانت فيما بين (فاس) و (مكناسة)
 بجانب جبل (زَرْهُون) ، ولم يكن لهم بعد هذه الواقعة ذكر^(١٠) .

لقد كانت معركة (ممس) معركة حاسمة حقاً ، فقد قضى زهير على

(١) البرانس : قبيلة من البربر .

(٢) هي مدينة Sicca Vaneria الرومانية القديمة ، وتسمى الآن : الكف .

(٣) رياض النفوس (٣٠/١) وانظر ابن الأثير (٤٤/٤) والبيان المغرب (٢٠/١) والاستقصا

(٨١/١) .

(٤) اليلاذي (٢٣١) .

(٥) الاستقصا (٨١/١) .

(٦) ابن الأثير (٤٤/٤) .

(٧) البيان المغرب (٢٠/١) .

(٨) الاستقصا (٨١/١) وقد وردت كلمة الفرغة بدلاً من كلمة الاسلام .

(٩) قبيلة من قبائل البربر .

(١٠) الاستقصا (٨١/١) .

مقاومة البرانس ، فكان هذا القضاء عظيم الأثر في مستقبل الفتوح ، لأن
بئر^(١) البربر كانوا إلباً مع العرب أنصاراً لهم لانتشار الإسلام فيهم ،
وأن البرانس من البربر حملوا لواء المقاومة بمدّهم الروم بالعون ، فكانت
ضربة زهير قاضية على رأس المقاومة وخاتمة لآمال الروم في الاستعانة بأهل
البلاد على العرب^(٢) .

٤- وعاد زهير الى (القيروان) ، فرأى بإفريقية ملكاً عظيماً ، فأبى
ان يقيم بها وقال : «إني ما قدمت إلا للجهاد ، وأخاف أن أميل الى
الدنيا فأهلك » ، وكان من رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين ، فترك القيروان
آمنة ، وانصرف عنها ، وأقام بها كثير من أصحابه^(٣) .

ترك القيروان آمنة ، لخلو البلاد من عدو ذي شوكة ، ورحل في جمع
كثير الى مصر ، فبلغ الروم خروجه من (إفريقية) الى (برقة) ، فأمكنهم
ما يريدون ، فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة عظيمة^(٤) من القسطنطينية
وجزيرة صقلية^(٥) ، فأغاروا على برقة وأصابوا بها سبياً كثيراً ، وقتلوا
ونهبوا ووافق ذلك قدوم عسكر زهير ، فأمر عسكره بالمسير الى الساحل
طمعاً بأن يدرك سبي المسلمين فيستنقذهم . وأشرف على الروم ، فاذا هم
في خلق عظيم ، فلم يقدر على الرجوع ، وقد استغاث به المسلمون وصاحوا ،
والروم يدخلونهم المراكب ، فنادى بأصحابه : «النزول» ، فنزلوا ، وكان
أكثرهم من التابعين . ونزل الروم اليهم ، وتلقوهم بعدد عظيم ، فالتحم
القتال وتكاثر عليهم الروم ، فقتل زهير وأشرف من كانوا معه من

(١) قبيلة من البربر .

(٢) فتح العرب المغرب (٢٣٠) .

(٣) انظر ابن الأثير (٤٤/٤) والبيان المغرب (٢٠/١) والاستقصا (٨١/١) ودلائل

النفوس (٣١/١) .

(٤) البيان المغرب (٢١/١) .

(٥) ابن الأثير (٤٤/٤) .

العرب^(١) ، ولم ينج منهم أحد ؛ وعاد الروم بما غنموا الى القسطنطينية^(٢) .
وفي رواية ، أن الروم بالقسطنطينية عندما بلغهم مسير زهير من برقة
الى إفريقية لقتال كسيلة ، اغتتموا خلوتها فخرجوا إليها في مراكب كثيرة
وقوة قوية من جزيرة صقلية ، وأغاروا على برقة ، فأصابوا منها سبياً
كثيراً ، وقتلوا ونهبوا ، ووافق ذلك قدوم زهير من إفريقية الى برقة ،
فأخبر الخبر ، فأمر العسكر بالسرعة والجدد في قتالهم . ورحل هو ومن معه ،
وكان الروم خلقاً كثيراً ، فلما رآه المسلمون استغاثوا به ، فلم يمكنه الرجوع
وباشر القتال ، فاشتد الأمر وعظم الخطب وتكاثر الروم عليهم فقتلوا
زهيراً وأصحابه ، ولم ينج منهم أحد ، فعاد الروم بما غنموا الى القسطنطينية^(٣)

ونحن جديرون أن نتأمل قليلاً هاتين الروايتين : الأولى أن الروم أقدموا
على حملتهم حين بلغهم خروج زهير من إفريقية الى برقة ، والثانية أن
الروم أقدموا على حملتهم حين بلغهم خروج زهير من برقة الى إفريقية .

والفرق بين الروايتين كبير جداً من الناحية العسكرية ، فالرواية الأولى
تدل على أن الروم استهدفوا من حملتهم جيش زهير بالدرجة الأولى ،
لذلك جرى إنزالهم في برقة لا في المواني الإفريقية الأخرى وهي على طريق
عودته من القيروان الى مصر ، لأجل سحق جيش زهير وهو الهدف السوقي
(الاستراتيجي) الحيوي في الحرب ، لأن القضاء على الجيش معناه انتهاء
كل مقاومة معادية .

وبما يدل على أن خطة الروم كانت ترمي الى القضاء على جيش زهير
بالدرجة الأولى ، هو تحشيد جيش ضخم من القسطنطينية ومن صقلية في
آن واحد وتوقيت إنزاله في برقة في وقت معين محدد هو موعد وصول

(١) البيان المغرب (٢١/١) .

(٢) ابن الأثير (٤٤/٤) .

(٣) ابن الأثير (٤٤/٤) .

جيش زهير الى تلك المنطقة ، ولو كانت نيات الروم مجرد غارة لما بذلوا كل هذه الاستعدادات الضخمة في إعداد الخطط الموقوتة وتحشيد الجيوش الكبيرة ، ولما اجروا إنزالهم في وقت وصول طلائع جيش زهير الى برقة أو قبله .

أما الرواية الثانية ، فتدل على أن خطة الروم كانت غارة لجمع الغنائم والأسلاب ، وهذه الغارة لا تحتاج إلى تلك الاستعدادات الدقيقة الموقوتة وتحشيد الجيوش الضخمة .

فمن الواضح إذاً ، أن الروم أجروا إنزالهم في برقة - مع كل ما ذكرنا من ضخامة الجيوش وضخامة الاستعدادات - للقضاء على جيش زهير ليفوتوا عليه فرصة نجاحه الكبير في معركة (ممس) وليستعيدوا سلطتهم الكاملة على (إفريقية) ؛ لذلك فإن الرواية الأولى هي المقبولة ، لأنها تتفق مع الواقع الذي جرى فعلاً ، ولأن سير الحوادث يؤيدها من كل الوجوه .

لقد شغل الروم عن إفريقية خلال حملة عقبة الأولى ، لأن العرب المسلمين كانوا إذ ذاك يحاصرون القسطنطينية حصارهم الأول الذي بدأ سنة ثمان وأربعين الهجرية واستمر الى ما بعد سنة خمسين الهجرية ، ولبثت الدولة الرومانية بضعة أعوام بعد ذلك تقاسمي عقايل هذه المحنة التي كادت تودي بها ، فلم يعد إليها الهدوء الذي يسمح لها بالاهتمام بولاياتها إلا بعد سنة خمس وخمسين الهجرية^(١) ؛ إذ نشط الروم بعدها نشاطاً مفاجئاً ترجع أسبابه إلى إسترجاع الدولة عافيتها بفضل جهود قسطنطين الرابع وإصلاحه الديني واجتهاده في وصل ما كان قد وهى من علاقات الدولة مع أملاكها في (إفريقية) وغيرها^(٢) ، وكان انشغال العرب بكسيلة وتوجه اهتمامهم للقضاء عليه فرصة طيبة استطاع فيها الروم أن يشدوا أمرهم ويثبتوا أقدامهم

(١) فتح العرب المغرب (١٥٩) .

(٢) فتح العرب المغرب (٢١٣) .

استعداداً لصراع حاصم^(١).

فلماذا ارتد زهير عن إفريقية مسرعاً لغير سبب ظاهر بعد انتصاره في (ممس)؟ إن تعليل المراجع لذلك بقولها : إنه خشي الفتنة على نفسه ، وكان من العباد المخبتين ، فقال : « إنما جئت للجهاد في سبيل الله ، وأخاف على نفسي أن تميل إلى الدنيا فأهلك^(٢) » .. الخ تعليل ضعيف ، لأن الزاهد الورع الذي يخاف على نفسه فتنة الدنيا هو الذي يقيم على الثغور ويرابط في دار الحرب ، فإذا فضّل على ذلك العودة إلى العواصم والمدن لم يكن ذلك دليلاً على الورع أو بدافعه ، بل دليل أسوأ أخرى وبدافعها^(٣) . فما أسباب عودته مسرعاً؟ الظاهر أن السبب الحقيقي هو وصول معلومات أكيدة إليه عن تحركات جيوش الروم باتجاه برقة ، لذلك سارع إلى العودة حتى لا يقطع الروم خطوط مواصلاته أولاً ، وحتى يحرمهم انتهاك حرمة المدن الإسلامية ثانياً ، خاصة أنه يعرف أن منطقة برقة كانت حينذاك منطقة مكشوفة تقريباً ، لعدم تبسّر قوات إسلامية كافية فيها تحميها من غارات الروم بمجيوش ضخمة عليها ، وليس معنى ذلك أن تلك المنطقة كانت محرومة تماماً من مدافعين عنها ، إذ أن ذلك لا يمكن أن يحدث مطلقاً من الناحية العسكرية فلا بد أن يكون فيها عدد مناسب من الرجال لحمايتها من الغارات المحدودة أو من قوات معادية قليلة وذلك بمشاغلتهم مدة من الزمن حتى تردهم النجادات والإمداد ، إذ لا يمكن أن يترك أي قائد أبة منطقة على خطوط مواصلاته دون حماية كافية ، ولكن القوة التي تركها في برقة لا ترقى أن تكون كافية في صد جيوش كبيرة ، وهذا ليس خطأ زهير بتاتاً ، إذ ليس بإمكانه أن يزور رجاله بأعداد كبيرة ليكوّنوا حاميات على طول خطوط مواصلاته التي تمتد إلى قرابة ألفي ميل ، وليس هناك قوة كافية لهذا الغرض ، فلم

(١) فتح العرب للمغرب (٢١٥).

(٢) الاستقصا (٨١/١).

(٣) فتح العرب للمغرب (٢٢٧).

يكن له إلا أن يترك حاميات صغيرة في النقاط السوقية (الاستراتيجية) المهمة لحمايتها من قوات معادية محدودة ولفترة محدودة من الزمن .

ولكن المعلومات التي وردت عليه عن حشود الروم الضخمة باتجاه منطقة برقة ، جعلته يقرر فوراً العودة أدراجه الى تلك المنطقة لمواجهة بقواته الضاربة ، وفعلاً وصل الى تلك المنطقة في الوقت المناسب ، ولكنه دُحر أمام الروم لأن قواته لم تكن كافية في إحراز الظفر عليها ، بالرغم من إقدام زهير وإقدام رجاله على مقاتلة الروم بشجاعة وتضحية وفداء .

وهكذا سقط زهير وكثير من رجاله شهداء في ساحة الوغى ، لأن القوتين العربية والرومية لم تكونا متكافئتين ، ولأن العرب كانوا مجهدين من سفرهم الشاق الطويل آلاف الأميال ، ولأن الوقت المتيسر لزهير لم يكن كافياً في إعداد الخطة العسكرية الدقيقة لمقاومة الغزو ولتلقّي الإمداد من المشرق ، فاندفع زهير ودفع قواته بمثل تلك الظروف بحوافز عاطفية لتخليص الأسرى المسلمين من أيدي الروم ، فوقعت الكارثة بزهير ورجاله ، فخسروا كل شيء ... إلا الشرف ... ولم يكن بإمكانهم ولا بإمكان أي قائد آخر في مثل تلك الظروف والأحوال ، أن يفعل غير ما فعله زهير وأصحابه فيلاني نفس المصير الذي لاقوه .

الإنسان :

كان زهير صحابياً ولكننا لا نعلم عن أيامه الأولى شيئاً كثيراً ، وكان ممن لزم عمرو بن العاص ودخل معه دمشق . وفي سنة أربع وستين الهجرية كان زهير بمصر فبعثه أميرها^(١) إلى (أيلة) ^(٢) ليمنع عبد العزيز بن

(١) كان أميرها حينذاك عبد الرحمن بن حبة بن لياس الفهري . انظر الولاية والقضاة (٤١) وهو المعروف بأبن جحدم .

(٢) أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) ما يلي الشام ، وهي آخر الحجاز وأول الشام . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٩١/١) .

مروان من المسير إليها ، وكان زهير حينذاك الى جانب عبد الله بن الزبير على بني أمية ، فهزّم زهير ومن معه أمام عبد العزيز بن مروان (١). ولعل هذا الحادث ترك أثره في نفس عبد العزيز بن مروان على زهير ، فقد ندب عبد العزيز زهيراً الى (برقة) وكان عبد العزيز أميراً على مصر ، فخطب زهيراً بشيء ، فأجابه زهير : «أتقول هذا لرجل جمع ما أنزل الله على نبيه قبل أن يجمع أبواك هذا ؟» (٢).

كان زهير من رؤساء العابدين وأشرف المجاهدين (٣) صاحب فضل ودين (٤) ، وكان من العباد المخبتين (٥) ، وكان من العلماء المتفقيين .

شهد فتح مصر سنة عشرين الهجرية كما أسلفنا ، فاذا كان عمره يوم شهد فتح مصر زهاء عشرين عاماً ، واستشهد سنة إحدى وسبعين الهجرية (٦٩٠ م) فليس من المعقول أن يكون عمره حينذاك أكثر من إحدى وسبعين سنة ، وإلا ما استطاع قيادة الجيوش ومعاونة أمور الحرب وتحمل أعبائها . لذلك كان من المحتمل أن يكون زهير قد ولد في السنة الأولى من الهجرة (٦٢٢ م) ، وقد دفن بـ (درنة) (٧) قريباً من الشاطئ الذي استشهد فيه ، وقبره وقبور الشهداء الذين سقطوا معه معروفة هناك (٨).

وقد ورد في بعض المصادر أنه استشهد سنة ست وسبعين الهجرية (٩) ، مع أن خليفته حسان بن النعمان تولى إفريقية سنة أربع وسبعين الهجرية (١٠).

(١) الولاة والقضاة (٤٣).

(٢) الإصابة (٢٧/٣) وانظر تهذيب ابن عساكر (٣٩٣/٥).

(٣) رياض النفوس (٢٩/١).

(٤) البيان المغرب (٢١/١).

(٥) الاستقصا (٨١/١).

(٦) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٨٥) نقلاً عن المؤنس .

(٧) درنة : مدينة في ليبيا على ساحل البحر شرقي بنغازي .

(٨) معجم البلدان (٥٥/٤).

(٩) الإصابة (١٧/٣) ومعجم البلدان (٥٥/٤).

(١٠) ابن الأثير (١٤٣/٤).

فلا بدّ أن حسان بن النعمان تولّاها بعد استشهاد زهير لا قبله !

كما ورد في بعض المصادر ، أن زهيراً قُتِلَ سنة تسع وستين الهجرية^(١) ، وهذا مرجوح أيضاً ، لأنه ليس من المعقول أن يتولى زهير إفريقية وهو (برقة) في هذه السنة ، ثم يُعيد جيشه ويتلقى الإمداد ويسير الى (القيروان) ويقاثل هناك ويطارد العدو ، ثم يعود أدراجه من القيروان الى (برقة) بعد مكوثه في (القيروان) ردحاً من الزمن ، ويتم كل ذلك خلال سنة واحدة ! ولما سمع عبد الملك بن مروان بقتل زهير ، عظم عليه واشتد^(٢) ، وكانت مصيبتة مثل مصيبة عقبة بن نافع قبله^(٣) لمكانة زهير السامية في نفوس العرب المسلمين .

لقد كان زهير من رجالات السلف الصالح : شجاعة وبطولة وإيماناً وورعاً .

القالد :

نشأ زهير في بيئة خالصة تتسم بالشجاعة والإقدام ، وترعرع في أيام الجهاد الاولى وفي العهد الذهبي للفتح الإسلامي ، وما كاد يشبّ إلا وانخرط في سلك المجاهدين الفاتحين ، فشهد فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص ، ثم شهد فتوح إفريقية ووليتها أيضاً .

وحين أصبحت مصر بلداً إسلامياً وبدأ الفاتحون يتوغلون غرباً في إفريقية ، كان زهير مع أولئك الفاتحين . وفي سنة ست وأربعين الهجرية كان زهير في جيش عقبة بن نافع ، فاستخلفه عقبة على جيشه : (مغداش)^(٤)

(١) ابن الأثير (١٤٣/٤) .

(٢) ابن الأثير (٤٤/٤) .

(٣) البيان المغرب (٢١/١) ورياض النفوس (٣١/١) .

(٤) مغداش : مدينة قريبة من سرت في طرابلس . انظر هامش فتوح مصر والمغرب (٢٦٢) .

وسار بنفسه بمن خف معه لفتح (وَدَّان) ^(١)، ثم عاد عقبة الى عسكره بعد خمسة أشهر ^(٢). وفي سنة اثنتين وستين الهجرية استخلفه عقبة على (القيروان) حين يمم شطر المغرب الأقصى الى المحيط الأطلسي ^(٣) كما مر بنا ذلك.

لقد كان زهير من أقرب المقرين الى عقبة وكان ساعده الأيمن في حروبه وغزواته، فلا عجب أن تجمع آراء ذوي الرأي من المسلمين على اختياره خلفاً لعقبة في فتح (إفريقية) ^(٤) وأخذ ثارات شهداء (هؤذة) : عقبة وأصحابه، واستنقذ القيروان ومن بها من المسلمين من كسيلة المتقلب عليها ^(٥).

هذه التجربة لزهير في إدارة الحروب ومعاناتها، أفادت المسلمين عندما أصبح قائداً لجيش إفريقية، فخاض معركة حاسمة في (ممس) : ذل البربر وفنت فرسانهم ورجلهم وخضدت شوكتهم وقتل رجال البربر والروم وملوكهم وأشرافهم، وفرغ أهل إفريقية واشتد خوفهم، فلهجوا الى الحصون والقلاع، واضمحل أمر الروم فلم يعد لهم شأن يذكر، وخاف البربر من زهير والعرب خوفاً شديداً، وكسرت شوكة قبيلة (أوربة) القوية المنتفذة في إفريقية كما ذكرنا سابقاً.

وكان قرار زهير الخاص بمطاردة البربر بعد معركة (ممس) قراراً صائباً جداً يدعو الى التقدير والإعجاب، ولولا تلك المطاردة التي كانت بتماس شديد بالبربر لاستطاع البربر التسلل الى الجبال والتخلص

(١) ودان : مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية تقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس الغرب بنحو (٧٦٩) كلم. انظر التفاصيل في تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٧).

(٢) انظر التفاصيل في فصح مصر والمغرب (٢٦٢ - ٢٦٤) وفي ترجمة عقبة بن نافع الفهري في هذا الكتاب.

(٣) ابن الأثير (٤/١٢ - ٤٤).

(٤) البيان المغرب (١/٢٩).

(٥) الاستقصا (١/٨١).

من الخسائر الفادحة التي لحقت بقواتهم ؛ وكان من نتائج تلك المطاردة الموفقة تفويت الفرصة على البربر للتملص من المعركة الخاسرة الى الجبال ، وهم الذين تركوا القيروان الى (ممس) ليسهل عليهم الإفلات من العرب المسلمين في حالة دحرهم وذلك باللجوء الى الجبال المحيطة بالمنطقة لتقليل خسائرهم في الأرواح والمواد .

كما كان قرار زهير في البقاء خارج (القيروان) وعدم دخوله قراراً صائباً حقاً ، لأن دخول المدينة يؤدي الى بعثرة قوات المسلمين للدفاع عنها ، وبذلك تنقلب خططهم الهجومية على جيش كسيلة الى خطة دفاعية ، والهجوم وحده لا الدفاع هو الذي يؤدي الى إحراز الظفر .

أما استعداداته لإنجاز استحضارات جيشه عدداً وعدداً ، فقد بلغت حدّ الروعة : أمره عبدالمملك بن مروان بالخروج على أعنة الخيل فيمن معه من المسلمين لغزو إفريقية ، فكتب الى عبدالمملك يخبره بقلّة من معه من الرجال والاموال . فأرسل عبد الملك الى أشراف العرب ليحشدوا اليه الناس من الشام ، وأفرغ عليهم أموال مصر^(١) ، وبذلك طبق زهير مبدئي (التحشد) و (الأموال الإدارية) على أحسن وجه .

ولكن زهيراً أخطأ في اصطدامه مع قوات الروم في منطقة (برقة) دون أن يتخذ كل الاجراءات اللازمة لضمان نجاح هذا الاصطدام ، فمن الواضح أنه اصطدم مع الروم وهو بقوات قليلة هي قواته المتقدمة الخفيفة ، فقد عدل هو الى الساحل في خيل يسيرة^(٢) ، فوجد أسطول الروم من قبل قيصر وبأيديهم أسرى من المسلمين ، فاستغلوا به وهو في خوف من أصحابه ، فصمد اليهم فيمن معه وقاتل الروم حتى قتل ، وقتل معه جماعة من أشراف أصحابه^(٣) ، فلما رآه المسلمون استغلوا

(١) رهاض النفوس (٢٩/١) .

(٢) معالم الايمان (٥٤/١) وفي رهاض النفوس (٣١/١) : انه عدل الى الساحل بقوات كبيرة .

(٣) الاصطدام (٨١/١) .

به فلم يمكنه الرجوع ، وبأشر القتال^(١) ... وهذا يدل على أن الفرسان الذين معه كانوا قليلي العدد ، وأنهم جماعة متقدمة واجبها الاستطلاع فقط لا القتال ؛ ولكنه أنشب القتال خضوعاً لموجة عاطفية عارمة تورط بتأثيرها هو وأصحابه في قتال غير متوقع في وقت ومكان غير مناسبين ، وكان عليه أن يكبح جماح عاطفته ، إذ ليس في إعداد الخطط العسكرية مجال للأمور العاطفية ، ويجمع رجاله كافة ويستفيد من كل مقاتل متيسر ، ويُعدّ الخطوة المناسبة للقتال ، ويهيء الأمور الإدارية لقواته ، ثم يختار هو الوقت والمكان المناسبين لمهاجمة الروم ... عند ذاك تكون فرص نجاحه متهيئة ، ويكون قد أعدّ كل متطلبات القتال قبل نشوبه .

وعلى كل ، فإن العاطفة الدينية المتأججة حينذاك ، وروية الرجال والأطفال والنساء أسرى يقادون قسراً الى سفن الروم أدى الى تحمس رجاله وإقدامهم دون تدبّر وتقدير الى مهاجمة الروم دون خطة مناسبة ولا قوات كافية ، وذلك مما أدى الى تورط قواته وتورطه هو نفسه في معركة خاسرة دفع هو ورجاله حياتهم الغالية ثمناً لها .

وربما يتبادر الى الأذهان ، السؤال الآتي : كيف نوفق بين معرفة زهير بوجود قوات الروم في تلك المنطقة ، وكان ذلك من أهم أسباب عودته من (القيروان) الى (برقة) ، وبين إقدامه على التقدم الى تلك القوات على رأس ثلة من الفرسان فيتورط في معركة خاسرة ؟ ولماذا لم يتدخل القسم الأكبر من جيشه في تلك المعركة في اثناء نشوبها لإنقاذ زهير وفرسانه ؟ ولماذا لم يأخذ ذلك الجبش بثأره — في الأقل — بعد استشاده واستشهاد فرسانه معه ؟ ؟

وأبادر الى الجواب ، بأن مثل هذا السؤال قد يتبادر الى غير العسكريين ، أما العسكريون الذين خاضوا غمار الحروب واصطلوا بنارها ، فيقدرون

(١) ابن الأثير (٤٤/٤) .

أن ما حدث أمر طبيعي جداً بسبب ظروف الحرب غير الاعتيادية التي قد تفلت أحياناً من ايدي قادتها فتسير وتتطور على غير ما يشتهون .
والى أولئك الذين يتبادر الى أذهانهم مثل هذا السؤال من المدنيين ،
والى العسكريين النظريين غير المجريين ، أسوق هذا الجواب .

لست أشك أن حامية منطقة (برقة) التي خلفها زهير وراءه لحماية تلك المنطقة من العدو ، ولحماية خطوط مواصلاته ، لا يمكن أن تكون في ظلام دامس بعيدة عن الأحداث لا تهتم بالحصول على المعلومات عن نيات العدو المتربص بها ، فلا بد أن يكون لها مصادر مختلفة مهمتها الحصول على المعلومات عن العدو من البربر والروم : دوريات استطلاعية برية وبحرية ، ومراكب تمخر عباب البحر ، وعيون وأرصاد في مختلف الأماكن والاصقاع . بل إذا حصل كل عربي مسلم وكل مسلم مسؤولاً كان أو غير مسؤول على معلومات مفيدة عن العدو ، فإنه يرى نفسه مسؤولاً عند الله وعقيدته وقومه عن إيصال تلك المعلومات إلى المسؤولين بأسرع وقت وبأسرع وسيلة .

هذه الحامية الساهرة لمصالح المسلمين المرابطة دفاعاً عن أرواحهم وأرضهم وكبرامتهم وعزتهم ، أُنذرت زهيراً - على اعتباره المسؤول الأول عن إفريقية - بتحركات الروم من القسطنطينية ومن صقلية ، وقد تكون هذه المعلومات - خاصة عن تحركات الروم من القسطنطينية - وصلت إليها من المشرق أو حصلت عليها بوسائلها الخاصة أو حصل عليها زهير بوسائله الخاصة ، فعاد زهير بقواته الضاربة لحماية منطقة برقة المهددة بقوات الروم ؛ ثم تقدم زهير على رأس قطعاته الراكبة التي حرص على قيادتها بنفسه - وهذا من مميزات القائد الممتاز ، إذ يكون دائماً في الأمام قريباً من مواطن الخطر - تقدم بنفسه لاستطلاع مواضع إنزال الروم ، ومعرفة قوتهم وتسليحهم ، وذلك لإعداد الخطة المناسبة لمقاومتهم ، ولكنه - على ما يظهر - فوجيء بالمسلمين يقادون قسراً

وهم أسرى الى مراكز الروم ، فاستغاث به هؤلاء ، فتورطت جماعة من رجاله خضوعاً لعاطفتهم المتأججة في الاشتباك مع الروم دون خطة مدبرة ولا استعداد مسبق لخوض المعركة ، فكانت الكارثة التي لحقت بزهير وبفرسانه الأبطال .

أما لماذا لم ينجدهم رجالهم الذين يتقدمون باتجاه العدو . فمن المحتمل أن يكونوا بعيدين عن ساحة المعركة ، ومن المحتمل أنهم لم يكونوا بعيدين ولكنهم وصلوا الى ساحة المعركة بعد فوات الوقت المناسب ، فقت استشهادهم في إعضادهم ، فأصبحوا بغير قيادة ، وانهارت معنوياتهم ، ولا قيمة لجيش بغير قيادة ولا معنويات .

ومن المعلوم أن المعارك الحربية في العصور القديمة قبل اختراع البارود وقبل اختراع الأسلحة الحديثة ، يتقرر مصيرها خلال ساعات قليلة ، وقد يكون استشهاد القائد وحده هو العامل المهم في الهزيمة .

تري ! هل نلقي اللوم كله على زهير في تورطه بالاشتباك بالروم دون استعداد كاف وفي وقت ومكان غير مناسبين ؟ !

إن ظروف الحرب ظروف غير اعتيادية ، وشتان ما بين من يجلس الى مكتبه ليدرس معركة من المعارك فيقرر وهو آمن مستريح : هذا صحيح وهذا خطأ ، وهذا أصاب وهذا أخطأ ؛ وبين من يعاني ويلات الحرب ويصطلي بنارها .

إن سير الحوادث في الحرب قد يكون تياراً عارماً يجرف القائد دون إرادة منه ويجرف من معه من الرجال .

هكذا كانت خاتمة حياة زهير ، إذ استشهد استشهاده لا يقل روعة وجلالاً عن استشهاد عقبة بن نافع الفهري ، فأثار مصرعه نائرة العرب المسلمين ، وحفزهم الى مواصلة الفتح لإدراك ثأر زهير وأصحابه . وقد كان لمقتله على يد الروم أثر عظيم في مسير الفتوح ، إذ كان زهير

قد حسب - بعد قتله كسيلة - أن كل مقاومة للبلاد قد خمدت ، وأن البلاد أصبحت آمنة مطمئنة ، فكان مقتل زهير منبهاً للعرب الى ما ينجم عن ترك الروم من خطر ، وإلى ما يمكن أن يسببوه للعرب من المتاعب إذا تركوا في مدائن الساحل يستعيدون ما ضاع من قوتهم ، ويستمدون العون من بيزنطة نفسها . وكما كان مصرع عقبة محدداً لمهمة زهير ، كان مقتل زهير محدداً لمهمة حسان بن النعمان - من بعده - فأنفق ما قدر عليه من جهد في القضاء على الروم ، حتى تمكن من ذلك تماماً^(١).

وهكذا كانت حياة زهير الغالية بركة على المسلمين عامة وعلى فتح إفريقية خاصة ؛ وكانت خاتمة حياته المشرقة ، بركة على المسلمين عامة وعلى فتح إفريقية خاصة ..

لقد كان من نتائج استشهاده تكامل الفتح الإسلامي في إفريقية ، فأصبحت تلك البلاد إسلامية كما هو الحال في مصر وأرض الشام والعراق وغيرها من البلاد ، وأصبح الفتح الإسلامي في إفريقية فتحاً مستداماً كما هو الحال في تلك الأقطار .

لقد كان زهير مجاهداً قائداً ، يتسم بكل ما يتسم به المؤمن بالجهاد من مزايا التضحية والفداء من أجل إعلاء كلمة الله وهو كما قال : « إنما قدمت للجهاد ولم أقدم لحب الدنيا »^(٢) ، ولعل إيمانه العميق بالجهاد حثب اليه الاستشهاد وجعله يستأثر بالخطر دون أصحابه ، فيكون دائماً قريباً من مواطن الخطر طلباً لما عند الله من أجر للشهداء ، وكان يحب حاله ويحبونه ويثق بهم ويقفون به لما كان يتمتع به من ماض مجيد في الجهاد . وكان ذا تجربة طويلة عملية للحروب ، مارسها منذ قدر على حمل السلاح حتى يوم استشهاده ، فكان مجاهداً من المهد الى اللحد كما يقولون .

(١) فتح العرب للمغرب (٢٢٩ - ٢٣٠) .

(٢) رياض النفوس (٣٠/١) .

وكان في حروبه يطبّق مبدأ (التحشد) ومبدأ (التعرض) ومبدأ (الأمور الإدارية) ، فكانت استعداداته للقتال ممتازة حقاً .

لقد كان من أولئك الذين نذروا أنفسهم لعقيدتهم ، فسقط أخيراً في ساحات القتال دون أن يسقط السيف من يده .

زهير في التاريخ :

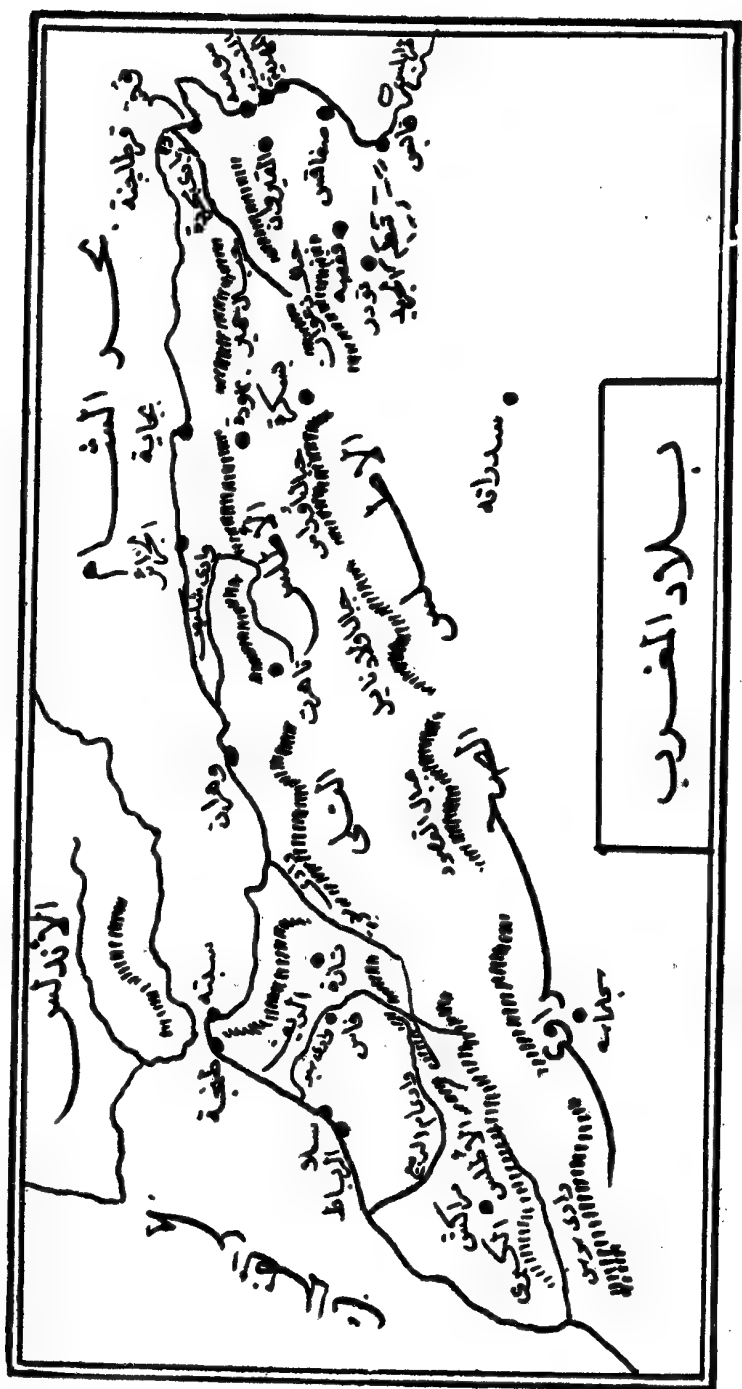
يذكر التاريخ لزهير استنقاذه القيروان ومن بها من المسلمين من يد كسيلة المتغلب عليها .

ويذكر له ، أنه كان نعم المطالب بدم عقبة بن نافع الفهري ، وهو الذي أخذ ثأر عقبة من قاتله كسيلة ، فهو الذي قتل كسيلة وقتل عدداً ضخماً من رجاله وفرسانه ورجال حلفائه الروم وفرسانهم .

ويذكر له أنه انتصر في معركة حاسمة على البربر في (ممس) ، ففرغ منه أهل إفريقية واشتد خوفهم فلجأوا الى الحصون والقلاع .

ويذكر له ، أنه ضحى بنفسه من أجل عقيدته ولم يضح بعقيدته من أجل نفسه .

رضي الله عن الصحابي الجليل ، التقي النقي ، المؤمن الورع ، البطل الشهيد ، القائد الفاتح زهير بن قيس البَلّوي .



بلاد المغرب

حسان بن النعمان الأزدي الغساني^(١)

فاتح قرطاجنة وقاس
وقائد المعركة الحاسية ضد الروم في إفريقية

« ما أعلم أحداً أكفأ بإفريقية من حسان بن
النعمان الغساني »

(عبد الملك بن مروان)

نسبه وأيامه الأولى :

هو حسان بن النعمان بن عدي بن مغيث بن عمرو مزنيقياء بن
عامر ماء السماء^(٢) بن الأزد^(٣).

أهله من الغساسنة ملوك الشام الذين كانوا موالين للامبراطورية البيزنطية
قبل الفتح الإسلامي ، فأسلم بعضهم وبقي بعضهم نصرانياً^(٤) ، فنشأ

(١) كل ولد عمرو بن عامر ماء السماء بن خازنة بن الفطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن
ابن الأزد ، يدعون حسان ، فحسان من الأزد . انظر جمهرة أنساب العرب (٣٣١) وانظر المنتخب
في ذكر قبائل العرب (٦٣ - ٧٠) .

(٢) عامر هو ماء السماء ، وكل أولاد عمرو بن عامر يدعون حسان ، وهم بنو الحارث ومالك
وكعب بن عمرو مزنيقياء فقط . انظر جمهرة أنساب العرب (٣٣١) ومزيقياء لقب عمرو المذكور ،
وكان من ملوك اليمن ، وإنما لقب بذلك لأنه كان يلبس كل يوم حلتين منسوجتين بالذهب ، فإذا
أمسى مزقهما وغلغلهما لأنه يكره أن يموز فيهما . وماء السماء لقب عامر بلجوده وكثرة نفقه فشبّه
بالنبت . انظر وفيات الأعيان (٤٣٩/٤) .

(٣) البيان المغرب (٢٣/١) .

(٤) لا يزال أولاد الغساسنة في أرض الشام ، منهم مسلمون ومنهم نصارى حتى اليوم ، ومنهم
المسلمين الأمير شكيب أرسلان .

وترعرع في بيت عريق له ماضٍ مجيد في القيادة والحكم . انتقل جدّه عمرو مزقبياء الذي كان من ملوك اليمن الى أرض الشام^(١) ، فكان من أولاده وأحفاده ملوك بني غسّان .

كان حسان من التابعين ، وقد حدث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٢) ، وكانت له مكانة مرموقة عند بني أمية وعند الناس ، حتى أطلق عليه لقب : الشيخ الأمين^(٣) .

جهاده :

١ - لما بلغ عبد الملك بن مروان مقتل زهير بن قيس البلّوي^(٤) وأصحابه اشتدّ عليه وعلى المسلمين ذلك ، وكانت المصيبة بزهير وأصحابه مثل المصيبة بعقبة بن نافع الفهري وأصحابه . وسأل أشراف المسلمين عبد الملك أن ينظر إلى أهل (إفريقية) ويؤمنهم من عدوّهم ويبعث الجيوش إليهم ، فقال عبد الملك : « ما أعلم أحداً أكفاً لإفريقية من حسان بن النعمان الغساني^(٥) » . ولما قتل عبدالله بن الزبير سنة ثلاث وسبعين الهجرية^(٦) أصبح عبد الملك بموقف يساعده على إرسال الجيوش إلى إفريقية ، اذ اجتمع المسلمون عليه ، فجهز جيشاً كثيراً واستعمل عليهم وعلى إفريقية حسان ابن النعمان وسيرهم إليها في سنة أربع وسبعين الهجرية^(٧) . وفي رواية أن حسان بن النعمان قدم والياً على المغرب أقره عليها عبد الملك بن مروان سنة ثلاث وسبعين الهجرية^(٨) . وفي رواية أنه قدم لإفريقية سنة ثمان وسبعين

(١) وفیات الاعيان (٤٣٩/٤) .

(٢) تهذيب ابن صاكر (١٤٦/٤) .

(٣) الاستقصا (٨٢/١) .

(٤) انظر ترجمتي في هذا الكتاب (١٥٠ - ١٧٠) .

(٥) رياض النفوس (٣١/١) .

(٦) العبر (٨١/١) وفتوح الذهب (٧٩/١) .

(٧) ابن الأثير (١٤٣/٤) .

(٨) فتوح مصر والمغرب (٢٦٩) .

الهجرية^(١). وفي رواية أنه قدمها خلال سنوات ست وسبعين أو سبع وسبعين أو ثمان وسبعين الهجرية^(٢). وفي رواية أنه قدمها سنة تسع وسبعين الهجرية^(٣). فما علّة هذا التباين الشديد؟ ربما جاز تعليل ذلك بأن حسّان قام بمحلتين لا حملة واحدة: فتح في الاولى (قَرطاجنة)^(٤)، ثم اتّجه نحو الكاهنة^(٥)، فانهزم، واتّجه في الثانية نحو الكاهنة ثم فتح قرطاجنة مرة أخرى، فاختلف الأمر على المؤرخين لتشابه أعمال الرجل في كليهما، وتردّدا بين كل السنوات التي انقضت بين مسيره الأول ومسيره الثاني^(٦).

ومن الواضح أن الموقف العسكري لعبد الملك بعد مقتل زهير بن قيسر البكوي سنة إحدى وسبعين الهجرية لم يكن ليساعد على الاستغناء عن جيوشه لاسترداد ما ضاع. من (إفريقية): ففي سنة اثنتين وسبعين الهجرية قضى عبد الملك على مصعب بن الزبير في العراق^(٧)، وفي هذه السنة جهّز الحجاج

(١) البيان المغرب (٢٢/١).

(٢) المؤنس (٣١).

(٣) الخلاصة النقية (١٠).

(٤) قرطاجنة: ويسمى أهل تونس اليوم الملققة. وكانت قرطاجنة مدينة عظيمة تضرب أمواج البحر سورها، وهي من مدينة تونس على اثني عشر ميلا، وكان بينهما قرى متصلة عامرة. وفي هذه المدينة آثار عظيمة وأبنية ضخمة وأعدة قائمة، وتونس صمرت من مراب قرطاجنة. انظر التفاصيل في البيان المغرب (٢٣/١) ومعجم البلدان (٥٢/٧) والمشارك وضماً (٣٤٢).

(٥) الكاهنة: امرأة بربرية قوية الشخصية ذكية الفؤاد، احترفت السحر والكهانة. والكاهن في البربر كالكاهن عند العرب في الجاهلية، هو عالم قومه ومستشار ناحيته واتقاضي الذي يفصل في كثير من النوازل. واسم الكاهنة داهيا بنت ماتيا بن تيفان، وكان زوجها ملكاً على جبال أوراس فترك لها ثلاثة أولاد - كما ذكر ابن عذارى المراكشي والسنلاوي المغربي - صفار وأوس. والملك لهم، فقامت أمهم مقامهم. والكاهنة من قبيلة جراوة من زناتة القبيلة البربرية المشهورة التي كانت لها الزعامة والملك في جبال أوراس. انظر التفاصيل في تاريخ المغرب الكبير (٧٢/٢ - ٧٧) وتاريخ الفتح العربي في ليبيا (٨٨ - ٨٩) وفتح العرب للمغرب (٢٤٢ - ٢٤٦) والبيان المغرب (٢٥/١) وتاريخ المغرب (٦٥/١) والاستقصا (٨٢/١ - ٨٣).

(٦) فتح العرب للمغرب (٢٣٥).

(٧) البر (٨٠/١).

ابن يوسف الثقفي الى مكة لحرب عبد الله بن الزبير^(١) ، وفي سنة ثلاث وسبعين الهجرية نازل الحجاجُ عبد الله بن الزبير وقضى عليه في جمادى الأولى ، فاستوثق الأمر لعبد الملك بمقتل ابن الزبير^(٢) فحج سنة خمس وسبعين الهجرية^(٣) ، مما يدل على استتاب الأمور وحلول الإستقرار .

وما كان لعبد الملك أن يصبر على ما يحقد بالمسلمين من خطر في (إفريقية) ولا أن يرضى بأقل من استعادتها وفتح ما استعصى فتحه على المسلمين منها . بعد عام الجماعة وهو سنة ثلاث وسبعين الهجرية^(٤) ، لذلك كان أول عمل نفذه هو إرسال حسّان إلى (إفريقية) بعد أن اجتمع أشراف العرب وسألوه أن ينظر لإفريقية من يصدّ ثغرها ويصلح أمرها^(٥) ، وكان ذلك سنة ثلاث وسبعين الهجرية^(٦) ، وهذا التاريخ هو أقرب التواريخ لسير الحوادث من الناحية العسكرية^(٧) .

٢ - ودأب حسّان على إنجاز استحضارات جيشه الذي بلغ عدده أربعين ألفاً أقامه أولاً في مصر عدة لما يحدث . وكتب إليه عبد الملك يأمره بالنهوض إلى (إفريقية) ويقول له : «إني أطلقت بك في أموال مصر ، فاعط من معاك ومن ورد عليك ، واعط الناس واخرج إلى بلاد إفريقية على بركة

(١) المبر (٨١/١) .

(٢) المبر (٨١/١ - ٨٢) .

(٣) المبر (٨٥/١) .

(٤) تاريخ بغداد (٣٩٠/١٠) .

(٥) البيان المغرب (٢١/١ - ٢٢) .

(٦) فتوح مصر والمغرب (٢٦٩) .

(٧) انظر ترجمة عبد الملك . وفي كتاب فتح العرب للمغرب (٢٢٦) ، أن حملة حسان سارت سنة ٧٦ هـ أو سنة ٧٨ هـ ، لأن عبد الملك ما كان يستغني عن أربعين ألفاً من جنوده إلا بعد خمود الفتن واستقرار الأحوال ، ولم يكن ذلك إلا بعد سنة ٧٥ هـ ... انتهى ، والحق أن الفتن الداخلية لم تسكت حتى بعد ذلك التاريخ ، ولكنها كانت فتناً محلية عاجلها الولاة المحليون ، فساكن منها في العراق - وهذه أهمها - عاجلها الحجاج بن يوسف عالياً بمعاونة عبد الملك ، وهذه الفتن ليست بدرجة مسد الخطورة بحيث تهدد كيان الدولة في الشام .

الله وعونه» (١١) .

كم من الوقت أمضى حسان لإنجاز استحضارات جيشه الذي بلغ عدده أربعين ألفاً؟ إن الوقت الذي يستغرقه إنجاز استحضارات مثل هذا الجيش : تسليحه وتجهيزه وتأمين قضاياه الإدارية ... الخ لا يقلّ عن عام أو أكثر أو أقل من عام بشهور قليلة على كل حال ، لذلك سار هذا الجيش لاستعادة فتح إفريقية سنة أربع وسبعين الهجرية ، فلم يدخل إفريقية قط جيش مثله (١٢) ، فكان حسان أول من دخل إفريقية من أهل الشام في زمن بني أمية (١٣) .

كانت المسافة بين (القسّطاط) في مصر والقيروان في تونس (١٥٣٠) ميلاً (١٤) ، يمكن قطعها بـ (٤٧) مرحلة (١٥) نظامية في أوقات السلم ولقوات قليلة كالمفازر الاستطلاعية أو موظفي البريد وبدون استراحة .

والقوات الجسيمة كجيش حسان الذي قدم إفريقية في عسكر عظيم ، فلم يدخل المسلمون قط إفريقية بمثل ما دخلها (١٦) ، لا يمكن أن تقطع هذه المسافة بمثل هذا الوقت ، كما أنه لا بد لها من إعطاء فترات من الإستراحة لجمع شمل القطعات المتحركة وجرد موجودها وإدامة تجهيزاتها ونقلتها ،

(١) البيان المغرب (٢٢/١) .

(٢) ابن الأثير (١٤٣/٤) ، وابن خلدون (١٨٧/٤) .

(٣) رياض النفوس (٣١/١) ، وحسان كما مر بنا غساني من أهل الشام الأصليين ، وكان من سبقه من قادة الجيوش من غير أهل الشام .

(٤) المسافة بالأميال القديمة ، والميل القديم أربعة آلاف ذراع . أنظر معجم البلدان (٣٥/١) ، وهذه المسافة استخلصتها من كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ، فمن القسّطاط الى الاسكندرية (١٨٧) ميلا ، ومن الاسكندرية الى برقة (٥٢٢) ميلا ، ومن برقة الى اجداية (١٥٤) ميلا ، ومن (اجداية) الى سرت ١٨٦ ميلا ، ومن سرت إلى طرابلس (٢١١) ميلا ، ومن طرابلس الى قابس (١٥٨) ميلا ، ومن قابس الى القيروان (١٢١) ميلا ، فيكون مجموع مسافة الطريق (١٥٣٠) ميلا . انظر المسالك والممالك (٨٤ - ٨٦) .

(٥) انظر تفاصيل اراحل في الأخلاق النفيسة (٣٤٢ - ٣٤٧) .

(٦) البيان المغرب (٢٣) .

كما أن حركة مثل هذه القوات الجسيمة باتجاه العدو لا يكون مسيراً سلمياً ، بل يجب إتخاذ تدابير تعبوية لحمايتها فيكون مسيرها مسيراً تعبوياً مما يؤدي إلى تأخير حركتها ؛ فإذا أدخلنا في حسابنا كل ذلك ، وأضفنا إليه ، أن كل ستة مراحل تحتاج إلى يوم إستراحة للقطعات ، وأن كل شهر من المسير - كمعدل - يحتاج إلى أسبوع واحد - كمعدل أيضاً - إستراحة للقطعات ولتقلبتها من الحيوانات ، علمنا أن جيش حسان هذا لا يمكن أن يصل من القسطنطينية في مصر إلى مثابته في القيروان ، قبل ثلاثة أشهر على أقل تقدير .

فإذا أضفنا إلى هذه المدة ، الفترة التي قضاها حسان في القيروان لتجهيز جيشه وإكمال إستعداداته الإدارية للحرب ، وإتخاذ إستطلاعاته الضرورية للحصول على المعلومات عن العدو : قوته وتسليحه والمنطقة التي سيقاثل عليها ، أدركنا أنه قضى سنة أربع وستين الهجرية في تحشيد قواته وإعدادها للحرب ، وأنه خاض معركة قرطاجنة سنة خمس وسبعين الهجرية أو ست وسبعين الهجرية (٦٩٥ م) ، وهذا ما يتفق مع ما ذكره المؤرخان البيزنطيان ثيوفانيس ونقفور من أن حسان هاجم قرطاجنة هجمته الأول سنة (٦٩٥ م) أي سنة ست وسبعين الهجرية ^(١) .

ومضى حسان في جيشه الكبير ، حتى نزل (طرابلس) الغرب ، فاجتمع إليه بها من كان خرج معه من إفريقية وطرابلس ، فأرسل مقدمة جيشه إلى إفريقية وعليها محمد بن أبي بكير وهلال بن ثروان اللواتي وزهير ابن قيس ، ففتح البلاد وأصاب غنائم كثيرة ^(٢) ، وهذا يدل على أنه اجتاز برقة وطرابلس دون أن يلقي مقاومة ، وأن جيشه ازداد عدده بالتحاق

(١) انظر فتح العرب للمغرب (٢٣٦) وهذا يتفق مع ما ذكره القيرواني في الملئس (١٨٧) ، وهو يخالف ما ذكره صاحب معجم البلدان (٥٣/٧) : أن قرطاجنة هدمها حسان حوالي سنة سبعين الهجرية .

(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٦٩ - ٢٧٠) .

سكان تلك المنطقة من المسلمين به ، وأنه لاقى مقاومات طفيفة في طريقه من طرابلس إلى القيروان من الحاميات الرومية المتفرقة في المدن الواقعة على طريق جيش حسان ، ففتح البلاد وأصاب غنائم كثيرة . وإن تولي هلال بن ثروان اللواتي ، وهو أول بربري مسلم تسند إليه قيادة قوة من المسلمين ، يدل على أن العرب المسلمين كسبوا لأنفسهم أنصاراً من أهل البلاد يدلونهم في مسيرهم وينصرونهم ويقاتلون معهم جنباً إلى جنب ، ويدل على أن بعض البربر اطمأنوا للعرب المسلمين . ولكن نلاحظ أن زهيراً كان في مقدمة جيش حسان ، وهذا يخالف ما ذكرناه في ترجمته من أنه استشهد في رجوعه إلى المشرق بعد قتل كسيلة .

٢- كان مقتل زهير بن قيس البلوي وأصحابه على يد الروم ببرقة ، قد ترك أثره العميق في نفوس المسلمين كافة ، فكانت المصيبة بزهير وأصحابه مثل المصيبة بعقبة بن نافع وأصحابه^(١) ، وكان من نتائج مقتله أن المسلمين عرفوا أنه لا تمام لفتح إفريقية إلا إذا أزيل من ربوعها الروم .

وما كاد حسان ينجز إستحضارات جيشه من كل الوجوه ، إلا وسأل أهل إفريقية : « من أعظم الملوك بها قدراً ؟ » ، فقالوا : « صاحب قرطاجنة دار ملك إفريقية^(٢) » ، وقرطاجنة هي المدينة العظمى ، قريبة رومة وضرتها وإحدى عجائب الدنيا ، وكان يومئذ بها جموع من الروم أمم لا تحصى^(٣) ، ولم يكن المسلمون قط حاربوها^(٤) وفتحوها عنوة ، بل كانوا يحاصرونها ويفرضون على أهلها مالا^(٥) أو بلاداً مجاورة كجزيرة شريك^(٥) كما ذكرنا سابقاً ويتركونها إلى أهداف أخرى .

(١) رياض النفوس (٢١/١) .

(٢) البيان المغرب (٢٣/١) .

(٣) الاستقصا (٨٢/١) .

(٤) ابن الأثير (١٤٣/٤) .

(٥) أنظر تفاصيل ذلك في ترجمة أبي المهاجر دينار كمثال على تصرف المسلمين في حربهم لقرطاجنة .

فلما وصل حسان إلى قرطاجنة رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة ، فقاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيراً ، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب ، فركبوا في مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس^(١) ، ففتحها عنوة^(٢) ، فسبأها وغنم ما فيها وأرسل إلى ما حولها من العمران ، فاجتمعوا إليه مسرعين ، فأمرهم بهدم قرطاجنة وقطع القناة عنها^(٣) .

وانصرف حسان عن قرطاجنة عائداً إلى القيروان ، فعلم أهل بواديهما وأقاليمها هروب ملك قرطاجنة عنها ، فبادروا إليها فدخلوها . ورحل إليها حسان ونزل عليها فحاصرها حصاراً شديداً حتى دخلها بالسيف ، فقتلهم قتلاً ذريعاً وسبأهم ونهبهم . وأرسل لمن حوالها فاجتمعوا إليه مسارعين ، خوفاً من عظيم سطوته وشدة بأسه ، فلما أثروه ولم يبق منهم أحد ، أمرهم بتخريب قرطاجنة وهدسها ، فخرّبوها حتى صارت كأمس الغابر^(٤) .

والظاهر أنه هدم بعض أسوارها لكي لا يحتمي بها المدافعون عنها مرة أخرى ، وقطع القناة عنها لكي يحرم المدافعين عنها من المياه العذبة - وهذان العملان نفّذهما في فتحه الأول لقرطاجنة . ومن إجراءاته هذا ، يبدو أنه استهدف من تخريب تلك المرافق في قرطاجنة الناحية العسكرية الحيوية فقط . ولكنه في فتحها ثانية حاول أن يخرب أكثر ما يمكن من مرافقها الحيوية ، حتى يحرم الروم وغيرهم من اللجوء إليها أو الدفاع عنها نهائياً ، ولكنه لم ينجح في تدمير مرافقها الحيوية كافة ، لأن الأحداث المقبلة تدل بوضوح على أن المسلمين لم يخربوها تماماً ، وإنما بقيت على درجة كبيرة من المنعة ،

(١) ابن الأثير (١٤٣/٤) .

(٢) الحلة السراء (٣٣١/٢) وابن خلدون (١٨٧/٤) وابن الأثير (١٤٣/٤) .

(٣) رياض النفوس (٣٢/١) .

(٤) البيان المغرب (٢٤/١) .

حتى أن الروم تحصّنوا بها مرة أخرى بعد ذلك بسنوات^(١) ، وهذا ما يفهم من قول الثوري : « فهدم المسلمون ما أمكن منها »^(٢) ، ولم تصبح قرطاجنة عفاة كأمس القابر كما جاء في البيان المغرب في أحبار المغرب .

وتنبه حسان بعد هذا الحادث إلى أن الروم لا زالوا على شيء من القوة والكثرة في نواحي كثيرة من المناطق المحيطة بقرطاجنة ، وأنه لا زالت هناك مدائن وحصون .. يحتمون بها بعد أن انقطع رجاؤهم من قرطاجنة نفسها ؛ فقد بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا له في (صُطْفُورَة)^(٣) و (بَنْزَرْت)^(٤) وهما مدينتان ، فسار إليهم وقاتلهم ولقي منهم شدة وقوة ، ولكن المسلمين صبروا لهم ، فانهزم الروم ، وكثر القتل فيهم ، فاستولى المسلمون على بلادهم ؛ ولم يترك حسان موضعاً من بلادهم إلاّ وطنه . وخافه أهل إفريقية خوفاً شديداً ، ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة (بَاجَة)^(٥) فتحصّنوا بها ، وتحصّن البربر بمدينة (بُونَة)^(٦) ؛ فعاد حسان إلى القيروان لأن الجراح قد كثرت في أصحابه ، فأقام بها حتى صحوا^(٧) .

لقد كانت معركة (قرطاجنة) الأولى - تلك التي أدّت إلى هروب القوة الصاربة للروم إلى الأندلس وإلى صقلية وإلى المناطق المحيطة بقرطاجنة ، معركة حاسمة ، أدّت إلى اندحار الروم اندحاراً حاسماً في إفريقية ،

(١) فتح العرب للمغرب (٢٤٠) .

(٢) نهاية الأرب ص (٧٤ ب) .

(٣) صطفورة : بلدة من نواحي إفريقية . انظر معجم البلدان (٣٥٦/٥)

(٤) بنزرت . مدينة بإفريقية (تونس) بينها وبين مدينة تونس يومان ، وهي مشرفة على البحر .

انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٩٢/٢) وتقويم البلدان (١٤٢ - ١٤٣) وآثار البلاد (١٥٩) .

(٥) باجة : بلدة بإفريقية تعرف بـ (باجة القمح) لكثرة محصولاتها من القمح . انظر التفاصيل

في معجم البلدان (٢٥/٢) والمشارك وضماً (٣٣) .

(٦) بونة : مدينة حصينة بإفريقية تقع على البحر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٠٩/٢) .

(٧) ابن الأثير (١٤٣/٤) والبيان المغرب (٢٤/١) ورياض النفوس (٣٢/١) .

وكانت معركة قرطاجنة الثانية ومعركة (صطفورة) و (بنزرت) تلك التي أدت إلى تشتيت قوّات الروم وبعض حلفائهم البربر ، كانت تلك المعارك من معارك استثمار الفوز ، طهر بها حسان منطقة قرطاجنة من قوات الروم الباقية ومن حلفائهم ، وكان قرار حسان في الإقدام على هذه المعارك الثانوية قراراً صائباً ، لأن تلك القوات لو تركت وشأنها لزداد عددها ولوجدت موطئ قدم ورأس جسر يهيء للروم العودة مرة أخرى إلى قرطاجنة وما حولها من القسطنطينية أو من صقلية أو من الأندلس ، فيستعيدون ما خسروا من مدن ومناطق أخرى ، ويخبرون المسلمين مرة أخرى على خوض معركة كبيرة لا يمكن معرفة نتائجها ولا تؤدي إلاّ إلى خسائر فادحة في الأرواح والمواد ، كما تؤدي إلى مضاعفات قد تعرقل ترسيخ أقدام الفتح الإسلامي في إفريقية وتؤخر إنجاز الفتح الإفريقي .

وكان قراره في العودة إلى القيروان ، وإقامته فيها حتى برئت جراح أصحابه^(١) ، وأراح بها أياماً^(٢) ، وأكمل تذاير جيشه الإدارية ، كان قراره هذا صائباً أيضاً ، إذ لا بد للجرحى أن يشفوا من جراحهم ، ولا بد للجيش من راحه بعد ما نال من رجاله طول القتال ، ولا بد للقضايا الإدارية من معالجة وإكمال

وبذلك أصبح جيشه حاضراً للقتال مرة أخرى

٣- وسأل حسان أهل القيروان ، عن بقي من أعظم ملوك إفريقية ليسير إليه فيبيده أو يسلم ، فدلّوه على امرأة يجبل (أوراس)^(٣) ، يقال لها : الكاهنة ، وجميع من بإفريقية من الروم خائفون منها ، وجميع البربر مطيعون لها . فإن قتلتها دان لك المغرب كله ولم يبق لك فيه مضاهٍ ولا

(١) رياض النفوس (٣٢/١) .

(٢) البيان المغرب (٢٥/٢) والاستقصا (٨٢/١) .

(٣) أوراس . جبل بإفريقية فيه عدة بلاد وقبائل من البربر . انظر التفاصيل في مجسم البلدان

(٢٧٠/١) ويقع بالجزائر ، وكان الثوار يلجأون إليه أيام الثورة الجزائرية على الفرنسيين .

معاند^(١) . وكانت هذه الكاهنة تخبر البربر بأشياء من الغيب ولهذا سميت الكاهنة ، وكانت بربرية ، وقد اجتمع إليها البربر بعد قتل كسيلة^(٢) ، وهي إذ ذاك ملكة (جراوة) من قبائل البربر الكبيرة ، وهي يومئذ أعظم ملوك البربر^(٣) ، بل هي ملكة البربر^(٤) دون منازع . وكان لهذه الكاهنة بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عن سلفهم ، وربوا في حجرها ، فاستبدت عليهم ، واعتزت على قومها بهم وبما كان لها من الكهانة ، فانتهت إليها رئاستهم ووقفوا عند إشارتها^(٥) .

وعزم حسان على قصدها ، فخرج إليها بجيوشه ، فلما بلغ موضعا يقال له : (مجانة)^(٦) نزل بها ، وكانت قلعة لم تفتح ، فتحصن بها الروم ، فمضى حسان وتركهم^(٧) . وبلغ الكاهنة أمره فرحفت من جبل (أوراس) في عدد لا يحصى ، فنزلت في مدينة (باغاية)^(٨) فأخرجت من بها وهدمتها ، إذ ظنت أن حسان يريد حصنها ليتحصن به منها . وأقبل حسان حين بلغه الخبر إلى وادي (مكناسة)^(٩) ، فقبل له : «إنها

(١) البيان المغرب (٢٥/١) .

(٢) ابن الأثير (١٤٣/٤) .

(٣) ابن خلدون (١٨٧/٤) .

(٤) فتح مصر والمغرب (٢٧٠) .

(٥) الاستقصا (٨٢/١) .

(٦) مجانة : بلد بافريقية ، بينها وبين القيروان خمس مراحل . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٦/٧) .

(٧) رياض النفوس (٣٢/١) .

(٨) باغاية : مدينة كبيرة بين مجانة وقسنطينة . انظر معجم البلدان (٤١/٢) .

(٩) مكناسة : مدينة بالمغرب في بلاد البربر ، بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو المشرق . وهناك مدينة مشهورة أخرى يقال لها : مكناسة الزيتون ، حصينة مكينة في طريق الماز من فاس إلى سلا على شاطئ البحر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٣/٨) . ووردت : مكناسة في رياض النفوس (٣٤/١) ، ووردت : مكناة تصحيف في البيان المغرب (٢٥/١) ولم أجد ذكراً لمثل هذا الاسم في معجم البلدان ، مما يدل على أن مكناسة أصح وأن مكناة تصحيف . وسمي الوادي باسم هذه المدينة .

قد أقبلت في عدد لا يحصى ، فقال لهم : « دلوني على ماء يسع العسكر الذي أنا فيه »^(١) ، فمالوا الى نهل (نيشي)^(٢) فزل عليه^(٣) . وزحفت إليه الكاهنة حتى أتت أسفل النهر فزلت عليه ، فكان حسّان يشرب هو وأصحابه من أعلاه وتشرب هي وأصحابها من أسفل النهر . ودنا الطرفان من بعضهما ، فأبى حسّان أن يقاتلها آخر النهار^(٤) ، وأبى أن يقاتلها بالليل ، وبات الفريقان على مصافهم^(٥) ، فلما أصبحوا زحف بعضهم على بعض ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وعظم البلاء ، وظن المسلمون أنه الفناء ، فانهمز حسّان بعد بلاء عظيم ، وقتل من العرب خلق كثير ، فسمي ذلك اليوم : يوم البلاء^(٦) ، وسمي النهر الذي التقوا عليه : نهر البلاء^(٧) ، فاتبعته الكاهنة بمن معها ، حتى خرج من حد (قاييس)^(٨) ، فأسلم إفريقية ومضى على وجهه ، وأسرت من أصحابه ثمانين رجلاً منهم خالد بن يزيد العبسي ، وكان رجلاً مذكوراً^(٩) . فأحسن^(١٠) إسارهم ، إلا خالد بن يزيد وكان أذكر من كان مع حسّان ، فحبسته عندها ، ثم عمدت إلى دقيق شعير مقلو فأمرت به فلكت بزيت ، والبربر تسمي ذلك : (البسيصة)^(١١) ، وقالت لخالد : « ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع ! وأنا أريد أن أضعك فتكون أخاً لولدي » ، فعمدت إلى دقيق الشعير الملتوث بزيت ، وجعلته

-
- (١) رياض النفوس (٣٢/١ - ٣٣) والبيان المغرب (٢٥/١) .
(٢) نبي : نهر مشهور بإفريقية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٩/٨) .
(٣) ابن الأثير (١٤٣/٤) .
(٤) البيان المغرب (٢٥/١) .
(٥) أي على صفوفهم متجهين للقتال .
(٦) رياض النفوس (٣٣/١) وانظر البلاذري (٢٣١) .
(٧) فتح مصر والمغرب (٢٧٠) .
(٨) قابس : مدينة بين طرابلس وسفاقس على ساحل البحر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٧) .
(٩) رياض النفوس (٣٣/١) .
(١٠) في معالم الايمان (٥٧/١) : أسامت
(١١) رياض النفوس (٣٣/١ - ٣٤) .

على ثدييها ، ودعت ولديها وقالت : « كلا معه على ثديي » ، ففعلا ، فقالت : « قد صرتم إخوة » ، وكانت الكاهنة من جماعة من البربر لها رضاع إذا فعلوه يتوارثون بينهم^(١) .

لماذا انتصر البربر على المسلمين في هذه المعركة ؟ أكان ذلك من جراء قلّة جيوش المسلمين ؟ إن جيش المسلمين كانوا أربعين ألفاً أو يزيدون ، وقد انتصروا على أقوى معقل للروم في إفريقية وهو قرطاجنة ، وطهروا المنطقة المحيطة بها من الروم ، ولم يكن البربر بدرجة من القوة والمنعة يتفوقون بهما على الروم حينذاك . أكان اندحار المسلمين من جراء نقص في تدابيرهم الإدارية ؟ لقد أنجز حسان تدابيرهم الإدارية بشكل يدعو إلى التقدير بالإعجاب - حتى لقد اهتم بتفاصيل تلك التدابير ، فساد إلى القيروان وبقي هناك مدة من الزمن إلى أن برئت جراح أصحابه^(٢) وأراح بالقيروان أياماً^(٣) ، لذلك لم يكن جند حسان مجهدين^(٤) حين خاضوا معركة (نينى) الحامية ، ولم تكن تدابيرهم الإدارية ناقصة !

هل كان فشل العرب المسلمين لضعف قيادتهم ورصانة قيادة البربر ؟ الحق أن الكاهنة كانت تتمتع بمزايا قيادية ممتازة ، فقد كانت مسيطرة على رجالها سيطرة مؤثرة واضحة ، فاستطاعت أن تثير البربر وتحفزهم لقتال العرب المسلمين بحماسة وإقدام ، فلما انتهت المعركة طاردت المسلمين إلى حدود قابس ، مما يدل على صواب قراراتها وسيطرتها الكاملة على رجالها ، وأنها كانت تمتلك خطة مرسومة واضحة هي رد المسلمين عن منطقتها إلى

(١) البهان المغرب (٢٧/١) ولا تزال مثل هذه العادة موجودة عند بعض القبائل ، ومنها الزيادية في العراق .

(٢) دهاش النفوس (٣٢/١) وابن الأثير (١٤٣/٤) .

(٣) البهان المغرب (٢٥/١) .

(٤) ذلك ما جمعه مؤلف كتاب : فتح العرب للمغرب (١٤٨) من أسباب فشل المسلمين ، وهذا غير وارد .

خارج حدودها... ومع ذلك فكانت قيادة حسان قيادة ممتازة أيضاً كما هو واضح من سير أعماله العسكرية، ولم يكن قائداً ضعيفاً بحيث يكون وجوده على رأس جيشه من مصلحة العدو.

لعلّ من أسباب فشل المسلمين في هذه المرة، أنهم قاتلوا بدواً مثلهم يجيدون النزال في الميدان طال عهدهم بنزال البيزنطيين^(١)، وأن المسلمين أعجبتهم كثرتهم فاستهاتوا بعدوهم، فلم يبذلوا قصارى جهدهم في القتال: احتقروا البربر، واحتقروا قيادتهم المتمثلة بالكاهنة وهي امرأة، فظنوا أن الانتصار على البربر - وهم في كثرة كاثرة - وعدة كاملة، سهل، وأن نتائج هذه المعركة مضمونة، فوقعوا في نفس الخطأ الذي وقع فيه جيش الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة (حُنين) إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئاً...

فلماذا أحسنت الكاهنة إلى الأسرى من المسلمين؟ يبدو أنها أدخلت في حسابها احتمال إنتقام البربر المسلمين - وكان الإسلام قد تغلغل في صفوفهم - إذا هي أساءت معاملتهم، كما يبدو أن الإحسان إلى الأسرى كان من تقاليد البربر العريقة، إذ أنهم دأبوا على الإحسان إلى الأسرى في معاركهم السابقة، فكيف لا تحسن إليهم الكاهنة بعد معركة (نينى)؟ وقد يكون لتقرب خالد بن يزيد منها أثر كبير على إحسانها هذا، فمن المحتمل جداً أن خالداً بذل جهوده بعد أن أصبح أثيراً عند الكاهنة لإنقاذ إخوانه الأسرى، فكان له ما أراد.

ولكن، لماذا اكتفت الكاهنة بهزيمة المسلمين في قلب الأوراس، ثم تبعت حسان حتى أخرجته من حدود إفريقية، ولم تسر إلى القيروان فتقتضي على المسلمين فيها وتسيطر على هذا البلد كما فعل (كسيلة) من قبل؟؟ لقد استخلف حسان أبا صالح على إفريقية^(٢)، وقد كانت القيروان

(١) فتح العرب للغرب (٢٤٨).

(٢) فتح مصر والغرب (٢٧٠).

عامرة بالمسلمين ، فلماذا لم تقض عليهم الكاهنة وتقض على عاصمة المسلمين في إفريقية مدينة القيروان ؟؟.

يبدو أن الكاهنة لم تكن ترجو شيئاً أكثر من خلاص منازل قبيلتها وملك أبنائها في الأوراس ، فاكثفت بإبعاد القوة القصارية من المسلمين عنها ، تلك القوة التي كانت تهدد سلامة الأوراس وسكانها^(١) ، وما دام المسلمون الذين في القيروان ضعفاء مسلمين ، فلا خطر على الكاهنة منهم . كما أن تهديد الكاهنة للقيروان بالدمار وسكانها غير المحاربين بالفناء ، لا يخلو من إثارة البربر المسلمين على الكاهنة مما يؤدي إلى خلق المتاعب والمشاكل لها دون مبرر .

وإذا علمنا أن قوم الكاهنة هم من البدو ، وأن هؤلاء يحتاجون الى كثير مما تنتجه المدن من مواد غذائية وصناعية ، وأن المسلمين كانوا أقرب إلى نفوس البربر من الروم لرحمتهم والتزامهم بمبادئ الحق والعدل والإنصاف ، علمنا أن المحافظة على القيروان وسكانها الذين لا يشكلون خطراً على سلامة منطقة الكاهنة وأمنها ، كان من صالح قبائل الكاهنة التي تفتقر إلى ما ينتجه المسلمون من مواد زراعية وصناعية .

ومهما يكن من شيء ، فقد بقيت القيروان على حالها لم تمسسها الكاهنة بسوء ، فأقام من بها من المسلمين يقوم بأمرهم أبو صالح ، ولم تخفل الكاهنة لهم وإنما عادت إلى (الأوراس) ، وبهذا لا نخطئ إذا وصفنا حركة الكاهنة بأنها لم تكن أكثر من ثورة محلية في ناحية من نواحي البلاد لا حركة انتفاض تام ، وكان حسّان يفهم هذه الحركة هذا الفهم ، ولهذا أقام في طرابلس ينتظر المدد وينظم أموره هناك^(٢) .

٤ - أ - طفق حسّان يرفق في سيره طمعاً فيمن نجا من أصحابه أن يلحقوا

(١) انظر : فتح العرب للمغرب (٢٤٩) .

(٢) فتح العرب للمغرب (٢٤٩) .

به^(١) ، وذلك أثناء انسحابه من معركة (نيفي) ، مما يدل على أن المسلمين الذين استقروا في القبرولان كانوا غير محاربيين ، فلما فصل من (قابس) كتب إلى أمير المؤمنين يخبره الخبر بما نزل بالمسلمين من الكاهنة ، فكتب إليه أمير المؤمنين : « قد بلغني أمرك وما لقيت وما لقي المسلمون ، فانظر حيث لقيت كتابي هذا ، فأقم ولا تبرح حتى يأتيك أمري » ، فلقية الكتاب وهو نازل بمكان يقال له اليوم : قصور حسان ، فبقى هناك قصراً لنفسه^(٢) ونزل قصوراً من حيز (برقة) فسميت : قصور حسان^(٣) ، وكانت (أنطابلس^(٤)) و (لوبية^(٥)) و (مرقية^(٦)) إلى حد (أجداية^(٧)) من عمل حسان^(٨) ، فأقام بعمل (برقة) خمس سنوات^(٩) .

وتوافت على حسان فرسان العرب ورجالها من قبل أمير المؤمنين عبد الملك ، فدعا حسان عند ذاك برجل يثق به ، وبعثه إلى خالد بن يزيد^(١٠) ، فأتاه فقال له : « إن حسان يقول لك ، ما يمنعك من الكتابة إلينا ؟ »^(١١) ، وبعث حسان مع هذا الرجل بكتاب يستعلم من خالد الأمور ، فكتب خالد

(١) معالم الإيمان (٥٧/١) ورياض النفوس (٢٢/١) .

(٢) رياض النفوس (٢٢/١) .

(٣) قصور حسان : قصور بناها حسان في منطقة برقة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١١٤/٧) .

(٤) أنطابلس : معناه بالرومية : الخمس مدن ، وهي مدينة بناحية برقة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٥٣/١) .

(٥) لوبية : هي ليبيا ، وهي المنطقة التي تقع غربي مصر وجنوبي البحر الأبيض المتوسط إلى حدود تونس .

(٦) مرقية : أول بلد يلتقي القاصد من الاسكندرية إلى إفريقية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٨) . وهي بلدة في ليبيا .

(٧) أجداية : بلد بين برقة وطرابلس الغرب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٢١/١) .

(٨) فتوح مصر والمغرب (٢٧٠) .

(٩) ابن الأثير (١٤٣/٤) . وفي رياض النفوس (٢٢/١) : إنه أقام ثلاث سنين .

(١٠) البيان المغرب (٢٨/١) .

(١١) فتوح مصر والمغرب (٢٧٠) .

في ظهر كتاب حسان : « إن البربر متفرقون ، لا نظام لهم ولا رأي عندهم ؛ فاطو المراحل وجدّ في السير » ، وجعل الكتاب في خبزة وجعلها زاداً للرجل ووجهه بها إلى حسان^(١) . وكان خالد قد أنفج الخبزة^(٢) فاحترق الكتاب بالنار^(٣) ، فلما كسر حسان الخبزة وقرأ الكتاب الذي كتبه إليه خالد وجده قد أفسدته النار ؛ فقال له حسان : « إرجع إليه » . وعاد الرجل إلى خالد ، فكتب إلى حسان بما كتب أولاً وأودعه قربوس^(٤) السرج حفره ووضع الكتاب وأطبق عليه حتى استوى وخفي مكانه^(٥) .

يجدر بنا أن نتوقف قليلاً هنا ، فقد بذل حسان قصارى جهوده لاستطلاع أمر الكاهنة ، فاستطاع أن يحصل على معلومات قيّمة عن تفرق البربر فلا نظام لهم ولا رأي عندهم ، كما أن تدابير الكتمان التي اتخذها خالد بلغت حدّ الروعة والإتقان ، فهو يخفي رسالته إلى حسان تارة في الخبز الذي عمل على إنضاجه بالنار حتى لا يشك في أمره أحد ، وهو تارة يخفيها في قربوس السرج ويطبق عليه حتى يستوي ويخفي مكانه ، ولن يستطيع ضابط إستخبارات ممتاز محترف في الوقت الحاضر أن يتخذ تدابير أكثر حذراً وأدق كتماناً مما فعله خالد في تدبيره تلك ، وبذلك استطاع أن يوصل إلى حسان علم ما يحتاج إليه^(٦) .

ب - فماذا كان يجري في الجانب الآخر ... عند الكاهنة وأتباعها ؟؟
ملكّت الكاهنة إفريقية كلها ، وأساءت السيرة في أهلها وعسفتهم وظلمتهم^(٧) ،

(١) البيان المغرب (٢٨/١) وابن الأثير (١٤٣/٤) وانظر رياض النفوس (٢٤/١) .

(٢) رياض النفوس (٢٤/١) .

(٣) ابن الأثير (١٤٣/٤) والبيان المغرب (٢٨/١) .

(٤) القربوس : جنو السرج .

(٥) فتوح مصر والمغرب (٢٧٠) وانظر ابن الأثير (١٤٣/٤) .

(٦) فتوح مصر والمغرب (٢٧٠) .

(٧) ابن الأثير (١٤٣/٤) .

أي ان الإضطرابات سادت البلاد طوال الفترة التي يغيب العرب عنها خلالها ، وذلك طبيعي لأن البربر لا يميلون بطبعهم إلى الخضوع لقوم منهم ؛ فلما حاولت الكاهنة أن تؤلف منهم جبهة لاتقاء هجوم العرب عارضها نفر منهم ، فاضطرت إلى اصطناع الشدة معهم فثاروا بها ، فانتشر الاضطراب في البلاد ، بل فكر بعضهم في الاستنجاد بالعرب واستدعائهم كما سترى^(١) .

ملك الكاهنة المغرب كله خمس سنوات ، فلما رأت إبطاء العرب عنها قالت للبربر : « إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي ! فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها ، حتى يئأس منها العرب ، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر ! » ، فوجهت قومها إلى كل ناحية : يقطعون الشجر ، ويهدمون الحصون ، فذكروا أن إفريقية كانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى (طنجة)^(٢) وقرى متصلة ومدائن منتظمة ، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ، ولا أوصل بركات ، ولا أكثر مدائن وحصوناً من إقليم إفريقية والمغرب مسيرة ألفي ميل في مثله ؛ فخربت الكاهنة ذلك كله ... وخرج يومئذ من التصاري والأفارقة خلق كثير ، مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة ، ففترقوا على الأندلس وسائر الجزائر البحرية^(٣) ...

وفي رواية ، أن الكاهنة لما علمت بمسير حسان إليها قالت « إن العرب يريدون البلاد والذهب والفضة ، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي ، ولا أرى إلا أن أخرب إفريقية حتى يئأسوا منها » ، وفرقت أصحابها ليخربوا البلاد ، فخرّبوها وهدموا الحصون ونهبوا الأموال . وهذا هو التخریب الأول لإفريقية^(٤) .

(١) فتح العرب المغرب (٢٥٠) .

(٢) طنجة : مدينة قديمة على البحر ، بينها وبين سبتة مسيرة يوم واحد . انظر التفاصيل في معجم

البلدان (٦٢/٦) والمساك والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٣٢) .

(٣) البيان المغرب (٢٦/١) ، وفي وصف حالة إفريقية حينذاك مبالغة كما يبدو .

(٤) ابن الأثير (١٤٣/٤ - ١٤٤) .

كان تخريب إفريقية سياسة طائشة بلا شك ، فكان عمل الكاهنة هذا من أهم العوامل لتقويض ملكها وزوال سلطانها ، إذ استاء الروم والبربر على حد سواء مما فعلت ، واضطر كثير منهم إلى الجلاء عن إفريقية ، كما فرت عزائمهم في الدفاع عن بلادهم ، لأنهم إنما كانوا يدافعون عن أملاكهم وموارد رزقهم ، فلما أتت الكاهنة على ما في بلادهم من موارد الثروة وجمال العمران تركتهم ضحية للفقر والجوع ، فليس من سبب يدعوهم إلى بذل أرواحهم من أجل أرض أصبحت خراباً بلقماً^(١) .

لقد أضرت هذا العمل التخريبي بقضية الكاهنة ضرراً عظيماً ، لأنه إذا كان قد وُجد من أهل البلاد من يؤيدها في مناهضة العرب وطردهم من البلاد ، فليس فيهم من يقف مكتوف الأيدي إزاء هذا التخريب الذريع الذي اختارته الكاهنة للبلاد على يديها . لهذا لم يلبث الإستهاء أن عمّ البلاد من تصرف الكاهنة ، وأسرع بعض أهلها فاستغاث بحسّان واستقدمه ، وأخذوا يعارضون الكاهنة ويناجزونها ، فاضطرب الأمر بيدها ، وزادت البلاد سوءاً على سوء^(٢) .

هكذا تضعف سلطان الكاهنة في بلادها : إدارة سيئة ، وظلم للناس ، وتخريب للبلاد ، وحكم مرتجل لا هدف له ولا غاية .

وقد أخطأت الكاهنة في تقديرها لهدف العرب المسلمين من الفتح ، فقد كان هدفهم استكمال فتح البلاد ونشر الإسلام في ربوعها ؛ فلم تكن همّتهم منصرفة إلى المدائن والمزارع ، وإنما إلى أهل البلاد أنفسهم ، ولهذا لم يكن لعمل الكاهنة التخريبي أثر في نفس حسّان ولا في سياسته ، ولم نجئ الكاهنة من أعمالها تلك إلا سخط أهل البلاد عليها وتركهم إياها وميلهم إلى جانب العرب^(٣) .

(١) انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٩٠ - ٩١) .

(٢) انظر فتح العرب لمغرب (٢٥٣) .

(٣) انظر فتح العرب لمغرب (٢٥٢) .

ج- فماذا عن الروم وحركاتهم في إفريقية بعد إندحار حسان أمام الكاهنة ، وفي أثناء بقائه متحفظاً في قصور حسان من أرض برقة ؟ (سُرْتُ) (١).

وجد الروم في خروج حسان من إفريقية فرصة سانحة لاستعادتها وبسط سلطانهم عليها من جديد ، وكان الإمبراطور الجديد - ليونتيوس - الذي خلف جستنيان الثاني سنة ٦٩٥ م (٥٧٤) قد أهتم سقوط قرطاجنة في يد العرب وتخريب حسان لها ، إذ لم يجد تسليم هذا الجزء الكبير مسن الإمبراطورية - دون مقاومة - أمراً سهلاً على نفسه ، كما يقول ديل ، فلم تكذب أخبار هزيمة حسان على نهر نيفي ترد إليه ، حتى عجل بالعمل . فقد أعد حملة كبيرة لإفريقية ، ويبدو أنه بذل في إعدادها جهداً عظيماً ، لأنه تبحر لقيادتها قائداً من أشهر قواد الدولة وأقدرهم هو البطريق (٢) يوحنا (Patricius Jean) وأعد أسطولاً كبيراً لنقل الجند إلى إفريقية .

وظهر الأسطول البيزنطي في مياه قرطاجنة في سنة ٦٩٧ م (٥٧٨) ، وتمكن من الاستيلاء على المدينة بيسر ، وطرد المسلمين الذين كانوا فيها (الذين كان على رأسهم أبو صالح) ، وقسا في معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة ، حتى أنه كان يقتل الكفار بيده - كما يقول تيوفانس ونقفور - ؛ فلما تم له ذلك ، اكتفى به وأراح في قرطاجنة طيلة شتاء هذه السنة ، غير حاسب لعودة العرب حساباً ، فلم يكلف نفسه عناء الشروع في عمل آخر (٣) .

وعلم حسان بما فعله الروم بالمسلمين ، فأرسل أربعين رجلاً من أشرف العرب إلى عبد الملك بن مروان ، وكتب إليه بما نال المسلمين من البلاء ،

(١) انظر تاريخ المغرب الكبير (٨٧/١) الذي يذكر أن قصور حسان تقع بمرت . ومرت مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين برقة وطرابلس الغرب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٢/٥) .

(٢) البطريق : الشريف .

(٣) فتح العرب المغرب (٢٥٤) .

وأقام هناك مرابطاً ينتظر رأي عبد الملك^(١).

يبدو أن حركة الروم كانت حركة إنتقامية ليس إلا ، قتلوا المسلمين وأسروا منهم ، ولو كان هدف الروم من حركتهم هذه إستعادة إفريقية لعملوا على الإنجاء شرقاً نحو منطقة برقة لمحاربة حسان وإجباره على الإنسحاب من تلك المنطقة ، ولكنهم اكتفوا باستعادة قرطاجنة والمدن المجاورة لها واستقروا فيها محتمين بأسوارها ، وربما كان استقرارهم هناك يعود إلى ضعف إمكاناتهم العسكرية ، فلم تكن قوتهم بدرجة من المقدرة على محاربة المسلمين في أنحاء إفريقية الأخرى .

و - بهاتين الحركتين : حركة الكاهنة ، وحركة البطريق يوحنا ، تمّ انتقاص إفريقية على العرب ، وخرجت من يدهم جملة ، ولم يبق في طاعتهم شبر واحد من الأرض مما يسلي (قابس) غرباً . وكان التقاسم بين البطريق والكاهنة سهلاً لا اختلاف فيه : أقامت هي في الجنوب في السهل الداخلي ، بينما اهتم يوحنا بأن يعيد الرباط الذي يمتدّ من (سوسة^(٢)) الى (شقيبتارية)^(٣) .

كان حسان في شغل شاغل لإعداد جيشه وتنظيمه وتسليحه وإكمال قضايه الإدارية لاستعادة إفريقية وتوطيد أركان الإسلام في ربوعها .

بينما كانت الكاهنة وكان الروم في الجهة الثانية يثيرون التذمر ويغرمون الأحقاد ويشيعون الفوضى - كل ذلك يسّر لحسان إستعادة فتح إفريقية وتحقيق أهداف المسلمين في أرجائها .

هـ - أقام حسان خمس سنوات على مقربة من (سرت) في المكان المسمى : قصور حسان ، يلجّ على عبد الملك بن مزوان لإرسال الإمدادات

(١) وصف إفريقية البكري (٣٧ - ٣٨) نقلا عن فتح العرب المغرب (٢٥٥) .

(٢) سوسة : بلد بالمغرب بينها وبين سفاقس يومان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٣/٥) .

(٣) شقيبتارية : بلد بإفريقية . انظر معجم البلدان (٥٧/٥ - ٢٨١) .

إليه ، فلماذا تأخر عبد الملك طيلة هذه المدة عن تلبية طلبات حسن الملحة المشروعة؟؟

كان عبد الملك في هذه الفترة بالذات مشغولاً بمكافحة الفتن الداخلية : ففي سنة ست وسبعين الهجرية وجه الحجاج زائدة بن قدامة الثقفي ابن عم المختار الثقفي لحرب شبيب بن قيس الخارجي الشيباني ، فاستظهر شبيب وقتل زائدة وهزم العساكر مرات ، واستفحل أمر شبيب^(١) . وفي سنة سبع وسبعين الهجرية بعث الحجاج لحرب شبيب عتاب بن وراق الخزاعي الرياحي ، فلقى شبيباً بسواد الكوفة فقتل شبيب عتاباً وهزم جيشه ؛ فبعث الحجاج لقتاله الحارث بن معاوية الثقفي ، فقتل الحارث أيضاً ؛ فوجه الحجاج إليه أبا الورد النصري فقتل ، فوجه إليه طهمان مولى عثمان بن عفان فقتل أيضاً ؛ فسار إليه الحجاج بنفسه فاستطاع القضاء على فتنه^(٢) . وفي هذه السنة خرج مطرف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج وخلع عبد الملك بن مروان ، ولحق بالجلال فقتل هناك^(٣) . وفي سنة تسع وسبعين الهجرية أصاب أهل الشام الطاعون حتى كادوا يفنون من شدته ، فلم يغر في تلك السنة أحد^(٤) . وفي سنة ثمانين بعث الحجاج على (سجستان) ^(٥) عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث الكندي ، فلما استقر بها خلع الحجاج وخرج ، فكانت بينهما حروب طاحنة يطول شرحها^(٦) . وفي سنة إحدى وثمانين الهجرية اشتدت الحرب بين الحجاج وبين ابن الأشعث ، فقام مع ابن الأشعث عامة أهل

(١) شذرات الذهب (٨٣/١) والعبير (٨٦/١) وانظر التفاصيل في الطبري (٥٧/٥ - ٨٤) .

(٢) شذرات الذهب (٨٣/١) والعبير (٨٧/١) وانظر التفاصيل في الطبري (٨٤/٥ - ١٠٦) .

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (١٠٦/٥ - ١١٩) .

(٤) الطبري (١٢٦/٥) والعبير (٩٠/١) وشذرات الذهب (٨٧/١) .

(٥) سجستان : اسم منطقة واسعة بينها وبين هراة عشرة أيام أو ثمانون فرسخاً ، وهي جنوبي هراة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧/٥) وانظر حدودها في المسالك والممالك (١٣٨) وآثار البلاد (٢٠١) .

(٦) شذرات الذهب (٨٧/١) والعبير (٩٠/١) .

البصرة من العلماء والعباد ، فاجتمع له جيش عظيم لقوا الحجاج يوم الأضحى ، فانكشف عسكر الحجاج وانهمز هو ، وتمت بينهما عدة وقعات ، قيل : كان بينهما أربع وثمانون وقعة في مائة يوم ، ثلاث وثمانون على الحجاج ، والآخرة له^(١) . وكانت ثورة ابن الأشعث ثورة خطيرة جداً ، حتى كاد ابن الأشعث أن يغلب على أهل العراق^(٢) ، واستمرت ثورته هذه حتى سنة أربع وثمانين الهجرية ، حيث قتل ابن الأشعث : (سجستان)^(٣) .

هكذا مرت هذه الفترة الحافلة : ثورات داخلية لا بد من تحشيد الجيوش للقضاء عليها ، وغزوات للروم في سنة سبع وسبعين الهجرية^(٤) وثمانين الهجرية^(٥) ، وهذه الغزوات ضرورية لأمن الدولة الإسلامية ، وذلك ، حتى لا يهاجم الروم دار الإسلام ، لأن المجوم هو أنجح وسائل الدفاع كما تنص عليها نظمات الحروب ... وطاعون ذريع في أرض الشام لا يبقى ولا ينذر ... كل ذلك منع عبد الملك بن مروان تلبية طلبات حسّان الملحة لتدعيمه بالإمدادات العسكرية من أجل استعادة فتح إفريقية وقطع دابر الروم والبربر فيها ...

٥ - وسيّر عبد الملك إلى حسّان الجنود والأموال^(٦) ، وتوافت عليه فرسان العرب ورجالها^(٧) ، حتى إذا أكمل إستحضاراته للقتال وتهيّئة جيشه مادياً ومعنوياً ، أمره عبد الملك بالمسير إلى إفريقية وقاتل الكاهنة^(٨) ، فرحل

(١) العبر (٩٢/١) وشذرات الذهب (٨٨/١) وانظر التفاصيل في الطبري (١٤٥/٥ - ١٥١) .

(٢) العبر (٩٤/١) وشذرات الذهب (٩٠/١) .

(٣) العبر (٩٧/١) وشذرات الذهب (٩٤/١) .

(٤) العبر (٨٨/١) .

(٥) العبر (٩٢/١) .

(٦) ابن الأثير (١٤٣/٤) .

(٧) البيان المغرب (٢٨/١) .

(٨) ابن الأثير (١٤٣/٤) .

حسان إليها^(١) في أواخر سنة إحدى وثمانين الهجرية^(٢). وبلغ الكاهنة خبره ، فرحلت من جبال (أوراس) في خلق عظيم^(٣).

ولما اقترب حسان من الكاهنة ، خرجت ناشرة شعرها ، فقالت : « يا بني ! انظروا ماذا ترون في السماء ؟ » ، فقالوا : « نرى شيئاً من سحب أحمر » ، فقالت : « لا وإلهي ، ولكنها رَهْجٌ^(٤) » ، خيل العرب . ثم قالت لخالد بن يزيد : « إني إنما كنت تبينتك لمثل هذا اليوم . أنا مقتولة ، فأوصيك بأخويك هذين خيراً فانطلق فخذ لهما أماناً ! » ... فانطلق خالد فلقى حسان ، فأخبره خبرها ، وأخذ لابنيها أماناً^(٥).

وفي رواية : إن حسان لما رحل إلى الكاهنة وبلغها خبر رحيله ، رحلت من جبل أوراس ، في خلق عظيم . فلما كان في الليل قالت لابنيها : « إني مقتولة » ، وأعلمتهم أنها رأت رأسها مقطوعاً موضوعاً بين يدي ملك العرب الأعظم الذي بعث حسان . فقال لها خالد بن يزيد : « فارحلي بنا وخلي له عن البلاد » ، فامتنعت ورأته عاراً لقومها . فقال لها خالد وأولادها : « فما نحن صانعون بعدك »^{١٢} ، فقالت : « أما أنت يا خالد ، فتدرك ملكاً عظيماً عند الملك الأعظم . وأما أولادي ، فيدركون سلطاناً مع هذا الرجل الذي يقتلني ويعقدون للبربر عزاً » . ثم قالت : اركبوا واستأمنوا إليه » ، فركب خالد وأولادها في الليل ، وتوجهوا إلى حسان ، فأخبره خالد بخبرها ، وأنها علمت قتلها ، وقد وجهت إليك أولادها . فوكل بهما من يحفظهما ، وقدم خالد على أخته الخليل . وخرجت الكاهنة ناشرة شعرها ، فقالت : « انظروا ما دهمكم ! إني مقتولة » ... ثم التحم

(١) البيان المغرب (٢٨/١).

(٢) فتح العرب للمغرب (٢٥٦).

(٣) البيان المغرب (٢٨/١).

(٤) الرهج : الفبار .

(٥) فتوح مصر والمغرب (١٧١) ورياض النفوس (٣٤١ - ٣٥).

القتال واشتدّ الحرب والنزال ، فانهزمت الكاهنة ، فأتبعها حسّان حتى قتلها (١) .

ورواية الحوادث على هذا النسق أدخل في باب القصص منها في التاريخ ، ولكن (جوتيه) يؤكد أنه لا يبعد أن يكون هذا هو الواقع بعينه دون زيادة أو اختراع ، ويورد مثلاً حياً حدث أثناء حرب الفرنسيين مع البربر شديد الشبه بقصة الكاهنة إذ استأمن زعيم بربري لأولاده عند القائد الفرنسي ، وأقام هو على الحرب ، فكان أولاده يقاتلونه في الميدان في الموقعة التي مات فيها (٢) .

وكان مع حسّان جماعة من البربر استأمنوا إليه ، فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه اثني عشر ألفاً من قبائلهم يجاهدون مع العرب ، فأجابوه وأسلموا على يديه ، فعقد لولدي الكاهنة لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس ، وأخرجهم مع العرب يحولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر (٣) .

وفي رواية ، أنه كان مع حسّان جماعة من البشّر (قبيلة من البربر) ، فولى عليهم حسّان الأكبر من ابي الكاهنة وقربه . ومضى حسّان ومن معه ، فلقي الكاهنة في أصل جبل فقتلت وعامة من معها ، فسميت :

(١) البيان المغرب (٢٨/١ - ٢٩) .

(٢) انظر فتح العرب للمغرب (٢٥٨) . قال جوتيه في التعليق على هذه القصة : « هذه القصة في الواقع بربرية لحماً ودماً سبها تقسيمهم إلى برانس وبتر ، ويجد الإنسان سبها لها في مراكش في القرن العشرين ، فقد حدث ذلك للقائح الفرنسي . إذ استطاع رئيس قبيلة جبلية يسكن منطقة (زهان) واسمه : موحا أوحمو ، أن يقتصر على القائح الفرنسي أنصارك حاسماً . وبعد إنقضاء سبع سنوات أيقن أن جانبه قد ضعف وأن المقاومة مستحيلة ، لماذا يعمل ؟ بلأ إلى حل خاص جداً ، هو بهيمة ما فعلت الكاهنة ، وهو عمل يدهشنا كما أدهش العرب قبل خمسمائة وألف سنة ، هل يدع الققال ؟ لا ! كما فعلت الكاهنة ، فقد رأى ذلك حاراً عليه . ولكنه أمر أولاده أن يستأمنوا عند القائح ويسلموا له ! وأطاع هؤلاء دون تفكير واقتروا في الموقعة الفاصلة الأخيرة التي قتل فيها أبوه ، أي أنهم اهتروا في قتله ، ثم أصبحوا بعد ذلك أنصاراً أمراء لهوهم غليلة حسان البهيد .

(٣) البيان المغرب (٢٩/١) .

بئر الكاهنة (١).

كيف استطاعت الكاهنة أن تتنبأ بقتلها ؟ يبدو أن الروم والبرانس ولفراً من البئر ستموا حكم الكاهنة ، فتنفضوا أيديهم منها — خاصة بعد تخريب إفريقية — ولظلمها وتعسفها ، يدلنا على ذلك أن حسان عندما قرب من بلادها لقيه جميع من أهلها من الروم يستغيثون من الكاهنة ويشكون إليه منها ، فسرّه ذلك . وسار إلى قابس فلقية أهلها بالأموال والطاعة ، وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء ، وجعل فيها عاملاً . وسار إلى (قفصة) (٢) ليتقرب الطريق ، فأطاعه من بها واستولى عليها وعلى (قسطنطينية) (٣) و (نقزآوة) (٤) ، وبلغ الكاهنة قلدومه (٥) ، وهذا دليل على أن أهل البلاد سارعوا إلى لقاء العرب وانفضوا تحت لوأهم ، فكان مع حسان جماعة من البربر يستأمنون إليه (٦) ، وكان معه جماعة من البربر البئر (٧).

وماذا يكون مصير من انقلب عليه أعوانه فأصبحوا أعداءه ، وتحلّى عنه مناصروه فأصبحوا في صفوف خصومه ؟

لقد التفت حول الكاهنة أعداء العرب من الروم ومن قومها ، فصاولوا جيش المسلمين في معركة (نيبي) وانتصروا عليهم . وبدلاً من أن توطد الكاهنة أركان ملكها بالعدل والعمران ، زعزعت بالظلم والتخريب ، وبدلاً

(١) فتوح مصر والمغرب (١٧١).

(٢) لفصة : بلدة صغيرة في طرف (إفريقية) من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد ، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٨/٧).

(٣) قسطنطينية : بلد بالمغرب من أرض الزاب الكبير . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٨/٧).

(٤) نقزآوة : مدينة بالمغرب بينها وبين القيروان سعة أيام تسير من القيروان نحو الغرب . انظر

التفاصيل في معجم البلدان (٣٠٣/٨).

(٥) ابن الأثير (١٤٤/٤).

(٦) البيان المغرب (٢٩/١).

(٧) فتوح مصر والمغرب (١٧١).

من أن يكون شعارها : كل يوم صديق أو أصدقاء جُدد ، كان شعارها : كل يوم عدو أو أعداء جدد ... ودار الزمن دورته خلال خمس سنوات ، كان المسلمون يتهاون ليلاً ونهاراً للقضاء على ملكها ، وكانت هي تعمل ليلاً ونهاراً بصورة غير مباشرة لمعاونة المسلمين في تحقيق هدفهم ، وذلك بتصرفاتها الظالمة ، فلما حان وقت معركة الجولة الثانية ، تخلى عنها حلفاؤها من الروم والبربر ، فقاتلت بمعاونة رجال قبيلتها ، ولكنها توقعت مصيرها المحتوم ... مصير كل ظالم مخرب .. وتنبأت سلفاً بمصيرها ... هذا المصير الذي لا يحتاج توقعه إلى كهانة أو معرفة بالغيب .

وكانت هذه المعركة بين المسلمين وبين الكاهنة وجيشها في سنة اثنتين وثمانين الهجرية^(١) (٧٠١ م) ، وبعد قتل الكاهنة أخلد البربر الى الطاعة واطمأنت نفوس أكثرهم إلى الإسلام^(٢) ، وبذلك قضى المسلمون على آخر حركة قام بها أهالي البلاد لردهم ، إذ كانت الكاهنة هي الحصن الأخير الذي احتمى وراءه أهل البلاد ، فلما سقطت انتهت كل مقاومة ، ولم تبق أمام العرب غير مقاومات طائفة من بعض قبائل البربر .

٦- وعاد حسان إلى (القيروان) بعدما حسن إسلام البربر وطاعتهم ، وذلك في شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين الهجرية^(٣) ، ليريح جيشه وليكمل نواقص قواته الإدارية ، فلما استراح جيشه وأنجز حسان إستحضاراته إتجه إلى شمال القيروان ، إذ لا زالت هناك بقاع يحكمها الروم وقلاع يسيطر عليها البربر ، وكانت جبال (زَغْوَان)^(٤) في شمال القيروان وفي جنوب قرطاجنة لا تزال موطناً لمقاومة البربر والروم ، ولعل قربها من قرطاجنة

(١) البيان المغرب (٢٩/١) .

(٢) الفتح العربي في ليبيا (٩٢) .

(٣) البيان المغرب (٢٩/١) .

(٤) جبل زغوان : هو جبل بإفريقية ، بالقرب من مدينة تونس ، وهو جبل منيف مشرف ، وفيه قرى كثيرة آهلة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٩٤/٤) .

جعلها الخط الدفاعي الأول عن تلك المدينة ؛ فأرسل إليها حسّان موله (أبا صالح) فنازلها ثلاثة أيام دون جدوى ، فأسرع إليها حسّان بنفسه ففتحها صلحاً .

ولم يبق على حسّان إلاّ استعادة فتح قرطاجنة ، وكان (يوحنا) ورجاله من الروم قد حصّنوها وأعادوا ما تهدّم من أسوارها ، وكانوا يرقبون حركات حسّان ؛ فسار إليهم ، فتحصّنوا بها . وحاصروهم حسّان فنشبت معركة طاحنة بين الطرفين انهزم في أعقابها يوحنا هزيمة شنيعة ، فالتجأ إلى قرطاجنة محتماً بها^(١) . وانهزم الأسطول البيزنطي في موقعة كبيرة سقطت بعدها قرطاجنة في يد حسّان ، فأدرك اليأس البطريق يوحنا ، فجمع أجناده وتولى إلى بيزنطة ، ليعود منها مرة أخرى بعدة أقوى ، ولكنه كان واهماً لأن الظروف لم تسمح له بعد ذلك بالعودة إلى قرطاجنة قط^(٢) .

كانت للروم سقن بباب النساء ، فحملوا نساءهم وأولادهم ليلاً ، وأسلموا المدينة ، ولم يبق بها إلا الملك المسمى بـ (مرياف) وأهله وولده ، فكتب إلى حسّان : « هل لك أن تعاهدني في أهلي وولدي وأشرط لنفسي ما شئت من المنازل ، وأسلم لك المدينة ؟ » . ولم يكن للمسلمين علم بفرار الروم منها ، فأجابه حسّان إلى ذلك ، فاشترط الأرض المسماة بمرياف ، وهي إذذاك قرى كثيرة ، ثم أمكنه من المدينة فلم يجد فيها غيره وغير ولده وأهله ، فوفى له حسّان بما أعطاه من العهد ، وأقام مرياف مالكا لهذه الأرض ، وهي الناحية المسماة اليوم بمرياف في تونس^(٣) .

ولما فتح حسّان قرطاجنة أرسل أسطوله إلى الجزر المتصلة بساحل إفريقية ، ففتحها ... وكان قد استمد عبد الملك بن مروان ، فأمده بأسطول تحت

(١) تاريخ المغرب الكبير (١٠٤/٢ - ١٠٥) .

(٢) فتح العرب المغرب (٢٦٠) .

(٣) تاريخ المغرب الكبير (١٠٥/٢) نقلا عن المساك والمالك البكري (٣٧) ونزعة الأنظار لابن

مقديش الصفاقسي (٧٩) .

قيادة عبد الملك بن قطن^(١) ، فطهر الجزر التي كانت مكمناً للأعداء ، كما بعث إلى (فاس) ^(٢) خيلاً فافتتحها^(٣).

بهذا خلصت إفريقية لحسان ، ولم تعد هناك قوة تعارضه أو تنتقص من إمارته على البلاد . نعم ، بقيت بضع نواح لم يصل إليها العرب المسلمون بعد ، وبضع قبائل لم تعلم بمقدمهم ، ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن الفتح الحربي قد تم ، وأن واجب حسان الآن هو رفع السيف والاهتمام بناحية أخرى ، وهي نشر الإسلام في البلاد وتقرير أمورها وخارجها وشؤونها وما إلى ذلك^(٤).

لقد استقامت بلاد إفريقية لحسان في سنة اثنتين وثمانين الهجرية^(٥) (٧٠١ م) .

٧- أدرك حسان بثاقب فكره وبعد نظره ، أن استعادة فتح قرطاجنة لا يمنع الروم من الإغارة عليها بمرأ مرة أخرى والتحصن فيها من جديد ما لم ينشئ ميناء جديدة ويكون له اسطول بحري قوي .

لقد أدرك عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه قبل حسان ، ضرورة إنشاء قاعدة متقدمة تكون مستقراً للمدافعين عن إفريقية في الحروب البرية ، ولكن إفريقية كما مرّ بنا ، كانت مهددة دائماً من قوات برية من الروم والبربر ، ومن قوات بحرية من الروم ، فلا بد من ميناء بحرية تكون قاعدة متقدمة للدفاع عن إفريقية ضد الروم ، وللهجوم على الروم في عقر دارهم

(١) انظر ترجمته في دهاش النفوس وتهذيب ابن حساكر .

(٢) فاس : مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر . انظر التفاصيل في معجم البلدان

(٣) ٢٢٩/١ - ٢٣١ .

(٤) تهذيب ابن حساكر (١٤٦/٤) .

(٥) تاريخ المغرب الكبير (١٠٦/٢) .

(٥) فتح العرب المغرب (٢٦٠) .

(٦) البيان المغرب (٢٩/١) .

في جزر البحر الأبيض المتوسط ، ولتكون مستقراً للأسطول العربي الإسلامي تنطلق منها في حالتي الدفاع والهجوم ، فيغير بهذا الاسطول على ساحل الروم فيشغلهم بأنفسهم عن الإغارة على إفريقيا^(١) .

وبدأ حسان يبحث عن موضع مناسب على البحر يستطيع أن ينشئ فيه ميناءه الجديدة ، فوجد إلى جنوب قرطاجنة بلداً قديماً يطل على سبخة فسيحة لا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير ، فاسترعى هذا الموضع انتباهه ، لأن وقوعه على شاطئ السبخة أي إلى الداخل قليلاً يجنب العرب في سكنى المدينة التي تنشأ عنده ، لأنهم لم يكونوا إذذاك يطمثون كثيراً إلى سكنى المدن الساحلية الصرفة ، ثم إن موقعها هذا يجعلها بأمن من غارات الروم المفاجئة . فيكفي حراسة مدخل السبخة لكي ينذر الحراس أهل الميناء الجديدة إلى الخطر قبل وقوعه ، كما أن الأرض السبخة هي مراعي طبيعية للإبل سفن الصحراء^(٢) .

كان هذا البلد القديم ميناء يونانية قديمة ، فأصبحت قبل الإسلام قرية صغيرة في جنوب قرطاجنة تدعى : (تُرْشِيش) ^(٣) ، وكان يسكنها البربر والروم ، وهي على سفح جبل ، وعلى ربوة يحيط بها خندق طبيعي هو كالحصن لها والسور الذي يمنع الأعداء عنها . وفي شرقها بحيرة جميلة تطلّف جوارها وتزيد في سحرها وجمالها ، وحواليها سهول للزراعة . وقد نزلها حسان بجيشه في حصاره لقرطاجنة فأعجب بمناعة موقعها وجمال مكانها^(٤) .

ولم يلبث حسان أن وقع اختياره على (ترشيش) ، فبدأ يخطط المدينة من جديد . ويبدو أن المدينة اليونانية (ترشيش) كان قد اضمحل

(١) رسالة التيجاني (٢٣أ) .

(٢) انظر رياض النفوس (١/٦ - ٧) عن فائدة السبخة المرامي . وانظر فتح العرب المغرب

(٢٦١) .

(٣) ترشيش : اسم مدينة تونس التي بإفريقية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٧٦) .

(٤) تاريخ المغرب الكبير (٢/١١٥) .

أمرها حين بدأ المسلمون يعيدون بناءها ولم يبق منها إلا دير يقيم فيه بعض الرهبان ، فقد كان العرب يسمعون أصوات بعض الرهبان طول الليل في صلواتهم ، فيتأنسون بهم ، فقالوا : هذه البقعة تونس^(١) وقيل : إن المسلمين سمّوها : تونس ، لحماها ولما تدخله من الأنس والبهجة على القلوب^(٢) .

وكان على حسان أن يبدأ بحفر البرزخ الذي يفصل البحيرة عن البحر وأن يحفر في ماء البحيرة قناة عميقة تسير فيها السفن حتى تصل إلى البلد ، وبهذا يتصل البحيرة بالبحر ، وتصبح : تونس ، ميناء بحرية تحميها البحيرة الواسعة من أمواج البحر ؛ ثم يعقب ذلك بإنشاء ميناء بحرية (دار صناعة) للبلد الجليل حتى تستطيع السفن أن ترسو فيها وتقلع منها في أمان ، فخرق حسان البحر إلى تونس^(٣) . وأراد حسان أن يستعين بنفر من أهل مصر في إنشاء الميناء ، فأرسل إلى عبد الملك بن مروان يطلب إليه نفرأ من لهم خبرة بإنشاء دور الصناعات وبناء السفن ، فكتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز وهو والي مصر ، أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبضي بأهله وولده ، وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش وهي تونس ، وكتب إلى حسان أن يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين إلى آخر الدهر ، وأن يجعل على البربر جرّ الخشب لإنشاء المراكب ليكون ذلك جارياً عليهم إلى آخر الدهر ، وأن يصنع بها المراكب ويجهز الروم في البر والبحر ، وأن يغير منها على ساحل الروم فيشتغلوا عن القيروان نظراً للمسلمين وتحصيناً لشأنهم ، فوصل القبط إلى حسان وهو مقيم بتونس ، فأجرى البحر من مرسى (رادس)^(٤) إلى دار الصناعة ، وجرّ البربر الخشب ، وجعل فيها المراكب الكثيرة . وأمر

(١) التونسي (٨) .

(٢) تاريخ المغرب الكبير (١١٥/٢) .

(٣) التونسي (٣٣) .

(٤) رادس : البحر الذي على ساحله تونس بإفريقية يقال له : رادس ، وبذلك سمي ميناءه =

القيط بعمارتها^(١) .

بهذا استطاع حسان أن ينشئ مدينة ثانية بإفريقية ، وإذا كانت القيروان قد أصبحت من يوم أنشئت محرساً برياً ومعسكراً للجند الإسلامي ، فقد أصبحت تونس كذلك رباطاً يحمي القيروان ومحرساً بحرياً وميناء جديدة للبلاد يقوم مقام قرطاجنة ، ولو قد أوتي حسان من فراغ الوقت أكثر من ذلك ، لتعهد المدينة بالرعاية وأكمل إنشاءها ، فأقام فيها مسجداً وخطط دورها وما إلى ذلك ؛ ولكن العزل عاجله ، فبقي إنشاء المدينة ناقصاً حتى بدأ إكمالها عبيد الله بن الحبحاب^(٢) مولى بني سلول والي إفريقية هشام بن عبد الملك^(٣) بعد ثلاثين سنة ، فأنشأ المدينة وبدأ يخططها وينظم أمورها واتخذ لها دار الصناعة لإنشاء المراكب البحرية^(٤) .

بقيام هذه المدينة ، حيل بين الروم وبين إفريقية ، فلم يعدوا يستطيعون النزول إلى أرضها ، فأمن العرب المسلمون شرتهم ، وأصبح جهدهم منصرفاً إلى تنظيم البلاد وتمهيدها للإسلام ، دون أن يزعجهم الروم بهجماتهم المفاجئة بين الحين والحين^(٥) .

= مينارادس . ورادس اسم موضع كالقرية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٠٣/٤-٢٠٤) . وهي فرقة صغيرة على البحيرة تسمى (آدس Ades) وهذا الميناء هو الذي جملة جغرافيو العرب : آدس . انظر فتح العرب للمغرب (٢٦١) .

(١) وصف إفريقية للبكري (٣٨-٣٩) .

(٢) عبيد الله بن الحبحاب : هو مولى بني سلول ، وكان رئيساً نبيلاً وأميراً جليلاً ، بارعاً في الفصاحة والخطابة ، حافظاً لأيام العرب وأشعارها ووقائعها . وهو الذي بنى المسجد الجامع بتونس . وكان أول الأمر كاتباً ، ثم تخاصم به الحال إلى ولاية مصر وإفريقية والأندلس والمغرب كله . عزله هشام بن عبد الملك سنة ١٢٣ هـ . انظر التفاصيل في البيان المغرب (١/٥١-٥٥) وانظر ما جاء عنه في الولاة والقضاة (٧٣-٧٦) وابن خلدون (١٨٨/٤-١٨٩) .

(٣) معجم البلدان (٤٣٤/٢) .

(٤) ابن خلدون (١٨٨/٤-١٨٩) .

(٥) فتح العرب للمغرب (٢٦٣) .

وأقام حسّان لا يغزو أحداً ولا ينازعه أحد^(١) ، وبذلك عاد من الجهاد الأصغر وهو قتال الأعداء ، إلى الجهاد الأكبر وهو الإصلاح ، فوطد أركان دولة الإسلام في المغرب وتشر الإسلام في ربوعه ، فأصبح الفتح الإسلامي هناك بحق فتحاً مستداماً .

الإنسان :

١ - حياته الخاصة :

لا نعرف عن حياة حسّان الخاصة غير أنه كان من التابعين من بيت عريق في الحكم والقيادة هو بيت الفساسة أمراء الشام وملوكها الذين كانوا موالين للروم ، وأنه قد حدثت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان له بدمشق دار^(٢) .

كان حسان رجلاً عاقلاً رزيناً خلباً وفيّاً صادقاً تقيّاً ورعاً ، وكان أميناً فكان يسمى : الشيخ الأمين^(٣) . وحين عاد إلى الشام معزولاً قال حسّان لمن معه : « لئنوني بقرب الماء ! » ، ففرغ منها ما جاء به من الفضة والذهب والجوهر ، فقال له الوليد بن عبد الملك : « جزاك الله خيراً يا حسان » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! إنما خرجت مجاهداً في سبيل الله ، وليس مثلي يخون الله ولا الخليفة » ، فقال الوليد : « أنا أردك إلى عملك ، وأحسن إليك ، وأنوّه بك ! » ، فحلف حسّان : « لا ألي لبني أمية أبداً »^(٤) .

« ليس مثلي يخون الله ولا الخليفة » ، هكذا كان يثق بنفسه نزيهاً فوق الشبهات ، فهو ريب بيت عريق لو لم يمنعه دينه من الخيانة لمنعه حبه ، فكيف به وهو من هو نسباً ، وهو من هو ديناً ورعاً !

(١) البيان المغرب (٣٠/١) .

(٢) تهذيب ابن عساکر (١٤٦/٤) .

(٣) البيان المغرب (٣١/١) .

(٤) البيان المغرب (٣٠/١) .

« ولا ألي لبني أمية أبداً » ، فهو قد اقتنع بأنه لا جدوى من جهوده التي قوبلت بالعقوق ، ولن يرضى التعاون رجل يعرف قيمة نفسه ، مع وجود بعض المسؤولين لا يقدرون أقيام الرجال .

ولسنا نعرف تفاصيل كافية عن حياته الشخصية : متى ولد ، وكيف أمضى حياته قبل تولي إفريقية . وكان عُنُقْبَة بن نافع الفهري أول من بنى جامع القيروان ، فلما وليَ حَسَّان إفريقية هدمه - حاشى المحراب - وبناء بالطوب (١١) .

وقد لزم حَسَّان بيته بعد عزله (١٢) ، ثم غزا بلاد الروم فمات هناك (١٣) . فمتى توفي حَسَّان ؟ في رواية : إنه توفي سنة ثمانين الهجرية غازياً في أرض الروم (١٤) ، وهذا مرجوح لأنه كان في مدينة القيروان في شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين الهجرية (١٥) ، وسير الحوادث التي مرت بنا تؤيد ذلك .

كما أن عبد العزيز بن مروان هو الذي عزل حَسَّان (١٦) ، وقد مات عبد العزيز سنة خمس وثمانين الهجرية (١٧) ، فتولى بعده مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان سنة ست وثمانين الهجرية (١٨) ، فاستخلف حَسَّان على المغرب رجلاً من جنده اسمه أبو صالح ، وارتحل إلى المشرق بما جمعه من فريغ المال ورائع السبي ونقبس الذخيرة ، فلما انتهى إلى مصر أهدى إلى عبد الله بن عبد الملك مائتي جارية من بنات ملوك الروم والبربر . ولما قدم على الخليفة بدمشق ، وهو يومئذ الوليد بن عبد الملك شكاه إليه ما صنعه

(١) الحلة السيرة (١٦٤/١) وانظر تهذيب ابن عساكر (١٤٦/٤) .

(٢) تهذيب ابن عساكر (١٤٦/٤) .

(٣) تهذيب ابن عساكر (١٤٧/٤) .

(٤) تهذيب ابن عساكر (١٤٧/٤) والعبر (٩٢/٢) وشذرات الذهب (٨٨/١) .

(٥) البيان المغرب (٢٩/١) .

(٦) البيان المغرب (٣١/١) وتهذيب ابن عساكر (١٤٦/٤) .

(٧) ابن الأثير (١٩٧/٤) وشذرات الذهب (٩٥/١) .

(٨) الولاة والقضاة (٥٨) وانظر البيان المغرب (٣٤/١) .

به عنه عبد العزيز فغايظه ذلك وأنكره^(١) ، وهذا معناه أن حسّان قدم مصر خلال سنة ست وثمانين الهجرية ، لأنه قدمها أيام عبد الله بن عبد الملك ، ولأنه وصل إلى دمشق في أيام الوليد بن عبد الملك ، وكان عبد الملك قد توفي سنة ست وثمانين الهجرية^(٢) في منتصف شوال من هذه السنة^(٣) ، فشكره الوليد ووعدّه برده إلى عمله ، فحلف حسّان ألا يلي لبني أمية عملاً^(٤) ، ولزم بيته^(٥) .

وأصرّ حسّان على ابتعاده عن تولي المناصب القيادية ، ولكنه بقي مجاهداً في ساحات الوغى ، فإذا صحّ أنه توفي غازياً في أرض الروم كما أسلفنا^(٦) ، فمن المحتمل أنه خرج غازياً سنة سبع وثمانين الهجرية إلى أرض الروم للجهاد تحت لواء مسلمة بن عبد الملك ، فمات هناك ، أي أنه من المحتمل أن تكون وفاته في تلك السنة (٧٠٥ م) ، إذ ليس من المحتمل خروجه إلى أرض الروم في سنة ست وثمانين الهجرية وهو قد عاد توّأ من سفر قاصد وجهاد طويل في إفريقية^(٧) .

٢ - حياته العامة :

أ - في إفريقية :

كان حسّان بمصر لما قتل زهير بن قيس البلّوي^(٨) ، فقال عبد الملك :

(١) الاستقصا (٨٤/١) .

(٢) تاريخ بغداد (٣٩١/١) وتاريخ الخميس (٣١١/٢) .

(٣) ابن الأثير (١٩٨/٤) .

(٤) الاستقصا (٨٤/١) .

(٥) تهذيب ابن عساكر (١٤٦/٤) .

(٦) انظر غزو الروم في تلك السنة في ابن الأثير (٢٠٢/٤) .

(٧) ذهب إلى ذلك صاحب الأعلام في (١٩٠/٢) . وهناك رواية ، أن حسّان قدم دمشق وعبد الملك مريض . انظر الحلة السيرة (٣٣٢/٢) ، وهناك روايات أخرى في مصادر أخرى ، أثبتنا في أعلاه ما يتفق مع سير الحوادث .

(٨) الحلة السيرة (٣٣١/٢) .

« ما أعلم أحداً أكفأ لإفريقية من حسان بن النعمان الفسافي » ، فبعثه أميراً إلى إفريقية^(١) وأمره بغزو إفريقية^(٢) ، وذلك سنة ثلاث وسبعين الهجرية^(٣) .

وفي سنة خمس وثمانين الهجرية عزله عبد العزيز بن مروان ، وبذلك مكث حسان أميراً على إفريقية اثنتي عشرة سنة .

فلماذا عزله عبد العزيز ؟

كان عبد العزيز قد ولي^{*} على (برقة) عبداً له يقال له : (تليد) ، وكان بها أشرف الناس ، فكبرت عليهم إمامة (تليد) ، فأعظمه عبد العزيز . ثم إنه سأل حسان أن يترك ولاية (برقة) لتليد ، فلم يتركها له ، فعزله عبد العزيز^(٤) . ورجع حسان من مصر إلى عبد الملك شاكياً بأخيه عبد العزيز لتقدمه على برقة غلامه تليداً وخلف ثقله بمصر ، فقدم على عبد الملك في الشام وهو مريض^(٥) ، والظاهر أن عبد الملك كان في مرض موته ، لذلك قدم على الوليد^(٦) الذي تولى الخلافة بعد أبيه عبد الملك سنة ست وثمانين الهجرية^(٧) ، فشكى إليه ما صنع به عبد العزيز ، فغضب الوليد لذلك^(٨) .

سبب عزله إذاً ، أنه كان معتدّاً بنفسه غاية الاعتداد ، فكان لا يسمح بالتدخل في شؤون ولايته إفريقية ، فرأى في تدخل عبد العزيز بن مروان في شؤون إفريقية وتعيينه أحد رجاله ما يحسّ باستقلال ولايته أولاً ،

(١) رياض النفوس (٢١/١) .

(٢) الحلة السراء (٣٣١/٢) .

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٩) .

(٤) تهذيب ابن حساكر (١٤٦/٤) .

(٥) الحلة السراء (٣٣٢/٢) وانظر فتوح مصر والمغرب (٢٧٤) .

(٦) البيان المغرب (٣٠/١) .

(٧) ثمرات الذهب (٩٧/١) وأبو الفدا (١٩٨/١) والمعارف (٣٥٩) .

(٨) البيان المغرب (٣٠/١) .

وما يمس بكرامته وكرامة أشراف الناس في (برقة) ثانياً ، لذلك أثر التحلّي عن منصبه ، وعاد أدراجه إلى دمشق .

وفي رواية ، أن عبد العزيز بن مروان الوالي على مصر — وكان الوالي على مصر يولي على إفريقية ، عزله وأمره بالقدوم عليه ؛ فعلم حسّان ما أراد عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك ، فعمد إلى الجواهر والذهب والفضّة ، فجعله في قِرب الماء ، وأظهر ما سوى ذلك من الأمتعة ، وأنواع الدواب ، والرقيق ، وسائر أنواع الأموال ، فلما قدم على أمير مصر عبد العزيز بن مروان ، أهدى إليه مائتي جارية من بنات ملوك الروم والبربر (١) . فكان أبو محجن نُصيب الشاعر يقول : « لقد حضرت عند عبد العزيز سيّاً من البربر ما رأيت قط وجوهاً أحسن من وجوههم » (٢) . وكان نُصيب يقول : « حضرت السبي الذي كان عبد العزيز أخذه من حسّان مائتي جارية ، منها ما يقام بألف دينار » (٣) . ولكن عبد العزيز سلبه جميع ما معه من الخيل والأمتعة والوصائف والوصفان . ورحل حسّان بالأنقال التي بقيت له ، حتى قدم على الوليد ، فشكا له ما صنع به عبد العزيز فغضب الوليد لذلك ، ثم قال حسّان لمن معه : « لا تتوني بقرب الماء ! » ، ففرغ منها من الذهب والفضّة والجواهر والباقيات ما استعظمه الوليد ، وعجب من أمر حسّان ، فقال له الوليد : « جزاك الله خيراً يا حسّان ! » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! إنما خرجت مجاهداً في سبيل الله ، وليس مثلي يخون الله ولا الخليفة ! » ، فقال له الوليد : « أنا أردك إلى عملك وأحسن إليك وأنوّه بك » ، فحلف حسّان : « لا أولي لبني أميّة أبداً » ، فغضب الوليد بن عبد الملك على عمه عبد العزيز ! وكان عزل حسّان من قبل عبد العزيز دون أمر أخيه عبد الملك ولا مشورته (٤) .

(١) البيان المغرب (٣٠/١) .

(٢) البلاذري (٢٣١) .

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٧٢) .

(٤) البيان المغرب (٣٠/١ - ٣١) .

وعلى الرغم من اضطراب ما في هذه الرواية من أخبار ، خاصة الأخبار التي ذكرت أن حسان قدم على عبد العزيز في مصر ، وقدم على الوليد في دمشق ، بينما عبد العزيز مات في أيام عبد الملك كما ذكرنا ، إلا أنه يمكن أن نتبين مما ورد في هذه الرواية ، أن عبد العزيز كان مركزي السيطرة ، وكان يتدخل في شؤون أمراء إفريقية كما فعل مع زهير بن قيس البلوي قبل حسان^(١) ، وأنه كان حريصاً على جمع المال واقتناص الغنائم ، فأمر حسان بالقدوم عليه - ومنها يشم رائحة الشك في نزاهة حسان - ولكن حسان حين وصل إلى مصر كان عبد العزيز قد قضى نحبه ، لذلك فقد أهدى عبد الله ابن عبد الملك الذي خلف عبد العزيز على مصر مائتي جارية - وهي التي وصفها نصيب الشاعر كما ذكرنا - ، فقال حسان قوله للوليد : « إنما خرجت مجاهداً في سبيل الله ، وليس مثلي من يخون الله ولا الخليفة » ، في معرض الدفاع عن نزاهته المجروحة ، وكان رد الفعل الذي ظهر على حسان ، عزمه على ألا يلي لبني أمية عملاً !!

ولعلّ الرواية التالية عن عزله تؤيد ما ذهبنا إليه ، فقد ذكرت هذه الرواية : « واستمر حسان على المغرب إلى أن عزله عبد العزيز بن مروان صاحب مصر ، وكان أمر المغرب إذ ذاك إليه ، فاستخلف حسان على المغرب رجلاً من جنده اسمه أبو صالح ، وارتحل إلى المشرق بما جمعه من ذريع المال وروائع السبي ، ونفيس الذخيرة ؛ فلما انتهى إلى مصر أهدى إلى عبد الله (وهذا يدل على أنه حين قدم مصر كان عبد العزيز قد توفي) مائتي جارية من بنات ملوك الفرنج (يقصد الروم) والبربر ، فلم يقنعه ذلك ، وانتزع كثيراً مما بيده . ولما قدم على الخليفة بدمشق ، وهو يومئذ الوليد ابن عبد الملك ، شكاً إليه ما صنع به عمه عبد العزيز ، فغاظه ذلك وأنكره ثم أهدى إليه حسان من غريب النفائس التي أخفاها عن عبد الله ما استعظمه الوليد وشكره عليه ، ووعده برده إلى عمله ، فحلف حسان أن لا يلي لبني

(١) انظر فتوح مصر والمغرب (٢٧٢).

أمية عملاً أبداً .

من حق حسان أن يحلف أن لا يلي لبني أمية ، فما مثله يتهم بنزاهته من قريب أو بعيد ، ومن حقه ألا يتعاون أبداً مع من اتهمه بأعز ما يملك في الدنيا : استقامته ونزاهته . ومن حقه أن يفضب لاقطاع قسم من ولايته دون مبرر وتحكيم عبد لا يراه أهلاً للتحكم في رقاب أشرف الناس من أهل الحسب والأيام .

ب - إصلاحاته :

أولاً - مجمل الإصلاحات :

في سنة اثنتين وثمانين استقامت بلاد إفريقية لحسان ، فدون الدواوين ، وصالح على الخراج ، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية^(١) من البربر^(٢) . ثم أوعز إليه عبد الملك بالتحاذ دار الصناعة لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد^(٣) . ونزل موضع القيروان وبني مسجد جماعتها^(٤) ، وخطط مدينة تونس وبدأ بينها ، وحفر قناة تصل بحيرة تونس بالبحر كما ذكرنا .

تلك إصلاحات مهمة جداً ، منها إدارية ، مثل بناء تونس وحفر قنواتها وبناء مسجد القيروان ، أما باقي إصلاحاته فسندكرها وشيكاً .

ومنها إصلاحات عسكرية ، كتجنيد جيش من البربر ، ومنها إنشاء أسطول بحري إسلامي ، وسندكر إصلاحاته العسكرية وشيكاً أيضاً .

ثانياً - تدوين الدواوين والإصلاحات الإدارية :

دون حسان الدواوين ، وأقام لكل وظيفة من وظائف الدولة الكبرى

(١) البيان المغرب (٣٠/١) .

(٢) الاستقصا (٨٤/١) .

(٣) الاستقصا (٨٤/١) .

(٤) فتوح مصر والمغرب (١٧١) .

ديواناً فيه الكتبة والرؤساء والمسؤولون ، ونظم الجيش وقسمه على الثغور ، وفرض له العطاء من بيت المال^(١) . وأقام العمال على النواحي الإدارية من خراج وزكاة وجند وما الى ذلك مما كان في غير إفريقية من بلاد العرب إذ ذاك^(٢) .

وأنشأ حسّان المساجد في المدن والقرى وأقام فيها الفقهاء للصلاة والوعظ والإرشاد والفتوى في مسائل الدين^(٣) ، وأقام المدارس الابتدائية بجانب كل مسجد لتعلّم أبناء المسلمين دينهم وتحفظهم القرآن الكريم وتطبع ألسنتهم بلغته . واختار حنش بن عبد الله الصنعائي^(٤) عاملاً على الزكاة . وفرض حسّان الجزية والخراج على من أقام على دينه من النصارى ، وعيّن القضاة للنواحي ، وأقام الحراس في الأنهج والطرق لحفظ الأمن^(٥) . وقسّم الأراضي بين قبائل البربر ، فعيّن لكل قبيلة خطتها ، وألزم كل قبيلة زراعة أرضها ودفع زكاتها لبيت مال المسلمين^(٦) . وقد عدّ حسّان أرض البربر وبلادهم مفتوحة صلحاً ، لذلك أقرّ الأرض في أيدي البربر وجعلها لهم . واعنى حسّان بالمدن والقرى ، فمهّد الطرق للسابلة ، وأصلح القنوات للري ، وجدّد بناء مسجد القيروان ووسّعه ، هدمه كلّهُ إلا المحراب ، وحمل اليه المسلمون الساريتين الحمراءوين الموشيتين بصفرة ، اللتين لم ير الراؤون مثلهما من كنيسة كانت للأول^(٧) .

واعنى بالقاعدة المتقدمة البحرية التي أنشأها في إفريقية ، وأنشأ مرفأها

(١) تاريخ المغرب الكبير (١١١/٢) .

(٢) فتح العرب للمغرب (٢٧٦) .

(٣) تاريخ المغرب الكبير (١١١/٢) .

(٤) انظر ترجمته المختصرة في هامش ترجمة زهير بن قيس البلوي .

(٥) تاريخ المغرب الكبير (١١٢/٢ - ١١٣) .

(٦) تاريخ المغرب الكبير (١١٣/٢) .

(٧) تاريخ المغرب الكبير (١١٤/٢) .

ودار الصناعة^(١) . وكان أهل المغرب في حاجة إلى لغة يتفاهمون بها كلهم ، وطريقة يكتبون بها ما يرون كتابته ، ولما كانت العربية هي لغة القرآن والإسلام فقد بدأوا يقبلون عليها ويتعلمونها^(٢) ، فجدت حسن كل الجهد في تعليم العربية للبربر لأنها أصل الدين^(٣) .

وضرب حسن السكة للمغرب دنانير ودراهم وفلوساً ، وكان الناس يتعاملون بسكة القوط والبيزانطيين ، وهي تحمل رسم ملوكهم وشعارات دولهم . فقد كان الدينار القرطاجني أيام حكم البيزنطيين يطبع على الوجهين ، فعلى أحدهما صورة القيصر وولي عهده أو القيصرة ، وبه من الكتابة اسم القيصر وألقابه ، وعلى الوجه الثاني صليب في الوسط قائم على ثلاث درج ، وهو المعروف بالصليب القرطاجني ، ومكتوب على دائرته باللاتينية : ضرب هذا بإفريقية ، ثم ذكر السنة بحسب عقد ذات عشر سنوات من اعتلاء ذلك القيصر حكم بلاده .

أما دينار حسن اللاتيني العربي ، فهو عين الدينار القرطاجني المتقدم وزناً وشكلاً ، وإنما حذف من الصليب العمود الأفقي وعوضه برسم الكرة في أعلى العمود الرأسي ، وحذف الدرج الأسفل من السلم ، ووضع صورتي عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك ابنه بدلاً من قيصر البيزانطيين وولي عهده ، وكتب حسن في سكته باللغة اللاتينية كلمة التوحيد^(٤) .

(١) Arsenal : دار لاختزان الأسلحة أو انتاجه ، مذكر حربي . إسبانية : D'arsener
ثم في القرن الثامن عشر (Atarzena) ومنها أخذ المصريون تمييز : القرسانة ، ونسي الأصل .
ثم Arsenal . إيطالية : Arsenale كتبت في القرن الرابع عشر Arzena . فرنسية Arsenal في
وهي دار صناعة العربية . انظر مجلة المعجم العلمي العراقي ، المجلد الثالث الجزء الثاني (١٣٧٤ هـ)
ص (٣٩٤) وانظر تاريخ التمدن الإسلامي (١٩٩/١) .

(٢) فتح العرب للمغرب (٢٩٨) .

(٦) تاريخ المغرب الكبير (١١٨/٢) .

(٧) محاضرات الشيخ عبد العزيز الثعالبي التي نشرتها جريدة الضياء المصرية في ٢٧ مارس ١٩٣١

- نقلاً عن تاريخ المغرب الكبير (١١٨-١١٨/٢) وجاء فيها : وزاد في الكتابة اللاتينية بطريقة =

وكان حسان قد قضى على الروم سياسياً وعسكرياً ، وبقي لهم سبب ديني يربط الطوائف النصرانية من الروم الإفريقيين ببيزانطة ، وهي العلاقات الكنيسة ، فقطعها خوفاً من أن يتدرج البيزانطيون فيتصلون بالمغرب ، فوصل الكنيسة القرطاجية بالكنيسة المرقسية الأورثوذكسية في مصر ، وقطعها عن الكنيسة الكاثوليكية في روما وبيزانطة (١) ، وكانت سياسة الروم في إفريقية سبباً في القضاء على ما كان قد انتشر من المسيحية بين أهلها ، إذ وقف الأهليون موقف العدو من الروم وكل ما يتصل بهم من دين أو حضارة . بل أخذ بعضهم يهاجم الأديرة والكنائس (٢) . كما أن الكنيسة الإفريقية لم تكن خلال العصر البيزنطي على حال تبعث على الأمل في مستقبل المسيحية في البلاد ، فكانت إدارتها مختلة : إذ تلاشى النظام الكنسي واقترب القسس ذنوباً كثيرة تدل على العصيان أو التدهور الأخلاقي والفساد ، وكان قساوسة الولاية الداخلية يعارضون أسقفهم الأكبر فيما يصدر إليهم من أوامر ، وكان آخرون يبدون الشقاق في الأديرة بإثارة الرهبان على رؤسائهم ، وكانت الكنيسة كلها في اضطراب داهم وتدهور مستمر ، إذ كانت وظائفها تباع جهاراً ، ولم يكن كبار القساوسة يتأخرون عن معاقبة صغار الرهبان بعقوبات بدنية . فأدت سياسة الروم في إفريقية ، وسياسة الكنيسة الإفريقية . وغير ذلك ، الى أن البلاد لم يكن فيها إلا أقل آثار من المسيحية

= إختصار الأحرف ما يأتي :

أ - الوجه الأول : *in Naddalmisr Cunds in Nmine Domi Miseri*

وتعريبها : بسم الله الرحمن الإله الأورحد .

Cordis Unius

ب - وفي الوجه الثاني : *Unus Deus Nisi Socius Alis Similis*

وتعريبها : وحده لا شريك ولا مثيل له .

كما كتب على هذا الوجه أيضاً : *Fe Riel in Africa in Dietione*

وتعريبها : ضرب بإفريقية في العشرة الثالثة ويسامى (٥٨٥) .

(١) تاريخ المغرب الكبير (١٢٠/٢) .

(٢) فتح العرب للمغرب (٢٨٠) .

بعيد تمام الفتح الإسلامي^(١) ، فارتبطت الكنيسة القرطاجنية بالكنيسة الأورثوذكسية في مصر كما ذكرنا .

ج - مؤسس ولاية المغرب :

بهذا اكتملت الأسباب ليكون المغرب بلداً إسلامية صرفة يحكمها عامل لخليفة المسلمين ويدين أهلها بالإسلام ، ويتخذون العربية لغة . وسواء أكان السبب الأكبر في ذلك هو بساطة العقيدة الإسلامية أو لم يكن ، فإن المغرب القديم إختفى بأديانه ومذاهبه المختلفة ، وحضاراته الواهنة ، وحل محله المغرب الإسلامي ؛ أمة واحدة ذات دين واحد ولغة واحدة ، وحضارة واحدة ، ووجهة واحدة^(٢) ... وكان لحسان أثر بالغ على كل ذلك .

لهذا غضب كثير من رؤساء البربر لغزل حسان ، فانفصلوا عن القيروان ، واستقلوا عن الدولة ، ورجعوا إلى ما يوثره البربر من الإستقلال واللامركزية في الحكم ، فانفصلت كثير من النواحي منها جبال زغوان في شمال القيروان ونواحي أخرى من المغرب الأوسط والأقصى^(٣) .

وكان عزله خيبة أمل للعرب المسلمين أيضاً ، فغضب من أجله كثير منهم ، ولعل ما قاله شعراؤهم في استهجان عزله خير دليل على تقييم جهود حسان من العرب المسلمين والبربر المسلمين على حد سواء .

قال أبو عتيك :

أقول لأصحابي عشية جاءنا	بغير الذي نهوى البريد المبشر
ألا ما الذي غال ابن نعمان دوننا	فقلّ متاح الخير والخير يقدر
فقلت ولم أملك سوا بقى عبسة	فنعلم الفقى المعزول والمتنظر

(١) فتح العرب للمغرب (٢٨٢ - ٢٨٤) .

(٢) فتح العرب للمغرب (٢٩٩) .

(٣) تاريخ المغرب الكبير (١٢٣/٢) .

فإن يك هذا الدهر جاء بعزله عليه ، فإن الدهر بالمرء يعثر^(١) ،
لقد كان حسّان بحق المؤسس الأول لولاية المغرب الاسلامي العربي ،

الغالب :

« ما أعلم أحداً أكفأ لإفريقية من حسّان بن النعمان الغساني »^(٢) ، ذلك
ما قاله عبد الملك بن مروان عن حسّان حين عزم على توليته أمر إفريقية .

والحق أن العرب المسلمين عانوا ما عانوا من صعوبات في فتح المغرب ،
فقد مضى على المسلمين ستون سنة من (٥٢٢ - ٥٨٢) وهم يبذلون
قصارى جهدهم افتتح المغرب حتى تكلّلت مساعيهم بالنجاح على يد حسّان ،
إذ انتصروا في معركة حاسمة من الدرجة الأولى ضد الروم في قرطاجنة ،
وانتصروا في معركة حاسمة من الدرجة الثانية ضد سكان إفريقية المحليين
بقيادة الكاهنة ، فما أسباب صعوبات فتح المغرب ٤٢ .

إن المغرب ليس قطراً واحداً يتمّ خضوعه بمعاودة شاملة أو بموقعة
حاسمة ، « فإن أمم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف أحد منها على نهاية ،
كلّما بادت أمة خافتها أمم ، وهم من الحفل والكثرة كسائمة النعم » ،
كما قال حسّان^(٣) ، وربما كان هذا الاضطراب الذي يسود تكوين المغرب
السياسي والاجتماعي والطبيعي هو السبب الأول في طول مدة الفتح واختلاط
سبيله على الفاتحين .

ومن تلك الصعوبات ، ظروف العرب المسلمين أنفسهم ، وما نزل
بهم من الأحداث التي شغلته عن الفتح أو حالت بينهم وبين أن يتعهدوه
بما ينبغي له من العناية والاهتمام ، كالفتن الداخلية الكثيرة التي كانت تحول
بين أولي الأمر من العرب المسلمين وبين إرسال الحملات الى إفريقية ،

(١) تهذيب ابن صاكر (٤/١٤٦ - ١٤٧) .

(٢) رياض النفوس (١/٢١) .

(٣) البيان المغرب (١/٢٦) .

وبُعْدُ المغرب الذي جعل لإرسال الحملات والبعوث إليه أمراً يتطلب العدة العظيمة والنفقة البالغة^(١). ومن تلك الصعوبات كره البربر للأجنبي ونفورهم من كل شيء يأتيهم من خارج وطنهم. ومنها وجود الروم الذين لم يألوا جهداً في إبعاد البربر عن المسلمين وإعداد العدة لقتال الفاتحين^(٢). ومنها النزاع بين ولاية مصر وقواد إفريقية، ورغبة الأولين في السيطرة على هذه البلاد والتصرف في مالها وغنائمها، مما رأينا أثره في تعطيل الفتح ومنع الفاتحين من إنفاذ برامجهم وإدراك الغايات التي سعوا إليها بعد أن بذلوا الجهد العظيم لإدراكها، كما رأينا في عدوان مسلمة بن مُخَلَّد على عقبة بن نافع وعزله إياه وحرمانه من ثمرة جهوده ومنعه من تنفيذ برامجه، وعداء عبد العزيز ابن مروان لزهير بن قيس وحسان بن النعمان مما انتهى بعزل الثاني وحرمان البلاد من خبرته واقتداره^(٣).

وعظمة حسان قائدًا تتلخص في تشخيصه أهم تلك الصعوبات : القضاء على قوة الروم، وفتيت قوة البربر، ففتح قرطاجنة عاصمة الروم في إفريقية، وضيق الخناق على قوات الروم حتى قواتها الضاربة... ثم قاتل البربر وقضى على الكاهنة، ثم بذل قصارى جهده لنشر الاسلام بين البربر، فأصبح بين صفوفه اثنا عشر ألفاً من المقاتلين الشجعان - هم في الحقيقة زبدة مقاتلي البربر - بدلاً من أن يكون هؤلاء في صفوف أعدائه !

ولم يكن عبد الملك بن مروان، بما عرف عنه من دهاء وحكمة سياسية وخبرة عميقة بأقيام الرجال، ليجهل الصعوبات التي تكتنف فتح إفريقية، فعجم حود رجاله واختار أصليهم حوداً وأكثرهم تجربة وأقوامهم على تحمل مثل هذه المسؤولية الضخمة : فتح إفريقية... كل ذلك يدل على أن حسان لم يكن مجهول المكانة ولا خامل الذكر، بل كان معروفاً بقابلياته الفذة

(١) فتح العرب للمغرب (٢٦٨).

(٢) تاريخ المغرب الكبير (١٠٨/٢).

(٣) فتح العرب للمغرب (٢٦٨ - ٢٦٩).

وتجربته الطويلة في الإدارة والحرب .

وكان حسّان عند حسن ظنّ عبد الملك به بعد اختياره ، فبقي موضع ثقته حتى بعد اندحار قواته أمام الكاهنة ، فلم يفرط عبد الملك بحسّان بعد هذا الاندحار ، بل أبقاه على رأس قوات المسلمين في (برقة) وعمل على إمداده بالرجال والعتاد والمال عندما تحسّنت ظروفه السياسية ؛ وهذا دليل على أن قابليات حسّان كانت فوق الشبهات ، وأن اندحاره لم يؤثر على سمعته الممتازة ومكانته السامية عند عبد الملك والناس .

فأي نوع من القادة كان حسّان ؟

مفتاح مزايه قيادته ، ما كان يتمتع به من بعد نظر ، وهذه المزية هي أول مزايه قائداً .

لقد قدّر أن إفريقية لا يمكن أن يتمّ فتحها إلاّ بقوات ضاربة متفوقة من جهة ، وبأفكار سياسية حصيفة من جهة أخرى : القوات الضاربة تقضي على العدو ، والسياسة الحصيفة توطد أركان الفتح .

ودأب طيلة بقائه على إفريقية أن يسير سيفه وعقله معاً متكاملين متعاونين ، فلا يضع السيف في موضع العقل ، ولا يضع العقل في موضع السيف ، وبذلك نجح في إفريقية نجاحاً باهراً ، حتى ليتمكن أن يعدّ حسّان بحق هو الفاتح الحقيقي لإفريقية ، فهو الذي استثمر جهود من سبقه من قادة الفتح ، ولولا جهوده لذهبت أكثر جهودهم أدراج الرياح .

وكان حريصاً على جمع المعلومات عن العدو ، فحرص على الاتصال بخالد بن يزيد ، وحصل على معلومات قيّمة جداً عن تفرّق البربر فلا نظام لهم ولا رأي عندهم ، وبذلك سار إليهم وهو قرير البال مطمئن الفكر ، يعرف أن العدو الذي سيقاّله منهار المعنويات .

ومن سير معارك حسّان يتضح أنه كانت له قابلية على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة ، وكان شجاعاً مقداماً ، ذكياً فطناً متيقظاً ، ذا إرادة

قوية نافذة يتحمل المسؤولية بلا تردد ، يعرف مبادئ الحرب ويطبقها بكفاية نادرة ، له نفسية لا تبدل في حالتي النصر والاندحار ، يتمتع بمزية سبق النظر بشكل ملحوظ ، يعرف نفسيات مروؤسيه وقابلياتهم ويعطي كل واحد منهم ما يستحقه من مكانة بالنسبة لقابلياته ، يثق رجاله به ويثق بهم ويحبونه ويحبهم ، له شخصية قوية نافذة ، وله قابلية بدنية ممتازة تعينه على تحمل مشاق الحرب ، غير متهور ولا متردد ، له ماض ناصع مجيد .

وعند تطبيق أعماله العسكرية على مبادئ الحرب ، نجد أنه طبق مبدأ : (اختيار المقصد وإدامته) ، فكان مقصده واضحاً هو : القضاء نهائياً على الروم وقاعدتهم قرطاجنة ، وضرب قوات البربر المناوئة له ، ونشر الاسلام في ربوع إفريقيا ، وتوطيد أركان الفتح الإسلامي في ربوعها وجعله فتحاً (مستداماً) كما هو الحال في مصر وفي أرض الشام وفي العراق وفي المشرق وغيرها من نواحي الدولة الإسلامية .

كما طبق مبدأ (التعرض) ، فكانت غزواته كلها تعرضية ، انتصر فيها جميعاً عدا معركة الكاهنة الأولى ، الذي اندحر فيها نتيجة لإعجاب أصحابه بكثرتهم واستهانتهم بعدوتهم ، فلم تغن عنهم كثرتهم من الاندحار شيئاً .

كما طبق مبدأ (المباغتة) بضخامة ما أعدته من قوات أولاً ، وبحصوله على المعلومات التفصيلية عن عدوه ، وعودته اليهم في وقت لا يتوقعونه وهو على هدي وبصيرة من أمره .

كما طبق مبدأ (تحشيد القوة) ، فسار بجيش تعداده أربعون ألفاً لم يدخل لإفريقية جيش مثله من قبل .

كما طبق مبدأ (الإقتصاد بالمجهود) ، فلم يبذر بقواته ولم يعمل على تشتيتها لمصاولة أهداف ثانوية ، بل كانت قواته مجموعة بيديه يقاتل بها أهدافه السوقية (الاستراتيجية) ولا يحيد عن تلك الأهداف مطلقاً .

كما طبق مبدأ (الأمن) ، فحرص على جمع المعلومات عن عدوه ، وحرّم العدو من الحصول على معلومات عن قطعاته ، وبذلك لم يستطع العدو مباغتة قواته أبداً .

كما طبق مبدأ (المرونة) ، فكانت لقواته قابلية ممتازة على الحركة ، فقطعت مسافات شاسعة من (القسطاط) الى (قرطاجنة) والى جبال (الأوراس) بكل كفاية ومقدرة .

كما طبق مبدأ (التعاون) بين صنوف قطعاته من جهة ، وبينها وبين البربر من جهة أخرى ، وبذلك استفاد من القوات البربرية التي قاتلت مع رجاله جنباً إلى جنب .

كما طبق مبدأ (إدامة المعنويات) ، فكان لا يفتأ يريح قطعاته في المراحل وبعد كل معركة ، ويواسي الجرحى ، ويعدل بين الناس ويؤمن لهم أعطياتهم بمساواة تامة .

كما طبق مبدأ (الأمور الإدارية) ، فبقي رديحاً من الزمن في مصر لإنجاز استحضارات جيشه الإدارية ، ومكث في القيروان بعد وصوله الى هناك رديحاً من الزمن لإنجاز تلك الاستحضارات ، وكانت قواته مجهزة بكل ما تحتاج إليه في المعركة من سلاح وعتاد ومال وأرزاق وقضايا صحية وبيطرية .

لقد كان حسن قائدلاً ممتازاً بكل ما في هذه الكلمة من معاني .

حسان في التاريخ :

يذكر التاريخ لحسان ، أنه خاض معركة حاسمة من الدرجة الأولى ضد الروم وقضى على آمالهم نهائياً في البقاء بإفريقية .

ويذكر له أنه خاض معركة حاسمة من الدرجة الثانية ضد البربر ، فأصبحوا بعدها مع العرب المسلمين لا عليهم .

ويذكر له أنه فتح (قرطاجنة) وخرّبها ، فحرم الروم من عاصمتهم التي كانت بنفيس الوقت القاعدة الآمنة لهم في إفريقيا .

ويذكر له أنه فتح مدينة (فاس) .

ويذكر له ، أنه أنشأ مدينة (تونس) لتكون القاعدة المتقدمة البحرية للمسلمين في إفريقيا .

ويذكر له ، أنه نشر في ربوع إفريقيا الإسلام بين البربر .

ويذكر له ، أنه أنجز إصلاحات حيوية في إفريقيا ، كانت ولا تزال الجذور العريقة لبقاء هذه البلاد عربية إسلامية .

ويذكر له ، أنه جعل الفتح الإسلامي في إفريقيا فتحاً (مستداماً) : صمد أمام الغزو العسكري الغربي وأمام الغزو الفكري الغربي ، وتحمل من أجل الحفاظ على عروبه وإسلامه كثيراً من التضحيات بالأرواح والأموال .

رضي الله عن التابعي الجليل ، السياسي المحتك ، الإداري الحازم ، الداعية الحصيف ، البطل الشجاع ، المفكر الفذ ، القائد الفاتح ، حسان ابن النعمان الغساني .

موسى بن نصير الأنخسي^(١)

فاتح المغرب الأوسط^(٢) ثمانية والمغرب الأقصى^(٣) والأندلس

«أما والله، لو القادوا إليّ لقدتهم إلى

رومية»

(موسى بن نصير)

نسبه وأيامه الأولى :

١ - هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد^(٤)، يكنى : أبا عبد الرحمن^(٥) من بني لحم^(٦) ، ويقال : إنه مولى لثخم^(٧) . وقيل : إنه

(١) ورد اسمه : موسى بن نصير الأنخسي في المعارف (٥٧٠) واليعقوبي (٢٢/٣) والبداية والنهاية (١٧١/٩) ورياض النفوس (٧٧/١) . ولحم هو مالك بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد . انظر جمهرة أنساب العرب (٤٢٢) وهم من بني سعد العشيرة بن مذحج من سبأ . انظر جمهرة أنساب العرب (٤١٠ - ٤٢٢) وانظر بطون لحم في جمهرة أنساب العرب (٤٧٧) .
(٢) المغرب الأوسط : من شرقي وهران إلى آخر حدود مملكة بجاية ، انظر تقويم البلدان (١٢٢) ، وانظر التفاصيل عن المغرب في أحسن التقاسيم (٢١٥ - ٢٣٦) والأعلاق النفيسة (٣٤٧ - ٣٥٣) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٨٥ - ٩٣) ومختصر كتاب البلدان (٧٨ - ٨٨) وصفة المغرب (٢ - ٢٩) والمسالك والممالك لاصطخري (٣٣ - ٣٨) ؛ وهي جمهورية الجزائر في الوقت الحاضر . انظر تاريخ المغرب العربي (١٢) .

(٣) المغرب الأقصى : من ساحل البحر المحيط غرباً إلى (تلمسان) شرقاً ، ومن (سبتة) إلى (مراكش) ثم إلى (سبلماسة) وما في سبتها شمالاً وجنوباً . انظر تقويم البلدان (١٢٢) والمصادر المتوه عنها في المادة (٢) أعلاه ؛ وهي المملكة المغربية في الوقت الحاضر ، والتي كانت تعرف إلى عهد قريب باسم : مراكش عاصمتها السياسية ، انظر : تاريخ المغرب العربي (١٢) .

(٤) البيان المغرب (٣٢/١) .

(٥) نفع الطيب (٢٣٤/١) و (٢٥٤/١) والبيان المغرب (٣٢/١) .

(٦) بغية المتلمس (٢٤٢) ونفع الطيب (٢٥٤/١) وتاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس -

من أراشة من بَلَي^(١١) ، وقيل : من بكر بن وائل^(١٢) ، ويذكر أولاده أنه من بكر بن وائل ، وغيرهم يقول : لأنه مولى^(١٣) .

لأنه عربي^(١٤) ، أبوه نُصير كان اسمه : نصرأ فصغر^(١٥) ، كان من بين سبايا (عَيْنِ التمر)^(١٦) الذين سباهم خالد بن الوليد المخزومي سنة اثنتي عشرة الهجرية ، فقد وجد خالد أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل عليهم باب مغلق ، فكسره عنهم وقال : « وما أنتم ؟ ! » ، فقالوا : « رُهْنُنا » ، منهم نصير أبو موسى بن نصير ، وكان نصير ينسب إلى بني (يَشْكُر)^(١٧) ، فقسّمهم خالد في أهل البلاد^(١٨) ، فأصل موسى من (عين التمر)^(١٩) . وقد أعتق نصيراً بعض بني أمية فرجع إلى الشام^(٢٠) ، ثم أصبح من حرس معاوية بن أبي سفيان^(٢١) ، ثم أصبح على حرس معاوية^(٢٢) وعلى جيوشه^(٢٣) .

= (١١٤/٢) والنجوم الزاهرة (٢٣٥/١) .

(٧) بنية الملتس (٤٤٢) وتاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس (١٤٤/٢) وجزوة المقتبس

(٣١٧) ووفيات الأعيان (٤٠٢/٤) والولاة والقضاة (٥٢) .

(١) البلاذري (٢٤٨) . وأراشة بن عبيدة بن قسيميل بن فران بن بلي من قضاة انظر التفاصيل

في جهمرة أنساب العرب (٤٤٢) .

(٢) نفع الطيب (٢٣٤/١) والبيان المغرب (٣٢/١) .

(٣) جبل فتوح الاسلام - ملحق بمجوامع السيرة لأبن جزم (٣٤٤) .

(٤) البلاذري (٢٤٨) والنجوم الزاهرة (٢٣٥/١) .

(٥) البلاذري (٢٤٨) .

(٦) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار (الفلوجة) غربي الكوفة ، بقرها موضع يقال له : شفاثا .

انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥٣/٦) .

(٧) بنو يشكر بن بكر بن وائل . انظر التفاصيل في جهمرة أنساب العرب (٣٠٨) .

(٨) الطبري (٥٧٧/٢) وانظر ابن الأثير (١٥١/٢) .

(٩) البداية والنهاية (١٧١/٩) .

(١٠) البلاذري (٢٤٨) ومعجم البلدان (٢٦٧٧) .

(١١) ابن خلدون (١٨٧/٤) .

(١٢) ووفيات الأعيان (٤٠٢/٤) ونفع الطيب (٢٢٤/١) .

(١٣) نفع الطيب (٢٢٤/١) .

وكانت منزلته عنده مسكينة . ولما خرج معاوية لقتال علي بن أبي طالب لم يخرج معه نصير ، فقال له معاوية : « ما منعك من الخروج معي ولي عندك يد لم تكافئي عليها ؟ » ، فقال : « لم يمكني أن أشكرك بكفري من هو أولى بشكري منك ! » ، فقال : « ومن هو ! » ، فقال : « الله عز وجل » ، فأطرق معاوية ملياً ثم قال : « أستغفر الله » ورضي عنه^(١) .

٢- ولد موسى سنة تسع عشرة الهجرية (٦٤٠ م) في خلافة عمر ابن الخطاب^(٢) رضي الله عنه بقرية يقال لها : (كَفَرْمَتْرَى)^(٣) ، ونشأ في بيت له صلة مباشرة بالجنسية قريباً من قادة الفتح الإسلامي وقادة الفكر الإسلامي في الشام دار الخلافة وبتماس شاذيد بمعاوية بن أبي سفيان ومن حوله من قادة الفتح والفكر ، بكنف أبيه نصير الذي كان يمتاز بالجرأة والصراحة والورع ، فكان لكل ذلك أثره البالغ على حياة موسى قائداً وإنساناً .

وعندما اشتدَّ عوده ، وظهرت عليه بوادر النجاسة والحوية ، وأكسبه الزمان تجربة وعلماً ، ولآه معاوية بن أبي سفيان أيام خلافته البحر ، ففزا (قَبْرُس)^(٤) وبني هناك حصوناً مثل (الماعوصة)^(٥) و (بانس) وغير

(١) وفيات الأعيان (٤/٤٠٢) ونفع الطيب (١/٢٢٤ - ٢٢٥) .

(٢) نفع الطيب (١/٢٦٤) والبداية والنهاية (٩/١٧١) والبيان المغرب (١/٤٣) ، وانظر

النجوم الزاهرة (١/٢٣٥) .

(٣) كفرمتري : وردت في البلاذري (٢٤٨) باسم : كفرمري ، وهو تصحيف ، والصحيح أن اسم القرية : كفرمتري ، وهي قرية من قرى أرض الشام في جبل الجليل . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٦٧) . وفي النجوم الزاهرة (١/٢٣٥) : إنه ولد بقرية : (كفرتوتا) ، وهي قرية كبيرة من قرى الجزيرة بينها وبين (دارا) خمسة فراسخ وهي بين (دارا) و (رأس عين) ، وهي أيضاً من قرى فلسطين . انظر معجم البلدان (٧/٢٦٣) .

(٤) قبرس : جزيرة في البحر الأبيض المتوسط . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٦٦) . ومن الأخطاء الشائعة أن بعض الجغرافيين يكتبونها (قبرص) والصحيح ، هو قبرس : انظر الطبري (٣/٣٦) وابن الأثير (٣/٣٦) وأبي الفدا (١/١٦٧) وقد وُذِّت (قبرص) في ابن خلدون (٢/١٣٠) (٥) الماعوصة : لم أجد لها ذكراً في معجم البلدان ، كما لم أجد ذكراً لبانس أيضاً .

ذلك من الحصون التي بناها في (قبرس) ، وكان نائب معاوية عليها^(١١) ؛
وكان معاوية قد فتح (قبرس) سنة ثمان وعشرين الهجرية^(١٢) .

وبذلك ظهر موسى لأول مرة على مسرح الحوادث العامة .

٣- وفي سنة أربع وستين الهجرية^(١٣) شهد موسى معركة (مرج راحط)^(١٤) مع الضحاك بن قيس الفهري^(١٥) الذي كان يدعو سراً إلى عبد الله بن الزبير^(١٦) ثم دعا إلى نفسه ، فلما قتل الضحاك وانتصر عليه مروان بن الحكم لجأ موسى إلى عبد العزيز بن مروان^(١٧) فحماه عبد العزيز وأنقذ حياته من خطر داهم ، وبذلك ابتدأت الصلة الوثيقة بين عبد العزيز ابن مروان وبين موسى بن نصير .

٤- وفي سنة خمس وستين الهجرية توجه مروان بن الحكم إلى مصر فتملكها واستعمل عليها ابنه عبد العزيز^(١٨) ، وجعل له موسى بن نصير وزيراً ومشيراً^(١٩) ، وكان موسى مع مروان بن الحكم حين دخوله مصر^(٢٠) ، وهذا يدل على أن موسى عاون مروان معاونة كبيرة في تملك مصر ، وأنه

(١) البداية والنهاية (١٧١/٩) ، وانظر النجوم الزاهرة (٢٣٥/١) . رغبه : إنه غزا غير قبرس أيضاً .

(٢) الطبري (٣١٥/٣) وابن الأثير (٣٦/٣) والبداية والنهاية (١٧١/٩) ، والمبر (٢٩/١) .
وفي البلاذري (١٥٨) : إن معاوية فتح قبرس سنة ثمان وعشرين وقيل سنة تسع وعشرين وقيل سنة ثلاث وثلاثين الهجرية .

(٣) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٥٨/٤) ، وانظر المبر (٧٠/١) وشذرات الذهب (٧٢/١) .
(٤) مرج راحط : بنواحي دمشق ، وهو أشهر المروج في الشعر ، فاذا قالوه مفرداً فلياه يعنون .
انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٦/٨) .

(٥) البداية والنهاية (١٧١/٩) .

(٦) ابن الأثير (٥٧/٤) .

(٧) البداية والنهاية (١٧١/٩) .

(٨) المبر (٧١/١) وشذرات الذهب (٧٣/١) .

(٩) الولاة والقضاة (٤٧) .

(١٠) البداية والنهاية (١٧١/٩) .

كان موضع ثقة مروان وثقة ابنه عبد العزيز على حد سواء .

٥ - وفي سنة إحدى وسبعين الهجرية وليّ عبد الملك بن مروان أخاه بشر بن مروان الكوفة^(١) ، ثم ولاّه البصرة سنة ثلاث وسبعين الهجرية^(٢) ، فاجتمع له المصران : الكوفة والبصرة^(٣) ، وكان بشر يومئذ حديث السن ، فجعل عبد الملك معه موسى وزيراً ومشيراً^(٤) ، وجعله المسؤول الأول عن كل خلل وتقصير يقع في ديوان العراق ، فدفع بشر إلى موسى خاتمه وتخلّى له عن جميع العمل^(٥) .

وفي سنة خمس وسبعين الهجرية توفي بشر بن مروان أمير العراقين^(٦) بالبصرة ، وهو أول أمير مات بها^(٧) ، فولى عبد الملك بن مروان الحجاج ابن يوسف الثقفي العراق^(٨) ، وأوصاه : ألا يفوته موسى لأنه احتجن

(١) ابن الأثير (١٣٣/٤) .

(٢) ابن الأثير (١٤٠/٤) وابن خلدون (١٥١/٣) .

(٣) البداية والنهاية (١٧١/٩) وابن الأثير (١٤٠/٤) .

(٤) البداية والنهاية (١٧١/٩) .

(٥) الإمامة والسياسة (٥٩/٢) ، وسأعتمد في هذا البحث على هذا المصدر - خاصة إذا اتفقت المعلومات الواردة فيه مع المعلومات الواردة في المصادر العربية الأخرى ، وواضح جداً أن الكلام الخاص بموسى بن نصير وأعماله في هذا الكتاب مستقى من مراجع صحيحة ، فالتشابه بينه وبين ابن عذاري ظاهر جداً يصل إلى الحرفية في بعض الأحيان ، ولا معنى للاستغناء عن معلومات هامة كهذه لمجرد أن (دوزي) شك في صحة الكتاب كله . وقد ناقش رأي (دوزي) وأثبت أصالة ما ورد في كتاب الإمامة والسياسة عن موسى بن نصير الدكتور محمود علي مكّي في مقال نشره في المجلد الخامس من صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمحريد ، وقد ذهب في هذا المقال إلى أن هذا الجزء من كتاب ابن قتيبة الدينوري مأخوذ من كتاب ضاع لمعارك النصيري ، انظر فجر الأندلس (٤٦) .

وقد اعتبر هذا الكتاب المشرق الإسباني (جاينجوس Gayangos) قديماً وصحيحاً وإن كان يشك في نسبته لابن قتيبة لعدة أسباب وجيهة ، وانتفع به المشرق الألماني (فايل Weil) والمشرق الإيطالي (أماري Amari) ، انظر كتاب دولة الاسلام في الأندلس (٢٤) .

(٦) العبر (٨٦/١) وشذرات الذهب (٨٣/١) .

(٧) المعارف (٣٥٥) .

(٨) ابن الأثير (١٤٤/٤) والطبري (٤٠/٥) وأبو الفدا (١٩٦/١) .

الأموال لنفسه حين كان على خراج البصرة ، فخاف موسى الحجاج وقصد إلى عبد العزيز بن مروان صاحب مصر ، لانقطاع كان منه اليه ، فتوجه عبد العزيز مع موسى إلى الشام ، ووفدا على عبد الملك ، فأغرمه عبد الملك مائة ألف دينار ، فغرم عنه عبد العزيز نصفها ، وعاد موسى مع عبد العزيز إلى مصر (١).

هل احتجن موسى الأموال لنفسه حقاً ؟ أم شحت موارد البلاد لظروف طبيعية قاهرة أقلت هطول الأمطار مثلاً فلم يصل بيت المال الدخل المقرر (٢) ؟ أم أن بشر بن مروان لم يقم بإواجهه أو بذّر في أموال الدولة فكان له الغنم ووقع الغرم على موسى ؟

إن اتّهام موسى باحتجان الأموال لنفسه ، يكتنفه شك واضح نظراً لاستقامته ، ولم يكن من أولئك الذين لا يقدرّون مسؤولياتهم حقّ قدرها ولا يحرصون على أمانتهم ونزاهتهم ، ليقع في مثل هذا العمل الذي لا يقع في مثله أمثاله من الرجال .

جهاده :

١- توليته :

هناك اختلاف كبير بين المؤرخين في تاريخ تولية موسى لإفريقية والمغرب. فقد ذكر بعض المؤرخين أنه تولى إفريقية والمغرب سنة سبع وسبعين الهجرية (٣) ، أو سنة ثمان وسبعين الهجرية (٤) ، أو سنة تسع وسبعين الهجرية (٥) ،

(١) البيان للمغرب (٣٢/١) ، وانظر تفاصيل ذلك في الامامة والسياسة (٥٩/٢ - ٦٠).

(٢) انظر مثلا المسالك والممالك لابن خردادبة (٢٣٧ - ٢٣٩) عن معدل واردات بعض النواحي ،

كما يدل على وجود إحصائيات دقيقة عن معدل الواردات

(٣) اليعقوبي (٢٢/٣) ونفع الطيب (٢٢٣/١).

(٤) الحلة السرام (٣٣٢/٢) وتهذيب ابن عساكر (١٤٦/٤) والعبّ (٨٨/١) وشذرات الذهب

(٨٤/١) والرياسة والقضاة (٥٢) والنجوم الزاهرة (١٩٨/١).

(٥) البداية والنهاية (١٧١/٩) والبلاذري (٢٣٢) والامامة والسياسة (٦١/٢) وبغية =

أو سنة ست وثمانين الهجرية^(١١) ، أو ثمان وثمانين الهجرية^(١٢) ، أو تسع وثمانين الهجرية^(١٣) .

لقد استقامت بلاد إفريقية لحسان بن النعمان الغساني^(١٤) سلف موسى على إفريقية والمغرب سنة اثنتين وثمانين الهجرية ، فانصرف إلى (القيروان) بعد ما حسن إسلام البربر وطاعتهم ، وذلك في شهر رمضان من تلك السنة^(١٥) . وفي القيروان أمر حسان بتجديد بناء المسجد الجامع ، فبناه بناءً حسناً وجدّده في رمضان من سنة أربع وثمانين الهجرية^(١٦) ، وهذا يدلّ على أن موسى تولى إفريقية والمغرب بعد هذا التاريخ .

وقد عزل عبد العزيز بن مروان الذي كان على مصر حسان بن النعمان وولى مكانه موسى^(١٧) ، فلما قدم حسان على أمير مصر عبد العزيز بن مروان أهدى إليه مائتي جارية ورحل إلى الشام حتى قدم على الوليد بن عبد الملك^(١٨) . وفي رواية أخرى ، أن حسان لما ارتحل إلى المشرق عن (القيروان) كان على مصر عبد الله بن عبد الملك^(١٩) ، وقد توفي عبد العزيز بن مروان سنة خمس وثمانين الهجرية^(٢٠) ، وعبد الله بن عبد الملك تولى مصر في جمادى الآخرة

= الملحق (٤٤٢) وجلوة المقتبس (٣١٧) .

(١) البيان المغرب (٣٥/١) .

(٢) نفع الطيب (٢١٤/١) و (٢٣٤/١) .

(٣) ابن الأثير (١٤٤/٤) و (٢٠٩/٤) .

(٤) انظر ترجمته الكاملة في هذا الكتاب (١٧٢-٢٢٠) .

(٥) البيان المغرب (٢٩/١) .

(٦) رياض النفوس (٣٧/١) .

(٧) الحلة السيرة (٣٣٢/٢) والولاة والقضاة (٥٢) والبلاذري (٢٣٢) وخروج مصر والمغرب

(٢٧٤) والامامة والسياسة (٦١/٢) وتهذيب ابن عساكر (١٦٤/٤) .

(٨) البيان المغرب (٣٠/١) .

(٩) الاستقصا (٨٤/١) .

(١٠) المعبر (٩٦/١) وشذرات الذهب (٩٥/١) . وفي الولاة والقضاة (٥٥) : إنه توفي سنة ست

وثمانين الهجرية .

سنة ست وثمانين الهجرية^(١) ، وعبد الملك بن مروان توفي سنة ست وثمانين الهجرية^(٢) ، فخلفه ابنه الوليد بن عبد الملك ، وهذا يدلّ على أن موسى تولى إفريقيا والمغرب في أواخر سنة خمس وثمانين الهجرية أو في أوائل سنة ست وثمانين الهجرية ، إذ من المستبعد أن يُترك أمر المغرب كلّهُ على صالح أو أبي صالح الذي استخلفه حسان على المغرب بعد عزله^(٣) بدون والٍ أصلي مسؤول لمدة طويلة ، الى سنة ثمان وثمانين أو تسع وثمانين الهجرية ، أي لمدة ثلاث سنوات أو أربع سنوات من وفاة عبد العزيز بن مروان الذي عزل حسان بن النعمان وولّى مكانه موسى بن نصير .

٢ - جهاده في المغرب :

أ - أعماله التمهيدية :

أولاً : عندما توافقت الجيوش ، قام خطيباً ، فكان مما قاله : «... وإنما أنا رجل كأحدكم ، فمن رأى مني حسنة ، فليحمد الله ، وليحضر عليّ مثلها ، ومن رأى مني سيئة ، فليتركها ، فلإني أخطيء كما تخطئون ، وأصيب كما تصيبون ، وقد أمر الأمير أكرمه الله^(٤) لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً ، فخذوها هنيئاً مريئاً ، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا ، وله عندنا قضاؤها على ما عزّ وهان ، مع المواساة إن شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله »^(٥).

وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقيا حشد جيشه وأكمل إستحضاراته الإدارية ، وساوى نفسه برجاله ، وأعطاهم ما يستحقونه من أعطيات وضاعفها لهم ثلاثاً ، وفتح بابه على مصراعيه لتلبية احتياجاتهم كلها ... الخ .

(١) الولاة والقضاة (٥٨) .

(٢) تاريخ بغداد (٣٩١/١) وتاريخ الخميس (٣١١/٢) .

(٣) الاستبصار (٨٤/١) .

(٤) يزيد ، عبد العزيز بن مروان بن الحكم .

(٥) النظر التفصيلي في الإمامة والسياسة (٩١/٢ - ٩٢) .

لقد بدأ موسى بداية موفقة جداً في تحمّل مسؤوليته الحسيمة .

ثانياً : وسار موسى متوجهاً إلى المغرب ، وكان الأمن هناك غير مستتب^(١) ، فلما وصل إلى إفريقية وبها صالح^(٢) الذي استخلفه حسان ابن النعمان على إفريقية ، وجد أن البربر قد طمعوا في البلاد بعد مسير حسان^(٣) ، فجمع الناس وألقى فيهم خطاباً بيّن فيه بوضوح الخطوط العريضة لسياسته العامة في الفتح^(٤) : قتال العدو القريب أولاً ، حتى إذا انتهى من أمره تغفل بعبداً بالتلويح لقتال العدو البعيد .

ثالثاً : وتنفيذاً لهذه الخطة العسكرية الحكيمة ، بدأ باستعادة جبل (زَعْوَان)^(٥)

(١) ورد في الامامة والسياسة (٦٢/٢) : وكان قدوم موسى إفريقية وما حولها مخوفاً بحيث لا يقدر المسلمون أن يبرزوا في الميدان ، لقرب العدو منهم .

(٢) في الامامة والسياسة (٦٢/٣) : إنه أبو صالح الفهري وقد غرّمه موسى عشرة آلاف دينار ووجهه بالحديد إلى دمشق عاصمة الدولة .

(٣) ابن الأثير (٢٠٦/٤) .

(٤) في الامامة والسياسة (٦٢/٢ - ٦٣) نص خطاب موسى وهو : « أيها الناس ! إنما كان قبل على إفريقية أحد رجلين : سالم يحب العافية ، ويرضى بالنون من العطية ، ويكره أن يكلم ، ويجب أن يسلم ، أو رجل ضعيف العقيدة ، قليل المعرفة ، راض بالهوى ، وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر ، وأحسن النظر ، وغاض القمر ، وسنت به همت ، ولم يرخص بالنون من المنع لينجو ويسلم دون أن يكلم أو يكلم . ويبلغ النفس عذرها في غير خرق يريده ، ولا عنف يقاسيه ، متوكلاً في حزمه ، جازماً في عزمه ، مستزهداً في علمه ، مستشيراً لأهمل الرأي في إحكام رأيه ، متحنكاً بتجاربه ، ليس بالمتجahn إتحاماً ، ولا بالمتخاذل إحجاماً ، إن ظفر لم يزد الظفر إلا حذراً ، وإن نكب أظهر جلادة وصبراً ، راجياً من الله حسن العاقبة ، فذكر بها المؤمنين ، ورجاهم لها بالقول الله تعالى : (إن العاقبة للمتقين) ، أي الحادرين .

« وبعد . فإن كل من كان قبل كان يمد إلى العدو الأقصى ، ويترك عدواً منه أدنى ، ينتهز منه الفرصة ، ويدل منه على العودة ، ويكون عوناً عليه عند النكبة ، وأيم الله ، لا أرى هذه الفلاح ، والرجال المعلقة حتى يضع الله أركانها ، ويدل أهلها ، ويفضحها على المسلمين بعضها أو جميعها ، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين » .

(٥) زَعْوَان : جبل إفريقية بالقرب من تونس ، وهو جبل مليف مشرف ، يرى على مسير الأهم الكفيرة ، فيه قرى كثيرة أهلها كثيرة المياه والثمار . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٩٤/٤) .

وما حوله ، وبينه وبين (القيروان) مسيرة يوم كامل ، وبنواحي (زغوان) قبائل من البربر ؛ فبعث إليهم موسى خمسمائة فارس^(١) ، فاستعاد فتح (زغوان) وسبي منهم ، فكان ذلك السبي أول سبي دخل (القيروان)^(٢) . كما وجّه ابنه عبد الله بن موسى^(٣) إلى بعض نواحي إفريقية فأتى بمائة ألف رأس من السبي ، ثم وجّه ابنه مروان فأتى بمثلها ، فكان الخمس يومئذ ستين ألفاً^(٤) ، وكان هؤلاء من البربر الخارجين عن الطاعة^(٥) .

ومن الواضح أن هناك مبالغة شديدة في عدد الأسرى ، فإذا كان الخمس ستين ألفاً ، فإن السبي يكون مقداره ثلاثمائة ألف ، فإذا كان سبي زغوان عشرة آلاف رأس وسبي عبد الله مائة ألف وسبي مروان مائة ألف ، فيكون مجموع السبي عشرة آلاف ومائتي ألف لا ثلاثمائة ألف^(٦) ! ولكن أعمال موسى هذه لها دلالة واضحة على أنه استطاع القضاء على جيوب المقاومة في إفريقية ، وأنه استطاع إخضاع قبائل

(١) في الامامة والسياسة (٦٣/٢) : إن موسى بعث على رأس تلك القوة رجلاً من (خشين) يقال له عبد الملك ... انتهى . وخشين هو خشين بن النمر بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة . انظر التفاصيل في جبهة أنساب العرب (٤٥٤ - ٤٤٥) .
(٢) البيان المغرب (٣٢/١) والامامة والسياسة (٦٣/٢) ، وفيهما : أن سبي زغوان بلغ عشرة آلاف ، وهذا لا يخلو من مبالغة .

(٣) ورد اسمه : عبد الرحمن بن موسى في الامامة والسياسة (٦٣/٢) ، بينما ورد اسمه في البيان المغرب (٣٢/١) : عبد الله بن موسى وكذلك في ابن الأثير (٢٠٦/٤) ... الخ

(٤) البيان المغرب (٣٢/١) والامامة والسياسة (٦٢/٢) .

(٥) ابن الأثير (٢٠٦/٤) .

(٦) في البيان المغرب (٣٢/١ - ٣٣) والامامة والسياسة (٦٣/١) : إن موسى بن نصير كتب إلى عبد العزيز بن مروان يعلمه بالفتح ويعلمه أن الخمس بلغ ثلاثين ألفاً ، وكان ذلك وهماً من الكاتب : كتب ثلاثين ألفاً بدلاً من ستين ألفاً ، فلما قرأ عبد العزيز بن مروان الكتاب ، وأن الخمس من السبي ثلاثون ألفاً ، استكثر ذلك ، ورأى أنه وهم من الكاتب لكثرة ، فكتب إلى موسى يقول له : « إنه قد بلغني كتابك تذكر أن خمس ما أفاء الله عليك ثلاثون ألف رأس ، فاستكثر ذلك ، وظننت وهماً من الكاتب ، فاكذب بالحقيقة ! » ، فكتب إليه موسى : « قد كان ذلك وهماً من الكاتب على ما ظنه الأمير ، والخمس أيها الأمير ستون ألف رأس ثابتاً بلا وهم ! » . فلما بلغه الكتاب ابتلا سروراً .

البربر التي خرجت على الطاعة بعد مسير حسّان إلى المشرق ، وأن موسى أراد أن يحمل قضايا القبائل المتمردة حلاً جذرياً ، فعاقب الخارجين عليه ، عقاباً صارماً .

وبذلك استطاع موسى أن يجعل من منطقة (القيروان) وما حولها قاعدة أمينة ينطلق منها موسى بن نصير وهو أمين على خطوط مواصلاته ، لتنفيذ خططه في الفتح متغلغلاً في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى .

ب - استعادة المغرب الأوسط وفتح المغرب الأقصى :

أولاً : أرسل موسى ألف فارس^(١) إلى هواره وزناتة (من قبائل البربر) فأغاروا عليهم وقتلوا منهم وسبوا^(٢) ، فعرضوا الصلح ، فصالحهم المسلمون ، وكانت (كتامة) وهي قبيلة من البربر أيضاً قد قدمت على موسى فصالحته ، فولى عليهم رجلاً منهم وأخذ منهم رهونهم . وحاولت رهون كتامة الفرار إلى قبيلتهم ، فوجه الخيول في طلبهم وأتى بهم ، فأراد صلبهم فقالوا : « لا تعجل أيها الأمير بقتلنا حتى يتبين أمرنا ، فان آباءنا وقومنا لم يكونوا ليدخلوا في خلاف أبداً ، ونحن في يدك ، وأنت على البيان أقدر منك على استحياتنا بعد القتل » ، فأقرهم حليداً ، وأخرجهم معه إلى كتامة ، وخرج هو بنفسه ؛ فلما بلغهم خروج موسى ، تلقاه وجوه كتامة معتنرين ، فقبل منهم ، وتبينت له براءتهم ، واستحيا رهونهم^(٣) ، وقد كانت كتامة بوادي (دَرَعَة)^(٤) .

ثانياً : وأخبر الجواسيس موسى ، أن صِنْهَاجَة وهي من قبائل البربر أيضاً ، بغرة منهم وغفلة ، وأن إبلهم تنتج ولا يستطيعون براحاً ؛ فأغار

(١) على رأسهم عماش بن أخيل . انظر الإمامة والسياسة (١٦/٢) .

(٢) في الإمامة والسياسة (١٦/٢) : إن سيهم بلغ خمسة آلاف رأس .

(٣) الإمامة والسياسة (١٦/٢) وانظر البيان المغرب (٣٤/١) .

(٤) درعة : مدينة بالمغرب بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ انظر معجم البلدان (٥٣/٤) .

عليهم موسى بأربعة آلاف من أهل الديوان والفتن من المتطوعة ، ومن قبائل البربر^(١) . وسار موسى حتى غشي صنهاجة ومن كان معها من قبائل البربر وهم لا يشعرون ، فقتلهم قتل الفناء وسبى منهم مسياً كثيراً^(٢) ، ثم انصرف قافلاً الى (القيروان) . ولقد لقي موسى صنهاجة في وادي (مكنوية) في المغرب الأوسط^(٣) .

ثالثاً : وغزا موسى (سجومة) في المغرب الأوسط في عشرة آلاف من المسلمين^(٤) . وأعطى اللواء ابنه مروان بن موسى ، حتى إذا كان بمكان يقال له : سجن الملوك ، خلف الأتقال^(٥) ونجرد في الحبول ، حتى انتهى إلى نهر يقال له نهر (ملوبة) ، فوجده في حالة فيضان ، فكره طول المقام عليه خوفاً من نقاد الزاد ، وأن يبلغ العدو مخرجه ومكانه . لذلك أحدث مخاضة غير مخاضة عقبة بن نافع التي كره أن يجوز عليها^(٦) . فلما أجاز وانتهى إليهم ، وجدهم قد أنذروا وتأهبوا وأعدوا للحرب ، فاقتتلوا قتالاً شديداً في جبل شديد لا يصل إليهم إلا من أبواب معلومة . وبعد قتال استمر ثلاثة أيام انهزم أهل (سجومة)^(٧) ، ففتح المدينة وقتل ملوكها وأمر أولاد عقبة بن نافع : عياضاً وعثمان وأبا عبيدة ، أن يأخذوا حقهم من قاتل أبيهم ، فقتلوا من أهل (سجومة) ستمائة رجل من كبارهم ، ثم قال لهم موسى : « كفوا » ،

-
- (١) كان على مقدمة عياض بن عقبة بن نافع ، وعلى ميمنة المغيرة بن أبي بردة ، وعلى ميسرة زرة بن أبي مدرك . انظر الامامة والسياسة (٦٧/٢) ..
- (٢) في الامامة والسياسة (٦٦/٢) : إن السبي بلغ يومئذ مائة ألف رأس .
- (٣) انظر تاريخ المغرب (٢١٠ - ٢١١) نقلاً عن النص الجديد لعبد الله .
- (٤) على مقدمة عياض بن عقبة بن نافع ، وعلى ميمنة زرة بن أبي مدرك ، وعلى ميسرة المغيرة ابن بردة القرشي ، وعلى ساقته نجدة بن مقسم . انظر الامامة والسياسة (٦٧/٢) .
- (٥) ترك على الأتقال عمرو بن أوس في ألف . انظر الامامة والسياسة (٦٧/٢) .
- (٦) من المحتمل أن يكون سبب ذلك وجود تلك المخاضة تحت رصد العدو أو أنها قريبة من تجمعاته فإذا عبر منها فسيكشف حركات جيشه لعدوه .
- (٧) الامامة والسياسة (٦٧/٢ - ٦٨) .

فكفوا^(١)، فقال عياض بن عقبة : «أما والله لو تركني ما أمسكت عنهم ، ومنهم عين تطرف^(٢)» ، لأن البرانس وعلى رأسهم كسيلة بن لزم هم الذين قتلوا عقبة بن نافع في معركة (تَهَوْدَة)^(٣) .

وهكذا أخضع موسى قبائل البربر التي شقت عصا الطاعة بعد مسير حسان بن النعمان الى المشرق^(٤) ، وكذلك أخضع القبائل التي لم تكن قد خضعت بعد للمسلمين ، فخرج من إفريقية نحو المغرب الأوسط وولاية (طنجة)^(٥) ، فتبددت القبائل أمامه نحو الغرب خوفاً من العرب^(٦) ، فتبعها عبر (السوس) الأدنى^(٧) حتى بلاد (سجلماسة)^(٨) ووادي (درعة) .

وكان من الطبيعي وقد حقق موسى هذا النجاح الباهر أن يوسع دائرة نشاطه في بقية أنحاء المغرب ، فسير ابنه مروان^(٩) على رأس قوة من خمسة

(١) البيان المغرب (٣٤/١) .

(٢) الإمامة والسياسة (٦٨/٢) وفيه : إن كسيلة بن لزم قتل في هذه المعركة ، بينما كسيلة قطه زهير بن قيس البلوي ، وكسيلة هذا هو الذي قتل عقبة بن نافع . انظر ترجمتي عقبة بن نافع وزهير بن قيس البلوي في هذا الكتاب .

(٣) تهوذة : اسم قبيلة من البربر بتاحية افريقية لهم أرض تعرف بهم . انظر معجم البلدان (٤٣٨/٢) وانظر ابن الأثير (٤٣/٤) والاستقصا (٧٤/١) .

(٤) ابن الأثير (٢٠٦/٤) .

(٥) طنجة : مدينة قديمة على البحر الأبيض المتوسط بينها وبين سبتة مسيرة يوم واحد . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٢/٦) والمساكن والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٣٢) .

(٦) البيان المغرب (٣٦/١) .

(٧) للسوس الأدنى : كورة كبيرة بالمغرب مدينتها طنجة . والسوس مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها : قنوتة ، وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين وبعده المحيط الأطلسي . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٢/٥) والمشارك وضماً (٢٥٩) .

(٨) سجلماسة : مدينة في جنوب المغرب بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤١/٥) .

(٩) في ابن الأثير (٢٠٦/٤) ، ورد اسمه : هرون ، وهو تصحيف بلون شك ، استبدل الناصب بميم مروان جهاد هرون .

آلاف رجل الى (السوس الأقصى) ^(١) ، كما سير قائده زُرْعَة بن أبي مدرك الى بربر (مَصْمُودَة) ^(٢) في (أطلس العليا) ^(٣) . ونجحت الحملتان ، فعاد مروان بسبي كثير ^(٤) . أما زرعة فلم يلق حرباً من المصامدة الذين أعلنوا خضوعهم ، وقدّموا إليه رهائنهم ، كما قدّمت غير مصمودة الرهائن ^(٥) ، وكانت هذه هي المرة الثانية التي تطلّ فيها خيل العرب أرض مصمودة بعد دخول عقبة بن نافع لأول مرة ، وتأكد انتشار الإسلام في بلاد المصامدة الذين دخلوا فيه طوعاً ^(٦) .

ج - فتح طنجة :

وهكذا بعد أن تمّ لموسى إخضاع المغرب الأوسط والمغرب الأقصى من صحراء (درعة) الى السوس الأقصى إلى بلاد المصامدة ، تطلّع موسى نحو (طنجة) التي كانت تخضع للأمير الرومي بليان (جوليان) منذ أيام عقبة بن نافع . والمقصود بطنجة هنا ، هو الولاية التي كانت تتّسع في القديم لمسيرة شهر ، وليس المدينة فقط ^(٧) .

خرج موسى من القيروان لفتح (طنجة) ، وجعل على مقدمته مولاة طارق بن زياد ، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة (طنجة) وهي قصبة بلادهم وأمّ مدائنهم ^(٨) ؛ فلما دنا موسى من (طنجة) بثّ

(١) السوس الأقصى : أقصى بلاد البربر على المحيط . والسوس الأقصى اسم مدينة أطلق اسمها على كورة السوس الأقصى ذات المدن والقرى الكثيرة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٢/٥) والممالك والممالك (٣٤) والمشارك وضعاً (٢٥٩) .

(٢) مصمودة : هي قبيلة مصمودة بن برنس من قبائل البربر البرانس . انظر التفاصيل في جبهة أنساب العرب (٥٠٠) .

(٣) النص الجديد (٢٢٤) نقلاً عن تاريخ المغرب العربي (٢١٢) .

(٤) انظر التفاصيل في البيان المغرب (٣٦/١) .

(٥) البيان المغرب (٣٦/١) .

(٦) البيان المغرب (٣٦/١ - ٣٨) .

(٧) انظر تاريخ المغرب العربي (٢١٢) .

(٨) نفع الطيب (٣١٥/١) و (٢٣٤/١) .

السرايا ، فانتهت خيله إلى (السوس الأدنى) ، فوطنهم وسباهم ، وأدوا إليه الطاعة ، وولى عليهم والياً أحسن فيهم السير^(١) .

وحاصر موسى طنجة حتى افتتحها^(٢) ونزلها ، وهو أول من نزلها واختط فيها للمسلمين^(٣) ، فأسلم أهلها وخطتها موسى قيرواناً للمسلمين^(٤) .

وسار موسى إلى مدائن على شط البحر فيها عمال لصاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ، ورأس تلك المدائن (سبتة)^(٥) وعليها يلبان (جوليان) ، فقاتله موسى ، فألفاه في نجدة وقوة وعدة فلم يبطئه ، فرجع إلى مدينة طنجة وأقام هناك بمن معه ، وأخذ في الغارات على من حولهم والتضييق عليهم ، والسفن تختلف اليهم بالميرة والامداد من الأندلس من قبل ملكها (غيطشة) ، فهم يذبّون عن (سبتة) ذباً شديداً ، ويحمون بلادهم حماية تامة^(٦) ، وكانت سبتة مدينة حصينة قريبة من الأندلس^(٧) ، مما ساعد على صمودها بوجه المسلمين الفاتحين .

كان : (طنجة) من البربر بطون (البشر) و (البرانس) ممن لم يكن دخل في الطاعة^(٨) ، فوضع موسى على ساحل (طنجة) حامية للرباط مؤلفة من ألف وسبعمئة رجل عليهم ابنه مروان ، ولكن مروان انصرف وخلف على جيشه طارق بن زياد^(٩) . وبذلك تم فتح المغرب الأقصى إلا إقليم (سبتة)

(١) فتح مصر والمغرب (٢٧٦).

(٢) فتح الطيب (٢١٥/١) و (٢٣٤/١).

(٣) البلاذري (٢٣٢) وفتح مصر والمغرب (٢٧٦).

(٤) فتح الطيب (٢٣٤/١).

(٥) سبتة : بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق . انظر

التفاصيل في معجم البلدان (٢٦/٥).

(٦) فتح الطيب (٢٣٤/١).

(٧) معجم البلدان (٢٦/٥).

(٨) فتح مصر والمغرب (٢٧٦). انظر ما جاء من ذلك مختصراً في كتاب الإسلام والعرب (١٤٥) .

(٩) فتح مصر والمغرب (٢٧٥).

وانتشر الإسلام فيه .

وعاد موسى إلى (القيروان) بعد أن استعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد ، وترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام^(١).

وفي الطريق إلى القيروان ، فتح موسى مدينة (مَجَانَّة)^(٢) على مسيرة خمسة أيام من القيروان^(٣) ، على الحدود الجزائرية - التونسية الحالية^(٤) على يد بشر بن فلان ، وكانت (مجانة) قلعة تحصن أهلها من موسى حين عودته إلى القيروان^(٥) ، فاستعاد بشر هذا فتحها ، لأنها سبق أن فتحها بسر بن أبي أرطاة^(٦).

لقد افتتح موسى بلاد المغرب وغنم منها أموالاً لا تعد ولا توصف ، وله بها مقامات مشهورة هائلة^(٧) ، وأسلم أهل المغرب على يديه وبث فيهم الدين والقرآن^(٨) ، فكان يأمر العرب أن يعلموا البربر القرآن ، وأن يفقهوهم في الدين^(٩) ، فلم يبق في إفريقية من ينازعه^(١٠) ، غير منطقة (سبتة) كما ذكرنا.

(١) فتح الطيب (٢٢٤/١).

(٢) مجانة : بلد بافريقية ، بينها وبين القيروان خمس مراحل . انظر التفاصيل في معجم البلدان

(٣٨٦/٧).

(٣) معجم البلدان (٣٨٦/٧).

(٤) تاريخ المغرب العربي (٢١٤).

(٥) ابن الأثير (٢٠٦/٤).

(٦) فتح مصر والمغرب (٢٧٦) ومعجم البلدان (٣٨٦/٧) وانظر ترجمة بسر بن أبي أرطاة .

في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٧) البداية والنهاية (١٧١/٩).

(٨) البداية والنهاية (١٧٢/٩).

(٩) البيان المغرب (٣٦/١).

(١٠) ابن الأثير (٢٠٦/٤).

٣ - جهاده في البحر :

أ - مهتد موسى لجهاده في البحر بالاهتمام بعمران مدينة (تونس) وتوسيع دار الصناعة بها ، وشق القناة التي توصل بين الميناء (رادس) ^(١) وبين المدينة على طول اثني عشر ميلاً حتى أقحمه دار الصناعة ، فصارت مشقاً للمراكب إذا هبت الأنواء والأرياح ، ثم أمر بصناعة مائة مركب ^(٢) .

ب - وأمر موسى بالتأهب لركوب البحر ، وأعلمهم أنه راكب بنفسه ، فرغب الناس وتسارعوا ، فلم يبق شريف ممن كان معه إلا وقد ركب الفلك ، فعقد موسى لواء هذه الغزوة لابنه عبد الله بن موسى بن نصير وولاه عليهم وأمره ، ثم أمره أن يتوجه إلى هدفه . وإنما أراد موسى بما أشار من مسيره ، أن يركب أهل الجلد والنكاية والشرف ، فسميت هذه الغزوة : غزوة الأشراف . وسار عبد الله بن موسى في مراكبه ، وكانت تلك الغزوة أول غزوة غزيت في بحر إفريقية (البحر الأبيض المتوسط) . فأصاب في غزوته تلك (صقلية) ، وافتتح مدينة فيها ، فبلغ سهم الرجل مائة دينار ذهباً ، وكان المسلمون ما بين الألف إلى التسعمائة ، ثم انصرف قافلاً سالماً ، وكان ذلك في سنة خمس وثمانين الهجرية ^(٣) .

ج - وبعث موسى عيَّاش بن أخيل على مراكب أهل إفريقية ، فشتاً في البحر ، وأصاب مدينة يقال لها : (سرقوسة) ^(٤) ، ثم قفل في سنة ست وثمانين الهجرية ^(٥) .

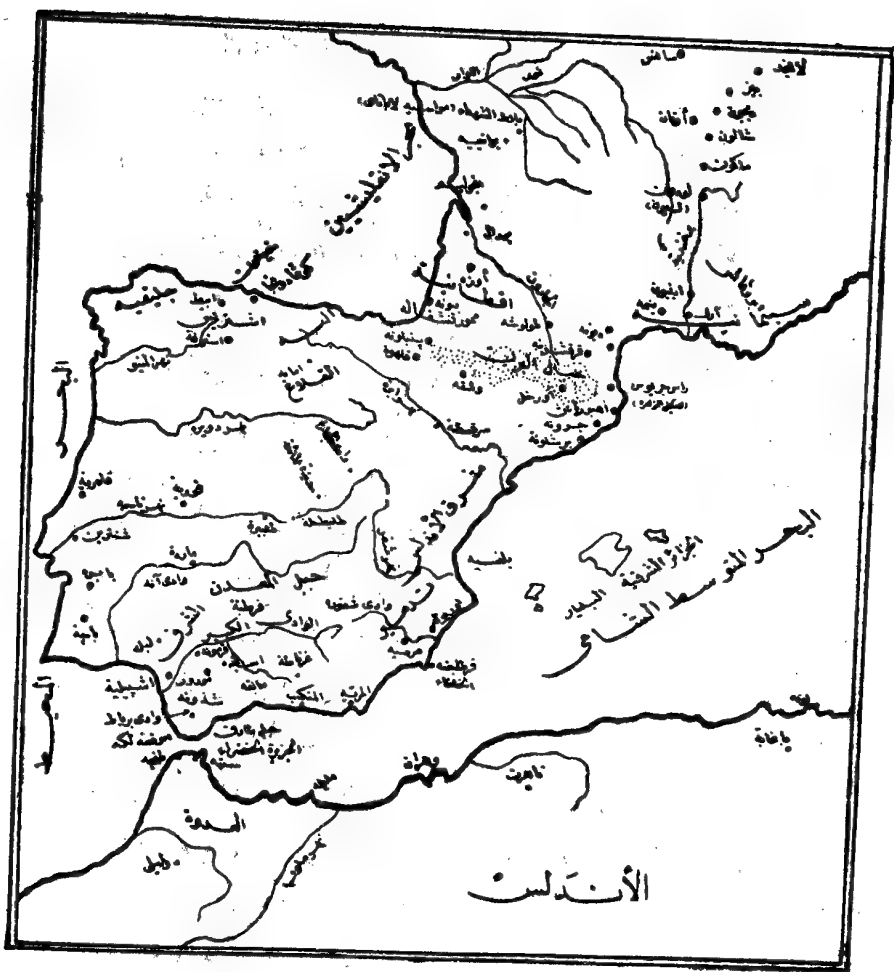
(١) رادس : البحر الذي على ساحل تونس بإفريقية يقال له : رادس ، وبذلك سمي مينائها : مينارادس . ورادس اسم موضع كالقرية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٠٣/٤ - ٢٠٤) .

(٢) الإمامة والسياسة (٧٠/٢) .

(٣) الإمامة والسياسة (٧٠/٢ - ٧١) .

(٤) سرقوسة : أكبر مدينة بجزيرة صقلية ، وكان بها سرير ملك الروم قديماً . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧٤/٥) .

(٥) الإمامة والسياسة (٧١/٢) .



د- وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد بعث عطاء بن أبي نافع الهذلي في مراكب أهل مصر الى (سردانية) ^(١) فارسي (سوسة) ^(٢) ، فأخرج إليه موسى ما يحتاجه من الأمور الإدارية (أرزاق وسلاح وتجهيزات)

- (١) سردانية : جزيرة في البحر الأبيض المتوسط كبيرة ليس هناك بعد الأندلس وصقلية أكبر منها . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٦/٥) .
 (٢) سوسة : مدينة بالمغرب بينها وبين سقاس يومان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٣/٥)

وكتب اليه « إن ركوب البحر قد فات في هذا الوقت وفي هذا العام ، فأقم لا تغرّر بنفسك ، فإنك في تشرين الآخر ، فأقم بمكانك حتى يطيب ركوب البحر » ، فلم يكثر عطاء بنصيحة موسى ، وشحن مراكبه ثم رفع متوجهاً إلى هدفه^(١) . وفي سردانية غنم المسلمون غنائم ضخمة^(٢) ، ثم انصرف قافلاً فأصابته ريح عاصف ، ففرق عطاء وأصحابه^(٣) .

وفي سنة تسع وثمانين الهجرية عقد موسى لعبد الله بن مرة على بحر إفريقيا ، فأصاب (سردانية) وافتتح بلداتها ، فبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأس سوى الذهب والنفضة والمواد الأخرى^(٤) .

٥- وفي سنة تسع وثمانين الهجرية جهّز موسى ولده عبد الله ، فافتتح جزيرتي : (ميورقة)^(٥) و (منورقة)^(٦) وهما جزيرتان في البحر بين (صقلية) وجزيرة الأندلس^(٧) .

(١) الامامة والسياسة (٧٠/٢) .

(٢) انظر التفاصيل في فتوح مصر والمغرب (٢٨٢ - ٢٨٣) .

(٣) الامامة والسياسة (٧٠/٢) .

(٤) الامامة والسياسة (٧١/٢) .. وفي معجم البلدان (٦٦/٥) : إن صكر موسى بن نصير فتح سردانية سنة اثنتين وتسعين الهجرية . وكذلك في ابن الأثير (٢١٦/٤) والنجوم الزاهرة (٢٢٥/١) . والأقرب إلى المنطق أن يكون غزو سردانية قد تم من القواعد البحرية المغربية وليس من الأندلس ، ففتح الأندلس كان في بدايته ، ولم يكن العرب المسلمون في سنة ٩٢ هـ قد وصلوا إلى سواحل الشرقية ، فمن المرجح إذاً أن تلك الغارات البحرية قد وقعت قبل فتح الأندلس مباشرة ، ويمكننا القول : إنها التي شجعت على القيام بالمغامرة الكبرى فيما وراء بحر الزقاق . انظر تاريخ المغرب العربي (٢١٩) .

(٥) ميورقة : جزيرة في شرقي الأندلس ، بالقرب منها جزيرة يقال لها : منورقة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٩/٨) .

(٦) منورقة : جزيرة عامرة في شرقي الأندلس قرب ميورقة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٨٥/٨) .

(٧) النجوم الزاهرة (٢١٦/١) وانظر العبر (١٠٤/١) وشذرات الذهب (٩٨/١) والبدایة والنهاية (٧٧/٩) .

٤ - جهاده في الأندلس :

أ - مقدمات الفتح :

أولاً - كان فتح الأندلس نتيجة طبيعية لتمام فتح المغرب ، لأن الأندلس هو الجناح الغربي للمغرب^(١) ، ولأن الأندلس كان المجال الحيوي للفتح الإسلامي بعد إنجاز فتح المغرب الإفريقي واستقرار الفتح فيه بانتشار الإسلام ، وبوجود القوة الضاربة في جانب العرب المسلمين .

ولم تستعص على موسى غير مدينة (سبّنة)^(٢) لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من إسبانيا القوطية عن طريق البحر ، وكان يحكمها من قبل (القوط) في إسبانيا^(٣) حاكم اسمه (خوليان Julian) ويسميه العرب (يليان)^(٤) أو (إليان)^(٥) أو (بوليان)^(٦) . وقد اختلفت المصادر في شخصية (بوليان) هذا ، فبعضها يذكر أنه قوطي ، وبعضها يزعم أنه رومي ، وبعضها ينسبه إلى بربر غمارة^(٧) . والواقع أن يوليان كان حاكماً عاماً على إقليم (مورطانية الطنجية) ، وكانت تابعة لمورطانية القيصرية - إحدى الولايات السبعة الخاضعة للدولة البيزنطية ، فلما عجزت الدولة البيزنطية

(١) أنظر المسالك والممالك للإسكندر (٢٣) .

(٢) سبّنة : بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، ومرسأها أجود مرسى على البحر ، وهي على بر البربر ، تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البر والجزيرة ، وهي مدينة حصينة ضاربة في البحر ، بينها وبين (فاس) عشرة أيام . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٦/٥) وتقوم البلدان (١٣٢ - ١٣٣) .

(٣) يذكر صاحب أخبار مجموعة أن موسى بن نصير سار إلى مدين تقع على شاطئ البحر ، فيها عيال صاحب الأندلس على رأسها سبّنة . (انظر أخبار مجموعة في فتح الأندلس نقره : E. Lafuente Alcantara ، مدريد ١٨٦٧ ص ٤) .

(٤) البيان المغرب (٦/٢) .

(٥) صفة المغرب للبكري (١٠٤) .

(٦) ابن الأثير (٢١٣/٤) .

(٧) انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٤٧) وفجر الأندلس (٥٢ - ٥٣) .

عن حمايتها ، ولّت (سبتة) وجهها شطر إسبانيا القوطية^(١) . وقد بدأ يوليان ولايته لهذا الإقليم في سن مبكرة ، وأنه أقام مدة طويلة في أرض المغرب حتى توثقت علاقته بمن جاوره من قبائل البربر ، واستطاع أن يكتسب صداقة البربر له ، حتى أصبح يعدّ نفسه واحداً منهم ، لذلك اختلط الأمر على الناس ، فظنّوه بربرياً ، ومن هنا كان مرجع الرواية التي تنسبه إلى بربر غمارة . أما علاقته بالدولة القوطية في إسبانيا ، فمرجعه أنه كان يتوجّه بطلب المعونة إلى هذه الدولة ، لبعد مدينته عن بيزنطة واضطراب أمور بيزنطة في تلك الآونة^(٢) .

ثانياً - وكان (يوليان) حليفاً لملك إسبانيا (غيطشة Witiza) الذي تولى عرش البلاد في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة (٧٠٠ م) بعد وفاة أبيه (إخيكّا Egica) . وقد خلّع غيطشة من العرش على أثر ثورة قام بها نفر من أنصار (لذريق^(٣) Rodrigo) . وأثار اغتصاب لذريق للعرش نقمة أنصار غيطشة وأبنائه ، فهبوا ضد هذا المقتصب الذي انتزع الملك لنفسه من البيت المالك الشرعي ، وبدأت حركة استقلالية في أطراف البلاد ظلّت مستمرة حتى دخول المسلمين أرض الأندلس .

وفراً ابن غيطشة المدعو (وقلة Achilla) الذي تولى العرش بعد أبيه إلى إفريقية ، وأقام عند (يوليان) حاكم (سبتة) الذي كان لا يزال على ولائه للملك (غيطشة) وأولاده ، بينما استبقى (لذريق) ولدي (غيطشة)

(١) ذكر الحميري أن يوليان هذا كان حامل لذريق على سبتة . (انظر ابن عبد المنعم الحميري - صفة جزيرة الأندلس - نشره ليفي بروقتال - القاهرة - ١٩٣٧) .

(٢) انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٤٧ - ٤٨) وفجر الأندلس (٥٣ - ٥٤) .

(٣) ورد اسمه في الطبري (٢٤٥/٥) : ادوينوق ، وفي فتوح مصر والمغرب (٢٧٩) ، لذريق ،

وفي ابن الأثير (٢١٣/٤) : رذريق ، وفي ابن خلعون (١١٧/٤) : لزريق ، وفي اليعقوبي (٢٩/٣) أدريق ... الخ ...

الآخرين وهما (أرطباس Artavasdes) و (المند Olmundo) إلى جواره حتى يستولق من إخلاصهما له ، ويقضي بذلك على الثورات المناهضة لحكومته والمالية لبيت غبطشة . وساءت حال البلاد في عهد للزريق ، إذ أرهاق شعبه بالضرائب القادحة لحاجته إلى المال اللازم لمواجهة أعدائه ، ويبدو أنه اعتدى على ذخائر الكنائس القوطية ونفائسها التي كانت محفوظة في غرفتين مغلقتين في كنيسة (سان بلرو) و (سان بابلو) في (طَلَيْطَلَة)^(١) فنصحها القساوسة ورجال البلاط بعدم الإقدام على ذلك ، فلم يصغ لنصيحهم ، ومن هنا جاءت الأسطورة التي رواها مؤرخو العرب ، وهي أسطورة بيت الحكمة^(٢) .

ب - غزوة طريف :

وكان موسى يتوق الى افتتاح الأندلس ، وكان عامله على (طنجة) وهو طارق بن زياد يتطلع الى الأندلس أيضاً . وبينما كان موسى يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية ، إذ جاءت رسالة من يوليان يعرض فيها تسليم معقله (سبتة) ويدعوه إلى فتح إسبانيا . وجرت بينهما المفاوضة في هذا

(١) طليطلة : مدينة كبيرة في الأندلس على شاطئ نهر تاجه . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٦/٦) وتقوم البلدان (١٧٦ - ١٧٧) .

(٢) خلاصة هذه الأسطورة ، أنه كان في طليطلة ، دار ملك القوط ، بيت مغلق يحرسه قوم من نقات القوط ، وكانت العادة ، أنه إذا تول من القوط ملك ، زاد على البيت قفلا ، فلما تول للزريق عزم على فتح الباب والاطلاع على ما بداخل هذا البيت ، فأعظم ذلك أكارهم ، وتضرعوا إليه أن يكف عن ذلك ، فأبى وظن أنه بيت مال ، ففرض الأقفال عنه ودخله ، فأصابه فارغاً لا شيء فيه إلا المائدة التي كانت تعرف بمائدة سليمان ، وتابوت عليه قفل ، فأمر بفتح التابوت ، فألفاء فارغاً ليس فيه غير شقة مدرجة ، قد صورت فيها صور العرب على الخيول وعليهم العمام ، متقلدي السيوف ، متكبي القس ، رافعي الرايات على الرماح ، وفي أعلاها كتابة بالعجمية ، فقرئت فإذا هي : إذا كسرت هذه الأقفال من هذا البيت وفتح التابوت ، فظهر ما فيه من هذه الصورة ، فإن الأمة المصورة فيه تغلب على الأندلس وتملكها . انظر تفاصيل هذه القصة في تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية (٣٢ - ٣٣) والبيان المغرب (٤/٢) ونفع الطيب (٢٣١/١ - ٢٣٢) و (٢٣٥/١) .

المشروع الخطير ، وهنا تختلف الرواية في أمر هذا الإتصال ، فيقال : إن موسى ويوليان اتصلا بالمراسلة ، وقيل : لأنها اتصلا بالمقابلة الشخصية وأن يوليان استدعى موسى الى (سبتة) وهناك جرت المفاوضات بينهما ، وقيل : لأنها اجتمعا في سفينة في البحر^(١) . وعلى أي حال فقد استجاب موسى لدعوة يوليان^(٢) ، واهتم بمشروعه اهتماماً كبيراً ، فكتب إلى الوليد ابن عبد الملك يخبره بأمر هذا المشروع^(٣) ، فكتب إليه الوليد : بأن يختبرها بالسرائيا ولا يغرر بالمسلمين ، فبعث موسى عند ذلك رجلاً من البربر يسمى : طريفاً ، ويكنى بأبي زرعة ، في مائة فارس وأربعمائة راجل ، فجاز في أربعة مراكب حتى نزل ساحل البحر بالأندلس فيما يحاذي (طنجة) ، وهو المعروف اليوم بـ (جزيرة طريف)^(٤) ، سميت باسمه لنزوله هناك^(٥) ،

(١) ابن الأثير (٢١٣/٤) والبيان المغرب (٦/٢) .

(٢) تجعل بعض المصادر العربية أن أسباب اتصال يوليان بموسى ودعوته لغزو الأندلس وكشفه له عورتها ، وتهوين أمرها لموسى ، أن يوليان كان قد أرسل إبنه إلى قصر اللريق لتأديب وتنشأة أسوة بغيرها من بنات سروات القوط في ذلك الزمان . وأن للريق بصر بالفتاة وطمع فيها ونال منها ، فكتب إلى أبيها يخبرها ، فأحفظه ذلك على اللريق ، ودفعه إلى التفكير في الانتقام منه ، فاتصل بطارق وأخذ يزين له فتح الأندلس ويحرضه عليه ، حتى وافق لما أراد ، ثم جعل نفسه وأتباعه أدلاء للغرب في الأندلس يدلونهم على طرقها وبلادها ومواضع الضعف فيها . انظر ابن خلدون (١١٧/٤) والمعجب في تاريخ المغرب (٧) ونفع الطيب (٢٣٥/١ - ٢٣٦) وفتوح مصر والمغرب (٢٧٧) ... الخ . أما المراجع اللاتينية فلم تعرف هذه القصة إلا منذ سنة (١١١٠) م ، إذ ورد ذكرها لأول مرة في مرجع إسباني لاتيني هو : تاريخ راهب سيلوس ، ذكرها جملة على صورة قرية الشبه بما تذكره الروايات العربية . انظر التفاصيل في كتاب فجر الأندلس (٥٩ - ٦٠) .

(٣) في البيان المغرب (٦/٢) : أن موسى استشار الوليد بن عبد الملك ، إما مراسلة وإما نهض بنفسه إليه ، حل خلاف في ذلك ... انتهى . ولعل ظروف موسى حينذاك لم تكن لتتيح له السفر إلى دمشق للمناخلة الوليد بن عبد الملك بذلك ، إذ كانت أعباءه الجسام تحول دون سفره .

(٤) جزيرة طريف : تقع على مقربة من مدينة طريف الحالية ، التي سميت باسمه لنزوله فيها ، وتعرف هذه الجزيرة باسم : لاس بالوماس (Isla de Las Palomas) . انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٧٠) .

(٥) يسمي الحميدي طريفاً : طريف بن ملوك الماعري ، ويسميه الرازي : طريف بن مالك -

فأغار منها على ما يليها الى جهة (الجزيرة الخضراء^(١١)) ، وأصاب سيياً ومالاً كثيراً ، ورجع سالماً ، وكانت إجازته في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين الهجرية^(١٢) (٧١٠ م) .

ج - فتح طارق :

أولاً : وفي رجب سنة اثنتين وتسعين الهجرية (نيسان - إبريل ٧١١ م) ، جهّز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق ابن زياد التليي^(١٣) ، فعبر البحر من (سبتة) بجميشه تبعاً في سفن (يوليان) ، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التي لا تزال تحمل اسمه حتى اليوم أعني : (جبل طارق)^(١٤) .

المعاقري ، ويسميه ابن خلدون : طريف بن مالك التخي . ويسميه المقرئ في فتح الطيب (٢١٤/١) : طريف البربري . وانظر ما جاء من طريف في فتح الطيب (٢١٤/١ و ٢١٧ و ٢٢٧ و ٢٢٨) .

(١) الجزيرة الخضراء : مدينة أمام سبتة من بر الأندلس الجنوبي ، وهي مدينة طيبة تزهة توسطت مدن الساحل وأشرفت بسورها على البحر ، ومرساها أحسن المراسي للجواز ، وأرضها أرض زرع وضرع ، وبخارجها المياه الحارة والبساتين النضيرة . انظر التفاصيل في تقويم البلدان (١٧٣ - ١٧٤) .

(٢) البيان المغرب (٦/٢) وفتح الطيب (٢١٤/١) وانظر الطبري (٢٣٥/٥) ، ونص ما جاء في الطبري : فزما موسى بن نصير الأندلس ، ففتح حل يديه أيضاً مدائن وحصون .. انتهى . وقد نسب فعل طريف إلى موسى بن نصير نسبة فعل المأمور إلى الأمر ، فصدق عليه إضافته لموسى ، فيكون قول الطبري صادقاً . انظر البيان المغرب (٦/٢) .

(٣) هكذا ورد اسمه في ابن خلدون (١١٧/٤) وفتح الطيب (٢١٧/١) .

(٤) فتح الطيب (٢١٦/٢) والبيان المغرب (٨/٢) . وهناك خلاف حل الشهر الذي عبر فيه طارق ، فمن المراجع من يذكر أن عبور المسلمين كان في ربيع الثاني سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) . فلو أخذنا بنظر اعتبار من أن طارقاً نفسه وصل إلى الأندلس في آخر فوج من أفواج العبور في الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ ، لكان في إمكاننا أن نستنتج أن المسلمين بدأوا العبور في آخر ربيع الثاني . انظر البيان المغرب (٧/٢) .

كما أن بعض المصادر تذكر أن طارقاً كان معه (١٢) ألف جندي عند عبوره لفتح الأندلس . انظر البداية والنهاية (٨٣/٩) وفتح الطيب (٢٤١/١) .

وتوالت انتصارات طارق ، ففتح مدينة (قرطاجنة الجزيرة^(١) Carteya) ثم زحف غرباً واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة وأقام قاعدة حربية في موضع يقابل (الجزيرة الخضراء) ، وعليه أقيمت هذه المدينة فيما بعد . وبعد معارك محلية أكمل المسلمون فتح (الجزيرة الخضراء) وسيطروا على المجاز إلى الأندلس ، فزحف للبريق لصدّ المسلمين ، فكتب طارق إلى موسى بأن للبريق زحف إليه بما لا قبل له به ، فأرسل إليه موسى مدداً من خمسة آلاف من المسلمين^(٢) ، وعلى رأسهم طريف بن مالك ، وأغلبهم من الفرسان ، وبهم كملت عدّة من مع طارق اثني عشر ألفاً^(٣) .

والتقى الجيشان في يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة اثنتين وتسعين الهجرية (١٩ تموز - يوليو سنة ٧١١ م) على وادي (برباط^(٤)) أو وادي (لكة^(٥)) قرب مدينة (شدونة^(٦)) ، واستمرت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام ، وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة^(٧) ، وكانت هذه المعركة هي المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب الأندلس للمسلمين .

ثانياً : أحدث انتصار طارق في وادي (لكة) دويّاً هائلاً في المشرق

(١) قرطاجنة الجزيرة : مدينة بالأندلس تعرف بـ (قرطاجنة الخلفاء) قرية من آلش من أعمال (تدمير) ، وكانت صلت على مثال قرطاجنة التي بإفريقية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٣/٧) المشترك وضماً والمفترق سقماً (٣٤٢) . وانظر ما جاء عن هذا الفتح في البيان المغرب (٣/٢) وفتح والطيب (٢١٨/١) .

(٢) نفع الطيب (٢١٦/١) .

(٣) أخبار مجموعة (٧) ونفع الطيب (٢٤١/١) .

(٤) وادي برباط : واد بالأندلس من أعمال شلونة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٠٣/٢) .

(٥) وادي لكة : ورد اسمه في البيان المغرب (١٠/٢) : وادي الطين . وفي فتوح مصر والمغرب (٢٧٩) ، ورد اسمه : وادي أم حكيم .

(٦) شلونة : مدينة بالأندلس تتصل نواحيها بنواحي موزور . انظر التفاصيل في معجم البلدان

(٢٤٤/٥) . وفي ابن خلدون (١١٧/٤) ، أن الجيشين التقوا بفحص شريش . والصحيح أنها وقعت في فحص شلونة ، لأن شريش بعيدة عن ميدان المعركة .

(٧) ابن خلدون (١١٧/٤) والبيان المغرب (١٠/٢) .

والمغرب ، وتسامع الناس من أهل برّ العدوة بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغام فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قلروا عليه من مركب وقشّر^(١) ، فلهقوا بطارق^(٢) .

وبدأ طارق ينجي ثمار جهاده وانتصاره في وادي لكّة ، ففتح (شدونة) عنوة ، ثم مضى الى (المُدُور^(٣) Almodovar) ثم عطف على (قرمونة^(٤) Carmona) ، ثم اتجه إلى (إشبيلية^(٥) Sevilla) فصالحه أهلها على الجزية ، ومنها زحف إلى (إستجة^(٦) Ecija) وكانت تؤلف المركز الأول للمقاومة ، إذ كانت فلول القوط قد تجمعت هناك^(٧) ، فظفر طارق بصاحب المدينة وأرغمه على الصلح وفرض عليهم الجزية^(٨) .

وفرق طارق جيوشه من (إستجة) ، فبعث مغيثاً الرومي مولى الوليد ابن عبد الملك الى (قرطبة^(٩)) في سبعمائة فارس ، وبعث جيشاً آخر

(١) القشّر في الأصل : السنكة قدر شبر ، ويراد بها هنا الزورق الصغير .

(٢) نفع الطيب (٢٤٣/١) .

(٣) المدور : حصن حصين مشهور بالأندلس ، بالقرب من قرطبة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤١٧/٧) .

(٤) قرمونة : ورد إسمها في معجم البلدان (٢/٧) ، قرمونية ، وهي كورة بالأندلس يحصل حولها بأعمال إشبيلية غربي قرطبة وشرقي إشبيلية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٢/٧) .

(٥) إشبيلية : مدينة كبيرة عظيمة ليس بالأندلس أعظم منها ، وبها قاعدة ملك الأندلس ، وهي قريبة من البحر يطل عليها جبل (الشرف) ، وهو جبل كثير الشجر والزعفون ، وهي حل شاطئ نهر عظيم تسير فيه المراكب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥٤/١) وتلخيص البلدان (١٧٤ - ١٧٥) .

(٦) استجة : اسم كورة بالأندلس متصلة بأعمال (رية) بينها وبين قرطبة حفرة فراعس ، وأعمالها متصلة بأعمال قرطبة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٤/١) .

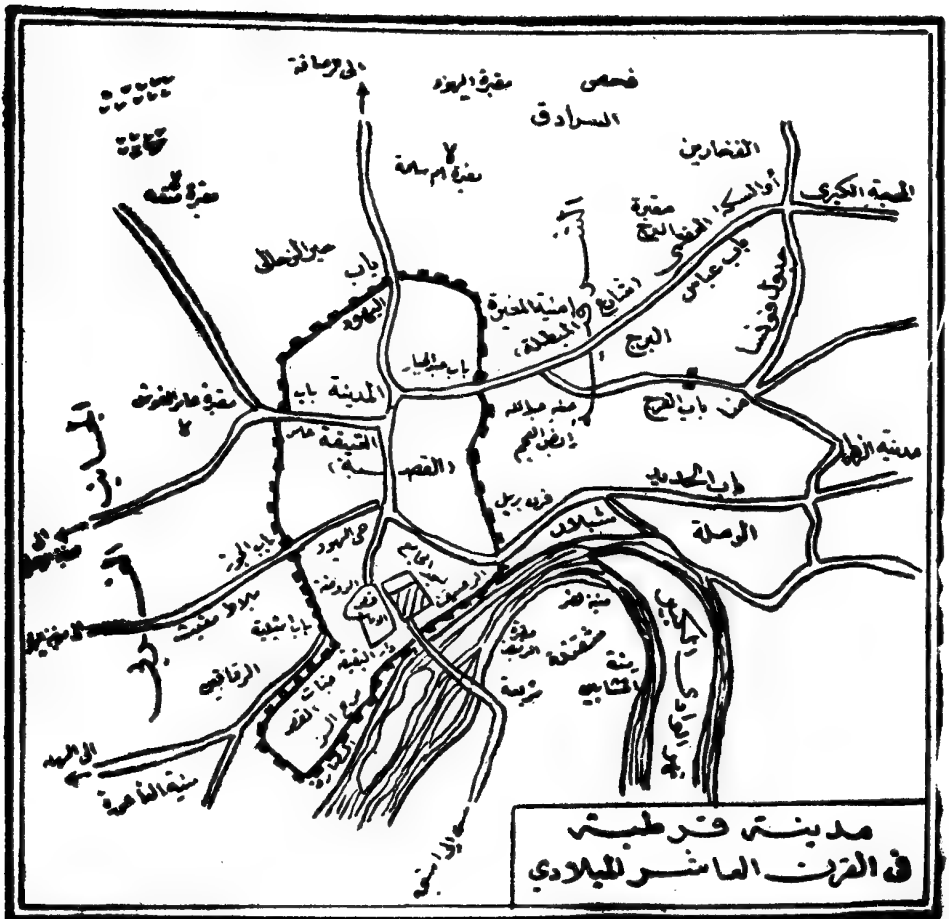
(٧) أخبار مجموعة (٩) ولنج الطيب (٢٤٤) .

(٨) لنج الطيب (٢٤٤/١) .

(٩) قرطبة : مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها ، وكانت عاصمة للملكها ولصبيها . انظر التفاصيل في المسالك والممالك (٣٥) ومعجم البلدان (٥٢/٧) وتلخيص البلدان (١٧٤ - ١٧٥) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٥٢) .

وخط سیر طایق
مواقع معرکه وادی لکنه





إلى (مَالَقَة ^(١) Malaga) ، كما بعث جيشاً ثالثاً الى (البَيْرَة ^(٢) Elvira) ، أما هو فصار إلى كورة (جَيْسَان ^(٣)) بمعظم جنوده ^(٤) في طريقه الى

(١) مالقة : مدينة بالآندلس عامرة من أعمال (رية) سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية. انظر التفصيل في المسالك والممالك (٣٥) ومعجم البلدان (٣٦٧/٧) وتقويم البلدان (١٧٤ - ١٧٥).

(٢) البيرة : بليدة قريبة من ساحل البحر بالأندلس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٣٠).

(٣) جيان : مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة البيرة . انظر التفاصيل في معجم

البلدان (١٨٥/٢). (٤) نفع الطيب (٢٤٤/١).

(طَلَيْطَلَة) ^(١). وعبر طارق الوادي الكبير ، فدخل (طليطلة) سنة ثلاث وتسعين الهجرية دون مقاومة تذكر ^(٢) .

لقد تغلغل طارق ^(٣) تغلغلاً عميقاً في أنحاء الأندلس ، بشكل لا يتناسب مع ما لديه من قوات ، فمأذا كان ردّ فعل موسى بن نصير القائد العام للمغرب كله ، والمسؤول الأول تجاه القائد الأعلى في الشام ؟

د - فتح موسى :

أولاً - بين موسى وطارق :

بلغت موسى أخبار فتوحات طارق ، فغضب موسى لعصيان طارق لأوامره ، فقد أمره موسى ألا يتعدّى (قرطبة) على قول ، أو موضع هزيمة للنريق - في وادي لكّة - على قول آخر ^(٤) ، فسارع موسى الى عبور المجاز ودخول الأندلس .

وقيل : إنما جاز موسى باستدعاء طارق إياه ^(٥) ، فقد كتب طارق الى موسى : « إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية ، فالغوث ... الغوث .. » ،

(١) طليطلة : مدينة كبيرة بالأندلس يتصل عملها بعمل وادي الحجارّة ، وهي على شاطئ نهر (تاجة) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٦/٦) .

(٢) البيان المغرب (١٧/٢) ونفع الطيب (٢٤٨/١) .

(٣) سترّد تفاصيل فتوحات طارق بن زياد في ترجمته في كتابنا : قادة فتح الأندلس والبحار ومن أراد التوسع في تفاصيل فتوحاته فليراجع ابن الاثير (٢١٢/٤ - ٢١٦) وابن خلدون (١١٧/٤ - ١١٨) ونفع الطيب (٢١٥/١ ، ٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩) ، والبيان المغرب (٢ - ٢٢) ، والبداءة والنهاية (٨٢/٩) وفتوح مصر والمغرب (٢٧٧ - ٢٨٥) وتهذيب ابن عساكر (٣٨/٧ - ٤٠) وبنية الملوك (١١ و ٣١٥) وانظر فجر الأندلس (٦٧ - ٨٤) ودولة الاسلام في الأندلس (٤٢ - ٥١) وتاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٦٦ - ٩٠) ... الخ .

(٤) البيان المغرب (١٨/٢ - ١٩) .

(٥) البيان المغرب (١٩/٢) .

فلما أتاه الكتاب ، نادى في الناس وعسكر ... فاستخلف عبد الله بن موسى على إفريقية وطنجة والسوس ، وكتب ساعاً قدم عليه كتاب طارق الى مروان بن موسى ابنة يأمره بالمسير ، فسار مروان بمن معه ، حتى أجاز الى طارق قبل دخول أبيه موسى . وخرج موسى بن نصير والناس معه ، حتى أتى المجاز ، فأجاز بمن زحف معه في جموعه (١).

هذان السببان مقبولان غاية القبول من الناحية العسكرية الفنية البحث ، فقد شعر موسى أن المسلمين قد استرسلوا في الفتح أكثر مما ينبغي ، وأن خطوط مواصلاتهم في شبه الجزيرة الواسعة في خطر داهم ، فقد بقيت مدائن الشرق والغرب جميعاً لم تفتح ، وكان لا بدّ من فتحها وإلاّ تعرض المسلمون لخطر عزل قواتهم عن بعضها والقضاء عليها وهي متفرقة ضعيفة ، وقطع خطوط مواصلاتها الواهنة لامتدادها بعيداً عن قواعدها ، ولأن أجنحتها مكشوفة لوجود بلاد معادية غير مفتوحة ، ولأن قوات المسلمين كانت قليلة جداً بالنسبة إلى طول خطوط مواصلاتها . وفعلاً حدث ما توقعه موسى ، فقد أصبحت بعض قوات المسلمين منزلة ، وأصبح موقف المسلمين خطيراً ، مما جعل طارق يستغيث بموسى ، فلا يرى موسى إلا أن يعبر إلى الأندلس بنفسه لمعالجة الأمور هناك ، ويحشد لحمته هذه كل قواته المتيسرة . لقد كان نزول موسى الى الأندلس لسبب حربي ، وهو تدعيم الفتح وترصينه ، وحتى يحول دون وقوع كارثة أكيدة على المسلمين من جراء تغفل طارق في الأندلس تغفلاً لا يتناسب مع ما لديه من رجال .

أما ما تواتر في كتب التاريخ العربي من أن موسى ما كاد يسمع بأخبار الفتح حتى أكل الحسد قلبه ، وقرّر أن ينال هو الآخر نصيبه من شرف الفتح (٢) ، وأنه أساء معاملة طارق وضربه بالسوط ، فمغالى فيه ، إذ لا

(١) الامامة والسياسة (٧٤/٢ - ٧٥). وفي البلاذري (٢٣٢) : إن موسى كتب إلى طارق كتاباً غليظاً لتفريده بالمسلمين وانتائنه عليه بالرأي في غزوه ، وأمر ألا يجاوز (قرطبة) .

(٢) ابن الأثير (٢١٥/٤) والبداية والنهاية (٨٣/٩) والبيان المغرب (١٩/٢) وابن خلدون (١١٧/٤) ونفع الطيب (٢٥١/١) .

يعقل أن يصدر مثل ذلك عن تابعي جليل وفاتح عظيم كموسى . ثم إن طارقاً كان مولى لموسى ، يعمل بأوامره وينفذها نصاً وروحاً ، وكان يكتب إليه أخبار الفتح أولاً بأول ، فلو أن موسى حسد طارقاً أو أساء الظن به لاستطاع لزامته من طريقه ، وذلك بعزله أو استدعائه الى (القيروان) ، فليس من المعقول أن يستطيع طارق مخالفة أوامر مولاه موسى في شيء .

إن كل الدلائل تشير الى أن طارقاً كان مثلاً للطاعة والنظام ، فقد بعث بأولاد غيطشة الى مولاه موسى عندما وصلوا اليه في (طليطلة) وقالوا له : أنت أمير نفسك أم على رأسك أمير ؟ فقال طارق : « بل على رأسي أمير ، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم »^(١) ، وهذا يدل على منتهى الضبط وتقدير المسؤولية والالتزام بسلسلة المراجع .

ولعلّ أوضح دليل على أن موسى قدم الأندلس لمعاونة طارق لا لتأديبه ، وأن موسى قدم الأندلس لأغراض عسكرية بحت ، هو أن موسى لم يذهب للقاء طارق بعد نزوله أرض الأندلس ، وإنما انصرف الى فتح كبار البلاد الجنوبية والغربية التي خلفها طارق دون فتح ، وذلك لحماية جناح طارق الأيسر من جهة ولتدعيم قواعد الفتح المتقدمة في الأندلس ولتثبيت قوات العدو بإشغالها في جيئات عديدة بقوات المسلمين الضاربة ، فلما تمّ له ذلك سار موسى الى طارق ولقاه في (طليطلة)^(٢) على مقربة من (طليطلة)^(٣) ، وحين التقيا قال موسى لطارق : « يا طارق ! إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلاتك بأكثر من أن يمنحك الأندلس ، فاستبجحه هنيئاً مريئاً » ، فقال طارق : « أيها الأمير ! والله لا أرجع عن قصدي هذا ، ما لم أنه الى البحر المحيط أخوض فيه بغرسي » ، ولم يزل طارق يفتح وموسى معه

(١) فتح الطيب (٢٤٩/١) .

(٢) طليطلة : مدينة بالأندلس من أمال طليطلة كبيرة قديمة البناء على نهر (تاجه) بضم الجيم . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٣/٧) .

(٣) انظر فجر الأندلس (٨٥) .

إلى أن بلغ الى (جِلْيَقِيَّة) (١٩) وهي على ساحل البحر المحيط (٢٠).

(١) جِلْيَقِيَّة : ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الأندلس في أقصاه من جهة الغرب . أظفر التفاصيل في معجم البلدان (١٣١/٣) .

(٢) نفتح الطيب (٢٢٧/١) ، فأين ذلك مما جاء في كتاب فتح مصر والمغرب (٢٨٣) : وأخذ موسى بن نصير طارق بن عمرو ، فشده وثاقاً وحسبه وهم بقتله ، وكان مغيث الرومي غلاماً للوليد بن عبد الملك ، فبعث إليه طارق : « إنك إن رفعت أمري الى الوليد ، فإن فتح الأندلس كان على يدي ، وأن موسى حبسني يريد قتلي ، أعطيتك مائة عبه ، وعاهده على ذلك ... فلما أراد مغيث الإنصراف ، ودع موسى بن نصير ، وقال له : « لا تعجل على طارق ولك أعداء ، وقد بلغ أمير المؤمنين أمره ، وأخاف عليك وجده » ، فانصرف مغيث وموسى بالأندلس ! فلما قدم مغيث على الوليد ، أخبره بالذي كان من فتح الأندلس على يدي طارق ، وبحبس موسى إياه والتي أراد به من القتل ، فكتب الوليد إلى موسى يقسم له بالله ، لأن ضربته لأخربتك ، ولئن قتلت لأقتلن ولدك به ، ووجه الكتاب مع مغيث الرومي ... فقدم به على موسى الأندلس ، فلما قرأه أطلق طارقاً وغل سبيله ، ووفى طارق مغيث بالمائة عبه التي كان جعل له ... انتهى !!!

وفي كتاب فجر الأندلس (٨٦) : ولا نرى إلا تفسيراً واحداً لانفراد ابن عبد الحكم من بين المراجع الموثوق فيها بهذه الرواية : هو أنها كانت معروفة في المشرق مجهولة عند أهل الأندلس . وأما وجودها في المشرق ، فمرجه على أغلب الظن ، الى مغيث الرومي ، فقد كان محققاً على موسى مولعاً بالكيد له ، لأنه كان يرى أنه مولد الوليد ، وأنه أول بولاية الأندلس كما سنرى ، فانتهاز فرصة ذهابه الى المشرق لإبلاغ الوليد أخبار انتصارات المسلمين ، وأخذ يباليغ في مصادات موسى ويخفق عليه ، حتى لقد أنكر عليه كل فضل في الفتح كما يرى في رواية ابن عبد الحكم الآتفة الذكر . وانتشرت قائلته بين قصر الخليفة وبين أهل المشرق ، وسجلها المؤرخون المشرقيون الذين يمثلهم ابن عبد الحكم في هذه الناحية .

وأما الأندلسيون ، وهم آخرون بأن يعرفوا مثل هذا الخبر على صحته ، لأن أخبارهم أخذت عن ناس حضروا بأنفسهم هذه المواقف ، فلا يعرفون إلا أن موسى : « وضع السوط على رأس طارق وأنبه » ، كما يقول صاحب الأخبار المجموعة ، وقد كان مستظلياً أن يقول : « إن موسى ضرب طارقاً بالسوط » ، بدلا من قوله : « وضع السوط على رأسه فقط » ... انتهى .

أقول : إن ما ذكره ابن عبد الحكم في كتابه : فتح مصر والمغرب (٢٨٠) ، يناقض ما ذكره هو أيضاً في ص (٢٨٣) من نفس الكتاب . فقد ذكر في (٢٨٠) : فأجاز (موسى) من الخضراء ، ثم مضى إلى قرطبة ، فلتقاء طارق ، فترضاه ، وقال له : « إنما أنا مولاك ، وهذا الفتح لك » .. ثم ذكر في نفس الصفحة أيضاً : « ويقال إن موسى هو الذي وجه طارقاً بمدخله الأندلس إلى طليطلة ، وأن النصف فيما بين قرطبة وأربونة ، وأربونة أقصى ثغر الأندلس » ... انتهى . وهذا يدل على أن موسى لم يحبس طارقاً ولم يهجم بقتله ، وأن كل ما جاء عن ذلك لا نصيب له من الصحة .

لقد تحمل جيش طارق من الأعباء ما يزيد على طاقته لدرجة أجهدت
الجند ، فقد اقتحم هذا الجيش أرض الأندلس ، وصادم القوط الغربيين
في موقعة حاسمة ، وتوغّل في قلب البلاد ، واستولى على حاضرتها
قبل أن يستفيق القوط من الصدمة ، كل ذلك تمّ في أمد قصير . ثم إن المقاومة
القوطية بدأت تتكوّن في نواحي البلاد ، خاصة من جهة غرب الأندلس ،
حيث تصلح المناطق الجبلية المهجورة في إقليم (استرامادور) لأن تكون
أوكاراً لرجال المقاومة القوطية ، وهذا يفسّر لنا خط سير الحملة التي قادها
موسى بن نصير (١) .

والواقع أن موسى كان يعمل مع طارق من أول نزوله الأندلس بتعاون
وثيق ، وأنّ خروج طارق للقاء موسى عند (طليبة) لم يكن لمجرد اللقاء ،
بل لغرض آخر حربي سنعرّفه ، وقد أتمّ الرجلان الفتح على أحسن ما يكون
الرجال تعاوناً (٢) .

ثانياً - عبور موسى :

عبر موسى إلى الأندلس في رمضان سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٣)
(٧١٢ م) من (طنجة) (٤) على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألفاً من قريش
والعرب ووجوه الناس (٥) . وحينما وطئت قدم موسى الأندلس خفّ

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٩٢) .

(٢) فجر الأندلس (٨٧) .

(٣) ابن الأثير (٢١٥/٤) ، وفي فتح مصر والمغرب (٢٨٠) : إن موسى خرج إلى الأندلس في
رجب سنة ثلاث وتسعين... ويحدد الرازي تاريخ خروجه من إفريقية إلى الأندلس في رجب سنة ثلاث
وتسعين . انظر نفح الطيب (٢٥٩/١) وكذلك في النجوم الزاهرة (٢٢٦/١) ، وذكر عبد الملك بن
حبيب أن موسى دخل الأندلس في جمادى الأولى ، انظر نفح الطيب (٢٣١/١) .

(٤) نفح الطيب (٢٥٤/١) .

(٥) اخبار فتح الأندلس من الرسالة الشريفة في الأقطار الأندلسية من (١٩٢) و (١٩٨) وكان
من بين الذين دخلوا مع موسى الأندلس واحد من أصاغر الصحابة هو المنذر الإفريقي وأربعة من -

(يوليان) للقائه خضوف المنتظر المترقب ، وعقد معه مجلساً للتشاور في الأمر (١).

ونزل موسى في جبل الفتح (جبل طارق) ، ثم دخل الجزيرة الخضراء وأقام فيها أياماً للراحة والتأهب لخوض المعركة القادمة ؛ فلما عزم على السير ، جمع حوله رايات العرب ووجوه الكتائب وعددها يزيد على عشرين راية ؛ وتفاوض الجميع في الرأي ، وكيف تكون الخطة العسكرية للفتح ، فأجمعوا على السير الى (إشبيلية) وغزو ما بقي من غرب الأندلس حتى (أكشونية) (٢) ، وكان هذا الاجتماع قد تمّ عقده في المسجد الذي أقيم فيه (مسجد الرايات) (٣) إذ لم يبرح موسى موضعه ولا فارق مشهده حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذ مسجداً ، وكان يقابل بواب البحر من أبواب المدينة (٤).

وزحف موسى الى (شدونة Medina Sidonia) فافتتحها عنوة ، ثم صار الى (قرمونة) ، ولم يكن بالأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن تنال بحصار أو قتال ، فسأل موسى عن أمرها ، ف قيل له : لا تؤخذ إلا باللطف والحيل ، ، فقدم إليها علوجاً (٥) كانوا من أصحاب (يوليان)

التابعين هم : علي بن رباح الخفي وأبو عبد الرحمن عبد الله بن زياد الأنصاري الحلي ، وحش بن عبد الله بن عمر بن حنظلة الصنعاني ، وخيوه بن رجاء التميمي . وفي بقية الملتنس (٥١) : إن محمد بن لؤس بن ثابت الأنصاري وهو من التابعين غزا الأندلس مع موسى بن نصير .

(١) نزعة المشتاق للإدريسي (٢١٣) من ترجمة دوزي .
(٢) أكشونية : مدينة بالأندلس يتصل عملها بعمل أشبونة ، وهي غربي قرطبة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣١٧/١) .

(٣) أخبار فتح الأندلس من الرسالة الشريفة في الأخبار الأندلسية (١٩٨) .
(٤) صفة جزيرة الأندلس ، متخبة من كتاب : الروض المطار في خبر الأقطار ، نشره الأستاذ لبيي بروفسال ، القاهرة ١٩٣٧ .
(٥) الملحج : بوزن (الجل) ، الواحد من كبار السجم ، والجمع : (ملوحج) و (أعلاجج) (طنجة) ، بوزن (حنبة) .

وغيرهم ، فأتوهم في هيئة المنهزمين ومعهم السلاح ، فأدخلوهم المدينة ، فلما علم موسى بدخولهم بعث اليهم الخيل ليلاً ، ففتحوها لهم باب المدينة ، وهو الباب المعروف بباب (قرطبة) ، فوثبوا على الأحراس وقتلواهم ، ثم دخل المسلمون المدينة عنوة^(١١) . وسار موسى الى رعواق (Alcala de Guadaira) المعروفة بقلعة وادي (أيرة) أو قلعة (جايو) فافتتحها^(١٢) ، وبهذا أمنت خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء الى (قرطبة) ، إذ أصبحت سلسلة مدائن الجزيرة و (شلونة) و (رعواق) و (قرمونة) و (إسبجة) و (قرطبة) في يد المسلمين ، وأصبح بإمكان موسى أن يتجه نحو الغرب ليفتح (إشبيلية) كبيرة مدائن شبه الجزيرة بعد (طليطلة) إذ ذاك^(١٣) .

لقد كان ترصين قواعد الفتح المتقدمة وتأمين خطوط مواصلات الفتح وحماية الجناح الأيسر (الغربي) لمنطقة فتح طارق ، الأهداف الحيوية الأولى التي حققها موسى بعد إنزال قواته الأندلس .

الثالث - فتح إشبيلية :

وتقدمت قوات موسى نحو إشبيلية ، وكانت من أعظم قواعد الأندلس شأنًا وأمنًا بنيانًا وأكثرها آثارًا ، وكانت دار ملك روم روما قبل غلبة القوطيين على الأندلس ، فلما غلب القوطيون عليها استوطنوا (طليطلة) وأقروا بها ملكهم ، وبقي بمدينة إشبيلية علماء أهل روما وكتابهم وروساؤهم . وحاصرها موسى حصاراً شديداً ، ولكنها امتنعت عليه أشهراً ، وأخيراً استطاع فتحها وانسحبت حاميتها الى (باجة) ^(١٤) ، فترك

(١) البيان المغرب (١٩/٢ - ٢٠) وانظر ابن الأثير (٢١٥/٤) ونجح الطيب (٢٠٢/١) والأخبار المجموعة (١٦) .

(٢) انظر فجر الأندلس (٩٢) وتاريخ المسلمين واثارهم في الأندلس (٩٤) .

(٣) فجر الأندلس (٩٢) .

(٤) باجة : كورة بالأندلس تتصل بنواحي ماردة . انظر التفاصيل في المشترك وضماً والمفروق

سقماً (٢٣) ومعجم البلدان (٢٥/٢) .

موسى^(١) حاميةً ومضى قُلماً لتحقيق أهدافه الأخرى .

رابعاً - فتح ماردة^(٢) :

وسار موسى قاصداً (ماردة) متتبعاً طريقاً رومانية قديمة كانت تصل لإشبيلية بماردة ، فاستولى في طريقه على بلد يسمى لَقْنَت^(٣) سلّم له أهله دون مقاومة ، فسموا لذلك موالي موسى^(٤) ، وسمي الطريق الي سلكها موسى ؛ (فج موسى) وتمتدّ من (لقنت) الى (ماردة)^(٥) .

وكانت (ماردة) أيضاً دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر ، وهي ذات عز ومنعة ، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف ؛ فحاصرها أيضاً ، وكان أهلها في منعة شديدة وبأس عظيم ، فنالوا من المسلمين دفعات وآذوهم . وعمل موسى دبابة^(٦) دبّ المسلمون تحتها الى برج من أبراج سورها جعلوا ينقبونه ، فلما قلعوا الصخر أفضوا بعده الى شيء يشبه الاسمنت الصلب كان يسمى (الأشة ماسة Argamasa)^(٧) ، فتبّت عنه معاولهم^(٨) وعدّتهم . وثار العدو بالمسلمين على غفلة ، فاستشهد بأيدي العدو قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة ، فسمي ذلك الموضع : (برج الشهداء) . واستمر موسى محاصراً لماردة

(١) أخبار مجموعة (١٦) والبيان المغرب (٢٠/٢) ونفح الطيب (٢٥٢/١) .

(٢) ماردة : كورة واسعة من نواحي الأندلس ، بينها وبين قرطبة ستة أيام ولها حصون وقرى .

انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٠/٧) وتقويم البلدان (١٧٢ - ١٧٣) .

(٣) لقنت : حصنان من أعمال ماردة بالأندلس : لقنت الكبرى ولقنت الصغرى . انظر التفاصيل

في معجم البلدان (٣٣٦/٧) .

(٤) فتح الأندلس (١١) وانظر نفح الطيب (٢٥٢/١) . ولقنت هي (Fuente de Cantos) .

(٥) فتح الأندلس (٣٥) .

(٦) الدبابة : آلة تتخذ للحروب ، تندفع في أصل الحصن ، فينقبه رجال في جوفها .

(٧) انظر فجر الأندلس (٩٣) ، وقد ورد هذا اللفظ بنصه محرفاً في نفح الطيب (٢٥٢/١) فكتبه :

(ألاشه ماشه) وهي كلمة لاتينية معربة (Alaya-Maya) .

(٨) نبّه عنه : أراد أنها لم تعمل فيه ولم تفل منه ، والمعاول : جمع معول آلة لهدم .

حتى مستهل شوال سنة أربع وتسعين الهجرية ، فدخلها صلحاً يوم ١ شوال سنة أربع وتسعين الهجرية (٣٠ حزيران - يونيو ٧١٣ م) ، حيث صالحه أهلها على أن تكون أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاريين الى (جَلَيْقِيَّة) وأموال الكنائس وحليتها للمسلمين^(١).

خامساً - فتح إشبيلية ثانية :

حين كان موسى محاصراً (ماردة) ، ثار عجم لإشبيلية وارتدوا وقاموا على من فيها من المسلمين . وتجالب فلهم من مدينة (لَبْلَة)^(٢) و (باجة) وقتلوا من المسلمين نحو ثمانين رجلاً^(٣) ، وأتى قل المسلمين موسى من إشبيلية وهو بغاردة ، فلما أن فتح ماردة وجّه ابنه عبد العزيز بن موسى في جيش إلى إشبيلية ففتحها وقتل أهلها . ونهض الى (لبلة) ففتحها أيضاً ، فاستقامت

(١) البيان المغرب (٢٠/١ - ٢٢) ، ونفع الطيب (٢٥٣/١) وأخبار مجموعة (١٧) وما يليها . وقد وردت قصة تلوين شعره من أبيض الى أحمر الى أسود ارباباً للمفاوضين من أهل الأندلس . والقصة كما يلي : « ثم دعا القوم الى السلم ، فترسل اليه في تقريره قوم من أمثالهم ، وأعطاهم الأمان ، واحبال - أي موسى - في توحيهم في نفسه ، فدخلوا عليه أول يوم ، فإذا هو أبيض الرأس والحية ، كما فصل خضابه (الخضاب بكسر الخاء ، ما يصبغ به الشعر . ونصل : ذهب أثره فظهر الشيب) ، فلم يتفق معه أمر ، وعادوه وقبل الفطر يوم فإذا هو قد قنأ لحية بالحناء ، فجاءت كضرام عرفج (قنأ لحية : صبغها . والفصام : النار . والعرفج - بزة جف - شجر سريع الإلتهاب) فمجبوا من ذلك . وعادوه يوم الفطر ، فإذا هو قد سد لحية ، فازداد تمجبهم منه ، وكانوا لا يعرفون الخضاب ولا استعماله ، فقالوا لقومهم : إنا فقاتل أنبياء يتخلقون كيف شاموا ، ويتصورون في كل صورة أحبا : كان ملكهم شيخاً ، فقد صار شاباً ، والرأي أن تقاربه ونعطيه ما يسأله ، فما لنا به طاقة ، فأذعنوا عند ذلك وأكملوا صلحهم مع موسى ... » وهي قصة مستبعدة الحدوث وهي أقرب الى خيال القصص منها الى حقائق التاريخ .

(٢) لبلة : بفتح أوله ثم السكون ولام أخرى . قصة كورة بالأندلس كبيرة يتصل عملها بعمل أكشونية ، وهي شرق من أكشونية وغرب من قرطبة ، بينها وبين قرطبة على طريق إشبيلية خمسة أيام أربعة وأربعون فرسخاً ، وبين إشبيلية اثنا وأربعون ميلاً ، وهي بركة بحرية غزيرة الفضائل والتمر والزروع والشجر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢١٩/٧) .

(٣) البيان المغرب (٢٢/٢) ونفع الطيب (٢٥٣/١) .

الأمور فيما هنالك وحلا الإسلام^(١) ، ثم انصرف عبد العزيز بن موسى إلى (إشيلية)^(٢) .

والظاهر أن الذين غلبوا بالمسلمين في (إشيلية) لم يكونوا من أهلها أو أهل (بلبة) أو (باجة) ، فلو أن أهل هذه المدن هم الذين غلبوا بالمسلمين لذكرت المصادر التاريخية التي أوردت هذا الخبر ، أن أهل بلبة وباجة ثاروا أيضاً ، إذ لا يعقل أن يسبوا إلى إشيلية للاشتراك في ثورتها وهم أنفسهم مهددون بالخطر . ثم إن عبد العزيز بن موسى لم يعاقب أهل البلد بعد أن أخمد الثورة ، بل تركهم على حالهم وأقام معهم فيها حتى استقامت الأمور هناك ، ولو كان لهم ضلع في الحادث لرأينا لذلك أثراً في معاملتهم . لقد غلب بالمسلمين القوط من القلول التي فرت من حمايات البلاد عند اقتراب المسلمين إليها أو فتحهم لها ، حين استبان لهم قلة عدد المسلمين^(٣) .

ولم يغادر عبد العزيز بن موسى إشيلية إلا بعد أن ترك في إشيلية وباجة وبلبة حمايات إسلامية لتؤمنها من أي تدبير يقوم به القوط ، وكانت حامية باجة قوية بقيادة قائد عربي معروف هو عبد الجبار قائد ميسرة موسى وجد بني زهرة أحد بيوت إشيلية التي سيكون لها شأن^(٤) .

سادساً - مقتل للنريق :

أقام موسى شهراً في (أردة) بعد افتتاحها يرتب أمورها ويريح جنده بعدما بلدوه من جهود مضنية في فتح هذا البلد ، وينجز متطلبات جيشه الإدارية تمهيداً لمتابعة الفتح وتطهير الجزء الشمالي من غرب الأندلس من

(١) فتح الطب (٢٥٣/١) والنظر البيان المغرب (٢٧/٢) .

(٢) البيان المغرب (٢٧/٢) .

(٣) النظر لفر الأندلس (٩٣ - ٩٤) .

(٤) النظر لفر الأندلس (٩٦) .

بقايا القوط وعلى رأسهم للبريق . وكان موسى قد أدرك أن مراكز المقاومة للقوطية بدأت تتجمع في هذه المنطقة بالذات لعرقلة مسيرة الفتح بالإفادة من وعورة المنطقة ، ظنا منهم أن المسلمين لن يستطيعوا الوصول إليها ، واستعداداً للهرب الى نواحي (قششالة)^(١) و (استرامادورة) اذا ما وطئت أقدام المسلمين هذه النواحي من شمال غربي الأندلس .

لقد كانت محاولة قلول القوط استرداد (إشبيلية) خطوة مدبرة لقطع طريق الرجعة على قوات موسى ، لولا أن عبد العزيز بن موسى استطاع أن يحدد الحركة قبل استفحالها ، كما تمكن من القضاء على مركز المقاومة في (لبلة) ، فما كادت تسقط (ماردة) حتى تراجع للبريق وتحصن هو وجنوده في شعاب جبال (سيرا دي فرانثيا Sierra de Francia) مما يلي وادي (أنة) إلى الشمال وأقاموا هناك ينتظرون الفرصة المواتية للوثوب على جيش المسلمين . وقدّر موسى موقف عدوه تقديرأ صائبأ ، فاكشف أن العدو له كمين في طريقه الى (طليطلة) ، ولم يكن موسى ليستطيع السير من (ماردة) الى (طليطلة) والعدو يهدد خطوط مواصلاته بهذا الكمين ، فكان لا بد له من القضاء على التجمعات المعادية ، لذلك استدعى طارقأ ليلقاه في منتصف الطريق بين (ماردة) و (طليطلة) . وخرج طارق بجيشه مليأأ بأوامر موسى ، وسار مسافة قدرها مائة وخمسين كيلو متراً في الطريق الموصل ما بين (طليطلة) و (طليطيرة) بجذاء واد يقال له : (الأروكامبو Valle de Arrocampo) وانتظر موسى في هذا الوادي في مكان يسمى المعرض Almaraz^(٢) بين (التاجة) ونهر (التيتار)^(٣) .

(١) قششالة : إقليم عظيم بالأندلس : انظر التفاصيل في مجمع البلدان (٩٣/٧) .

(٢) استعرض موسى قواته في هذا الوادي فسمي : وادي المعرض . انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٩٨) .

(٣) يقول هذا الرأي سافدرا (Savedra Op. Cit. p. 98) بقرينة فيه أقوال كثيرة لمؤرخين إسبان ونفر قليل من مؤرخي المسلمين ، وهو في الواقع أقرب الآراء الى الصحة في صدد نهاية للبريق ، فان المسلمين لم يقتلوه في واقعة وادي (لكّة) . وتكتفي المراجع العربية بالقول : بأنه =

وتابع موسى سيره بعد ذلك في الطريق الى (طليطلة) حيث التقى بطارق في موضع يقال له : (تايد)^(١) أو (تاير) أو (التيتار Teltar) وهو نهر في المنطقة . وخرج طارق معظماً له ، ونزل بين يديه ، فعاتبه موسى على مخالفته لرأيه في تسرعه لاقتحام الأندلس من الوسط ، فاعتذر إليه طارق وقال له : « إنما أنا مولاك وقائد من قوادك ، ما فتحت وأصبته فلانما هو منسوب إليك » ، واستلطفه حتى رضي عنه موسى^(٢) ، فاصطحب موسى مع طارق ، وأظهر الرضا عنه ، وأقره على مقدمته على رسمه ، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه^(٣) .

اتبع موسى وطارق الطريق الروماني القديم الممتد من (ماردة) الى (سلمنقة Salamanca) ، ثم اجتاز الموضع المسمى (Puerto de Siete Carreras) ، وصار في نقطة التقاء الطريقين الموصلين من (ماردة) الى (سلمنقة) ، ومن (ألبة دي تورميس Alba de Tormes) الى (ثيوداد رودريجو Ciudad Rodrigo) ، ومضى في فج منسوب إليه^(٤) بجذاء نهر سمي منذ ذلك الحين : (وادي موسى Valmusa) . وظن "للدريق وأصحابه أن الفرصة قد سنحت في المسلمين لتوسطهم هذه الطريق الطويل وبعدهم عن أي مركز يستطيعون منه طلب المعونة ، وانقضوا على جيش موسى في ناحية

= اختفى أو غرق . وسرى القارىء في سياق الحديث أن هذا الرأي يصحح الوقائع أكثر ما يصحها القول بموته أو اختفائه من ميدان التاريخ عقب لقائه المسلمين أول مرة . انظر فجر الأندلس (٩٨) . (١) وردت كلمة : تايد في اخبار مجموعة (١٨) بدون نقط ، ولعلها تاير أو التيتار . انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٩٨) . (٢) الرسالة الشريفة (١٩٣) .

(٣) نفع الطيب (٢٥٥/١) . وفي الطبري (٢٥٦/٥) : عبر موسى بن نصير الى طارق في عشرة آلاف فتلقياه فترضاه ، فرضي عنه وقبل منه عذره ووجهه منها الى مدينة طليطلة .. انتهى . وفي البيان المغرب (١٢٣/٢) : اتفق الأكثرون أن التقاءهما كان على طليطلة . وذكر الطبري أنه كان على قرطبة ، وذكر الرازي ، أن طارقاً خرج من طليطلة لما بلغه سيره اليه ، فلقه بمقربة من طليطلة .

(٤) تاريخ افتتاح الأندلس (٣٥) ونفع الطيب (٢٥٣/١) .

يسمى بعض المؤرخين من المسلمين : (السواقي) وهي : (سيجويلا دي لوس كورنيخوس Segoyuela de Los Cornejos) بالقرب من بلدة (تاماس Tamames) ؛ وهناك وقعت فيه المعركة الحاسمة الثانية في سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٣ م) ، ونظراً لأن المكان الذي وقعت فيه الموقعة كان قريباً من بحيرات (تاماس) ونهر (باربالوس Barbalos) الذي ينتهي عند السواقي ، فقد اختلط عند المؤرخين بنهر (برباط) وبحيرة (خاندة) ، وفي هذه المعركة لقي لدرى حقه على يد مروان بن موسى ابن نصير ، وهزم القوط هزيمة نكراء^(١) .

سابعاً - فتح طليطلة ثانية :

ويبدو أن اشتباك المسلمين مع القوط في هذه الموقعة الحاسمة ، قد شجع نفراً من بقايا القوط وأنصارهم في (طليطلة) على نقض طاعة المسلمين ، فانتهزوا فرصة خروج طارق وحنده منها ووثبوا بها ، فاضطر موسى إلى فتحها من جديد ودخلها دخول الظاهر^(٢) .

وفي (طليطلة) سلم طارق الى موسى الكنوز التي غنمها من الكنائس^(٣)

(١) انظر فجر الأندلس (٩٨ - ٩٩) وتاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٩٨ - ٩٩) .

(٢) فجر الأندلس (٩٩ - ١٠٠) .

(٣) غنم طارق الكنوز الزاخرة التي وجدها في قصور القوط وفي كنيسة طليطلة الكبيرة بوجه خاص ، ولم يسهب المؤرخون المسلمون في شيء مما وقع للمسلمين في فتوحهم كلها مثلما أسهبوا في وصف المذبح المحلى الذي اغتنمه المسلمون في هذه الكنيسة ، فقد سموه مائدة سليمان بن داود ، وذهبوا إلى أن هذه المائدة كانت من زبرجد خالص . ومن المحقق أن المذبح كان درة من دزر الفن ، يحل بأمن ما لدى القوط من الذهب والخواهر ، وأن وقوعه في يد المسلمين أثار بينهم دهشة كبرى . ويذهب معظم المؤرخين المسلمين إلى أن طارقاً غنم هذه التحفة الثمينة من مدينة (المائدة) ، وهذه المدينة هي في الغالب قلعة (هنارس Acala de Henares) ، وهي بالطبع ليست مائدة سليمان بن داود عليه السلام (إن كانت لسليمان مائدة) . وهي ليست كذلك بمائدة أصلاً ، إذ لا يمكن أن يتم القوط بصناعة مائدة بهذه الفخامة ، ولكن الغالب أنها مذبح الكنيسة الجامعة في طليطلة ، إذ لم تكن في قلعة (هنارس) إذذاك كنيسة كبيرة يحتمل وجود هذا المذبح الفخم بها . انظر التفاصيل في فجر الأندلس (٧٨) ، وانظر ما جاء عن المائدة في الطبري (٢٥٦/٥) وابن الأثير (٢١٥/٤) وفتح مصر والمغرب (٢٧٩) والأخبار.

وغيرها عند فتحه (طليطلة) لأول مرة ، فأقام بها موسى طوال فصل الشتاء من سنة أربع وتسعين الهجرية يدبر أمرها ، ثم ضرب عملة ذهبية وأخرى برنزية لصرف رواتب الجند وذلك بدار السكة القوطية بطليطلة (١) ، ثم بعث موسى برسولين إلى الوليد بن عبد الملك ينهيان إليه أخبار هذا الفتح العظيم ، ووقع اختياره على التابعي علي بن رباح وكان رجلاً صالحاً في نحو الثمانين من عمره (٢) ومغيث الرومي (٣) فاتح قرطبة ومولى الوليد بن عبد الملك ، فلما دخل وفد موسى إلى الوليد قال علي بن رباح : « ... يا أمير المؤمنين ! تركت موسى بن نصير في الأندلس ، وقد أظهره الله ونصره ، وفتح على يديه ما لم يفتح على يد أحد ، وقد أوفدني إلى أمير المؤمنين في نفر

المجموعة (١٧ و ١٩) والبيان المغرب (١٧/٢) ونفع الطيب (٢٤٨/١) ، وقد وودت جارة صريحة لا بن حيان تدل على أن هذه المائدة ما هي إلا مذبح كنيسة طليطلة وهي : « وهذه المائدة المنوّه باسمها إلى سليمان النبي عليه الصلاة والسلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم ، وإنما أصلها أن المعجم في أيام ملكهم كان أهل الحسبة منهم إذا مات أحدهم أومى بمال الكنائس ، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال ، صافوا منه الآلات الفضة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضة ، تحصل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت في أيام المناسك ، ويضعونها على المذابح في الأعياد للعبادة بزيئها ، فكانت تلك المائدة بطليطلة ما صيغ في هذا السيل ، وتأنقت الأملاك في تفخيخها ، يزيد الآخر منها على الأول ، حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات ، وطار الذكر مطاره عنها ، وكانت مصوغة من خالص الذهب ، مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد ، لم تر العين مظهرها ، وبولغ في تفخيخها من أجل دار المملكة ، وأنه لا ينبغي أن تكون بموضع آلة جمال أو متاع مباحة إلا دون ما يكون فيها ، وكانت توضع على مذبح الكنيسة طليطلة ، فأصابها المسلمون هناك » . انظر نفع الطيب (٢٥٤/١ - ٢٥٥) .

(١) سيرد تفصيل ذلك عند ذكر أعمال موسى الإدارية :

(٢) هو أبو عبد الله علي بن رباح بن نصير اللخمي ، كان فاضلاً جليلاً من جملة التابعين ، يروي عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، منهم عمرو بن العاص وولده عبد الله وعقبة بن عامر وأبو هريرة وعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه جماعة يكثر تعدادهم . انظر التفاصيل في رياض النفوس (٧٧/١ - ٧٨) وانظر الامامة والسياسة (٧٥/٢ - ٧٦) حول إيفاد علي بن رباح إلى الوليد بن عبد الملك من قبل موسى بن نصير . وانظر ما جاء عن علي بن رباح في نفع الطيب (٢٦٠/١ - ٢٦١) .

(٣) فتح مصر والمغرب (٢٨٣) .

من وجوه من معه ، بفتح من فتوحه ، ثم دفع إليه الكتاب من عند موسى ،
فقرأه الوليد ، فلما أتى على آخره خرّ ساجداً^(١) .

ثامناً - فتح شمال الأندلس :

لما انقضى فصل الشتاء ، واطمان موسى إلى هدوء ما بيده من البلاد ، عزم
على متابعة الفتح فأخذ يستعد للسير نحو الشمال لإكمال فتح شبه جزيرة
الأندلس . وجمع جيوشه ، وأكمل أمورها الإدارية ، ثم زحف بها نحو
(سرقسطة)^(٢) الواقعة على الضفة اليمنى من نهر (ابرة) وكان طارق
على مقدمته وسار موسى خلفه في جيوشه ، فارتقى إلى الثغر الأعلى ، وافتتح
(سرقسطة) وأعمالها ، وأوغل في البلاد وطارق أمامه لا يترآن بموضع
إلاّ فتح عليهما ، وغنمهما الله تعالى ما فيه ، وقد ألقى الله الرعب في قلوب
العدو ، فلم يعارضهما أحد الا بطلب صلح ، وموسى يجيء على أثر طارق
في ذلك كله . ويكمل ابتدائه ، ويوثق للناس ما عاهدوه عليه^(٣) . ولم تكد
طلائع المسلمين تشرف على (سرقسطة) حتى رعب أسقفها (بنسيو Bencio)
ومن معه من الرهبان ، فجمعوا كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة وقرروا
الهجرة من البلد والفرار بهذه الذخائر ، فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم
رسولاً يؤمنهم ويعطيهم عهده ، فسكنت مخاوفهم وعدلوا عن مغادرة

(١) الامامة والسياسة (٧٦/٢) . وفي فجر الأندلس (١٠١) : « ويبدو أن منياً كان حانقاً على
موسى لشيء في نفسه أو لأنه ساءه أن ينسب فضل الفتح كله إلى نفسه مغفلاً بيان ما قام به هو وما قام به
طارق ، فلم يأل جهداً في تنقيص موسى وتشويه سمعته ، فكان لكلامه أسوأ الأثر على مصير موسى
فيما بعده . ومن الواضح أن موسى لو لم يثق كل الثقة بمنيث لما أوفده إلى الوليد ، والظاهر أن منياً
نقم على موسى عند عودتهم جميعاً إلى المشرق بعد أن استدعاهم الخليفة . انظر تاريخ المسلمين وآثارهم
في الأندلس (١٠٠) .

(٢) سرقسطة : تعريب للاسم الروماني : (قيصر أجستا Caesar Augusta) لأن أغسطس
قيصر هو الذي أسسها سنة ٢٣ ق . م ، على أطلال المدينة الأيبيرية القديمة التي كانت تعرف عند
الأيبيريين باسم (سالدوبا Salduba) . وانظر ما ورد عنها في معجم البلدان (٧١/٥) .

(٣) فتح الطيب (٢٠٥/١ - ٢٠٦) .

المدينة^(١) ، وفتحت المدينة البيضاء (سرقسطة) أبوابها للمسلمين سنة أربع وتسعين للهجرة . ولم يكبد المسلمون يستقرون في هذا البلد حتى قام التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني بإنشاء مسجد للمدينة ، وقد قُدِّر لهذا المسجد أن يتسع حتى أصبح مسجداً جامعاً وظل قروناً متوالية مناراً للإسلام وأهله في هذه النواحي^(٢) .

وبعد فتح (سرقسطة) فتح موسى (وشقة)^(٣) و (لا ردة)^(٤) و (طر كونة)^(٥) ، وكانت أغلب المناطق التي سار فيها الجيش أرضاً جرداء ، يتحدث أهلها بلاتينية لا يفهمها الإسبان الآخرون الملازمون لموسى (وهم أدلاء يوليان) ، فزهد المسلمون في هذه البلاد التي يسكنها قوم كالبهايم^(٦) . وحين أوغل موسى وجاوز (سرقسطة) اشتد ذلك على الناس

(١) في فجر الأندلس (١٠٢) : « ويبدو أن ما لقيه المسلمون من الشدة عند ماردة والسواقي ، وما دهمهم من ثورة أهل طليطلة مال بهم إلى الشدة ، فزاحم في فوزتهم هذه أميل إلى العنف بما كانوا قبل ذلك ، فبينما كان طارق يحل المواقع احتلالاً سلمياً ، فيؤمن أهلها ولا يكاد يستطيع لنفسه إلا ما كان من أملاك القوط وأملاك الكنيسة ، نسم من الآن فصاعداً عن نهب البلاد وإحراقها ورحب أهلها وخروجهم منها على وجوههم . ويبدو كذلك أن هذا كان نتيجة لسياسة موسى ، وقد عرفناه شديداً قاسياً عظيم الميل إلى المغامرات والأسرى والسبايا ، وقد بلغ من إسراره هذا أن العرب أنفسهم - وعلى رأسهم الخليفة - أنكروا عليه هذا المسك ، فلم يلبث الخليفة أن استدعاه ليناقشه الحساب فيما يفعل » . كما ورد في تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٠ - ١٠١) مثل هذا المعنى .

وما ورد عن قصة الأسقف بنسيو أعلاه يناقض هذا الرأي ويعطي نموذجاً واقعياً حياً لرحمة المسلمين بالمفلولين . فإذا ظهرت شدة من موسى في بعض الأحيان ، فلأن متطلبات الحرب هي التي اضطرت به إلى ذلك ، كما أن الخليفة لم يستدع موسى لهذا السبب كما سنرى .

(٢) تاريخ علماء الأندلس ١/١١١ - مدريد ١٨٩١م ، وبغية الملتص (٢٦٣) وصفة جزيرة الأندلس (٩٧) ونفح الطيب (٦/٤) .

(٣) وشقة : بليدة بالأندلس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٢٣/٨) .

(٤) لا ردة : مدينة مشهورة بالأندلس شرقي قرطبة ؛ تتصل أعمالها بأعمال طركونة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣١٣/٧) .

(٥) طركونة : بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة ، وهي مدينة قديمة على شاطئ البحر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٤/٦) .

(٦) البيان المغرب (٢٤/٢) والامامة والسياسة (٧٨/٢) .

وقالوا : « أين تذهب بنا ؟! حسبنا ما في أيدينا » ، وكان موسى قال حين دخل (إفريقية) وذكر عقبة بن نافع : « لقد كان غرّر بنفسه حين وغل في بلاد العدو ، والعدو عن يمينه وعن شماله وأمامه وخلفه ، أما كان معه رجل رشيد ؟! » ، فسمعه حنش الصنعاني ، فلما بلغ موسى ذلك المبلغ - من التغلغل عمقاً في الفتح - قام حنش فأخذ بعنانه ، ثم قال : « أيها الأمير ! إني سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول : « لقد غرّر بنفسه وبمن معه ، أما كان معه رجل رشيد ؟! وأنا رشيدك اليوم . أين تذهب ؟ تريد أن تخرج من الدنيا ؟! أو تلتبس أكثر مما آتاك الله عز وجل - وأعرض مما فتح الله عليك ، ودوخ لك ؟! إني سمعت من الناس ما لم تسمع ، وقد ملأوا أيديهم وأجبتوا الدعة » ، فضحك موسى ثم قال : « أرشدك الله وكشّر في المسلمين أمثالك » ، ثم انصرف قافلاً إلى الأندلس وهو يقول : « أما والله لو انقادوا إليّ لقدنهم إلى رومية (روما) ثم يفتحها الله على يديّ إن شاء الله »^(١).

ولكن موسى استطاع أن يعيد إلى الجنود نشاطهم وحماسهم للفتح ، وبينما كان يعدّ العدة لفتح (جليقية)^(٢) ، إذ أتاه مغيث الرومي^(٣) رسول الوليد بن عبد الملك بأمره بالخروج من الأندلس والكفّ عن التوسّع في البلاد ، وأن يشخص إلى دمشق ، فسأه ذلك ، وقطع به عن إرادته ، إذ لم يكن في الأندلس بلد لم تدخله العرب إلى وقته غير (جليقية) ، فكان شديد الحرص على إقحامها^(٤) . ولكنّ قدوم مغيث لم يصرف موسى عن المضي في إتمام هذه الغزوة التي صاحبها التوفيق إلى هذه الساعة ، فبذل جهده للبقاء في الأندلس بعض الوقت ريثما يتم فتح (جليقية) . ولاطف مغيثاً - من أجل ذلك - وسأله إمهاله ، إلى أن ينتدّ عزمه في الدخول إلى (جليقية) ،

(١) الإمامة والسياسة (٨٠/٢ - ٨١) .

(٢) جليقية : ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الأندلس في أقصاء من جهة

الغرب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣١/٣) .

(٣) مترد ترجمته في كتاب : قادة فتح الأندلس والبحار .

(٤) لفتح الطيب (٢٥٨/١) .

والمسير معه في البلاد أياماً ، ويكون شريكه في الأجر والغنيمة ، ففعل مغيث ومشى معه^(١) . وقد وهب موسى مغيثاً الموضع الذي ينسب إليه في عهد المسلمين ، وهو : (بلاط مغيث) بجميع أرضه من أرض الخمس^(٢) نظير إمهاله بعض الوقت ومصاحبته في غزو (جليقية) . وقيل مغيث هذه الشروط ، فلما اطمأن موسى إلى ذلك ، بادر بالسير شمالاً لفتح (قشتالة القديمة Castilla La Vieja) تأميناً للحدود الشمالية لإقليم (طليطلة)^(٣) .

وكان يتفرّع من (سرقسطة) طريقان رومانيان يتجهان من الشرق إلى الغرب : الأول يذهب بجذاء نهر لإبرة (الإبرو) حتى (هارو Haro) ، ومن هناك يتبع (بريفيسكا Barivesca) ثم (أماية) ، ثم (ليون)^(٤) و (أسرقة) . والثاني يفصل من الطريق الأول عند بدايته ويتجه إلى (قلكونية) و (بكنسيية)^(٥) ، ويلتقي بالطريق الممتد من (ماردة) إلى (أسرقة) في مدينة (بنافتي) . وكان لا بدّ لموسى من السير في كل من هذين الطريقين ، فقسّم جيشه إلى قسمين : قسم بقيادته ، والآخر قيادة طارق .

واختار موسى الطريق الثاني ، وعهد إلى طارق بالسير في الطريق الأول أدنى سفوح جبال (كنتشبرية) . وشرع طارق بمهاجمة (البشكنس) غربي نهر (إبرة) ، فلم يجد زعيم هذه المنطقة (فرتون) بداً من الدخول في طاعة المسلمين بسل إعنتق الإسلام ، ولذلك أعفيت (شيسة Ejea)

(١) نفع الطيب (٢٥٨/١) .

(٢) الرسالة الشريفة في الأقطار الأندلسية (٢٠٤) .

(٣) Saavedra. OP. Cit. p. 113 — 114 .

(٤) ليون : بلد في منطقة جليقية . انظر تقويم البلدان (١٨٤ - ١٨٥) .

(٥) بلنسية : كورة ومدينة بالأندلس شرقي قرطبة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٩/٢) وتقويم البلدان (١٧٨ - ١٧٩) .

منطقته من التخمين^(١) ، وإليه ينتسب بنو قسي أصحاب الثغر الأعلى ، الذين كان لهم شأن في تاريخ المسلمين في الأندلس^(٢) ، ثم تابع طارق سيره ، ففتح (أماية) و(استرقة) اللتين ذكرهما مؤرخو العرب خطأ في حملته سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٧١١م)^(٣) كما فتح مدينة ليون^(٤) في هذه السنة أيضاً .

وسار موسى نفسه على الضفة الشرقية لنهر (إبرة) في إقليم (قشتالة)^(٥) فأطاعه معظم من مرّ بهم من رؤساء هذه الناحية . وقد لقي بعض المقاومة عند حصن (بارو Villa Baruz) أو (بازو) في مقاطعة (بلد الوليد) التي لا يزال يطلق عليها الاسبان اليوم (فاليا دويلد) . وبدلاً من أن يعرّج على (استرقة) ليلتقي فيها بجيش طارق ، انحرف إلى الشمال واخترق باب (تارنا Tarna) ، وسار متابعاً مجرى نهر (النالون Nalon) ، ثم حطّ رحاله عند قلعة (لُك Santa Maria de Lugo) : (أشتوريش) غير بعيد عن (أبيط Oviedo) ، وما زال بها حتى فتحها . ثم سار بنفسه حتى بلغ (غليجون Gijon) وأقرّ فيها حامية وجعلها حصناً لما فتحه من البلاد في تلك النواحي البعيدة ، ثم بعث سرية من فرسانه أدركت البحر عند صخرة (بلاي Pona de Pelayo) على البحر الأخضر^(٦) . فطاعت الأعاجم ، ولاذوا بالسلم وبذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز ، وكان العرب والبربر كلما مرّ قوم بموضع استحسّوه حطّوا به ونزلوه قاطنين^(٧) .

(١) الرسالة الشريفة (٢٠٠).

(٢) انظر فجر الأندلس (١٠٤).

(٣) انظر تاريخ انتصاح الأندلس (٣٥) وأخبار مجموعة (١٥).

(٤) الأخبار المجموعة (٢٨) ، وقد جعل هذا المصدر فتح هذه الحصون الثلاثة في سنة (٧١١) وهو خطأ واضح . انظر فجر الأندلس (١٠٤).

(٥) قشتالة : إقليم عظيم بالأندلس ، قصبتها طليطلة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٩٣/٧) .

(٦) هو المحيط الأطلسي ، وكان يسمى أيضاً : الاقيانوس وبحر الظلمات .

(٧) فتح الطيب (٢٥٨/١) وانظر فجر الأندلس (١٠٤ - ١٠٥) وتاريخ المسلمين وآثارهم =

وهكذا وصلت جيوش موسى حتى البحر المحيط ، فاطمأن الى أنه فتح شبه الجزيرة كلها ، لذلك شعر أنه لم يعد هناك معنى للاسترسال في الفتح ، وكان موسى يترك في كل قلعة يفتحها حامية من المسلمين ، فتفرق جنده ، وطال السير بمن بقي معه منهم ، ونال منهم الجهد ، فمالت نفوسهم الى العودة ؛ فاكفى موسى بوصوله الى (خيخون) وأزمع العودة غير عالم أن نفراً كبيراً من القوط قد تراجعوا أمامه واحتموا في نواحي (أستوريش) و (جليقية) ، وكان المسلمون يحسبون أنهم قضوا على القوط حتى لم يبق منهم إلا ثلاثون رجلاً ، والواقع أن من بقي من القوط إذ ذاك كان قليلاً ، ولو لم يشغل العرب عنهم بعد ذلك بحروب ومنازعات قبلية فيما بينهم ، لاستطاعوا بسهولة القضاء على البقية الباقية من القوط ، ولكن العرب شغلوا بأمور أنفسهم ، فاستطاعت هذه الحقنة القوطية أن تظمن في هذه النواحي القاصية القاحلة ، وأن تنمو لتنتهز في المسلمين كل فرصة تسنح .

ولما انتهى موسى في فتوحه الى هذا الحد القصي ، كان لا بد أن يعود لا الى (طليطلة) أو (قرطبة) فقط ، بل الى (دمشق) رأساً ، فقد كان مغيث الرومي رسول الخليفة يتعجله ، وكان الوليد بن عبد الملك معجلاً عليه لا يريد أن يتمهل ، إذ أن رسولا آخر من الوليد يكنى : أبا نصر ، بعثه الى موسى عندما استبطأه في القفول ، أتاه وهو في مدينة (لك) (جليقية)^(١) .

= في الأندلس (١٠٢ - ١٠٣) .

(١) نفع الطيب (٢٥٨/١) . وفي فجر الأندلس (١٠٦) ورد : « حتى لطهب الروايات الى أن الوليد بعث إليه رسولا آخر اسمه : أبو نصر ، لقيه في (لك) ، فأخذ بهتان فرسه وأمره بالعودة ، وذلك أمر مستبعد ، لأن مغيثاً وصل وموسى في (سرقطة) في أوائل الربيع ، ولما تنقضى حل وصوله ثلاثة أشهر ، ولا يتفق أن يكون الخليفة قد استطال هذه المدة القصيرة فأرسل مغيثاً ، وربما كان أبو نصر هذا كنية لمغيث كما يظن (جايانجوس)^٥ . واقول : قد وردت ترجمة مغيث الرومي في نفع الطيب (١١/٤ - ١٢) وهو لا يكنى : أبا نصر . ولماذا نستبعد قدوم الرسول الآخر الذي أرسله الوليد الى موسى وقد تنقضت حل وصول الرسول الأول ثلاثة أشهر ، وهي مدة طويلة بعد ما استقر في ذهن الوليد أن =

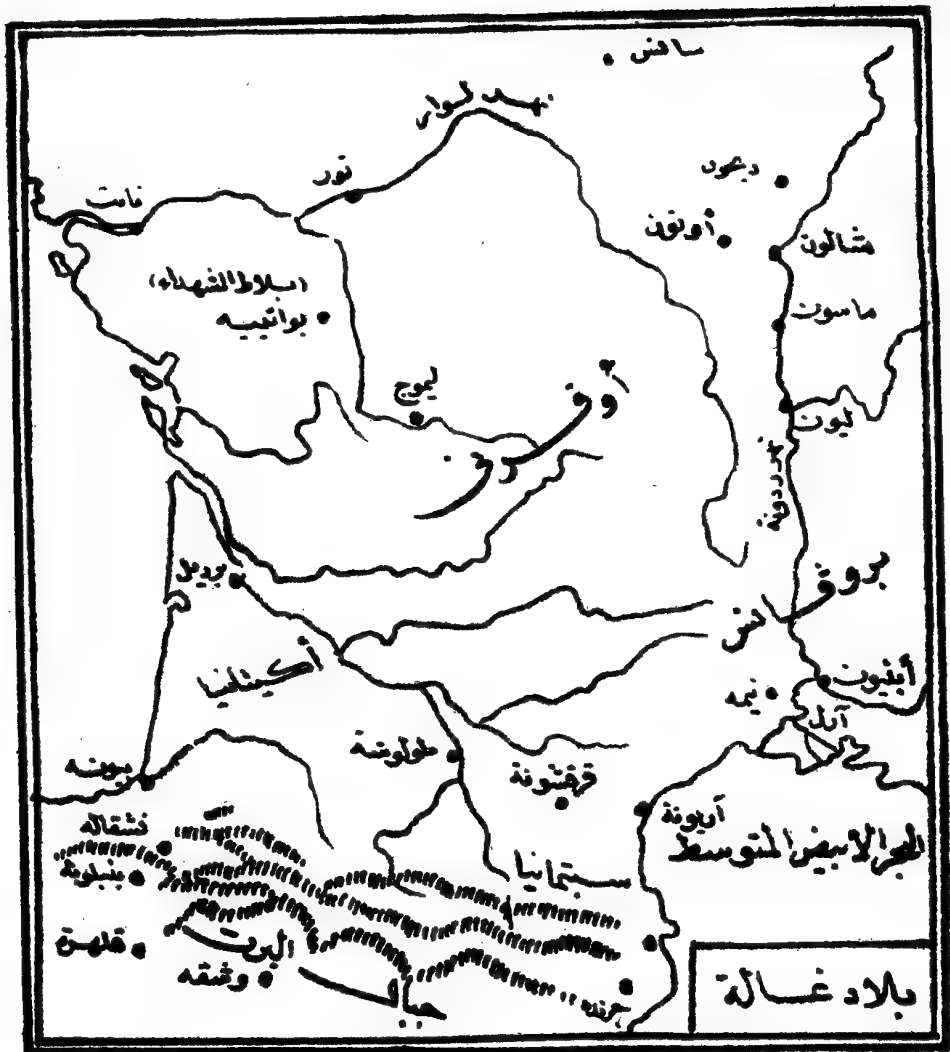
وهناك بعض المؤرخين ، يذكرون أن موسى بن نصير بعد أن افتتح (سرقسطة) بعث سراياه الى (قطالونة) ، ففتحت (برشلونة) (١١) ، ومن هناك اخترقت جبال البرتات (البرانس) وتوغلت في بلاد (غالة) ، فاستولت على (أربونة) (١٢) (Narbonne) وصخرة (إينبون Avignon) وحصن (لودون) على وادي (ردونة) وهو وادي نهر (الرون) (١٣) ، ولا نستبعد أن تكون بعض قوات موسى قد افتتحت (برشلونة) و (لاردة) وجزء من إقليم (قطالونية) وأنها قد وصلت الى جبال (البرتات) واجتازتها الى (قرقشونة) (١٤) ، فهو نفس الطريق الذي اتبعه السمع بن مالك (١٥)

= موسى يريد أن يشق عصا الطاعة، انظر الامامة والسياسة (٧٥/٢-٧٦) وأن موسى يطمح في فتح (غالة) والوصول إلى رومة . انظر الامامة والسياسة (٨١/٢) بل الوصول إلى أرض الشام من طريق (إفريقية) . انظر نفع الطيب (٢٥٩/١) في الوقت الذي سُم المسلمون فيه الفتح وأظهروا رغبته في العودة إلى قرطبة ؟ لقد كان الوليد حريصاً على سلامة المسلمين ، فعارض منذ البداية في إقحامهم في بحر شديد الأحوال ، فلما نهي إليه ما شرع فيه موسى من فتح غالة ، اشتد قلقه وأرسل أبا نصر رسولاً ثانياً إلى موسى يستعجله القفول إلى دمشق ، لذلك نعتقد تماماً أن أبا نصر شخص آخر غير مغيث الرومي . وفي نفع الطيب (٥٨/١) نص صريح وهو : « وقفل معهم (أي مع موسى وطارق) الرسولان مغيث وأبو نصر » . انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٣-١٠٤).

(١) برشلونة : مدينة في شمال شرقي الأندلس على البحر الأبيض المتوسط ، ويعتبرها بعض جغرافي العرب ليست من مدن الأندلس . انظر تقويم البلدان (١٨٢-١٨٣) .
(٢) أربونة ، مدينة في شمال شرقي قرقشونة تقع في الساحل الفرنسي الجنوبي . انظر ما جاء فيها في تقويم البلدان (١٨٢-١٨٣) .

(٣) نفع الطيب (٢٥٦/١) .

(٤) قرقشونة : بلد في جنوب فرنسا قريبة من حدود إسبانيا الشمالية . وفي معجم البلدان (٥٩/٧) : ان المسافة بين قرقشونة وقرطبة خمسة وعشرون يوماً . وقد ذكر المقرئ في نفع الطيب (٢٦٠/١) : أن موسى انتهى إلى حصن من حصون العدو يقال له : قرقشونة . وانظر تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط (١٤) - الأمير تشكيب أرسلان - مصر - ١٣٥٢ هـ . ويذكر المقرئ في نفع الطيب (٢١٨/١) وابن خلدون (١١٧/٤) : أن موسى توغل في الأندلس إلى برشلونة من جهة الشرق وأربونة في الجوف . (٥) سترد ترجمته في كتاب : قادة فتح الأندلس والبحار .



بعد ذلك بسنوات ، ولكن فتح موسى هذا لم يكن فتحاً مستداماً إنما كان بقوات استطلاعية خفيفة استطاعت جمع المعلومات عن تلك المنطقة من بلاد فرنسا تمهيداً لفتحها فيما بعد^(١) .

٥ - فتح عبد العزيز بن موسى :

فتح عبدالعزيز ما بقي من مدائن الأندلس^(٢) ، إذ لم يفتح المسلمون جميع أنحاء شبه الجزيرة ، فقد بقيت في البلاد مناطق لم تصل إليها جيوش الإسلام بعد . وقد تجمعت في بعض الأقاليم غير المفتوحة وفي الجيوب الجبلية النائية الوعرة مراكز للمقاومة القوطية ضد المسلمين ، فاقضى الأمر لإخماد هذه المقاومات وإتمام فتح الأندلس .

سار عبدالعزيز على رأس جيشه لاستكمال فتح غرب الأندلس (البرغال حالياً) ، ويرجع سافندرا أن عبدالعزيز قام بهذه الحملة قبل رحيل أبيه الى دمشق فيقول : « يبلو لي - حسبما أعتقده - أنه بينما كان موسى وطارق يفتحان البلاد من (سرقسطة) عبر (قشتالة) القديمة ، لم يكن عبدالعزيز الذي كان قد وصل الى (باجة) سنة ٧١٣ م عاطلاً ، إذ أنه شغل عام ٧١٤ م بالزحف نحو (بأبيرة Evora) ^(٣) و (شنترين Santaren) ^(٤) »

(١) في البيان المغرب (٢٤/٢) ونفع الطيب (٢٥٩/١) : أن موسى انتهى الى صم ، - فوجد في صدره مكتوباً : « يا بني اساعيل ! الى هنا منتهاكم ، وإذا سألتكم الى ماذا ترجعون ؟ أخبرناكم : ترجعون الى اختلاف ذات بينكم ، حتى يضرب بعضكم رقاب بعض .. ومن الواضح أن هذه قصة خرافية نسجت فيما بعد تقريراً لما حدث بين الفاتحين فعلاً ، وأدى بهم الى ضياع الفردوس المفقود (الأندلس) وخروجهم منها أدلاء مغلوبين حين تفرقوا واختلفوا ، وكانوا قد دخلوا أغزاء فاتحين حين اتحلوا وتعاونوا .

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦) .

(٣) يابرة : بلد في غربي الأندلس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٤٩/٨) .

(٤) شترين : مدينة متصلة الأعمال بأعمال باجة في غربي الأندلس ثم غربي قرطبة وعل نهر (باجة) قريب من انصباة في البحر المحيط ، وهي حصينة ، بينها وبين قرطبة خمسة عشر يوماً ، وبينها وبين باجة أربعة أيام . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٠٠/٥) وتقويم البلدان (١٧٢-١٧٣) .

و(قُلْمُورَة Coimbra) (١)، وظلّ متجهاً الى أقصى الغرب بقصد ملاقات الفرق الإسلامية في (استرقة Astorga) (٢)، ويستند سافندرا في رأيه هذا على عبارة وردت في الرسالة الشريفة نصها : « فلم يبق بالأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيا فهم ، وتصيرت ملكاً لهم ، إلا قسم موسى بن نصير بينهم أراضيها إلا ثلاثة بلاد وهي : شنترين وقلتمرية في الغرب و (شبة) في الشرق ، وسائر البلاد ختمست وقسمت بمحض التابعين الذين كانوا مع موسى بن نصير (٣) » ، ومعنى هذا أن عبدالعزيز افتتح (شنترين) و (قلتمرية) صلحاً ، وذلك أثناء وجود أبيه بالأندلس .

والحق أن موسى لم يكن ليترك ابنه عبدالعزيز — وهو القائد الذي عرف بشجاعته ومهارته — عاطلاً في أبيه ، ولو كان عبدالعزيز مع جيوش أبيه في فتوحه لظهر له أثر واضح كما ظهر لغيره مثل طارق بن زياد ، وذلك في الصفحة الأخيرة من فتوحات موسى . كما أن وجود عبدالعزيز في (باجة) القريبة من تلك المناطق لا بد أن يغريه بفتحها . والأهم من كل ذلك ، أن الموقف العسكري الذي كان يحسب حسابه بدقة متناهية موسى ابن نصير ، يحتم عليه أن يحمي جناح تقدمه الأيسر ، وذلك أثناء فتوحاته الأخيرة ، وإلا تعرضت خطوط مواصلاته الممتدة بالعمق شمالاً الى تهديد العدو الرابض في غرب الأندلس (البرتغال) ، فلم يكن باستطاعة موسى أن يتقدم شمالاً ما لم يؤمن جناحه الأيسر بالحماية اللازمة ، وذلك بفتح هذه المنطقة ، ولم يكن هناك أولى بفتحها من عبدالعزيز بن موسى الذي كان قد وصل الى (باجة) القريبة من غربي الأندلس .

أما ما فتحه عبدالعزيز في أثناء ولايته الأندلس بعد مغادرة أبيه الأندلس

(١) قلتمرية : مدينة بالأندلس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٠١/٧) .

(٢) Savedra, op. cit. p. 127 نقلاً عن : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٩)

— (١١٠) .

(٣) الرسالة الشريفة الى الأقطار الأندلسية (٢٠٠) .

الى المشرق ، فسيرد في ترجمة عبد العزيز بن موسى^(١١) .

: الإنسان :

١ - عودة موسى وطارق الى المشرق :

بادر موسى بالعودة من (لُكّ) بـ (جليقية) مع أبي نصر الرسول الثاني للوليد بن عبد الملك ، وكان مع أبي نصر رسالة الوليد الى موسى يوبّخ الوليد بها موسى ويأمره بالخروج ، وألزم رسوله لإزعاجه^(١٢) ، فأخذ موسى في طريق العودة في أواخر سنة خمس وتسعين الهجرية (منتصف صيف ٧١٤ م) ، وكان مغيب الرومي قد خفّ للقائه ، فالتقيا بنواحي (ليون) ، وهناك أدركهما طارق عائداً من (استرقة) ، وساروا جميعاً فاخترقوا (فج موسى Valmusa) في طريقهم الى (طليطلة) . ولم يبق موسى في (طليطلة) وإنما مضى مُجِداً حتى دخل (قرطبة) ولقي فيها نفراً من كبار جنده ، ثم مضى الى (إشبيلية) حيث ركب البحر ومعه طارق ومغيث الرومي وأبونصر وكبار الجند في ذي الحجة سنة خمس وتسعين الهجرية ، وكان معهم (يوليان) . وفي (إشبيلية) استخلف موسى ابنه عبدالعزيز بعد أن اختارها عاصمة للأندلس ، لاتصالها بالبحر^(١٣) ، وترك معه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري^(١٤) وزيراً له ومعيناً^(١٥) ، وترك معه العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد وسدّ الثغور وجهاد العدو^(١٦) .

(١) انظر ما جاء في الأخبار المجموعة (٢١) ونفع الطيب (٢٦٣/١) وسترد ترجمة عبد العزيز في كتابنا : قادة فتح الأندلس والحصار .

(٢) نفع الطيب (٢٥٨/١) .

(٣) نفع الطيب (٢٥٨/١) .

(٤) ورد اسمه في البيان المغرب (٣٠/٢) : حبيب بن أبي عبد بن عقبة بن نافع ، وكذلك في المعجب من تاريخ المغرب (٣٤) . أما في تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦) ، فقد ورد اسمه : حبيب بن أبي عبيدة .

(٥) تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦) ، وأخبار مجموعة (١٩) والبيان المغرب (٣٠/٢) .

(٦) المعجب من تاريخ المغرب (٣٤) .

أبحر موسى ومن معه من (إشيلية) وهو مثلهف على الجهاد الذي فاته ، آسف على ما لحقه من الإزعاج ، وكان يؤمل أن يجتري ما بقي عليه من بلاد إفريقية ، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يصل بالناس الى الشام ، مؤملاً أن يتخذ مُخْتَرَقَهُ^(١) بتلك الأرض طريقاً مُهَيَّئاً^(٢) يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم وجميعهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً^(٣) . وتذهب بعض المصادر العربية الى أن موسى استصحب معه ثلاثين ألف رأس من الأسرى^(٤) ، وفي ذلك مبالغة واضحة ، فهذا العدد الضخم من الأسرى يحتاج الى وسائط نقل لنقلهم بحراً وبراً من الأندلس الى دمشق ، ويحتاج الى تدابير إدارية من الصعب جداً تحقيقها ، والغالب أن عدداً قليلاً جداً من الأسرى رافق موسى في رحلته هذه ، وأما الباقيون منهم فقد تركوا في المزارع يزرعونها وفي الأعمال الإدارية الأخرى يديرونها . ولكنه استصحب معه مائة رجل من أشرف الناس من قریش ومن الأنصار وسائر العرب ومواليها ، وأخرج معه من وجوه البربر مائة رجل : منهم أبناء كسيلة وملك السوس الأقصى وملك قلعة (أوساف) وملك (مبورقة) و (منورقة) . ومعه الغنائم من الذهب والفضة والجواهر محمولة على ثلاثين ومائة عجلة^(٥) ، فكان مع موسى اربعمائة^(٦) بل هناك رواية أن موسى دخل دمشق ومعه ثلاثون من خيرة أسرى القوط ، ألبسهم أفخر الثياب وسار بهم في موكبه ليدلّ على عظم الفتح الذي تمّ على يديه^(٧) . واستخلف موسى ابنه عبدالله على إفريقية وابنه مروان على (طنجة)

(١) مخترقه : أي المكان الذي يخترقه ، أي يسلكه ويجتاز البلاد منه .

(٢) مهياً : الواضح البين ، وهو أيضاً الواسع المنبسط .

(٣) نفح الطيب (٢٥٩/١) .

(٤) انظر نفح الطيب (٢٥٩/١) .

(٥) انظر التفاصيل في الامامة والسياسة (٨٢/٢) .

(٦) تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦) .

(٧) انظر فجر الأندلس (١٠٧) .

و (السوس) (١١)، فمرّ في طريق عودته : (القيروان) (١٢)، ثم قدم (مصر) سنة خمس وتسعين (كانون الاول - ديسمبر ٧١٤ م)، فأقام هناك ثلاثة أيام يأنيه أهل مصر في كل يوم، فلم يبق شريف إلاّ وقد أوصل موسى اليه صلة ومعروفاً كثيراً، وأهدى لولد عبدالعزيز بن مروان فأكثر لهم وجاءهم بنفسه فسلم عليهم، ثم سار متوجهاً حتى أتى فلسطين (١٣). وبلغ دمشق سنة ست وثمانين الهجرية (كانون الثاني - يناير ٧١٥ م)، أي قبل وفاة الريد بن عبد الملك بأربعين يوماً (١٤).

ولما قدم موسى على الوليد، كان قدومه عليه وهو في آخر شكايته التي توفي فيها، وقد كان سليمان بن عبد الملك بعث الى موسى من لقيته في الطريق قبل قدومه على الوليد، يأمره بالتريث في مسيره وألاّ يعجل، فإن الوليد بأخر ريقه. وقرأ موسى كتاب سليمان بن عبد الملك، فقال: «خنت والله وغدرت وما وفيت! والله لا تربصت ولا تأخرت ولا تعجلت! ولكني أسير بمسيري، فإن وافيته حياً لم أخلف عنه، وإن عجلت منيته فأمره الى الله»، فرجع الرسول الى سليمان فأعلمه (١٥). وكان سليمان قد أمر موسى بالتربص (١٦) رجاء أن يموت الوليد قبل قدوم موسى، فيقدم موسى على سليمان في أول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة التي ما رثي ولا سُمِعَ مثلها، فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس؛ فأبى موسى من ذلك، ومنعه دينه منه، وجدّ في السير (١٧)، حتى قدم والوليد حي، فسلم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر، فلم يمكث الوليد إلاّ

(١) نفع الطيب (٢٦١/١).

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (٣٤).

(٣) الإمامة والسياسة (٨٢/٢ - ٨٣).

(٤) فجر الأندلس (١٠٧).

(٥) الإمامة والسياسة (٨٣/٢) وانظر البيان المغرب (٢٥/٢).

(٦) التريص : الانتظار.

(٧) جد في السير : أسرع.

يسيراً بعد قدوم موسى ، وتوفي واستخلف سليمان ، فحقده عليه وأهانته (١) .
وقيل : إن موسى وصل الى دمشق بعد وفاة الوليد ، فقدم على سليمان
حين استخلف (٢) .

(١) نفع الطيب (٢٦٢/١) وانظر تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦) .
(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٨٤) وانظر المعجب في أخبار المغرب (٣٥/١) . وفي الامامة والسياسة
(٨٤/٢) : « لما أنضت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك ، بحث إلى موسى ، فأتى به ، فنفقه بلسانه ،
وكان فيما قال له يومئذ : « اجترأت ، وأمرى خالفت ، والله لأقتل عدوك ، ولأفرقن جمعك ، ولأبدن
مالك ، ولأضمن منك ما كان يرغمه غيري من كنت تمنيه أمانى القروور ، وتخذعه من آل أبي سفيان ،
وآل مروان » . فقال له موسى : « والله يا أمير المؤمنين ما تمثّل عليّ بذهب ، سوى أنني وفيت للخلفاء
قبلك ، وحافظت على من ولي النعمة عندي فيه . فأما ما ذكر أمير المؤمنين ، من أنه يقتل عددي ويفرق
جمعي ، ويهدد مالي ، ويخلف حالي ، فذلك بيد الله وإلى الله ، وهو الذي يتولى النعمة على الاحسان
إلي ، وبه أستعين ، ويهدد الله عز وجل أمير المؤمنين ويحصمه أن يجري على يديه شيئاً من المكروه . لم
صحقه ولم يبلّغه ذنب اجترأته » .

فأمر سليمان أن يوقف في يوم صائف شديد الحر على طريقه ، وكانت بموسى نسمة (ربه) فلما
أصابه حر الشمس وأتعبه الوقوف ، هاجت عليه ، وجعلت قرب المرقن تصب منه ، فما زال كذلك
حتى سقط ، وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً ، إلى أن نظر سليمان إلى موسى ، وقد وقع منشياً عليه ،
قال عمر بن عبد العزيز : « ما مر بي يوم كان أعظم عندي ، ولا كنت فيه أكره من ذلك اليوم لما
رأيت من الشيخ موسى ، وما كان عليه من بعد أثره في سبيل الله ، وما فتح الله على يديه ، وهذا يفعل به ! »
فالتفت إلى سليمان ، فقال : « يا أبا حفص ! ما أظن إلا قد خرجت من يميني » . فقال عمر : « فاغتنمت
ذلك منه فقلت : يا أمير المؤمنين ! شيخ كبير بادن ، وبه نسمة قد أهلكته ، وقد أتيت على ما فيه من
السلامة لك من يمينك ، وهو موسى البعيد الأثر في سبيل الله ، العظيم الفناء عن المسلمين . قال عمر :
منهي من الكلام فيه ، ما كنت أعلم من يمينه وحقده عليه ، فخشيت إن ابتدأته أن يلج عليه ، وهو
لجوج . قال عمر : فلما قال لي ما قال آخراً ، حمدت الله على ذلك ، وعلمت أن الله قد أحسن إليه ،
وأن سليمان قد ندم فيه . فقال سليمان : من يضمه ؟ فقال يزيد بن المهلب : أنا أضمه يا أمير المؤمنين .
قال : وكانت الحال بين يزيد وسليمان لطيفة خاصة . قال سليمان : فضمه إليك يا يزيد ، ولا تضيق
عليه ، قال : فانصرف به يزيد ، وقد قدم إليه دابة ابنه مخلد ، فركبها موسى ، فأقام أياماً . قال : ثم
إنه تقارب ما بين موسى وسليمان في الصلح ، حتى افتتد منه بثلاثة آلاف دينار ... انتهى .

ومن الواضح أن المبالغة والتناقض يسودان هذه الرواية ، فالوليد تارة قاس لا يتورع عن
مهلبي شيخ فان عذاباً يقربه من حافة القبر ، وهو رحيم تارة أخرى وفي نفس الوقت بحيث يوصي
بهذا الشيخ غيراً فلا يرغى أن يضيق أحد عليه ! كما أن هذه القصة تناقض ما جاء عن سليمان من مزايـا =

لقد قدم موسى على الوليد قبل وفاته بأربعين يوماً - وهذا ما نرجحه -
ومعه غنائم ضخمة يعجز عنها الوصف ، ولكن الظاهر أن قلب الوليد كان
متغيراً على موسى تغيراً لا سبيل إلى إصلاحه ، فلم يحسن الوليد لقاء موسى ،
ثم لم يلبث الوليد أن لقي ربه وخلفه أخوه سليمان وهو أشد من أخيه غضباً
على موسى ، ولهذا كان طبيعياً ألاّ ينتظر موسى خيراً كثيراً ، وأن يدرك
أن أيام مجده وعزه قد مضت مع أمس الدابر .

بيد أننا نستبعد صحة ما يبالغ فيه المؤرخون من أفاعيل سليمان بموسى ،
فمن المستبعد ما يقال : إن سليمان كان يقيم موسى في الشمس حتى يكاد يغمر
عليه من شدة التعب والجهد والحر^(١) ، وأن سليمان حبسه وأمر بتقصي حسابه^(٢)
فأغرمه غرمًا عظيماً كشفه فيه ، حتى اضطر إلى أن سأل العرب معونته ،
فيقال : إن لخمًا حملت عنه من أعطيتها تسعين ألفاً ذهباً ، وقيل حملته
سليمان غرم مائتي ألف ، فأدّى مائة ألف وعجز ، فاستجار بيزيد بن المهلب ،
فاستوبه من سليمان ، فوجهه إياه إلا أنه عزل ابنه عبد الله عن إفريقية^(٣) ،
وأن سليمان ألزم موسى أن يطوف بالقبائل محروساً يستجديها مالاً يفتدي
به نفسه ، حتى لقد كان يستجدي الدرهم والدرهمين ، فيفرح بذلك موسى
ويدفعه إلى الموكلين به ، فيخففون عنه العذاب !!^(٤) ، لأن سليمان لو كان

= فهو : « مفتاح الخير : أطلق الأسارى واخل السجون وأحسن إلى الناس واستخلف عمر بن عبد العزيز .
البحر ، كما جاء في الطبري (٣٠٤/٥) ، فكيف يقوم على تملبب شيخ له ماض مجيد كما وصفه عمر بن
عبد العزيز بالذات وكما يعرف عنه الناس جميعاً ؟ !

يبدو أن هذه القصة وأمثالها من جملة القصص الموضوعة للتشجيع بسليمان وغيره من رجال العرب
المسلمين من الخلفاء ومن الذين عملوا معهم في تلك الفترة الذهبية من تاريخ العرب والاسلام ، وأمثال
هذه القصص ظاهرة التهافت والتناقض لا تستقيم مع خلق العرب وتعاليم الاسلام التي كانت سائدة
حينذاك .

(١) انظر التفاصيل في الامامة والسياسة (٨٤/٢ - ٨٥) .

(٢) تقصى حسابه : أي تبيمه وشدد البحث عنه لتعرف حقيقته .

(٣) نفح الطيب (٢٦٢/١) .

(٤) انظر التفاصيل في نفح الطيب (٢٦٥/١ - ٢٦٦) .

قد أنزل بموسى هذه المساءات لما ترك اولاده ولاية على إفريقيا والأندلس ،
ولأن موسى كان أثيراً على نفس يزيد بن المهلب وزير سليمان بن عبد الملك
وصاحب الأمر في دولته (١) ، ولأن عمر بن عبد العزيز كان من أقرب المقرّبين
إلى سليمان ، ومن المستحيل أن يرضى عمر بن عبد العزيز عن مثل تلك التصرفات
دون أن يقول كلمته لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، ولأن سيرة سليمان
الذي وصفه المؤرخون بأنه مفتاح الخير . أطلق الأسارى وخلق أهل السجون
وأحسن إلى الناس واستخلف عمر بن عبد العزيز (٢) ، لا تستقيم مع اتهامه بالتنكيل
بموسى وهو شيخ كبير له ماضٍ ناصع مجيد في خدمة العرب والمسلمين . إننا
نستبعد أن يعاقب سليمان تابعياً جليلاً هو موسى بن نصير ، أسس ملكاً وقضى
سني حياته مجاهداً في سبيل الله لمجرد حالة ظلمة أو وشاية في حقّه ، حتى قصة
مقتل عبد العزيز بن موسى لم يكن لسليمان يد فيها ، ذلك لأن سليمان غضب
لمقتل عبد العزيز ، وأرسل إلى الأندلس عاملاً من قبله للتحقيق في مقتل عبد
العزيز ، والقبض على قتلته وإرسالهم إليه (٣) .

لقد كان موقف سليمان من موسى سليماً ، وحقائق التاريخ تعلو دائماً
على المبالغات المدسوسة عن قصد أو عن غير قصد .

ولكن ، لماذا عزل الوليد بن عبد الملك موسى عن إفريقيا والأندلس
وأقرّ سليمان هذا العزل ؟ ولماذا استدعى الوليد موسى من ساحات القتال
على عجل ولم يمهله حتى يحقق كل نياته التوسعية في الفصح ؟

(١) فجر الأندلس (١٠٨) .

(٢) الطبري (٣٠٤/٥) .

(٣) انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٦ - ١٠٧) . وفي الأخبار المجموعة (٢٢) :
« ولما بلغ سليمان مقتل عبد العزيز بن موسى ، شق عليه ذلك ، فولى إفريقيا بن يزيد ... وأسره
سليمان فيها فطع حبيب بن أبي عبيدة وزهاد بن النابغة من قتل عبد العزيز بأن يقتله في ذلك وأن يقتلها
إليه ومن شاركهما في قتل من وجوه الناس ... » .

٢ - أسباب استدعاء موسى الى دمشق وعزله :

كان للخلفاء أساليب خاصة لمعرفة تفاصيل أعمال ولايتهم وقادتهم وتصرفاتهم للإطمئنان الى أن أولئك الولاة والقادة لا يخرجون عن الخطّة التي رسمها لهم الخلفاء ، وليحول الخلفاء - جهد الإمكان - دون خروج الولاة والقادة عليهم عند سنوح الفرصة المناسبة .

من تلك الأساليب الخاصة التي يسيطر بها الخلفاء على قادتهم وولايتهم ، خاصة في الأصقاع النائية عن عاصمة الخلافة - هي إرسال من يعتملون عليهم من الرجال ، لينقلوا اليهم بدقة وسرعة وأمانة كل ما يروونه ضرورياً لجعل الخلفاء مطمئنين من سير الأمور في مختلف البلاد والأمصار كما يريدون . كان مغيث الرومي أحد من يعتمد عليه الوليد بن عبد الملك ، لأن عبد الملك بن مروان كان قد أدّبه مع ولده الوليد ، وقد نشأ بدمشق ودخل الأندلس مع طارق فاتحها . وقد وقع بينه وبين طارق ، ثم وقع بينه وبين موسى ، فرحل معهما إلى دمشق ، ثم عاد ظافراً عليهما إلى الأندلس . وكان مغيث مشهوراً بحسن الرأي والكيّف (١) ، وكان يطمع بولاية الأندلس ، فلما عزم سليمان على تولية طارق بن زياد الأندلس استشار مغيث الرومي فصرفه عن عزمه . وقد بالغ في إذابة موسى عند سليمان (٢) . ويروى لمغيث شعر خاطب به موسى بن نصير وطارق بن زياد منه قوله :

أَعْتَنَكُمُ وَلَكِنْ مَا وَفَيْتُمْ فسوف أعيب في غرب وشرق

وعارض يوماً مغيث في محفل في الناس موسى بن نصير ، فقال له موسى :
« كَفَّ لِسَانَكَ » ، فقال مغيث : « لِسَانِي كَالْفَصْلِ ، مَا أَكْفَتُهُ إِلَّا حَيْثُ
يَقْتُلُ » (٣) .

(١) تلح الطيب (١١/٤) .

(٢) تلح الطيب (١٢/٤) .

(٣) تلح الطيب (١٣/٤) .

والظاهر أن مغيثاً هذا لم يدّخر وسعاً في تشويه سمعة موسى عند الوليد وعند سليمان من بعده طمعاً في تولي الأندلس من بعد موسى ، أو انتقاماً من موسى ، فحقق سليمان جميع ما رمى به موسى عنده ، فأغرمه غرماً عظيماً^(١) ومن هذا يتضح أن من جملة ما رمى مغيث به موسى هو أنه لم يتصرف بأمانة في الغنائم .

فهل كان اتهام موسى بنزاهته حقاً ؟ الحق أن مغيثاً ليس وحده اتهم موسى بالغلول أو بعدم تطبيق نصوص الشرع في الغنائم ، فقد ذكروا أن سليمان بينما كان يقلّب هدايا موسى التي جاء بها من الأندلس وإفريقية ، إذ انبعث رجل من أصحاب موسى يقال له عيسى بن عبد الله الطويل من أهل المدينة المنورة ، وكان على الغنائم ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! إن الله أغناك بالحلال عن الحرام ، وإني صاحب هذه المقاسم ، وإن موسى لم يخرج خمساً من جميع ما أتاك » ؛ فغضب سليمان وقام عن سريره ، فدخل منزله ثم خرج إلى الناس فقال : « نعم . قد أغناني الله بالحلال عن الحرام » ، وأمر بادخال ذلك بيت المال^(٢) .. ولكن ذلك لا يكفي لاثبات التهمة الموجهة إلى نزاهة موسى ، وهو الذي عرف بالتدين العميق كما سترى ، ولو ثبت ذلك عليه لما توسّط له عمر بن عبد العزيز عند سليمان فعفا عن موسى^(٣) ، وعمر ابن عبد العزيز معروف بالتزامه بتعاليم الشرع الحنيف .

ولست أشك أن موسى كان نزاهة غاية النزاهة ، فقد أغناه الله هو الآخر ، بالحلال عن الحرام ، فلماذا يردى إلى مهاوي الخيانة وقد فتحت عليه أبواب الخير ؟

فما هي الأسباب الحقيقية لاستدعاء موسى إلى دمشق وعزله ؟ يبدو أن الوليد ومن بعده سليمان اعتقدا أن موسى غرّر بالمسلمين ، وأنه

(١) نفح الطيب (١/٢٦٢) .

(٢) نفح معر. والمغرب (٢٨٤) .

(٣) انظر الامامة والسياسة (٩٢ - ٩٣) .

عرضهم للمهالك بتغلغله الى حدود بعيدة في الأندلس ، كما أنهما خشيًا من طموح موسى في التغلغل الى بلاد أبعد من الأندلس فيقود المسلمين الى رومية (١) ، وأن موسى : « أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام ودروبه ودروب الأندلس ، ويخوض اليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية ، مجاهداً فيهم ، مستلحماً لهم ، إلى أن يلحق بدار الخلافة » ، فمني هذا الخبر الى الوليد ، فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أن ما هم به موسى غررٌ بالمسلمين ، فبعث اليه بالتوبيخ والانصراف ، وأسر إلى سفيّره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع ، وكتب له بذلك عهده ؛ ففت ذلك في عزم موسى ، وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بشغورها ، وأنزل ابنه عبد العزيز لسدّها وجهاد عدوّها (٢) . والظاهر أن الخلفاء لم يكونوا مطمئنين على أمن المسلمين في الأندلس حتى بعد الوليد وسليمان ، فقد فكّر عمر بن عبد العزيز في إقبال المسلمين من الأندلس وإخلاصها ، إذ خشي تغلب العدو عليهم (٣) ؛ فاذا كان هذا ما يعتقده عمر ابن عبد العزيز الذي تولى الخلافة سنة تسع وتسعين الهجرية (٤) ، فلماذا نلوم الوليد وقد استدعى موسى سنة خمس وتسعين الهجرية (٥) ، والفتح كان في أوله ، والأندلس جد بعيد عن دار الخلافة ؟

ولذا كان عمر بن عبد العزيز قد خشي على المسلمين في الأندلس بعد استقرار الفتح فيها ، فكيف لا يخشى الوليد ومن بعده سليمان على المسلمين في الأندلس من طموح موسى في التغلغل بهم بعيداً بعيداً الى رومية والى القسطنطينية ؟ لقد كان طموح موسى في التوسّع بالفتح ، سبباً واضحاً لاستدعائه الى

(١) الإمامة والسياسة (٨١/٢) .

(٢) نفع الطيب (٢١٨/١) .

(٣) تاريخ افتتاح الأندلس (٢٩) والأخبار المجموعة (٢٣) .

(٤) الطبري (٣٠٤/٥) .

(٥) نفع الطيب (٣١٨/١) وفتح مصر والمغرب (٢٨٤) .

دمشق ، وهذا السبب - فيما أرى - من الأسباب الجوهرية لاستدعائه .

وهناك سبب آخر لا يقلّ خطورة عن السبب السابق ، هو اتهام موسى بالخلع . فقد ذكروا أن الوليد بن عبد الملك لما بلغه مسير موسى الى الأندلس ، ووصفت له ، ظن أنه يريد أن يخلع ، ويقيم فيها ويمتنع بها ، وقيل له ذلك ؛ وأبطأت كتب موسى عليه ، لاشتغاله بما هنالك من العدو ، وتوطئته لفتح البلاد^(١) ، مما زاد في شكوك الوليد في نيات موسى هذه في محاولته الاستقلال أو التحرر من سلطان الخلافة . ولعلّ الذين أدخلوا هذه الشكوك في روع الوليد لم ينسوا أن يذكروا له سيطرته التامة هو وأولاده ومواليه على إفريقية والأندلس مما ضاعف تلك الشكوك وجعلها بعيدة عن الخدس قرينة من التصديق .

ولعلّ اتهام موسى بالخلع ، هو الذي يفسّر لنا ، لماذا لم تختلف نظرة سليمان على سلفه الوليد الى موسى مع ما بين السلف والخلف من تناقض كثير كما هو معروف ، ذلك لأن أصحاب السلطان إذا اختلفوا في كل شيء ، فلأنهم يتفقون على شيء واحد ، هو عدم التغاضي عن كل من يريد التحرر من ربقتهم والاستقلال عنهم سواء كان إتهامه حقاً أم باطلاً . كما أنهم كانوا ولا يزالون يدخلون في حسابهم لمقاومة الذين يخرجون عليهم أو الذين يتهمونهم بالخروج زوراً وبهتاناً - يدخلون في حسابهم أسوأ الاحتمالات ، ويكفي أن يقدموا على أخذ المتهم بذلك في حالات الظن وفي حالات اليقين .

سأل سليمان مغيثاً عن طارق بن زياد ، وقد أراه أن يوليه الأندلس بعد موسى ، فقال : « كيف أمر طارق بالأندلس ؟ » ، فقال مغيث : « لو أمر أهلها بالصلاة الى أى قبلة شاءها ، كتبعوه ولم يروا أنهم كفروا » ، فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان ، وبدلاً له في ولايته^(٢) ، وهذا يدل بوضوح على السياسة التي كان يتبعها سليمان في تولية الولاة ، إذ يستعد عن الولاية

(١) الامامة والسياسة (٧٥/١) .

(٢) نفح الطيب (١٢/٤) .

كلّ من يخشى خطره من بعيد أو قريب .

وكان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، من أقرب المقرّبين الى سليمان بن عبد الملك ، وكان لموسى يد على المهلب بن أبي صفرة^(١) ، وقد سأل يزيد يوماً موسى : « أريد أن أسألك فاصغ إليّ » ، فقال موسى : « سل عما بدّ لك » ، فقال : « لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكايد الحروب ومُدَاراة الدنيا ، فقل لي : كيف حصلت في يدي هذا الرجل (يعني سليمان بن عبد الملك) بعد ما ملكت الأندلس ، وألقيت بينك وبين هؤلاء البحر الزخار^(٢) ، وتيقّنت بُعد المرام واستصعابه ، واستخلصت بلاداً أنت اخترعتها ، واستملكك رجالاً لا يعرفون غير خيرك وشرّك ، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعاقل والرجال ما لو أظهرت به الإمتناع ما ألقيت عنقك في يد من لا يرحمك . ثم إنك علمت أن سليمان ولي عهد ، وأنه المولى بعد أخيه ، وقد أشرف على الهلاك لا محالة^(٣) ، وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التهلكة وأخذت مالكم ومملوكك (يعني سليمان وطارقاً) ، وما رضا هذا الرجل إلا بعيد ، ولكن لا آلو جهداً^(٤) » ، فقال موسى : « يا ابن الكرام ! ليس هذا وقت تعديد ، أما سمعت : إذا جاء الحين^(٥) ، غطى على العين ؟ » . فقال يزيد : « ما قصدت بما قلت لك تعديداً وتبكيئاً ، وإنما قصدت تلقيح العقل ، وتنبيه الرأي ، وأن أرى ما عندك ! » ، فقال موسى : « أما رأيت الهدهد يرى الماء تحت الأرض عن بُعد ، ويقع في الفخ وهو بمرأى عينه ؟ »^(٦) .

وسهر يزيد بن المهلب ليلة عند موسى فقال له : « يا أبا عبد الرحمن !

(١) أنظر الامامة والسياسة (٢/٩٤ - ٩٥) .

(٢) أنهر الزغار : الطامي المتعلّج الجياش بالأمواج .

(٣) أشرف على الهلاك : أراد أنه قارب الموت لمؤ حاله .

(٤) لا آلو جهداً : لا أقصر فيما لدي من الجهد والوسع أن أبذله في إرضائه عنك .

(٥) الحين : الهلاك والموت .

(٦) نفع الطيب (١/٢٦٥) .

في كم تعتد من مواليك وأهل بيتك ؟ » . فقال له موسى : « في كثير » ، فقال يزيد : « يكونون ألفاً ؟ » ، فقال له موسى : « وألفاً وألفاً الى منقطع النفس » ، فقال له يزيد : « وأنت على ما وصفت ، وألقيت بيدك إلى التهلكة ؟ ! أ فلا أقمت في قرار عزك وموضع سلطانك ، وامتنعت بما قدمت به ؟ فإن أعطيت الرضى ولا كنت على عزك وسلطانك » ، فقال له : « والله لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافي طرفاً ، ولكني آثرت الله ورسوله ، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة (١) » .

تلك هي أسباب إستدعاء موسى من الأندلس الى دمشق وعزله ، وهذا لا يمنع من وجود أسباب تافهة أخرى أخذها على موسى كل من الوليد وسليمان . وأياً كانت أسباب حق الوليد وسليمان على موسى ، فإن فاتح الأندلس لم يلق الجزاء الحق ، بل غمط حقه وفضله ، وأبدت الخلافة بهذا الجحود والكران ، أنها لم تقدّر البطولة في هذا الموطن قدرها (٢) . ولعلّ عذر الوليد ومن بعده سليمان أن موسى كان يمثل خطراً شديداً على الخلافة بعد امتداد سلطانه إلى أعماق إفريقية وأوروبا وسيطرته على تلك الأصقاع النائية سيطرة شخصية وبأولاده ومواليه وأتباعه ، مما فسح المجال لتقولات خصومه وحاسديه عليه ، ومن الواضح أن موسى - في حقيقة أمره - كان بعيداً كل البعد عن الاختلاس ، ولم يكن تغلغله في تلك الأصقاع النائية التي ظن الخلفاء أنه غرّر بالمسلمين وعرضتهم للأخطار ، إلاّ عن رغبته الأكيدة بالفتح ونشر رايات الإسلام مع تمكنه وثقته بقابليته وقابلية رجاله على تحمل أعباء هذا الفتح العظيم وتبعاته ، فكان المسلمون في أمن ودعة لا في خطر وشدة - كما ظنّ الخلفاء بما أوحى اليهم خصوم موسى وحاسدوه . كما أن موسى لم يفكر أبداً بالخلع والاستقلال عن الخلافة ، فقد كان إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها ، وشدة ضبطه وابتعاده عن شق

(١) البيان المغرب (٢/٢٥ - ٢٦) وانظر البيان المغرب (١/٤٢) .

(٢) دولة الاسلام في الأندلس - العصر الأول - القسم الأول . (٥٨) وانظر فجر الأندلس (١٠٩) .

عصا الطاعة ، والإنزلاق في مهاوي الفتن والفرقة ، كل ذلك يجعله بعيداً عن اتهام خصومه وحاسديه بالخلع أو الاستقلال الذاتي ، خاصة وأنه في ذلك الوقت كان قد بلغ حوالي الثمانين من عمره ، تلك السن التي لا تشجع على المغامرة وتجعل من صاحبها رجلاً ذا تجربة وخبرة بعيد النظر مقدراً لعواقب الأمور .

لقد ذهب موسى ضحية الدس والحسد ، فخسر العرب المسلمون بتنحيته بطلاً من ألمع أبطالهم ورجلاً من أنبغ رجالهم ، وكانت تنحيته نكسة قاصمة للفتح الإسلامي في الأندلس وأوروبا .

ولكن ، هل خسر العرب والمسلمون موسى وحده نتيجة للدس والحسد ١٩٩

٣ - الرجل :

أ - الاداري :

كان موسى إدارياً حازماً ، استطاع السيطرة على منطقة ولايته في إفريقية والمغرب والأندلس سيطرة كاملة بناء منشئة بكل كفاية وجدارة ، وقد أعانته عقلية الجبارة على التفكير العميق في تطوير البلاد التي تحت نفوذه ، وكان من أولئك الولاة الذين يفكرون بما يعملون ، ويعرفون ما يريدون ، وينفذون ما يخططون .

كان حسان بن النعمان إدارياً ممتازاً كما مرّ بنا ، فلما ارتحل الى المشرق ، اختلفت أيدي البربر فيما بينهم على إفريقية والمغرب ، فكثرت الفتن ، وخلت أكثر البلاد ، حتى قدم موسى بن نصير ، فتلافى أمرها ، ولم شعثها (١) . قال أبو عتيك في حسان وخليقته موسى :

أقول لأصحابي عشية جاءنا بغير الذي نهوى البريد المبشر

(١) الاستقصا (١/٨٤) .

ألا ما الذي غال ابن نعمان دوننا فقلّ متاح الخير والخير يقدر
 فقلت ولم أملك سوابق عبرة فنعم الفتي المعزول والمتنظر (١)
 وقال عبيد الله بن عوف الخولاني في حسان وموسى أيضاً :
 كنّا نوُمِّل حساناً وإمرته حتى أتاانا (٢) أمير غير حسان
 النصر يقدمه والحزم سائقه عفّ الخلائق ماضٍ غير وسان
 الحق نسبته والعدل سيرته جزل المواهب معطر غير منان (٣)

ولقد صدق الشاعر في وصف مزايا موسى : النصر في ركابه ، والحزم
 في قراراته ، والخلق الكريم من مزايه ، والحق رائده ، والعدل سيرته ،
 والكرم هدفه ، والمواهب السامية خصاله .

كان موسى عاقلاً شجاعاً كريماً (٤) ، وقد بذل جهوداً عظيمة لنشر
 الإسلام في إفريقية والمغرب : ترك رجالاً من الدعاة ليعلموا البربر القرآن
 وفرائض الإسلام ، ثم رجع إلى إفريقية ، ولم يبق بالبلاد (المغرب) من
 ينازعه من البربر ولا من الروم (٥) . وقد أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن
 ويفقهوهم في الدين (٦) . وفي سنة خمس وثمانين الهجرية تمّ لإسلام أهل
 المغرب الأقصى وحوّلوا المساجد التي كان بناها المشركون إلى القبلة ،
 وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات (٧) فاستأمن البربر إليه وأطاعوه (٨) .
 وكان البربر قد ارتدوا اثني عشرة مرة من (طرابلس) إلى (طنجة) ،

(١) تهذيب ابن عساكر (١٤٦/٤) .

(٢) في الأصل : أتى ، والصحيح ما ذكرناه أعلاه ، لأن الوزن الشعري لا يستقيم إلا بهذا التصحيح .

(٣) تهذيب ابن عساكر (١٤٧/٤) .

(٤) نفح الطيب (٢٢٤/١) ووفيات الأعيان (٤٠٢/٤) .

(٥) نفح الطيب (٢٢٤/١) .

(٦) البيان المغرب (٣٦/١) .

(٧) البيان المغرب (٣٧/١) .

(٨) ابن الأثير (٢٠٦/٤) .

ولم يستقر إسلامهم حتى عبر موسى البحر إلى الأندلس وأجاز معه كثيراً من رجالات البربر برسم الجهاد ، فاستقروا هنالك ، فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه ، وتناسوا الردة^(١) .

بهذه الخطوة العملية الرائعة استطاع موسى أن ينشر الإسلام في ربوع المغرب ، وبذلك أشاع الانسجام الفكري بين البربر والعرب بغرس تعاليم الإسلام في نفوس البربر ، فوحد بذلك صفوفهم وجمع كلمتهم مع إخوانهم العرب المسلمين ، فأصبح البربر مع العرب قوة موحدة هائلة وجدت لها متنفساً في فتح الأندلس ، فربط موسى بهذا الفتح مصير الفاتحين من العرب المسلمين وإخوانهم البربر المسلمين ، وجعلهم يدافعون عن عقيدة واحدة بقيادة واحدة لتحقيق هدف واحد هو : إعلاء كلمة الله ونشر دينه في الأرض ، حتى تكون كلمة الله هي العليا .

ومن أعمال موسى الإدارية : أنه ضرب أول عملة إسلامية في الأندلس ، إذ لم يكده يستقر في (طليطلة) حتى سارع بضرب عملة ذهبية ليدفع منها رواتب الجند الذين كانوا معه ، ولسنا نعلل ضرب موسى لهذه العملة الذهبية — التي كانت في ذلك الحين من حق الخليفة وحده — إلا بأن الخليفة كان قد خوله هذا الحق في إفريقية ، فأباحه لنفسه في الأندلس ، لأنها كانت معتبرة في نظره أرضاً مفتوحة تابعة لإفريقية ، وكان المسلمون يتعاملون خلال هذه الفترة القصيرة في الأندلس بالعملة الإفريقية التي ضربها موسى قبل ذلك سنة تسعين الهجرية ؛ وقد رُسمت هذه الدنانير الذهبية الجديدة على هيئة العملة الإفريقية : كانت لاتينية عربية ، ففي ناحية منها كتب : (محمد رسول الله) يحيط به النص التالي باللاتينية على هيئة دائرة :

In nomine Domini. non Deum nisi. Solus Spiens. non Deo similis Alius.

وفي الناحية الثانية نجمة ذات ثمانية أذرع كتب حولها باللاتينية :

Soldus Feritus in Spania.

(١) الاستقصا (٨٩/١) .

ويلى ذلك تاريخ سكّتها وهو سنة سبع وتسعين الهجرية (١). ومن أعماله الإدارية التي تتسم بالطابع العسكري أيضاً ، تحسينه (دار الصناعة) التي كانت بمدينة (تونس) ، والتي مرّ بنا ذكرها في ترجمة حسن ابن النعمان . ودار الصناعة هي الدار التي أُعدّت لصناعة السفن لخوض المعارك البحرية ومهاجمة الجزر في البحر الأبيض المتوسط والدفاع عن سواحل إفريقيا والمغرب ، ونقل المواد والمعدات الى المجاهدين في البحر . فقد أمر موسى بدار الصناعة بتونس ، وجرّ البحر إليها ، فعظّم عليه الناس ذلك . ولكن موسى لم يلتفت إلى أقاويل الناس ، فوضع يده ، وبني دار الصناعة بتونس ، وجرّ البحر إليها مسيرة اثني عشر ميلاً ، حتى أقحمه دار الصناعة ، فصارت مشقّة للمراكب إذا هبّت الأنواء والأرياح . ثم أمر بصناعة مائة مركب . وحين أصابت مراكب إحدى حملات المسلمين البحرية ربح عاصف ، أمر موسى بتلك المراكب ومن نجى من النواتية ، فأدخلهم دار الصناعة بتونس (٢) .

ومن الواضح أن الذي بدأ بإنشاء دار الصناعة بتونس هو حسن بن النعمان سلف موسى على إفريقيا والمغرب ، وأن موسى حسن هذه الدار وطهر القناة التي توصلها بالبحر وجعل قابليتها في إنشاء السفن وتدريب النواتية أكثر كفاية ومقدرة ، فأصبح بإمكان هذه الدار إنشاء المراكب وتدريب البحارة وتصليح السفن ، مما سهّل على موسى مهمته في جهاده البحري وفي فتح الأندلس .

ومن أعماله الإدارية الخالدة ، نشر اللغة العربية بين البربر ، وذلك بإرسال المعلمين والاختلاط الشديد بين العرب والبربر ، كما أن إقبال البربر على الإسلام أدى إلى إقبالهم على تعلّم اللغة العربية وانتشارها بينهم ، مما كان له أكبر

(١) Saavedra. Op. Cit. pp. 106-107. نقلا عن فجر الأندلس (١٠٠ - ١٠١) .

(٢) انظر التفاصيل في الامامة والسياسة (٦٩/٢ - ٧٠) .

الأثر على عروبة المغرب . كما أن اتجاه موسى العملي إلى عدم التفرقة بين العرب المسلمين والبربر المسلمين في إسناد المناصب إلى الأكفاء منهم جعل من البربر المسلمين سنداً قوياً للعرب المسلمين ، وجعل منهم فاتحين يسرون جنباً إلى جنب مع إخوانهم العرب المسلمين للفتح . ولعلّ تولية طارق بن زياد ، وهو بربري ، على أصح الأقوال ، أخطر المناصب القيادية ، خير دليل على عدم تفرقة موسى بين المسلمين من بربر وعرب ، وأن الكفاية وحدها كانت هي التي تُقدّم وتؤخر في نظر موسى ، مما جعل البربر يبذلون قصارى جهدهم في الفتح سواء كان ذلك في ساحات إفريقية والمغرب أو في ساحات الأندلس وجزائر البحر الأبيض المتوسط .

لقد كان موسى رجل دولة بكل ما في هذه الكلمة من معاني .

ب - لمحات من حياته :

كان موسى من التابعين رضي الله عنه ، روى عن تميم الدَّارِي وروى عنه يزيد بن مسروق اليحْصِي^(١) ، وعدّه المؤرخون من بين العلماء ورواة العلم^(٢) .

وكان ورعاً تقياً لله^(٣) ، وقد وجد موسى أكثر مدن إفريقية خالية لاختلاف أيدي البربر عليها ، وكانت البلاد في قحط شديد ، فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين ، وخرج بهم إلى الصحراء ومعه سائر الحيوانات وفرّق بينها وبين أولادها ، فوقع البكاء والصراخ والضجيج ، وأقام على ذلك إلى منتصف النهار ، ثم صلى وخطب الناس ولم يذكر الوليد ابن عبد الملك ، فقبل له : ألا تدعو لأمر المؤمنين؟! فقال : « هذا مقام

(١) تاريخ العلماء والرواة بالأندلس (١٤٤/٢) وجنوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس (٣١٧) وبغية الملتبس (٤٤٢) ووفيات الأعيان (٤٠٢/٤) والبداية والنهاية (١٧١/٩) وانظر فتح الطيب (٢٥٩/١) .

(٢) تاريخ العلماء والرواة بالأندلس (١٤٤/٢) .

(٣) وفيات الأعيان (٤٠٢/٤) وفتح الطيب (٢٢٤/١) .

لا يدعى فيه لغير الله تعالى ، فسقوا حتى رووا ورخصت الأسعار^(١) .
وفي رواية أن موسى لما قحط الناس خرج بالناس فاستسقى ، وأمر رجلاً
يصلّي بالناس ، وخطب فيهم ، ثم أخذ في الدعاء الوليد فأكثر ، فأرسل
إليه موسى : « إنا لم نأت لذلك ، فأقبل على ما قصدنا إليه وجلسنا من أجله » ،
فلم يلتفت إلى كلامه ، وتمادى في حاله رجاء أن يبلغ ذلك الوليد فينال عنده
منزلة ، فأمر به موسى فسُحِبَ حتى أخرج من بين الناس ، ثم قام موسى
فأخذ بالدعاء^(٢) .

وكان موسى عربياً فصيحاً ، وقد سبق من مُراجعة يزيد بن المهلب
ما يدل على بلاغته . وقد كتب إلى الوليد بن عبد الملك فيما هاله من فتوح
الأندلس وغنائمها : « إنها ليست الفتوح ، ولكنها الحشر »^(٣) .

وكتب إليه عبد الله بن عبد الملك بن مروان^(٤) أمير مصر رسالة يهدّده
فيها ، فكتب إليه موسى : « أما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت ما وصفت
فيه من إركاني إلى أبويك وعمك ، ولعمري إن كنت لذلك أهلاً ، ولو
خبرت مني ما خبرا ، لما صغرت مني ما عظمت ، ولا جهلت من أمرنا ما
علما ، فكيف أتاه الله لك . فأما انتقاصك لهما فهما لك وأنت منهما ولهما
منك ناصر لو قال وجد عليك مقالاً ، وكفاك جزاء العاق . فأما ما نلت من
عرضي ، فذلك موهوب لحق أمير المؤمنين لا لك . وأما تهديدي إياي
بأنك واضع مني ما رفعا ، فليس ذلك بيدك ولا إليك ، فارعد وأبرق لغيري .
وأما ما ذكرت مما كنت آتي به عمك عبد العزيز ، فلعمري إني ممّا نسبني إليه
من الكهانة لبعيد ، وإني من ههنا من العلم لقريب ، فعلى رسلك ، فكأنك
قد أظلتك الهدى الطالع والسيف القاطع والشهاب الساطع ، فقد تمّ لها^(٥)

(١) ابن الأثير (٢٠٦/٤) ورياض النفوس (٧٨/١) ووليات الأعيان (١٠٣/٤) .

(٢) رياهى النفوس (٧٨/١) .

(٣) بلع الطيب (٢٦٦/١) .

(٤) الظر ترجمته في الولاة والقضاة (٥٨ - ٦٣) والنجوم الزاهرة (١/٢١٠ - ٣١٧) .

(٥) الصمير للطلالة .

ونمت له ، ثم بعث إليك الأعرابي الجلف الجاني ، فلم نشعرُ به حتى يحل بعقوتك^(١) ، قيسلبك سلطانك ، فلا يعود إليك ولا تعود إليه ، فيومئذ تعلم أكاهن أم عالم ، وتوقن آيتنا النادم السادم^(٢) . والسلام^(٣) » ... وهذه الرسالة لا تدل على بلاغة موسى فقط ، بل تدل على قوة شخصيته وعسدم رضوخه للتهديد والوعيد ، حتى ولو جاء ذلك من أميره المباشر وابن عبد الملك أخ الوليد بن عبد الملك الخليفة القائم .

وقد جرت منازعة بين موسى وبين عبد الله بن يزيد بن أسيد بمحضر عبد الملك بن مروان ، أبلغات موسى الى أن قال شعراً منه :

جارت غير شوم في مطاولة لو نازع الحفل لم ينزع الى حصير^(٤) وكانت له معرفة مستفيضة بمزايا الأمم وخواصها نتيجة لتجربته الطويلة في الاختلاط بها ومحاربتها . سأل سليمان بن عبد الملك يوماً موسى فيما سأله : « أي الأمم كانوا أشد قتالاً ؟ » ، فقال : « إنهم يا أمير المؤمنين أكثر مما أصفهم ! » . فقال له : « أخبرني عن الروم » ، فقال : « أسود في حصونهم ، عقبان على خيولهم ، نساء في مواكبهم . إن رأوا فرصة افترصوها ، وإن خافوا غلبة فأوعال ، ترقل^(٥) في أجبال ، لا يرون عاراً في هزيمة تكون لهم منجاة ! » . قال سليمان : « فأخبرني عن البربر » ، فقال : « هم يا أمير المؤمنين أشبه العجم بالعرب : لقاء ونجدة ، وصبراً وفروسية ، وسماحة وبادية ، غير أنهم يا أمير المؤمنين غدر »^(٦) . قال : « فأخبرني عن الأشهبان^(٧) » ، فقال :

(١) عقة : الشعر الذي يولد عليه كل مولود .

(٢) السدم : البقعة ، الدم والحرث .

(٣) انظر الولاء والقضاء (٩٠ - ٩١) .

(٤) للبحر الطيب (٢٩٩/١) .

(٥) ترقل : رتل في سيرة ، أسرع ، والمرال : السريع .

(٦) والاسلام هذب من غلظهم ، فأصبحوا كالرب المسلمين سواء بسواء .

(٧) الأشهبان : الأشهبان وهم سكان أسبانيا .

« ملوك مترفون ، وفرسان لا يجبنون » ، فقال : « فأخبرني عن الإفرنج » (١) ، فقال : « هناك يا أمير المؤمنين العدد والعدة . والجلد والشدة ، وبين ذلك أمم كثيرة ، ومنهم العزيز ، ومنهم الذليل ؛ وكلاً قد لقيت بشكله ، فمنهم المصالح ، ومنهم المحارب المقهور ، والعزيز البذوخ » ، فقال : « فأخبرني كيف كانت الحروب بينك وبينهم ، أكانت عقباً » (٢) ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! ما هزمت لي راية قط ، ولا فضّ لي جمع ، ولا نكب المسلمون معي نكبة ، منذ اقتحمت الأربعين إلى أن شارفت الثمانين » (٣) .

وكما كان موسى خبيراً بالأمم نتيجة لتجاربه الطويلة في الحرب والسلام ، كذلك كان خبيراً بالخيال لأنها عدته الأولى في حربه وفي تنقله وفي حياته العامة والخاصة .

سأل سليمان بن عبد الملك موسى حين قدم من الأندلس : أيّ الخيل رأيته في تلك البلاد أصبر ؟ ، فقال : « الشقر » (٤) . وقال موسى : « إذا كان الأدهم » (٥) أحمر العينين ، فانه يُتَّهم بالحرّان » (٦) . وقال موسى : « يُختبر العسّر بأن يقفز الفرس خندقاً صغيراً سبع مرّات ، فإن رفع في كل المرّات يده اليمنى قبل اليسرى ، فاعلم أنه ليس بأعسر » ، والعسر (٧) مما يُكره في الخيل (٨) . وقال موسى : « تُختبر البلادة بأن تقف على عشرة

(١) الأفرنج : هم الفرنسيون ، سكان فرنسا .

(٢) عاقب بين الشينين : أتى بأحدهما بعد الآخر . والمراد أن يتتصر مرة ويفشل أخرى .

(٣) الامامة والسياسة (١٠٠/٢) .

(٤) حلية الفرسان وشعار الشجعان (٩٤) . وشقرة الخيل : حمرة صافية يحمر معها العرف والذنب ، فان اسوداً فهو الكميت .

(٥) الدهمة : السواد ، يقال : فرس أدهم أي أسود .

(٦) حلية الفرسان (١٠٨) .

(٧) العسر : قال الاصمعي : إذا عمل الرجل بشماله فهو أعسر ، وكذلك الفرس إذا قدم في مشيه شماله .

(٨) حلية الفرسان (١٠٩ - ١١٠) .

أذرع من الفرس ، وأرمه بخرقة أو ارم عِنانَه بِمِصْبَى ، فإن وقف فاتهمه
بيلادة ، وكذلك إن عطست وأنت راكبه ، أو نفضتَ بعض ثيابك ، ثم
اركبه وألق على الأرض ثوباً أبيض ، وامش به عليه ، فإن حذرَه فاعلم
أنه ذكي النفس ، وإلا فاعلم أنه بليد « (١) » .

لقد كان موسى عالماً فذاً ، ولولم تشغله الحروب لكان من ألع علماء
العرب المسلمين ، ولكان له في العلم شأن أي شأن . ومما ساعده على استيعاب
مختلف العلوم ، ما كان يتمتع به من ذكاء خارق وبديهة حاضرة .

حين قال لسليمان : « ما هزمت لي راية قط ، ولا فضت لي جمع ،
ولا نكب المسلمون معي نكبة منذ اقتحمت الأربعين ، إلى أن شارفت
الثمانين » ، قال سليمان : « فأين الراية التي حملتها يوم (مرج راهط) ،
مع الضحّاك (٢) ؟ » ، فأجابه موسى غوراً : « تلك يا أمير المؤمنين زبيريّة ،
ولنما عنيت المروانية » ، فقال سليمان : « صدقت » ، وأعجبه قوله (٣) .

وحين كان موسى في موكب سليمان إلى زيارة بيت الله الحرام وإداء
فريضة الحج ، وبينما كان يسير يوماً إذ دعا سليمان بموسى ، فدعاه أحد
رجال سليمان ، وكان موسى يساير رجلاً ، فلم يلتفت موسى إلى ندائه .
ثم دعا به سليمان ، فناداه ذلك الرجل أيضاً ، فلم يلتفت إليه ، فقال له
الرجل : « غفر الله لك ! ألم تسمع دعاء أمير المؤمنين ؟ ! إني أخافه وأخاف
أن يغضب » ، فقال موسى : « ذاك لو كان عبد الملك أو الوليد ، فأما هذا ،
فانه يرضيه ما يرضي الصبي ، ويسخطه ما يسخطه ، وسترى ذلك » . ثم
تقدّم موسى حتى لحق ولصق بسليمان ، فقال له : « أين كنت يا ابن نصير ١٩ » ،

(١) حلية الفرسان (١١٠) .

(٢) هو الضحّاك بن قيس الفهري . انظر ترجمته في تهذيب ابن عساكر (٤/٧ - ٩) وانظر
تفاصيل يوم مرج راهط في الطبري (٤/١١٣ - ٤٢٠) وابن الأثير (٤/٥٨ - ٦٠) بين الضحّاك
ابن قيس الذي كان مع عبد الله بن الزبير وبين مروان بن الحكم وذلك سنة خمس وستين الهجرية .

(٣) الامامة والسياسة (٢/١٠٠ - ١٠١) .

فقال له : « يا أمير المؤمنين ! أين دوابنا من دوابك ! إني لمنذ دعاني أمير المؤمنين لفي كدّ ، حتى لحقت أمير المؤمنين » ، فضحك سليمان وأمر له بدوابّ من مراكبه ، فسأيره وحادثه ، ثم انصرف عنه ، فلاحق الرجل إليه ، فقال له موسى : « كيف رأيت ؟ » ، فقال : « أنت كنت به أعلم »^(١) .

وكان موسى طويلاً جسيماً^(٢) ، وقد ذكروا أن جماعة من الناس كانوا جلوساً على سطح فسيح عند سليمان بن عبد الملك ، والناس يدخلون ، حتى دخل موسى من الباب ، فتحرّك السقف بالجالسين من شدّة وطئه^(٣) ، ولأنه كان بادناً جسيماً به نسمة^(٤) لا تزال تعرض له^(٥) .

أيّ نوع من الرجال كان موسى ؟

لقد كان إدارياً حازماً لا يتكرّر مثله إلاّ نادراً : حازماً في قراراته ، جازماً في أوامره ، ملتزماً بالحق والعدل والإنصاف . وكان عاقلاً ألمعي الذكاء شجاعاً كريماً ، استطاع أن يجعل من شمالي إفريقية دولة متماسكة البنيان وجدت لها متنفساً في الفتح عبر البحر في إسبانيا والجزر ، لهذه الدولة الناشئة عملة خاصة بها ودار صناعة خاصة بها ، وكان من التابعين ورعاً تقياً عالماً أديباً شاعراً ، وكان خبيراً بالرجال والأمم ...

فلا عجب بعد ذلك أن ينجح في نشر الإسلام في ربوع البربر ، وأن ينجح في مزج العرب والبربر ، وأن ينجح في تكوين (وحدة) سليمة ، ودولة (رصينة) ، وأن يفتح بلاداً شاسعة عبر البحار .

لقد كان موسى نسيج وحده ، وكان رجلاً في أمة ، وأمة في رجل .

(١) الإمامة والسياسة (١٠١/٢) .

(٢) الإمامة والسياسة (١٠٢/٢) .

(٣) الإمامة والسياسة (١٠١/٢) .

(٤) النسمة : النفس والربو .

(٥) الإمامة والسياسة (٩١/٢) .

ج - نهاية البطل :

توالت المصائب على الشيخ البطل موسى بن نصير بعد وصوله إلى دمشق سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤ م) ، ولعلّ من أعظم ما أصابه مقتل ابنه عبد العزيز في الأندلس ، وكان قتله صدر رجب من سنة سبع وتسعين الهجرية (١). ودخل وفد الأندلس على سليمان ومعهم رأس عبد العزيز بن موسى ، فبعث إلى موسى فأثاه ، فلما جلس وراء القوم قال له سليمان : « أتعرف هذا الرأس يا موسى ؟ » ، فقال : « نعم ! هذا رأس عبد العزيز ابن موسى » ، فقام الوفد فتكلموا بما تكلموا به ، ثم إنّ موسى قام فحمد الله ، ثم قال : « وهذا رأس عبد العزيز بين يديك يا أمير المؤمنين ، فرحمة الله تعالى عليه ، فلعمري الله ما علمته نهاره إلا صوّماً ، وليله إلا قوّماً ، شديد الرأفة بمن وليه من المسلمين ... » (٢) ، ثم قال : « هنيئاً له الشهادة ، قتلتم والله صوّماً قوّماً » (٣) . وهذا موقف بطولي آخر لموسى لا يقل روعة عن مواقفه الأخرى في الفتوح ، موقف الصابر المحتسب ، الذي يصدع بالحق غير وجل ولا هيّاب .

وفي سنة سبع وتسعين الهجرية حجّ بالناس سليمان بن عبد الملك (٤) ، فأمر سليمان موسى بالشخص والحج معه ، فذكر موسى لسليمان أنّه ضعيف ، فأمر له سليمان بثلاثين نجياً (٥) موقوزة جهازاً ، وبحجرة من حجره وجائزة ، فحجّ سليمان ، وحجّ معه موسى (٦) ، فتوفي موسى في (وادي القرى) (٧) ، سنة سبع وتسعين الهجرية (٨) (٧١٨ م) وكان عمره

(١) البيان المغرب (٣١/٢) .

(٢) الإمامة والسياسة (٩٧/٢) .

(٣) البيان المغرب (٣٢/٢) .

(٤) العبر (١١٥/١) وشذرات الذهب (١١٢/١) .

(٥) نجيب : الفاضل على مثله ، النفيس في نوعه ، ونجائب الإبل : خيارها .

(٦) الإمامة والسياسة (١٠١/٢) .

(٧) وادي القرى : وادي بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى . أنظر التفاصيل في

معجم البلدان (٣٧٥/٨) .

(٨) تاريخ العلماء ورواة العلم بالأندلس (١٤٤/٢) وجلوة المقتبس (٣١٧) وبغية الملتبس =

حين توفي ثمان وسبعين سنة قمرية ، لأنه ولد سنة تسع عشرة هجرية كما
مرّ بنا ، وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك^(١) .

وهكذا أغمض البطل عينيه إلى الأبد ، ولكن التاريخ لم يغمض عينيه
عن مآثره الخالدة ، ذلك لأنه : « كان قد جمع من خلال الخير ما أعانه الله
سبحانه به على ما بنى له من المجد المشيد ، والذكر الشهير المخلّد ، الذي
لا يبليه الليل والنهار ، ولا يُعَفّي جديده بلي الأعصار »^(٢) .

« رحمه الله ! فقد كان له من الأثر ما بوجب أن يترحم عليه ، وإن
فعل سليمان به وبولده وكونه طرح رأس ابنه عبد العزيز الذي تركه موسى
نائباً عنه في الأندلس ، وقد جيء به من أقصى المغرب بين يديه من وصمّاته^(٣)
التي تُعدّ عليه طول الدهر »^(٤) .

المآل :

ذكروا أن موسى دخل على سليمان يوماً وعنده الناس ، فلما رآه سليمان
قال : « ذهب سلطان الشيخ » . وأبصره موسى حين تكلم ، فلم يفهم ما
قال ، فلما سلّم قال : « يا أمير المؤمنين ! رأيتك لما نظرتني داخلًا تكلمت
بكلام ظننتك عيتني به ! » . قال : « نعم . قلت : ذهب سلطان الشيخ » .
قال له موسى : « أما والله لئن ذهب سلطان الشيخ ، لقد أثر الله به في دينه
أثراً حسناً ، ولقد كنت طويل الجهاد في الله ، حريصاً على إظهار دين الله ،

= (٤٤٢) والحلة السراء (٣٣٤/٢) والعبير (١١٥/١ - ١١٦) وشدرات الذهب (١١٣/١) ونفع
الطيب (٢٥٤/١) .

(١) البيان المغرب (٢٨/٢) وفي الإمامة والسياسة (١٠٢/٢) : أن الذي صل عليه هو سليمان بن عبد
الملك .

(٢) نفع الطيب (٢٦٨/١) .

(٣) من وصمّاته : في قوله : « وإن فعل سليمان » ، والوصمات : العيوب ، واحداً وصمة ،
بفتح الواو وسكون الصاد في المفرد .

(٤) نفع الطيب (٢٦٦/١) .

حتى أظهره الله ؛ وكنتُ ممن أتمَّ الله به مواعده لنيبه . ولئن أدبر معك ،
لقد كان مع آبائك ناضر الغصن ، ميمون الطائر » ، فقال سليمان : « هو
ذاك ؟ ! » ، فقال موسى : « وهو ذاك » ؛ فلم يزل يردُّها سليمان ،
ويردُّها موسى ، حتى سكت سليمان^(١) .

وصدق موسى فيما قاله سواءً صحَّ هذا الخبر أم لم يصحَّ ، فان أعمال
موسى هي الدليل الذي ما بعده دليل على صدقه : فقد نشر الإسلام ، وكان
طويل الجهاد فتكثرت جهاده بشمرات يانعة من الفتح الضخم الذي بضعه في
مصاف أعظم الفاتحين وأكبر المجاهدين .

فما هو أسلوب موسى في القيادة ؟

ذكروا أن سليمان بن عبد الملك قال لموسى : « ما الذي كنت تفرع
إليه في مكان حربك من أمور عدوك ؟ » . قال : « التوكل والدعاء إلى الله
يا أمير المؤمنين » . قال له سليمان : « هل كنت تمتنع في الحصون والحنادق ،
أو كنت تخندق حولك ؟ » . قال : « كل هذا لم أفعله ! » . قال : « فما
كنت تفعل ؟ » . قال : « كنت أنزل السهل ، واستشعر الخوف والصبر ،
وانحصن بالسيف والمِغْفَر^(٢) ، وأستعين بالله ، وأرغب إليه في النصر » .
فقال له سليمان : « فمن كان من العرب فرسانك ؟ » فقال : « حَمِير^(٣) » ،
قال : « فأَيَّ الخيل رأيت في تلك البلاد أصبر ؟ » ... ويمضي سليمان في
أسئلته عن الأمم المختلفة ومزاياها في القتال ، ويمضي موسى في أجوبته عن
مزايا الأمم الحربية أجوبة مجرَّب حصيف لا أجوبة نظري حالم ، وشتان بين
المجرَّب العملي ، والنظري الحالم^(٤) .

(١) الإمامة والسياسة (١٠٠/٢) - (١٠٠) .

(٢) المغفر : زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

(٣) حمير : هو حبير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . انظر التفاصيل في جمهرة أنساب

العرب (٤٣٢ - ٤٣٨) و (٢٧٨) .

(٤) انظر التفاصيل في الإمامة والسياسة (١٠٠/٢) والبيان المغرب (٢٧/٢ - ٢٧) .

لقد أجاب موسى في حديثه إلى سليمان عن مزاياه القيادية ، ولعلَّ مجمل ما جاء في جواب موسى لسليمان هو : « أن موسى جمل رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده وكثرة ذكره ، والإستعانة به والتوكّل عليه ، والفرع إليه ، ومسالته التأييد والنصر ، والسلامة والظفر . وأنه كان قائداً (تعرّضياً) يهاجم علوه دائماً ولا يؤمن بالدفاع . وأنه كان قائداً يستشعر الخوف من علوه ولا يستهين به ، لذلك يعدّ له ما يستطيع من قوّة ومن رباط الخيل ، ويصبر على قتاله . وأنه يعتمد على (حِمِيْر) فرساناً له وقوة ضاربة لعلوه وهم من هم رجولة وبسالة وتضحية وفداء .

وأنه كان يعرف مزايا الأمم التي يقاتلها ، فيحارب تلك الأمم على هدى وبصيرة . وأنه كان يعرف مزايا الخيل وما يستفاد منها في الحرب وما لا يُستفاد !

تلك هي بعض مزايا قيادة موسى ، فإذا أضفنا إلى مزاياه تلك تجربته الطويلة في معاناة الحروب ، وأنه كان ذا رأي وتدبير وحزم وخبرة في الحرب^(١) ، وأنه كان شجاعاً^(٢) ، أدركنا أسباب ما ذكره المؤرخون عن موسى : « إنه لم ترد له راية قط ، ولا هزم له جمع قط حتى مات »^(٣) ، « وإنه : « لم يبق في إفريقيا والمغرب من ينازعه من البربر ولا من الروم »^(٤) . لقد كان بعيد النظر يحسب لكل أمر حسابه ، فكان يهيء لكل قوة من قواته الأسلحة والعدّة الكاملة^(٥) قبل خوض غمار الحرب ، فإذا فتح مدينة أو بلداً ، ترك فيها من العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد وسدّ الثغور وجهاد العدو^(٦) .

(١) البداية والنهاية (١٧١/٩) .

(٢) وفيات الأعيان (٤٠٢/٤) .

(٣) وفيات الأعيان (٤٠٢/٤) والإمامة والسياسة (٨٠/٢) .

(٤) وفيات الأعيان (٤٠٣/٤) .

(٥) وفيات الأعيان (٤٠٣/٤) .

(٦) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (٣٤) .

وأدرك موسى بثاقب فكره ، أن سواحل إفريقيا والمغرب الواسعة معرضة للغزو من البحر سواء كان الغزو من البيزنطيين أو من سكان جزر البحر الأبيض المتوسط أو من بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط ، لذلك اهتم غاية الاهتمام برصين دار الصناعة في تونس لصنع السفن وإدامتها وإعداد النواتية ، فأفاد من ذلك في تنقل قطعاته لغزو البحر أولاً ، ولتكون تلك السفن والمرابطون من المسلمين في السواحل البحرية قوة ضاربة تدافع عن سواحل أرض المسلمين في شمالي إفريقيا ؛ ذلك لأن موسى بما عرف عنه من مهارة حرية قدر أن الهجوم على عدوه المتربص في جزر بحر الأبيض المتوسط وفي الأندلس هو أحسن وسائل الدفاع عن بلاد المسلمين في شمالي إفريقيا ، والهجوم أجدى وسائل الدفاع كما تنص كتب التعية العسكرية الحديثة عليه. وفعلاً ، فقد أجدت تدابير موسى هذه ، فلم تتعرض إفريقيا والمغرب في أيامه لهجمات الأعداء ، كما حدث في أيام أسلافه منذ بدأ الفتح الإسلامي حتى تولى موسى بن نصير أمر شمال إفريقيا ... بل كان موسى في مهمته أبعد مدى من ذلك ، إذ توسع في فتوحه عبر البحر في الجزائر والأندلس ، وأصبح أعداؤه مهددين في عقر ديارهم ... فكانت فتوحه عبر البحر - كما وصفها موسى - : « إنها ليست كالفتوح ، ولكنه الحشر » .

ومن مزايا قيادة موسى ، أسلوبه الفذ في معالجة الحصون والمدن المنيعه ، فقد كان ماهراً في الحصار وفي قتال المدن . بعث سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة ابن عبد الملك إلى أرض الروم ، ووجه معه خمسمائة وثلاثين ألف رجل ، وخمسمائة مئمة الضمّة الديوان واكتب في العطاء ، وتقلب في الأرزاق . ودعا سليمان بموسى بعد أن رضي عنه على يد عمر بن عبد العزيز ، فقال سليمان له : « أشرك عليّ يا موسى ، فلم تزل مبارك الغزوة في سبيل الله ، بعيد الأثر ، طويل الجهاد » ، فقال له موسى : « أرى يا أمير المؤمنين أن توجهه بمن معه ، فلا يمرّ بحصن إلا صير عليه عشرة آلاف رجل ، حتى يفرق نصف جيشه ، ثم يمضي بالباقي من جيشه ، حتى يأتي القسطنطينية ،

فإنه يظفر بما يريد يا أمير المؤمنين . فدعا سليمان مسلمة فأمره بذلك من مشورة موسى^(١) .

هذه التعليمات العسكرية ، تدلّ بوضوح على ميزتين من مزايا قيادة موسى ، بالإضافة إلى ميزتيه الأخريين وهما : معرفته قتال المدن ، ومعرفته أساليب الحصار ... وهاتان الميزتان الجديدتان مهمتان لكل قائد ناجح ، وهما : العناية بحماية خطوط المواصلات ، وتفريق قوات العدو لضربها متفرقة على أفراد . فبقاء قوة جسيمة لحصار كل حصن منيع يجبر العدو على تخصيص قوة مناسبة لذلك الحصن من أجل حمايته ، كما أن القوة التي تطوق الحصن تشل ذلك الحصن وتحول بين قواته المخصصة لحمايته وبين محاولتها قطع خطوط مواصلات المسلمين .

واهتمام موسى بتأمين خطوط مواصلاته وحمايتها ، كما لمسنا ذلك فعلاً في حروبه وكما رأينا ذلك في تعاليمه العسكرية ، يجعلنا نتساءل : كيف كان يطمح موسى أن يفقد رجاله إلى (رومية) ليفتحها^(٢) ؟ .. وكيف كان طموحه يذهب به إلى مدى أبعد من ذلك . فيفقد رجاله مخترقاً ما بين الأندلس والقسطنطينية فاتحاً ما بينهما من أوربا ؟ فقد : « أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام دروبه ودروب الأندلس ، ويخوض إليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية ، مجاهداً فيهم ، مستلحماً لهم ، إلى أن يلحق بدار الخلافة » ، ففني الخبر إلى الوليد بن عبد الملك ، فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أن ما هم به موسى غرراً بالمسلمين ، فبعث إليه بالتوبيخ والإنصراف ، ففت ذلك في عزم موسى ، وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها^(٣) .

وليس من شك ، أن هناك صعوبات جسيمة وأخطاراً هائلة — من الناحية

(١) الإمامة والسياسة (٨٨/٢) .

(٢) الإمامة والسياسة (٨١/٢) .

(٣) نفح الطيب (٢١٨/١) .

العسكرية - لتحقيق طموح موسى في فتح (رومية) والوصول إلى الشام عن طريق (القسطنطينية) من الأندلس ، ولكن هل مثل موسى في تجربته الطويلة المنتصرة في الحروب ، وفي مزاياه القيادية الفذة التي لا شك فيها ، يفرّر بالمسلمين ولا يحسب حساب ما يحتاجه من قوات ومن قضايا إدارية لتحقيق مطامحه التوسعية في الفتح ونشر الإسلام ؟

من الواضح ، أن موسى نجح نجاحاً باهراً في السيطرة على شمالي إفريقية ، وأنه نجح نجاحاً باهراً في نشر الإسلام بين البربر الذين حسن إسلامهم ، فاستعمل عليهم مولاة طارق بن زياد البربري^(١) ، فأصبحت لديه قوات جسيمة لا ينضب معينها من البربر المسلمين ؛ فكان مما ميّز فتح الأندلس على غيره من الفتوح العربية حتى ذلك الوقت ، هو إشراك المغاربة إلى جانب العرب إشراكاً إيجابياً في هذا الفتح ؛ وهذا عمل عظيم من غير شك ، يشهد للعرب المسلمين بالمجد والفخار ، إذ نجحوا في إداء رسالتهم رسالة الإخاء والمساواة ، فاكتملوا إلى جانبهم أهل البلاد قلباً وقالباً ، فأصبح البربر المسلمون أشدّ حماسة من العرب المسلمين لتحقيق أهداف الإسلام ، فقاموا إلى جانب إخوانهم العرب المسلمين ينشرون الرسالة الإسلامية في أوربا ، ويبدلون المهج والنفوس رخيصة في هذا السبيل^(٢).

فإذا نجح موسى في إيجاد قيادة ممتازة من البربر المسلمين ، وإيجاد عناصر مقاتلة ضخمة من البربر المسلمين ، تعمل تلك القيادة متعاونة إلى جانب القيادة العربية ، وتعمل تلك القوات متعاونة إلى جانب القوات العربية ، مع امتياز قوات البربر على القوات العربية بكثرتها أولاً وبقرب بلادها من مناطق الفتح الجديدة ثانياً ، وإمكان إقامة القوات البربرية بالرجال والمعدات بسهولة ويسر - كل ذلك يجعلنا نرجح أن مطامح موسى لها ما يبررها وما يحقق أهدافها ؛ خاصة وأن استكمال فتح الأندلس ، جعل منها قاعدة متقدمة

(١) انظر وفيات الأعيان (٤ / ٣٠٣) .

(٢) انظر تاريخ المغرب العربي (٢٢٠) .

أمامية للمسلمين يستندون عليها في فتوحاتهم الأوربية الأخرى ، كما أن موارد الأندلس وغنائم المسلمين منها تمتد المسلمين بما يحتاجون إليه من القضايا الإدارية ...

إن أعمال موسى العسكرية كلها تدلّ على أن خطواته في الفتح كانت متزنة جداً ، فليس من الصدفة مطلقاً أنه لم ترد له راية قط ، ولا هزم له جمع قط ، حتى مات .

في المغرب وإفريقية قضى على كل مقاومة معادية من البربر ومن الروم في الصفحة الأولى من أيام جهاده . وفي الصفحة الثانية من ذلك الجهاد وبعد استتباب الأمن في ربوع شمالي إفريقية ، وبعد أن استأمن البربر وبذلوا الطاعة ، فقبل منهم وولى عليهم والياً واستعمل على (طنجة) وأعمالها مولاة طارق بن زياد البربري ، وترك معه تسعة عشر ألف فارس من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، رجع إلى إفريقية ، ولم يبق بالبلاد من ينازعه من البربر ولا من الروم^(١) . وبكلام آخر بعد أن وحد البلاد وأشاع فيها الانسجام الفكري بنشر الإسلام في ربوعها ، وقام بعملية المزج الفكري بالإسلام عقيدة وتضحية وفداء ، أصبح البربر المسلمون قوة جبارة للعرب المسلمين لا عليهم ، وجدت لها متنفساً في الفتح عبر البحر . وبذلك تطوّرت خطط موسى العسكرية من الدفاع إلى الهجوم ، ومن التقيّد بشمال إفريقية إلى التطلع إلى فتح جديد .

وحين رأى الوقت مناسباً لفتح الأندلس ، لم يندفع اندفاعاً أعمى على غير هدى ولا بصيرة ، بل بذل قصارى جهده لتنظيم دار الصناعة بتونس لتكون قادرة على إعداد السفن والملاحين ، وأفاد من المنايع المتيسرة الأخرى للسفن والملاحين ، ثم بعث (طريفاً) سنة إحدى وتسعين الهجرية بالسرايا حتى لا يغرّ بالمسلمين لاختبار إمكانية فتح الأندلس . فلما نجح طريف في

(١) وفيات الأعيان (٤٠٣/٤) .

مهمته ، بعث طارق بن زياد سنة اثنتين وتسعين الهجرية بقوات ضاربة إلى الأندلس ، وحين نجح طارق في مهمته وخشي موسى على طارق وقواته من أخطار التغفل بعيداً في الفتح داخل الأندلس ، أقدم موسى على العبور بنفسه مع قواته الضاربة الأخرى ، وتعاون مع طارق - كما رأينا - في تحقيق أهداف الفتح في الأندلس ، وكانت فتوح موسى في تسلسلها الزمني والجغرافي تسير حسب خطة مرسومة دقيقة واضحة الأهداف جلية المعالم بعيدة عن التهور والأخطار .

نرى ! لو بقي موسى على رأس رجاله في الأندلس ، فهل كان بإمكانه تحقيق مطامحه التوسعية ؟

كل الدلائل تدلّ على أن موسى ، لم يكن من أولئك القادة المتهورين الذين يلقون بأنفسهم وبرجالهم إلى التهلكة ، وتاريخ جهاده الطويل أكبر دليل على إثبات اتزانه في حروبه ، وأنه كان من أولئك القادة البعيدي النظر ، الذين يتبينون مواطني أقدامهم قبل أن يتقدموا خطوة واحدة إلى الأمام .

ولعلّ موسى وجد الطاقات البشرية الهائلة المتمثلة في البربر المسلمين ، والطاقات الإدارية الغنية المتمثلة في موارد شمال إفريقيا والأندلس ومغانمهما الضخمة ، فأراد أن يسخر كل تلك الطاقات البشرية والإدارية في تحقيق فتوح جديدة عبر أوروبا إلى رومية من جهة وإلى القسطنطينية من جهة أخرى ، فيحقق حلماً طالما راود الخلفاء منذ أيام معاوية بن أبي سفيان الذي توغل سنة اثنتين وثلاثين الهجرية في أرض الروم ، فالتقى بالروم قريباً من القسطنطينية^(١) ، ثم أرسل جيشاً خاصاً لفتح القسطنطينية سنة تسع وأربعين الهجرية^(٢) - وذلك بفتح القسطنطينية عبر أوروبا بدلاً من فتحها من أرض الشام كما حاول الخلفاء من قبله ، فيقضي موسى على عاصمة البيزنطيين الذين كانوا خطراً حقيقياً يهدد سلامة دولة

(١) البر (٣٢/١) .

(٢) الطبري (١٧٣/٤) وابن الأثير (١٨١/٣) .

الإسلام في عقر دارها ... بل يذهب موسى الى أبعد مما كان يحلم به الخلفاء من قبله ، وهو محاولة فتح رومية أيضاً ، وبذلك يسيطر على أقوى عاصمتين من عواصم أعداء المسلمين .

مما تقدم نستطيع أن نتبين بوضوح الحقائق التالية :

أولاً : إن موسى كان قائداً فذاً له قابليات ممتازة في القيادة .

ثانياً : إنه كان قائداً واقعياً بعيداً عن الخيال ، وإنه إذا قال فعل .

ثالثاً : إنه لم يكن من الذين يفرّرون برجالهم في الحروب من أجل الأجداد الشخصية أو المكاسب الداتية .

رابعاً : لذلك فتحقيق أحلامه في فتح القسطنطينية من الغرب ورومية — على الرغم من صعوبة ذلك وعظم متطلباته وتكاليفه من الرجال والقضايا الإدارية — كان بمقدور موسى أن ينجح بتحقيقها نظراً لمناخ الطاقات البشرية الهائلة المتيسرة لديه — خاصة من البربر الذين أسلموا وحسن إسلامهم ، ونظراً لقابليات القادة المتيسرين لديه — مثل طارق بن زياد وعبد العزيز بن موسى بن نصير — ونظراً لمناخ الطاقات الإدارية الضخمة التي استحوذ عليها في الأندلس وشمال إفريقيا .

خامساً : إن عزله عن قيادته وسحبه من الأندلس وهو في أوج انتصاراته خسارة لا تعوّض للمسلمين ، فقد حرم دولة الإسلام من نشر دين الله في أوروبا ومن فتح بلاد شاسعة في أوروبا أيضاً .

وقبل أن نختم تقدير مزايا موسى القيادية ، لابدّ لنا من الإشارة إلى ناحية مهمة من مزاياه ، وهي أنه كان قائداً يستأثر بالخطر دون أصحابه في الحرب ، وأنه كان دائماً في الأمام يصطلي بنار الحرب أكثر من كل قائد من قاداته ومن كل رجل من رجاله ؛ لذلك فقد كان موسى يضرب بمثاله الشخصي لرجاله وقاداته معاً أروع الأمثال في التضحية والإقدام ، ويكون دائماً مثلاً شخصياً لقواته في الشجاعة والبرالة يحتلون حلوهم ويقتلون به .

ذكروا أن جعفر بن الأشتر قال : « كنت فيمن غزا الأندلس مع موسى ، فحاصرنا حصناً من حصونها عظيماً ، بضعاً وعشرين ليلة ، ثم لم نقدر عليه . فلما طال ذلك عليه ، نادى فينا : أن أصبحوا على تعبئة ! وظننا أنه قد بلغه مادة من العدو ، وقد دنت منا ، وأنه يريد التحول عنهم ، فأصبحنا على تعبئة ، فقام فحمد الله ، ثم قال : أيها الناس ! إني متقدمٌ أمام الصفوف ، فإذا رأيتموني قد كبرت وحملت ، فكبروا واحملوا . فقال الناس : سبحان الله ! أترى فقد عقله أم عزب عنه رأيهُ ؟ ! يأمرنا نحمل على الحجارة وما لا سبيل إليه ؟ ! فتقدم بين يدي الصفوف حيث يراه الناس ، ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والرغبة ، فأطال ونحن ركوب منتظرون تكبيره ، فاستعددنا . ثم إن موسى كبر وكبر الناس ، وحمل وحمل الناس ... » (١) .

ولو ذهبنا نستقصي عدد مرات إقدامه على مهاجمة العدو أمام صفوف رجاله ، لطال تعداد مواقفه البطولية الفذة .

إنه من أولئك القادة الذين لم يكونوا يعرفون للمستحيل معنى ، وما أقل أمثاله من القادة الذين لا يحنون رؤوسهم للأهوال والصعاب .

وعند مقارنة ما سبق ذكره من أعمال موسى العسكرية ، بمبادئ الحرب ، يتضح لنا ، أن موسى ، كان يطبق مبدأ (إختيار المقصد وإدامته) ، فقد كانت له أهداف واضحة في حربه توصله في النهاية إلى تحطيم إرادة العدو على القتال . وكان يطبق مبدأ (التعرض) ، بل هو في حروبه كان قائداً تعرضياً مثالياً ، فلم يدافع في حياته العسكرية مطلقاً ، وكان دائماً يهاجم عدوه . وكان يطبق مبدأ (المباغطة) كلما وجد إلى ذلك سبيلاً . وكان يطبق مبدأ (تحشيد القوة) ، فيحشد أعظم قوة أدبية وبدنية ومادية واستخدام كل ذلك في الزمان والمكان الجازمين . وكان يطبق مبدأ (الأمن) ويوفر الحماية لقواته وخطوط مواصلاته من أجل وقايتها من مباغطة العدو لها ، وفعلًا لم

(١) الإمامة والسياسة (٧٩/٢) .

يستطع العدو أن يباغت قوات موسى في كل حياته العسكرية . وكان يطبّق مبدأ (المرونة) لكي يُيسّر لقواته قابلية ممتازة للحركة برّاً وبحراً . وكان يطبّق مبدأ (التعاون) بين صفوف جيشه وبين قادته وبين أرتال قواته المتقدمة بحيث يجعلها تحقق أهدافها بأقرب وقت وبأقل خسائر مادية ومعنوية . وكان يطبّق مبدأ (إدامة المعنويات) ، فيشيع في قطعاته الثقة بالنفس وبالقيادة والاعتماد على نصر الله . وكان يطبق مبدأ (الأمور الإدارية) فييسّر لقواته إعاشتها وعنادها وسلاحها وتقليتها ومتطلباتها الإدارية الأخرى كافة في مختلف الظروف والأحوال .

لقد كانت لموسى قابلية فذة على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة ، وكان شجاعاً مقداماً قوي الإرادة ثابتها، يتحمّل مسؤوليته كاملة بلا تردد ولا يلقبها على عواتق الآخرين . وكان يعرف مبادئ الحرب ويطبقها بكفاية ومقدرة ، وكانت له نفسية لا تتبدّل في حالتي النصر والاندحار . وكان بعيد النظر ، له معرفة مستفيضة بنفسيات مروّسيه وقابليّاتهم ونفسية رؤسائه وقابليّاتهم ، وبمزاجها الأمم والشعوب التي يحاربها ، وبمزاجها الخيل والسلاح الذي يستعمله . وكان يثق برجاله ويبادلونه ثقة بثقة وحباً بحب . وكانت له شخصية نافذة قوية وقابلية بدنية ممتازة وماض ناصع مجيد .

تلك هي محمل مزايا قيادة موسى ، وهي الجواب الواضح عن أسباب انتصاراته المتوالية الكثيرة ، بحيث لم تردّ له راية قط ، ولا هزم له جمع قط ، حتى مات .

إنه كان من أعظم قادة الفتح الإسلامي ، بل كان من الطبقة الأولى من أولئك القادة : طبقة خالد بن الوليد المخزومي والمثنى بن حارثة الشيباني وقتيبة بن مسلم الباهلي .

لقد كان موسى جندياً ممتازاً وقائداً ممتازاً ، وكان ولا يزال وسيبقى

من مفاخر التاريخ الإسلامي فاتحاً وإدارياً ، وقائداً وإنساناً .

موسى في التاريخ :

يذكر التاريخ لموسى أنه فتح المغرب الأقصى واستعاد فتح المغرب الأوسط .
ويذكر له أنه رصّن الفتح الإسلامي في المغرب العربي ، فأصبحت
شمال إفريقيا عربياً إسلامياً الى الأبد .

ويذكر له أنه فتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسا .
ويذكر له أنه نشر العربية لغة والإسلام ديناً في شمال إفريقيا وفي الأندلس .
ويذكر له أنه كان من أعظم قادة الفتح الإسلامي .
رضي الله عن التابعي الجليل ، الإداري الحازم ، البطل المغوار ،
القوي الأمين ، القائد الفاتح ، موسى بن نصير اللّخمي .

المبادئ والمراجع

المصادر

(١)

- ١- ابن كثير (تفسير) - الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن كثير -
مطبعة المنار - القاهرة - ١٣٤٧ هـ .
- ٢- آثار البلاد وأخبار العباد - زكريا بن محمد القزويني - مطبعة دار صادر
ودار بيروت - بيروت - ١٣٨٠ هـ .
- ٣- أخبار مجموعة في فتح الاندلس - مؤلف مجهول - نشره دون لافونتي
القطرة (Don Lafuente Alcantara) في مجموعة (Obras Arabigas)
التي تصدرها « الأكاديمية التاريخية الملكية » - الجزء
الأول - مدريد - ١٨٦٧ م .
- ٤- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - المقدسي المعروف بالبشاري - مطبعة
ليدن - ليدين - ١٩٠٦ م .
- ٥- الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - أحمد بن خالد الناصري
السلوي - القاهرة - ١٣١٠ هـ .
- ٦- الاستيعاب في معرفة الأصحاب - أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد
ابن عبد البر - تحقيق علي محمد البجاوي - مطبعة نهضة مصر -
القاهرة .
- ٧- أسد الغابة في معرفة الصحابة - أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن
محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير
الجزري الملقب بعز الدين - المطبعة الإسلامية - طهران - ١٣٧٧ هـ .
- ٨- أسماء الصحابة الرواة - أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم -

- ملحق بجوامع السيرة - مطبعة دار المعارف - القاهرة .
- ٩ - الإصابة في تمييز الصحابة - شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكنتاني العسقلاني المعروف بابن حجر العسقلاني - المطبعة الشرقية - القاهرة - ١٣٢٥ هـ .
- ١٠ - الأعلام النفيسة - أبو علي أحمد بن عمر بن رسته - مطبعة ليدن - ليدن - ١٨٩١ م .
- ١١ - الإمامة والسياسة - المنسوب إلى أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٧٧ هـ - الطبعة الثانية .
- ١٢ - أنساب الأشراف - أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - تحقيق الدكتور محمد حميد الله - مطبعة دار المعارف - القاهرة - ١٩٥٩ م - الجزء الأول .

(ب)

- ١٣ - البداية والنهاية في التاريخ - عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي - مطبعة السعادة - القاهرة .
- ١٤ - البغوي (تفسير) - الإمام البغوي - مطبعة المنار - القاهرة - ١٣٤٧ هـ - مطبوع تحت صفحات تفسير ابن كثير .
- ١٥ - بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد - يحيى بن محمد بن خلدون - الجزائر - ١٣٢١ هـ .
- ١٦ - بغية المنتس في تاريخ رجال الأندلس - أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي - مطبعة روجنس - مجريط - ١٨٨٤ م .
- ١٧ - البلدان - أحمد بن يعقوب - مطبعة ليدن - ليدن - ١٨٩٢ م .
- ١٨ - البيان المغرب في أخبار المغرب - أبو عبد الله محمد بن عذارى المراكشي - مكتبة صادر - بيروت .
- ١٩ - البيضاوي (تفسير) - القاضي أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد

الشيرازي البيضاوي - دار الكتب العربية الكبرى بمصر - القاهرة -
١٣٣٠ هـ .

(ت)

- ٢٠ - تاريخ افتتاح الأندلس - أبو بكر محمد المعروف بابن القوطية القرطبي -
تحقيق عبد الله أنيس الطباع - دار النشر للجامعيين - بيروت .
- ٢١ - تاريخ الأمم والملوك - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري - مطبعة
الاستقامة - القاهرة - ١٣٥٨ هـ .
- ٢٢ - تاريخ الخلفاء - عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين السيوطي - المطبعة
المنيرية - القاهرة - ١٣٥١ هـ .
- ٢٣ - تاريخ الحميس - حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري - مطبعة
عثمان عبد الرازق - القاهرة - ١٣٠٢ هـ - الطبعة الأولى .
- ٢٤ - تاريخ العلماء والرواة بالأندلس - أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف
الأزدي المعروف بابن القرضي - مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٣٧٤ هـ .
- ٢٥ - تاريخ البعقوبي - أحمد بن يعقوب - مطبعة الغري - النجف - ١٣٥٨ هـ .
- ٢٦ - تجريد أسماء الصحابة - أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد
ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزي
الملقب بقرطبي - مطبعة دار المعارف النظامية - حيدر آباد الدكن
- ١٣١٥ هـ - الطبعة الأولى .
- ٢٧ - تقويم البلدان - اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة - دار
الطباعة السلطانية - باريس - ١٨٤٠ م .
- ٢٨ - تهذيب الأسماء واللغات - الإمام النووي - المطبعة المنيرية - مصر .
- ٢٩ - تهذيب التهذيب - الإمام ابن حجر العسقلاني - مطبعة دار المعارف
النظامية - حيدر آباد الدكن - ١٣٢٦ هـ .

(ج)

- ٣٠ - جلوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس - أبو عبد الله محمد بن فتوح

- ابن عبد الله الحميدي - مطبعة الخانجي - القاهرة - ١٣٧٢ هـ .
 ٣١ - جمل فتوح الإسلام - أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم - مطبعة
 المعارف - القاهرة - ملحق بجوامع السيرة .
 ٣٢ - جمهرة أنساب العرب - أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم -
 تحقيق وتعليق عبد السلام هارون - مطبعة المعارف - القاهرة -
 ١٣٨٢ هـ .

(ح)

- ٣٣ - الحلة السراء - أبو عبد الله محمد المعروف بابن الأبار - تحقيق الدكتور
 حسين موئس - القاهرة - ١٩٦٣ م .
 ٣٤ - حلية الفرسان وشعار الشجعان - علي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي
 - تحقيق محمد عبد الغني حسن - دار المعارف - القاهرة - ١٩٥١ م .

(خ)

- ٣٥ - الخلاصة النقية في أمراء إفريقية - أبو عبد الله محمد بن الباجي المسعودي
 - مطبعة بيكار - تونس - ١٣٢٣ هـ .

(د)

- ٣٦ - دول الإسلام - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - مطبعة
 السعادة - القاهرة - ١٣٦٨ هـ .

(ذ)

- ٣٧ - ذيل المذيل - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري - مطبعة الإستقامة -
 القاهرة - ١٣٥٨ هـ - طبع في آخر تاريخ الطبري .

(ر)

- ٣٨ - الروض الآنف - شرح السيرة النبوية لابن هشام - أبو القاسم عبد

الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي - مطبعة الجمالية - القاهرة -
١٣٣٣ هـ .

٣٩ - رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم
ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم - أبو عبد الله بن أبي
عبد الله المالكي - نشره الدكتور حسين مؤنس - القاهرة - ١٩٥١ م .

(س)

٤٠ - سير أعلام النبلاء - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي -
تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد - مطبعة المعارف - القاهرة .
٤١ - السيرة الحلبية - علي الحلبي الشافعي - مطبعة مصطفى محمد - القاهرة .
٤٢ - سيرة النبي صلى الله عليه وسلم - أبو محمد عبد الملك بن هشام - مطبعة
حجازي - القاهرة - ١٣٥٦ هـ .

(ش)

٤٣ - شذرات الذهب - ابن عماد الحنبلي - مطبعة القدسي - القاهرة - ١٣٥٠ هـ .

(ص)

٤٤ - صفة جزيرة الأندلس - منتخبة من كتاب : «الروض المعطار في خبر
الأقطار» - أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري - نشره
الاستاذ ليفي بروفنسال - القاهرة - ١٩٣٧ م .

(ط)

٤٥ - طبقات ابن سعد - ابن سعد - دار بيروت وصادر - بيروت - ١٣٧٦ هـ .

(ع)

٤٦ - العبر - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - تحقيق فؤاد
سيد - مطبعة الكويت - الكويت - ١٩٦١ م .

٤٧- العبر وديوان المبتدأ والخبر - عبد الرحمن بن خلدون المغربي - مطبعة بولاق - القاهرة - ١٢٨٤ هـ .

(ف)

٤٨- فتوح مصر والمغرب - أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي - مطابع لجنة البيان العربي - القاهرة .
٤٩- فتوح البلدان - أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - مطبعة السعادة - القاهرة - ١٩٥٩ م .

(ك)

٥٠- الكامل في التاريخ - أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن الأثير الجزري الملقب بجز الدين - مطبعة ذات التحرير - القاهرة - ١٣٠٣ هـ .
٥١- الكشاف (تفسير) - الإمام أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشري - مطبعة بولاق - القاهرة - ١٣١٩ هـ - الطبعة الثانية .

(م)

٥٢- مجلة المجمع العلمي العراقي - المجلد الثالث - الجزء الثاني - ١٣٧٤ هـ .
٥٣- المختصر من أخبار البشر - اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة - المطبعة الحسينية - القاهرة - ١٣٢٥ هـ .
٥٤- مختصر كتاب البلدان - أبو بكر أحمد بن إبراهيم الحمداني المعروف بابن الفقيه - مطبعة ليدن - ليدن - ١٨٨٥ م .
٥٥- مختصر سياسة الحروب - الهرثمي - تحقيق عبد الرؤوف عون - مطبعة مصر - القاهرة - ١٩٦٤ م .
٥٦- المسالك والممالك - أبو اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي - تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحسيني

- مطابع دار القلم — القاهرة — ١٣٨١ هـ .
- ٥٧ — المسالك والممالك — أبو القاسم عبيد الله المعروف بابن خرداذبة — أعادت مكتبة المثنى طبعه في طهران — ١٩٦٣ م .
- ٥٨ — المشترك وضعاً والمفترق صقلاً — شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي — طبع سنة ١٨٤٦ م وأعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعه سنة ١٩٦٣ م .
- ٥٩ — المعارف — ابن قتيبة — مطبعة دار الكتب — القاهرة — ١٩٦٠ م .
- ٦٠ — معالم الإيمان — عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري — تونس — ١٣٢٠ هـ .
- ٦١ — المعجب في تلخيص أخبار المغرب — عبد الواحد المراكشي — مطبعة مصر — القاهرة — ١٣٢٤ هـ .
- ٦٢ — المغرب في حلى المغرب — ابن سعيد الأندلسي — الجزء الأول من القسم الخاص بمصر — مطبعة جامعة فؤاد الأول — القاهرة — ١٩٥٣ م .
- ٦٣ — المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب — أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري . طبع دي سلان (De Slan) — الجزائر — ١٩١١ م .
- ٦٤ — المواعظ والاعتبار — تقي الدين أحمد بن علي المقرئ — القاهرة — ١٢٧٠ هـ .
- ٦٥ — المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس — ابن أبي دينار القيرواني — طبعة تونس — تونس — ١٢٨٦ هـ .

(ن)

- ٦٦ — النجوم الزاهرة — ابن تغري بردى الأتابكي — مطبعة دار الكتب المصرية — القاهرة — ١٣٤٨ هـ .
- ٦٧ — نزهة المشتاق في اختراق الآفاق — الشريف الإدريسي — نشره دوزي ودي جوجة — لندن — ١٨٦٦ م .
- ٦٨ — نسب قریش — أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزيري — مطبعة دار المعارف — القاهرة — ١٩٥٣ م .

- ٦٩- نص جديد عن فتح العرب للمغرب - عبيد الله بن صالح - نشره
الاستاذ ليفي بروفنسال وعلّق عليه الدكتور حسين مؤنس في مجلة
المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمطبعة - ١٩٥٤ م .
- ٧٠- نفح الطيب - أحمد بن محمد المقرئ التلمساني - تحقيق محمد عبي الدين
عبد الحميد - مطبعة السعادة - القاهرة - ١٣٦٧ هـ - الطبعة الأولى .
- ٧١- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب - أبو العباس أحمد القلقشندي -
القاهرة - ١٩٥٩ م - الطبعة الأولى .

(و)

- ٧٢- وفيات الأعيان - أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان -
تحقيق محمد عبي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة - القاهرة -
١٣٦٧ هـ - الطبعة الأولى .
- ٧٣- الولاة والقضاة - أبو عمر محمد بن يوسف الكندي - مطبعة الآباء
اليسوعيين - بيروت - ١٩٠٨ م .

المراجع

(أ)

- ١- أطلس التاريخ الإسلامي - هاري . و . هازارد - ترجمة ابراهيم زكي خورشيد - مطبعة مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .
- ٢- الأعلام - خير الدين الزركلي - الطبعة الثانية - القاهرة - ١٣٧٣ هـ - ١٣٧٨ هـ .

(ت)

- ٣- تاريخ الجزائر العام - عبد الرحمن محمد الجيلالي - المطبعة العربية - الجزائر - ١٣٧٥ هـ .
- ٤- تاريخ الجزائر في القديم والحديث - مبارك بن محمد الهلالي الميلي - مطبعة النهضة الجزائرية - الجزائر - ١٣٥٠ هـ .
- ٥- تاريخ الفتح العربي في ليبيا - الطاهر أحمد الزاوي - مطبعة المعارف - القاهرة - ١٣٧٣ هـ .
- ٦- تاريخ المغرب العربي - سعد زغلول عبد الحميد - مطبعة المعارف - القاهرة - ١٩٦٥ م .
- ٧- تاريخ المغرب - محمد بن عبد السلام بن عبود - دار الطباعة المغربية - تطوان - ١٩٥٧ م - الطبعة الثانية .
- ٨- تاريخ المغرب الكبير - محمد علي دبوبز - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٨٤ هـ .
- ٩- تاريخ المغرب - عبد العزيز بن عبد الله - مطبعة الجامعة - الدار البيضاء .

- ١٠- تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط - الأمير شكيب ارسلان - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٥٢ هـ .
- ١١- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس - الدكتور السيد عبد العزيز سالم - مطبعة المعارف - لبنان - ١٩٦٢ م .

(خ)

- ١٢- خريطة المغرب الاركيولوجية - أحمد المكتاسي - دار كريمة اديس للطباعة - تطوان - ١٩٦١ م .
- ١٣- خلاصة تاريخ تونس - حسن حسني عبد الوهاب - تونس - الطبعة الثالثة .

(د)

- ١٤- دولة الإسلام في الأندلس - محمد عبد الله عنان - مطبعة الخانجي - القاهرة - ١٩٦٠ م .

(ر)

- ١٥- الرسول القائد - محمود شيت خطاب - مطبعة دار القلم - القاهرة - ١٩٦٤ م - الطبعة الثالثة .

(ع)

- ١٦- العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط - الدكتور عمر فروخ - بيروت - ١٣٧٨ هـ .

(ف)

- ١٧- الفاروق القائد - محمود شيت خطاب - دار مكتبة الحياة - بيروت -

١٩٦٥ م . الطبعة الثانية .

- ١٨ - فتح العرب للمغرب - الدكتور جنين مؤنس - مطبعة مصر - القاهرة .
١٩ - الفتوحات العربية الكبرى - جون باجون غلوب - تعريب وتعليق
خيرى حمّاد - منشورات مكتبة المثنى - بغداد - ١٩٦٤ م .
٢٠ - فجر الأندلس - الدكتور حسين مؤنس - الشركة العربية للطباعة
والنشر - القاهرة - ١٩٥٩ م .

(ق)

- ٢١ - قادة فتح الشام ومصر - محمود شيت خطاب - دار الفتح - بيروت -
١٣٨٥ هـ .

(م)

- ٢٢ - موسى بن نصير - محمد عبد الغني حسن - دار المعارف - القاهرة -
١٩٥٧ م .
٢٣ - موسى بن نصير - كامل محمود حبيب - دار إحياء الكتب العربية -
القاهرة - ١٩٦٠ م .

(هـ)

- ٢٤ - هنيعل - جورج مصروعة - بيروت .

المراجع الاجنبية

1. Encyclopedia Britannica.
2. Chamber's Encyclopedia .
3. Creswell (K. A. C.) , Early Muslim architecture : Umayyads, Early Abbas - ids and Tulunids, Vol. II , Part II, Oxford, 1938.
4. Gibben : Decline and Fall of the Roman Empire.
5. Lane - Poole ; The Moors in Spain.
6. Scott : Moorish Empire in Europe
7. Finlay : Byzantine Empire.

الفهارس

- ١ - الأعلام .
- ٢ - الأماكن .
- ٣ - القبائل والملل والنحل .
- ٤ - الخرائط .
- ٥ - الموضوعات .

الأعلام

(أ)

- أبلهيدا : ٢٢ .
ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي) : ١٧٠١٥ .
ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون المغربي) : ٢١٠١٧ .
أبو بكر الصديق : ٨٢٠٧٦٠٦٩ .
أبو سعيد الخدري : ٨١٥٢ .
أبو صالح : ٢٠٥٠١٩٩٠١٩١٠١٨٦٠١٨٥ .
أبو حنبل : ٢٢٩٠٢٢٨٠٢٠٩ .
أبو حنبل الشاعر : ٢٨٧٠٢١٤ .
أبو عبيد الله : ١٤٢٠١١٢ .
أبو المهاجر دينار : ٨١١١٠١٠٧٠١٠٦٠٤٩ .
أبو حنبل : ١٢٥٠١٢٤٠١١٩٠١١٨٠١١٢ .
أبو حنبل : ١٤٢٠١٤١٠١٤٠٠١٣٩٠١٢٦ .
أبو حنبل : ١٤٧٠١٤٦٠١٤٥٠١٤٤٠١٤٣ .
أبو حنبل : ٨١٥٢٠١٤٩٠١٤٨ .
أبو موسى الأشعري : ٨٧ .
أبو نصر (رسول الوليد بن عبد الملك إلى موسى بن نصير) : ٢٧٥٠٨٢٧١٠٢٧٠ .
أبو هريرة : ٨٢٦٤٠٨١٥٢ .
أبو الورد النخعي : ١٩٣ .
أخيهكا (والد غبطة) : ٢٤٢ .
أرسطاليس : ٢٨ .

(ب)

- بر بن قيس عيلان : ١٦٠١٥ .
برنس بن بر : ١٦ .
بسر بن أبي أرطاة : ٩٩٠٩٨٠٨٥ .
بشر بن مروان بن الحكم : ٢٣٧٠٢٢٦٠٢٢٥ .
بعل (إله قرطاجنة) : ٢٨ .
بنيسو (أسقف سرقسطة) : ٨٢٦٦٠٦٥ .
بوصيدون (إله قرطاجنة) : ٢٩ .
يونيفاس (حاكم روماني) : ٣٤٠٣٣٠٣٢ .
بلباريوس : ٣٥٠٣٤ .

(ت)

- تاكفراس : ٣١ .
تليد (مول عبد العزيز بن مروان) : ٢٠٧ .
تيم الداري : ٢٩١ .
تيودور (البابا) : ٤٦ .
تيوفانيوس (مؤرخ يزنطي) : ١٩١٠١٧٧ .

الأعلام

(أ)

- أبلاليديا : ٣٣ .
ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي) : ١٧٤١٥ .
ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون المغربي) : ٢١٤١٧ .
أبو بكر الصديق : ٨٢٤٧٦٤٦٩ .
أبو سعيد الخدري : ٨١٥٢ .
أبو صالح : ٢٠٥٤١٩٩٤١٩١٤١٨٦٤١٨٥ .
أبو عتيك الشاعر : ٢٨٧٤٢١٤ .
أبو هجين الثقفي : ١٤٢٤١١٢ .
أبو المهاجر دينار : ٨١١١٤١٠٧٤١٠٦٤٨٩ .
أبو عتيك الشاعر : ١٢٥٤١٢٤٤١١٩٤١١٨٤١١٢ .
أبو عتيك الشاعر : ١٤٢٤١٤١٤٠٤١٣٩٤١٢٦ .
أبو عتيك الشاعر : ١٤٧٤١٤٦٤١٤٥٤١٤٤٤١٤٣ .
أبو موسى الأشعري : ٨٧ .
أبو نصر (رسول الوليد بن عبد الملك إلى موسى بن نصير) : ٢٧٥٤٨٢٧١٤٢٧٠ .
أبو هريرة : ٨٢٦٤٤٨١٥٢ .
أبو الورد النصري : ١٩٣ .
أخيك (والد غبطة) : ٢٤٢ .
أرسطاليس : ٢٨ .

(ب)

- بر بن قيس عيلان : ١٦٤١٥ .
برنس بن بر : ١٦ .
بسر بن أبي أرطاة : ٩٩٤٩٨٤٨٥ .
بشر بن مروان بن الحكم : ٢٣٧٤٢٢٦٤٢٢٥ .
بعل (إله قرطاجنة) : ٢٨ .
بنسيو (أسقف سرقسطة) : ٨٢٦٦٤٦٥ .
بوصيدون (إله قرطاجنة) : ٢٩ .
بونيفاس (حاكم روماني) : ٣٤٤٣٣٤٣٢ .
بلياريوس : ٣٥٤٣٤ .

(ت)

- تاكفراس : ٣١ .
تليد (مولد عبد العزيز بن مروان) : ٢٠٧ .
تيم الداري : ٢٩١ .
تيودور (البابا) : ٤٦ .
تيوفانيس (مؤرخ بيزنطي) : ١٩١٤١٧٧ .

٢٩٠،٢٨٨،٢٨٧

الحسن بن علي بن أبي طالب : ٥٦ .

الحسين بن علي بن أبي طالب : ١٣٢،٥٦ .

حنش بن عبدالله الصنعاني : ١٥٣،١٥١،١٣٩

٢٦٧،٢٦٦،٥٢٥٦،٢١١

حنون (البحار القرطاجي) : ٢٩،٢٨،٢٧ .

حيوة بن رجاء التيمي : ٥٢٥٦ .

(خ)

خالد بن الوليد المخزومي : ٣٠٨-٢٢٢-١٢٨

خالد بن يزيد العبسي : ١٨٧-١٨٥-١٨٣

. ٢١٧-١٩٥-١٨٨

(د)

داهيا بنت ماتيا (الكاهنة) : ١٨١-١٧٤

-١٨٦-١٨٥-١٨٤-١٨٣-١٨٢

-١٩١-١٩٠-١٨٩-٢٨٨

-١٩٧-١٩٦-١٩٥-١٩٤-١٩٢

. ٢١٧-٢١٦-٢١٥-١٩٨

دسيوس : ٤٠ .

دقلديانوس : ٤٠ .

دوزي : ٥٢٢٥ .

دونات : ٤٠ .

(ذ)

ذو القرنين : ١٣٠ .

(ر)

رويفع بن ثابت الأنصاري : ٨٠-١٥٢ .

(ز)

زائدة بن قدامة الثقفي : ١٩٣ .

زرعة بن أبي مدرك : ٢٣٣-٢٣٥ .

(ج)

جاينجوس (مستشرق اسباني) : ٥٢٢٥

. ٥٢٧٠

جرجير : ٥٨٠،٥٧٠،٥٦٠،٤٧٠،٤٦٠،٤٥٠،٤٤٠

. ٨٠،٧٩

جريجوري الأكبر : ٤١ .

جريجوريوس : ٤٤،٤٣ .

جستنيان الثاني (إمبراطور الروم) : ١٩١ .

جعفر بن الأشتر : ٣٠٧ .

جليس : ٣٤ .

جنمريك : ٣٤،٣٢ .

جوتيه : ١٩٦

جوستنيان : ٤٢،٤١،٣٨،٣٦،٣٥،٣٤ .

(ح)

الحارث بن معاوية الثقفي : ١٩٣ .

حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع : ٢٧٥

. ٥٢٨٠

الحجاج بن يوسف الثقفي : ١٩٣،١٧٥،١٧٤

. ٢٢٦،٢٢٥،١٩٤

حسان بن النعمان الأزدي الفسافي : ١٦٢،٤٩

١٧٥،١٧٤،١٧٣،١٦٩،١٦٣

١٨٠،١٧٩،١٧٨،١٧٧،١٧٦

١٨٥،١٨٤،١٨٣،١٨٢،١٨١

١٩٠،١٨٩،١٨٨،١٨٧،١٨٦

١٩٥،١٩٤،١٩٣،١٩٢،١٩١

٢٠٠،١٩٩،١٩٨،١٩٧،١٩٦

٢٠٥،٢٠٤،٢٠٣،٢٠٢،٢٠١

٢١٠،٢٠٩،٢٠٨،٢٠٧،٢٠٦

٢١٥،٢١٤،٢١٣،٢١٢،٢١١

٢٢٠،٢١٩،٢١٨،٢١٧،٢١٦

٢٣٤،٢٣٣،٢٢٩،٢٢٨،٢٢٧

٢٧٤ - ٢٧٥ - ٢٨١ - ٢٨٤ -

٢٨٥ - ٢٩١ - ٣٠٣ - ٣٠٤ - ٣٠٥ -

٣٠٦ .

طريف : ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٤٥ - ٢٤٦ - ٣٠٤ .

طهان (مولي عثمان بن عفان) : ١٩٣ .

(ع)

عائشة أم المؤمنين : ٨٨ - ٢٦٤ .

العاص بن وائل السهمي : ٩٢ .

عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق : ٨٦ - ٨٧ .

عبد الرحمن بن الأشعث الكندي : ١٩٣ - ١٩٤ .

عبد الرحمن بن عتبة بن أبياس الفهري : ١٦١ .

عبد الرحمن بن عوف : ٦٨ .

عبد العزيز الثعالبي : ١٢ - ١٢١ .

عبد العزيز بن مروان بن الحكم : ١٦١ - ١٦٢ .

٢٠٢ - ٢٠٥ - ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨ -

٢٠٩ - ٢١٦ - ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٦ -

٢٢٧ - ٢٢٨ - ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣٩ -

٢٨٣ - ٢٩٢ .

عبد العزيز بن موسى بن نصير : ٢٥٩ - ٢٦٠ -

٢٦١ - ٢٦٣ - ٢٧٤ - ٢٧٥ - ٢٨٠ -

٢٩٧ - ٣٠٦ .

عبد الله بن جعفر بن أبي طالب : ٥٦ - ٨٤ .

عبد الله بن الزبير : ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٨٠ -

١٣٢ - ١٥٢ - ١٦٢ - ١٧٣ - ١٧٥ -

٢٢٤ - ٢٢٩٥ .

عبد الله بن زياد الأنصاري : ٢٥٦ .

عبد الله بن سبأ : ٧٠ .

عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري : ٤٩ - ٥١ -

٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ -

٦٠ - ٦١ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ -

٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٧٣ -

زهير بن قيس البلوي : ٤٩ - ٩٨ - ١٠٧ -

١٢٩ - ١٥٠ - ١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣ -

١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨ -

١٥٩ - ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣ -

١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ -

١٦٩ - ١٧٠ - ١٧٣ - ١٧٧ - ١٧٨ -

٢٠٦ - ٢٠٩ - ٢١٦ - ٢٣٤ .

زياد بن النابغة : ٢٨٠ .

زينب بنت النبي (صل الله عليه وسلم) : ٩١ .

(س)

سعيد بن العاص : ٦٩ - ٧٠ - ٧١ .

سليمان (عليه السلام) : ٢٤٣ - ٢٦٣ - ٢٦٤ .

سليمان بن عبد الملك : ٢٧٧ - ٢٧٨ - ٢٧٩ -

٢٨١ - ٢٨٢ - ٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٦ -

٢٩٣ - ٢٩٤ - ٢٩٥ - ٢٩٦ - ٢٩٧ -

٢٩٨ - ٢٩٩ - ٣٠٠ .

سليمان : ٤٠ .

(ش)

شبيب بن قيس الخارجي : ١٩٣ .

شريك المبي : ١٣٩ .

شكيب ارسلان (الأمير) : ١٧٢ .

(ض)

الضحاك بن قيس الفهري : ٢٢٤ - ٢٦٥ .

(ط)

طارق بن زياد : ٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٤٣ -

٢٤٤ - ٢٤٥ - ٢٤٦ - ٢٤٨ -

٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥ -

٢٥٧ - ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٥ -

٢٦٦ - ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧١ - ٢٧٣ -

١٠٢-٩٦-٩٥-٨٨-٨٣-٨٢-٧٤

١٢٦-١١٧-١١٥

عبد الله بن عامر : ٧٠-٦٩

عبد الله بن عباس : ٥٦

عبد الله بن عمر : ٧٩-٥٦

عبد الله بن عمرو بن العاص : ١١٦-٨٦-٥٦

٥٢٦٤

عبد الله بن عبد الملك بن مروان : ٢٠٩-٢٠٥

٢٩٢-٢٢٧

عبد الله بن قيس : ٨١

عبد الله بن مرة : ٢٤٠

عبد الله بن موسى بن نصير : ٢٣٨-٢٣٠

٢٧٩-٢٧٦-٢٥٢-٢٤٠

عبد الله بن يزيد بن أسيد : ٢٩٣

عبد الملك بن قطن : ٢٠٠

عبد الملك بن مروان : ١٣٢-١٣٠-٨٠-٧٩

١٦٣-١٥٥-١٥٤-١٥٣-١٥٢

١٧٥-١٧٤-١٧٣-١٧٢-١٦٥

١٩٤-١٩٣-١٩٢-١٩١-١٨٧

٢٠٨-٢٠٧-٢٠٦-٢٠٢-١٩٩

٢١٦-٢١٥-٢١٢-٢١٠-٢٠٩

٢٨١-٢٢٨-٢٢٦-٢٢٥-٢١٧

٢٩٥-٢٩٣

عبد الهادي التازي : ١٥٥

عبد الله بن الحبحاب : ٢٠٣

عبد الله بن عوف الحولاني : ٢٨٨

عقاب بن ورقاء الخزاعي : ١٩٣

عتبة بن أبي سفيان : ١١٦

عثمان بن عفان : ٥٦-٥٤-٥٣-٥٢-٥١-٧

٧٠-٦٩-٦٨-٦٧-٦٤-٦٠-٥٩

٨٧-٨٥-٨٣-٨٢-٧٣-٧٢-٧١

١١٦-١١٥-٩٧-٩٥-٩٢-٨٨

١٢٠-١١٨

عدنان (أبو العرب المدائني) : ١٦

عطاء بن أبي نافع الهذلي : ٢٤٠-٢٣٩

عقبة بن عامر الجهني : ٢٦٤-١١٦

عقبة بن نافع الفهري : ٨١-٦٠-٥٦-٤٩

٨٧-٨٢-٩٠-٩١-٩٢-٩٣

١٠٠-٩٩-٩٨-٩٧-٩٦-٩٥-٩٤

١٠٥-١٠٤-١٠٣-١٠٢-١٠١

١١٠-١٠٩-١٠٨-١٠٧-١٠٦

١١٥-١١٤-١١٣-١١٢-١١١

١٢٠-١١٩-١١٨-١١٧-١١٦

١٢٥-١٢٤-١٢٣-١٢٢-١٢١

١٣٠-١٢٩-١٢٨-١٢٧-١٢٦

١٣٥-١٣٤-١٣٣-١٣٢-١٣١

١٤٢-١٤١-١٣٨-١٣٧-١٣٦

١٥٣-١٥١-١٤٦-١٤٤-١٤٣

١٧٠-١٦٨-١٦٤-١٦٣-١٥٤

٢١٦-٢٠٥-٢٠٠-١٧٨-١٧٣

٢٦٧-٢٣٥-٢٣٤-٢٣٣

علي بن أبي طالب : ٨٤-٨٣-٦٩-٦٥-٦٤

١١٨-١١٧-١١٦-١١٣-٩٧-٨٥

٢٢٣-١٥٢-١٥٠

علي بن رباح اللخمي : ٢٦٤-٢٥٦

عمر بن الخطاب : ٧٨-٧٦-٧١-٦٩-٦٧

١١٥-١١٤-٩٤-٩٣-٨٢-٨٧

٢٢٣-٢٠٤-١٧٣-١٤٥-١١٦

عمر بن عبد العزيز بن مروان : ٢٧٩-٢٧٨

٢٨٣-٢٨٢-٢٨٠

عمر بن علي القرشي : ١٥٢-٩٨

عمرو بن أوس : ٢٣٣

عمرو بن العاص الهيمي : ٦٧-٦٦-٦١-٥٤-٤٩

٧٨-٧٧-٧٣-٧١-٧٠-٦٩-٦٨

كسيلة بن لمزم : ١١١-١١٢-١٢٣-١٢٦-

١٢٧-١٢٨-١٢٩-١٣٠-١٤٠-

١٤١-١٤٢-١٤٤-١٥١-١٥٢-

١٥٣-١٥٤-١٥٥-١٥٦-١٥٨-

١٦٤-١٦٥-١٦٩-١٧٠-١٨٢-

١٨٥-٢٣٤-٢٧٦ .

(ل)

لذريق : ٢٤٢-٢٤٣-٢٤٤-٢٤٦-٢٥١-

٢٦٠-٢٦١-٢٦٢-٢٦٣ .

لو الأصغر بن لو الأكبر (نغز أو) : ٨٩٧ .

ليونتوريوس (امبراطور الروم بعد جوستنيان) :

١٩١ .

(م)

مادغيس بن هر : ١٦ .

مارتينة (امبراطورة) : ٤٥ .

ماكبن : ١٨-٣١ .

المثنى بن حارثة الشيباني : ٣٠٨ .

محمد بن أبي بكر الصديق : ٦٩-٨٤-٨٥-٨٦-

١١٦-١١٧-

محمد بن أبي بكير : ١٧٧ .

محمد بن أوس : ٢٩ .

محمد بن أبي حذيفة : ٦٩-٨٢-٨٣-١١٨ .

محمد بن عبد الله (صل الله عليه وسلم) : ٤٨-

٥٢-٥٣-٦٥-٦٨-٦٩-٧١-٧٢-

٧٦-٨٢-٨٣-٨٩-٩٢-٩٣-١٠٤-

١٠٩-١١٣-١٢٨-١٤٢-١٥١-

١٦٢-١٨٥-٢٦٤-٢٨٩ .

محمود علي مكبي : ٨٢٢٥ .

المختار الثقفي : ١٣٢-١٩٣ .

مروان بن الحكم : ١٣٢-٢٢٤-٢٢٥ .

مروان بن موسى بن نصير : ٢٣٠-٢٣٣-٢٣٤-

٨٤-٨٦-٨٧-٨٨-٩٢-٩٣-٩٤

٩٥-٩٧-١١٤-١١٥-١١٦-١١٨

١١٩-١٢٦-١٤٥-١٥١-١٦١

١٦٣ .

عمرو مزريقاه بن عامر الأزدي : ١٧٣ .

عياش بن أخيل : ٢٣٢-٢٣٨ .

عياض بن عتبة بن نافع : ٢٣٣-٢٣٤ .

عيسى بن عبد الله الطويل : ٢٨٢ .

(غ)

غيطة : ٢٣٦-٢٤٢-٢٥٣ .

(ف)

فايل (مشرق) : ٢٢٥ .

فرتون (زعيم البشكنس) : ٢٦٨ .

فضالة بن عبيد : ١٤٢ .

فوكاس : ٤٣-٤٤ .

(ق)

قتيبة بن مسلم الباهلي : ٣٠٨ .

قحطان (أبو العرب القحطانيين) : ١٦ .

قرة بن شريك البسي : ١٣٩ .

قسطنطين بن هرقل : ٤٥-٤٦-٦٢-٦٣ .

قيرس (المقوقس) : ٤٥ .

قيس بن الحجاج : ١٥٢ .

قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري : ٦٤-٨٣-

٨٤-٨٥-١١٦-١١٨ .

قيس عيلان : ١٦٥ .

قيصريوس : ٤٤ .

(ك)

الكاهنة : (انظر داهيا) .

كبشة بنت معدى كرب (أم معاوية بن حديج) :

٧٦ .

-٢٣٧-٢٣٦-٢٣٥-٢٣٤-٢٣٣
 -٢٤١-٢٤٠-٢٣٩-٢٣٨
 -٢٤٦-٢٤٥-٢٤٤-٢٤٣-٢٤٢
 -٥٢٥٤-٢٥٣-٢٥٢-٢٥١-٢٤٨
 -٢٥٩-٢٥٨-٢٥٧-٢٥٦-٢٥٥
 -٢٦٤-٢٦٣-٢٦٢-٢٦١-٢٦٠
 -٢٦٩-٢٦٨-٢٦٧-٢٦٦-٢٦٥
 -٢٧٥-٢٧٤-٢٧٣-٢٧٢-٢٧٠
 -٢٧٩-٢٧٨-٢٧٧-٢٧٦
 -٢٨٣-٢٨٢-٢٨١-٢٨٠
 -٢٨٨-٢٨٧-٢٨٦-٢٨٥-٢٨٤
 -٢٩٣-٢٩٢-٢٩١-٢٩٠-٢٨٩
 -٢٩٨-٢٩٧-٢٩٦-٢٩٥-٢٩٤
 -٣٠٣-٣٠٢-٣٠١-٣٠٠-٢٩٩
 -٣٠٨-٣٠٧-٣٠٦-٣٠٥-٣٠٤
 . ٣٠٩

(ن)

نائلة بنت القرافصة (زوجة عثان بن عفان) :
 . ٨٦
 النابغة (أم عقبة بن نافع) : ٩٢ .
 نافع بن عبد القيس الفهري : ٩١ .
 نصيب الشاعر (أبو محجن) : ٢٠٨-٢٠٩ .
 نصير اللخمي (أبو موسى بن نصير) : ٢٢٢-
 . ٢٢٣
 نغمور (مؤرخ بيزنطي) : ١٧٧-١٩١ .
 نقيتاس : ٤٤ .

(هـ)

هنيمل (هانيبال) : ٣٠-٥٥٧ .
 هرقل (ملك الروم) : ٣٦-٤٣-٤٤-٤٥-
 . ٥٧-٤٦
 هرقل (بطريق) : ٤٣-٤٤ .

٢٧٦-٢٦٣-٢٥٢-٢٣٦-٢٣٥
 مسلمة بن عبد الملك بن مروان : ٢٠٦-٢٩٨-
 . ٣٠٢-٣٠١
 مسلمة بن مخلد الانصاري : ٨٥-١٠٦-١١٥-
 -١٣٨-١٣٧-١٢٥-١٢٤-١١٩
 -٢١٦-١٤٧-١٤٣
 المسيح (عليه السلام) : ١٩-٤١ .
 مصعب بن الزبير : ١٣٢-١٧٤ .
 مطرف بن المغيرة بن شعبة الثقفي : ١٩٣ .
 معاوية بن أبي سفيان : ٦٠-٦٣-٦٤-٦٥-٧٠-
 -٨٦-٨٥-٨٤-٨١-٧٩-٥٧٢
 ١١٦-١١٣-١٠٧-١٠٦-٩٧-٨٧
 -١٢٥-١٢٠-١١٩-١١٨-١١٧
 . ٣٠٥-٢٢٤-٢٢٣-٢٢٢-١٣٧
 معاوية بن حديج السكوني : ٤٩-٧٥-٧٦-٧٧-
 ٨٤-٨٣-٨٢-٨١-٨٠-٧٩-٧٨
 ١٠٢-٩٦-٨٩-٨٨-٨٧-٨٦-٨٥
 . ١٥٢-١٢٦-١١٩-١١٧-١١٦
 مفيث الرومي : ٢٤٨-٥٢٥٤-٢٦٤-٢٦٥-
 -٢٨١-٢٧٥-٢٧١-٢٧٠-٢٦٧
 . ٢٨٤-٢٨٢
 المغيرة بن بردة القرشي : ٥٢٣٣ .
 المقداد بن الأسود الكنفي : ٧٢ .
 مكسيم (الراهب) : ٤٦ .
 المنذر الإفريقي : ٢٥٥ .
 مهابة بن جابر الأشعري : ٥١ .
 المهلب بن أبي صفرة الأزدي : ٢٨٥ .
 موحا (حمو) : ١٩٦ .
 موريس : ٤٣ .
 موسى بن نصير اللخمي : ٤٩-١٥٢-٢٢١-
 -٢٢٦-٢٢٥-٢٢٤-٢٢٣-٢٢٢
 -٢٣٢-٢٣١-٢٢٩-٢٢٨-٢٢٧

(ي)

- يزيد بن أبي مسلم : ١٤ .
يزيد بن عبد الملك : ١٤ .
يزيد بن مسروق اليحصبي : ٢٩١ .
يزيد بن معاوية بن أبي سفيان : ١٠٧-١١٩-
١٢٠-١٣٠-١٤١-١٥١ .
يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي : ٢٧٨-
٢٧٩-٢٨٥-٢٨٦-٢٩٢ .
يماز (ملك يهودا) : ٢٦ .
يلىان (الناري) : ١٠٩-١١٠-١٢٣٥-٢٣٦-
٢٤١-٢٤٢-٢٤٣-٢٤٤-٢٤٥-
٢٥٦-٢٦٦-٢٧٥ .
يوبيا (أمير نوميديا) : ١٨ .
يوجرتا : ١٨ .
يوسنا (البطريق) : ١٩١-١٩٢-١٩٩ .
يوشع بن نون : ٢٤ .

هرقل بن مارتينة : ٤٦ .

هشام بن عبد الملك : ٢٠٣ .

هلال بن ثروان اللواتي : ١٧٧-١٧٨ .

هلديك : ٣٤ .

هنريك بن جنسريك : ٣٤ .

هوار بن أوريغ بن برنس : ٩٧ .

(و)

وقلة بن غيطشة : ٢٤٢ .

الوليد بن عبد الملك : ٢٠٤-٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧-
٢٠٨-٢٠٩-٢١٢-٢٢٧-٢٢٨-
٢٤٤-٢٤٨-٢٥٣-٢٥٤-٢٦٤-
٢٦٥-٢٦٧-٢٧٠-٢٧١-
٢٧٥-٢٧٧-٢٧٩-٢٨٠-٢٨١-
٢٨٢-٢٨٣-٢٨٤-٢٨٦-٢٩١-
٢٩٣-٢٩٥-٣٠٢ .

أنة : ٢٦١ .
الأوراس : ١٨-٣٧-٤٤-١١١-١٧٤-
١٨١-١٨٢-١٨٥-١٨٦-١٩٥-
٢١٩-٢٧٣-٢٧٤ .
أوربا < ٢١-٢٧-٣٣-١٣٦-٢٨٦-٢٨٧-
٣٠٢-٣٠٥-٣٠٦ .
أوصاف : ٢٧٦ .
أيرة : ٢٥٧ .
إيطاليا : ٢٧١ .
يلة : ١٦١ .
بينون : ٢٧١ .

(۲)

بئر الفم : ٥٩٠ .
بئر الكاحنة : ١٩٧ .
بابل : ٢٣ .
باجة (الأندلس) : ٢٥٧-٢٥٩-٢٦٠-٢٧٣ .
٢٧٤ .
باجة (المغرب) : ١٨٠ .
باربالوس (نهر) : ٢٦٣ .
بارو (بازو) : ٢٦٩ .
باريس : ١١-١٢ .
باغاية : ٩٠-١٠٨-١٨٢ .
بانس (حسن) : ٢٢٣ .
بجاية : ١٤-٥٥١-١٣٩-٥٢٢١ .
بحر الأبيض المتوسط : ١٨-١٩-٢٢-٢٣-
٢٤-٢٥-٢٧-٣٢-٣٤-٣٦-٦٠
٥٨١-٥١٥٠-٥١٨٧-٢٠١-٥٢٥٣
٥٢٣٤-٢٣٨-٥٢٣٩-٢٤٠-٥٢٧١ .
٢٩١-٣٠١ .
بحر الأحمر : ١٦١ .
بحر الأسود : ٢٤ .

الاماكن

(أ)

أشتوريش : ٢٧٠-٢٦٩ .
 آشور : ٢٣ .
 أصنام هرقل : ٢٦-٢٧-٢٩ .
 أطلس (جبال) : ١٢٢-١٠١ .
 أغادير : ٢٩-١٤٠ .
 إفريقية : ٧-١٣-١٤-١٩-٢٠-٢١-٢٢-
 ٢٤-٢٥-٢٧-٢٨-٢٩-٣٠-٣٣
 ٣٤-٣٥-٣٦-٣٧-٣٨-٣٩-٤١
 ٤٢-٤٣-٤٤-٤٥-٤٦-٤٧-٥١
 - ٥٤ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ -
 ٦٠-٦١-٦٢-٦٣-٧٤-٧٥
 ٧٨-٧٩-٨٠-٨١-٨٧-٨٨-٨٩
 ٩١-٩٦-٩٨-١٠٢-١٠٣-١٠٦
 ١٠٧-١١١-١١٣-١١٤-١١٥
 ١١٦-١١٧-١١٨-١١٩-١٢٠
 ١٢٢-١٢٦-١٢٧-١٢٩-١٣٠
 ١٣١-١٣٢-١٣٣-١٣٥-١٣٦
 ١٣٧-١٣٨-١٣٩-١٤١-١٤٥
 ١٤٦-١٤٧-١٥٠-١٥١-١٥٢
 ١٥٣-١٥٥-١٥٦-١٥٧-١٥٨
 ١٥٩-١٦٠-١٦٢-١٦٣-١٦٤
 ١٦٥-١٦٧-١٦٩-١٧٠
 ١٧٢-١٧٣-١٧٤-١٧٥-١٧٦
 ١٧٧-١٧٨-١٨٠-١٨١-١٨٢
 ١٨٣-١٨٤-١٨٥-١٨٦-١٨٩

آبار حديج : ٨٠ .
 أبرة (الأبرو) : ٢٦٥-٢٦٨-٢٦٩ .
 أبيط : ٢٦٩ .
 أجدابية : ١٧٦-١٨٧ .
 الأجم : ٥٩-٨٠ .
 أنعميم : ٩٥ .
 أربة : ١٠٨ .
 أربونة : ٢٧١ .
 أرنيي : ٢٩ .
 أرواد (جزيرة) : ٢٢ .
 أروكامبو (وادي) : ٢٦١ .
 إسبانيا : ٢١-٢٧-٣٢-٣٣-٣٤-١١٠-
 ٢٤١-٢٤٢-٢٤٣-٢٧١-٢٩٦ .
 إستجة : ٢٤٨-٢٥٧ .
 استرامادور : ٢٥٥-٢٦١ .
 أسترقة : ٢٦٨-٢٦٩-٢٧٤-٢٧٥ .
 أسفى : ١٢٠ .
 الإسكندرية : ٥٦-٦٢-٦٧-٧٧-٨٢-٨٣ .
 ١٥٢-١٧٦ .
 أسوان : ٥٤-٥٦-٥٨-٥٩ .
 آسيا الصغرى : ٣٦ .
 إشبيلية : ٢٤٨-٢٥٦-٢٥٧-٢٥٨-٢٥٩
 ٢٦٠-٢٦١-٢٧٥-٢٧٦ .

أنة : ٢٦١ .
الأوراس : ١٨-٣٧-٤٤-٥١١-٥١٧٤-
١٨١-١٨٢-١٨٥-١٨٦-١٩٥-
٢١٩-٢٧٣-٢٧٤ .
أوريا : ٢١-٢٧-٣٣-١٣٦-٢٨٦-٢٨٧-
٣٠٢-٣٠٥-٣٠٦ .
أوساف : ٢٧٦ .
أيرة : ٢٥٧ .
إيطاليا : ٨٢٧١ .
أيلة : ١٦١ .
إيبيون : ٢٧١ .

(ب)

بئر النعم : ٨٩٠ .
بئر الكامنة : ١٩٧ .
بايل : ٢٣ .
باجة (الأندلس) : ٢٥٧-٢٥٩-٢٦٠-٢٧٣ .
٢٧٤ .
باجة (المغرب) : ١٨٠ .
باربالوس (نهير) : ٢٦٣ .
بارو (بازو) : ٢٦٩ .
باريس : ١١-١٢ .
باغاية : ٩٠-١٠٨-١٨٢ .
بانس (حصن) : ٢٢٣ .
بجاية : ١٤-٥١-١٣٩-٨٢٢١ .
البحر الأبيض المتوسط : ١٨-١٩-٢٢-٢٣-
٢٤-٢٥-٢٧-٣٢-٣٤-٣٦-٣٩-٨٦٠-
٨١-٨١٥-٨١٨٧-٢٠١-٨٢٢٣-
٢٢٣٨-٢٢٣٩-٢٤٠-٨٢٧١-
٢٩١-٣٠١ .
البحر الأحمر : ١٦١ .
البحر الأسود : ٢٤ .

١٩٠-١٩١-١٩٢-١٩٤-١٩٧-
١٩٨-١٩٩-٢٠٠-٢٠١-
٢٠٣-٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧-٢٠٨-
٢٠٩-٢١٠-٢١١-٢١٢-٢١٣-
٢١٥-٢١٦-٢١٨-٢١٩-
٢٢٠-٢٢٦-٢٢٧-٢٢٨-
٢٢٩-٢٣٠-٢٣٤-٢٣٧-
٢٣٨-٢٤٠-٢٤٢-٢٥٢-٢٦٧-
٢٧٦-٢٧٩-٢٨٠-٢٨٢-٢٨٤-
٢٨٦-٢٨٧-٢٨٨-٢٨٩-٢٩٠-
٢٩١-٣٠١-٣٠٢-٣٠٤-٣٠٥-
٣٠٦-٣٠٩ .
اكثيونية : ٢٥٦-٢٥٩ .
ألة دي تورميس : ٢٦٢ .
أماية : ٢٦٨-٢٦٩ .
الأندلس : ١٤-١٥-١٥-٣٣-٥١-١١٠-
١٥٢-١٧٩-١٨٠-١٨١-١٨٩-
٢٠٣-٢٢١-٢٣٦-٢٣٩-
٢٤٠-٢٤١-٢٤٣-
٢٤٤-٢٤٥-٢٤٦-
٢٤٨-٢٥٠-٢٥١-٢٥٢-
٢٥٣-٢٥٤-٢٥٥-٢٥٦-٢٥٧-
٢٥٨-٢٥٩-٢٦٠-٢٦١-٢٦٢-
٢٦٤-٢٦٥-٢٦٦-٢٦٧-٢٦٩-
٢٧١-٢٨٠-٢٨١-٢٨٢-٢٨٣-
٢٨٤-٢٨٥-٢٨٦-٢٨٧-٢٨٩-
٢٩١-٢٩٢-٢٩٤-٢٩٨-٣٠١-
٣٠٢-٣٠٣-٣٠٤-٣٠٥-٣٠٦-
٣٠٧-٣٠٩ .
إنطابلس : ٣٨-٥٦-١٥٢-١٨٧ .
أنطاكية : ٣١ .
إنكلترا : ١١ .

(ت)

- تاجة : ٢٤٢-٢٥١-٢٥٣-٢٦١-٢٧٣.
 تارنا : ٢٦٩ .
 تازا : ١٩ .
 تانس : ٣٧ .
 تاهرت : ١٠٩ .
 تيسة : ٣٧٤ .
 التبور (جبال) : ٨٩١ .
 تلمير : ٨٢٤٦ .
 ترشيش : ١٥٠-٢٠١-٢٠٢ .
 تلمسان : ١٤-٤١-٨٩١-١٠٨-١٤٠ .
 ١٤٧ - ٨٢٧١ .
 تماس : ٢٦٣ .
 تمجاد : ٣٧ .
 تهودة : ١١١-١١٢-١٢٩-١٤٢-١٤٣ .
 ١٥١-١٥٤-١٦٤-٢٣٤ .
 تونس : ١١-١٣-١٤-١٥-١٨-٢٤-٢٦ .
 ٣١-٣٢-٣٧-٤٤-٤٨-٥١-٥٧ .
 ٧٤-٧٥-٨٠-٨٩-٨٩٠-١٠٢ .
 ١٣٥-١٣٦-١٣٨-١٣٩-١٥٦ .
 ١٧٤-١٧٦-١٨٠-١٨٧-١٩٨ .
 ١٩٩-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢١٠ .
 ٢٢٠-٢٢٩-٢٣٨-٢٩٠-٣٠١ .
 التينار (تاتير أو تايد) : ٢٦١-٢٦٢ .
 تيجي : ٨٩٠ .
 تيفش : ٣٧ .

(ث)

- تمهريّة (المهدية) : ٢٩ .
 ثيوداد رودريجو : ٢٦٢ .

(ج)

- جابر : ٢٥٧ .

البريات (البرانس) : ٢٧١ .

برباط (وادي) : ٢٤٦-٢٦٣ .

البرتغال : ٢٧٣-٢٧٤ .

برشلونة : ٢٧١ .

برقة : ١٣-١٤-٢٧-٣٧-٣٨-٤٧-٥١ .

٥٦-٨٣-٨٩١-٩٤-٩٥-٩٦ .

٩٧-٩٨-١٠٢-١١٣-١١٦-١١٧ .

١١٧-١٢٦-١٢٩-١٥٢-١٥٣ .

١٥٤-١٥٧-١٥٨-١٥٩ .

١٦٠-١٦١-١٦٢-١٦٣-١٦٥ .

١٦٦-١٦٧-١٧٦-١٧٧-١٧٨ .

١٨٧-١٩١-١٩٢-٢٠٧-٢٠٨ .

٢١٧ .

برونيسكا : ٢٦٨ .

براسيوم : ٢٣-٣٧ .

بسكرة : ٨٩١ .

البصرة : ١٩٤-٢٢٥-٢٢٦ .

بغداد : ١٣٩ .

بلاط مغيث : ٢٦٨ .

بلاي : ٢٦٩ .

بلد الوليد : ٢٦٩ .

بلنسية : ٢٦٨ .

بنافني : ٢٦٨ .

بنزرت : ٧٥-٧٩-٨١-١٣٨-١٨٠-١٨١ .

بنغازي (بني غازي) : ٨٩٨ .

بجنا : ٨٩٥ .

بوننة : ١٨٠ .

بوررات الحسون : ٨٩٨ .

بيت جبرين : ٨٦٤ .

بيروت : ٢٢ .

(د)

- دوعة : ٢٣٥-٢٣٤-٢٣٢ .
دوقة : ١٦٢ .
دمشق : ١٥٢-١٦١-٢٠٤-٢٠٦-٢٠٨-
٢٠٩-٢٦٧-٢٧٠-٢٧١-٢٧٣-
٢٧٦-٢٧٧-٢٧٨-٢٨٠-٢٨٤-
٢٨٦-٢٩٧ .
دمقلة (دقلقة) : ٦١-٧٨ .

(ر)

- رادس : ٢٠٢-٢٠٣-٢٣٨ .
ردونة (وادي) : ٢٧١ .
رعواق : ٢٥٧ .
الرملة : ٦٤ .
رودس (جزيرة) : ٨٨١ .
روسادير (مليلة) : ٣٢ .
روما (رومية) : ١٨-٢٠-٣٠-٣٢-٣٣-
٣٤-٣٩-٤٠-٤٢-٤٥-٥٧-
١٧٨-٢٢١-٢٥٧-٢٦٧-٢٧٢-
٢٨٣-٣٠٢-٣٠٣-٣٠٥-٣٠٦ .
الرون (نهر) : ٢٧١ .
رية : ٢٤٨-٢٥٠ .

(ز)

- الزباب : ٤٢-٩٠-٩١-١٠٢-١٠٨-
١١١-١١٢-١٤٣-١٩٧ .
زاما (جاما) : ٣٠ .
زرهون (جبل) : ١١٠-١٥٦ .
زغوان (جبال) : ١٩٨-٢١٤-٢٢٩-٢٣٠-
الزقاق : ٢٤١ .
زلة : ٩٨ .
زنانة : ١٧٤ .

- جبل طارق : ٢٦-٢٧-٢٥٦-٢٤٥-
جبل نفوسة : ١٠١-١٢٧ .
جربة (جزيرة) : ٨٠ .
جرمة : ٩٩ .
الجريد : ١٩٧ .
الجزائر : ١١-١٣-١٤-١٨-٣١-٣٢-٤٨-
٧٤-٨٩-١٣٥-١٣٦-١٨١ .
الجزيرة الخضراء : ٢٤٥-٢٤٦-٢٥٠-٢٥٦-
٢٥٧ .

- جزيرة طريف : ٢٤٤ .
جلولاء (العراق) : ٨١٥ .
جلولاء (المغرب) : ٧٥-٨٠ .
جليقية : ٢٥٤-٢٥٩-٢٦٧-٢٦٨-٢٧٠-
٢٧٥ .
الجليل (جبل) : ٢٢٣ .
الجن (قصر) : ٧٢ .
جيان : ٢٥٠ .

(ح)

- الحجاز : ٤٧٣-١٣٠-١٦١-١٦٦ .
الحرّة : ١٣٢ .
حصن قريكون : ٢٩ .
حنين : ١٨٥ .
حنية (دار) : ٧١ .

(خ)

- الخازر (العراق) : ١٣٢ .
خاندانة (بحيرة) : ٢٦٣ .
خاور : ٩٩-١٠٠-١٠١-١١٧ .
خراسان : ١٣٠ .
خربتا : ٨٣-٨٤ .
خيخون : ٢٦٩-٢٧٠ .

السوس : ١١٠-١٢٣-٢٣٤-٢٥٢-٢٧٦-

. ٢٧٧

السوس الأدنى : ٩٠-٩١-١١٠-٢٣٦-

السوس الأقصى : ٩٠-٩١-١١٠-٢٣٥-

سوسة : ٧٥-٨٠-٨١٣٩-١٩٢-٢٣٩-

سوكنة : ٨٩٨.

سوليرا : ٢٧١.٨

سيجولادي لوس كورتيجوس (السواقي) :

. ٢٦٣-٢٦٦-٨٢٦٦.

سيرا دي فراتيا : ٢٦١.

سيناون : ٨٩٠.

(ش)

الشام : ٢٢-٣١-٣٦-٥٣-٦٠-٦٣-

٧٣-٧٩-٨٤-٨٦-١٠٧-١١٣-

١٢٥-١٣٦-١٤٦-١٥٥-١٦١-٨١٦١-

١٦٩-١٧٢-١٧٣-١٧٦-١٩٣-

٢٠٤-٢٠٧-٢١٨-٨٢٢٣-

٢٢٧-٢٥١-٢٧١-٢٧٦-٢٨٣-

٢٩٧-٣٠٢-٣٠٣-٣٠٥.

شفاوة : ٢٤٦-٢٤٧-٢٥٦-٢٥٧.

الشرف (جبل) : ٢٤٨.٨

شريس : ٨٢٤٦.

شريك (جزيرة) : ١٣٩-١٤٦-١٥٢-٨١٥٢-

. ١٧٨

شقنارية : ١٥٦-١٩٢.

شلف : ٤١.

شنترين : ٢٧٣-٢٧٤.

شيه : ٢٦٨-٢٧٤.

(ص)

صبرة : ٣٨-٤١.

زوجيتان : ٢٤.

زوجيتانيا (تونس) : ٢٥٠٢٤.

زويلة : ٩٠-٩٣-٩٤-٩٥-١٠١-١١٥-

. ١١٧-١٣٥.

زيان : ٨١٧٤.

(س)

سان بابلو : ٢٤٣.

سان بدرو : ٢٤٣.

سبته : ٣٧-٣٨-٩١-١٣٨-٢٢١-٢٢٢-٨٢٢٤-

٢٣٦-٢٣٧-٢٤١-٢٤٢-٢٤٣-

. ٢٤٤-٢٤٥.

السبخة : ٧٢.

سبو (نهر) : ١١٠.

سبيطلة : ٣٧-٥٧-٥٨-٨٠.

سجستان : ١٩٣-١٩٤.

سجلامة : ٩١-٩٢-٩٣-٩٤-٩٥-٩٦-٩٧-٩٨-٩٩-١٠٠-١٠١-١٠٢-١٠٣-١٠٤-١٠٥-١٠٦-١٠٧-١٠٨-١٠٩-١١٠-١١١-١١٢-١١٣-١١٤-١١٥-١١٦-١١٧-١١٨-١١٩-١٢٠-١٢١-١٢٢-١٢٣-١٢٤-١٢٥-١٢٦-١٢٧-١٢٨-١٢٩-١٣٠-١٣١-١٣٢-١٣٣-١٣٤-١٣٥-١٣٦-١٣٧-١٣٨-١٣٩-١٤٠-١٤١-١٤٢-١٤٣-١٤٤-١٤٥-١٤٦-١٤٧-١٤٨-١٤٩-١٥٠-١٥١-١٥٢-١٥٣-١٥٤-١٥٥-١٥٦-١٥٧-١٥٨-١٥٩-١٦٠-١٦١-١٦٢-١٦٣-١٦٤-١٦٥-١٦٦-١٦٧-١٦٨-١٦٩-١٧٠-١٧١-١٧٢-١٧٣-١٧٤-١٧٥-١٧٦-١٧٧-١٧٨-١٧٩-١٨٠-١٨١-١٨٢-١٨٣-١٨٤-١٨٥-١٨٦-١٨٧-١٨٨-١٨٩-١٩٠-١٩١-١٩٢-١٩٣-١٩٤-١٩٥-١٩٦-١٩٧-١٩٨-١٩٩-٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤-٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧-٢٠٨-٢٠٩-٢١٠-٢١١-٢١٢-٢١٣-٢١٤-٢١٥-٢١٦-٢١٧-٢١٨-٢١٩-٢٢٠-٢٢١-٢٢٢-٢٢٣-٢٢٤-٢٢٥-٢٢٦-٢٢٧-٢٢٨-٢٢٩-٢٣٠-٢٣١-٢٣٢-٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥-٢٣٦-٢٣٧-٢٣٨-٢٣٩-٢٤٠-٢٤١-٢٤٢-٢٤٣-٢٤٤-٢٤٥-٢٤٦-٢٤٧-٢٤٨-٢٤٩-٢٥٠-٢٥١-٢٥٢-٢٥٣-٢٥٤-٢٥٥-٢٥٦-٢٥٧-٢٥٨-٢٥٩-٢٦٠-٢٦١-٢٦٢-٢٦٣-٢٦٤-٢٦٥-٢٦٦-٢٦٧-٢٦٨-٢٦٩-٢٧٠-٢٧١-٢٧٢-٢٧٣-٢٧٤-٢٧٥-٢٧٦-٢٧٧-٢٧٨-٢٧٩-٢٨٠-٢٨١-٢٨٢-٢٨٣-٢٨٤-٢٨٥-٢٨٦-٢٨٧-٢٨٨-٢٨٩-٢٩٠-٢٩١-٢٩٢-٢٩٣-٢٩٤-٢٩٥-٢٩٦-٢٩٧-٢٩٨-٢٩٩-٣٠٠-٣٠١-٣٠٢-٣٠٣-٣٠٤-٣٠٥-٣٠٦-٣٠٧-٣٠٨-٣٠٩-٣١٠-٣١١-٣١٢-٣١٣-٣١٤-٣١٥-٣١٦-٣١٧-٣١٨-٣١٩-٣٢٠-٣٢١-٣٢٢-٣٢٣-٣٢٤-٣٢٥-٣٢٦-٣٢٧-٣٢٨-٣٢٩-٣٣٠-٣٣١-٣٣٢-٣٣٣-٣٣٤-٣٣٥-٣٣٦-٣٣٧-٣٣٨-٣٣٩-٣٤٠-٣٤١-٣٤٢-٣٤٣-٣٤٤-٣٤٥-٣٤٦-٣٤٧-٣٤٨-٣٤٩-٣٥٠-٣٥١-٣٥٢-٣٥٣-٣٥٤-٣٥٥-٣٥٦-٣٥٧-٣٥٨-٣٥٩-٣٦٠-٣٦١-٣٦٢-٣٦٣-٣٦٤-٣٦٥-٣٦٦-٣٦٧-٣٦٨-٣٦٩-٣٧٠-٣٧١-٣٧٢-٣٧٣-٣٧٤-٣٧٥-٣٧٦-٣٧٧-٣٧٨-٣٧٩-٣٨٠-٣٨١-٣٨٢-٣٨٣-٣٨٤-٣٨٥-٣٨٦-٣٨٧-٣٨٨-٣٨٩-٣٩٠-٣٩١-٣٩٢-٣٩٣-٣٩٤-٣٩٥-٣٩٦-٣٩٧-٣٩٨-٣٩٩-٤٠٠-٤٠١-٤٠٢-٤٠٣-٤٠٤-٤٠٥-٤٠٦-٤٠٧-٤٠٨-٤٠٩-٤١٠-٤١١-٤١٢-٤١٣-٤١٤-٤١٥-٤١٦-٤١٧-٤١٨-٤١٩-٤٢٠-٤٢١-٤٢٢-٤٢٣-٤٢٤-٤٢٥-٤٢٦-٤٢٧-٤٢٨-٤٢٩-٤٣٠-٤٣١-٤٣٢-٤٣٣-٤٣٤-٤٣٥-٤٣٦-٤٣٧-٤٣٨-٤٣٩-٤٤٠-٤٤١-٤٤٢-٤٤٣-٤٤٤-٤٤٥-٤٤٦-٤٤٧-٤٤٨-٤٤٩-٤٥٠-٤٥١-٤٥٢-٤٥٣-٤٥٤-٤٥٥-٤٥٦-٤٥٧-٤٥٨-٤٥٩-٤٦٠-٤٦١-٤٦٢-٤٦٣-٤٦٤-٤٦٥-٤٦٦-٤٦٧-٤٦٨-٤٦٩-٤٧٠-٤٧١-٤٧٢-٤٧٣-٤٧٤-٤٧٥-٤٧٦-٤٧٧-٤٧٨-٤٧٩-٤٨٠-٤٨١-٤٨٢-٤٨٣-٤٨٤-٤٨٥-٤٨٦-٤٨٧-٤٨٨-٤٨٩-٤٩٠-٤٩١-٤٩٢-٤٩٣-٤٩٤-٤٩٥-٤٩٦-٤٩٧-٤٩٨-٤٩٩-٥٠٠-٥٠١-٥٠٢-٥٠٣-٥٠٤-٥٠٥-٥٠٦-٥٠٧-٥٠٨-٥٠٩-٥١٠-٥١١-٥١٢-٥١٣-٥١٤-٥١٥-٥١٦-٥١٧-٥١٨-٥١٩-٥٢٠-٥٢١-٥٢٢-٥٢٣-٥٢٤-٥٢٥-٥٢٦-٥٢٧-٥٢٨-٥٢٩-٥٣٠-٥٣١-٥٣٢-٥٣٣-٥٣٤-٥٣٥-٥٣٦-٥٣٧-٥٣٨-٥٣٩-٥٤٠-٥٤١-٥٤٢-٥٤٣-٥٤٤-٥٤٥-٥٤٦-٥٤٧-٥٤٨-٥٤٩-٥٥٠-٥٥١-٥٥٢-٥٥٣-٥٥٤-٥٥٥-٥٥٦-٥٥٧-٥٥٨-٥٥٩-٥٦٠-٥٦١-٥٦٢-٥٦٣-٥٦٤-٥٦٥-٥٦٦-٥٦٧-٥٦٨-٥٦٩-٥٧٠-٥٧١-٥٧٢-٥٧٣-٥٧٤-٥٧٥-٥٧٦-٥٧٧-٥٧٨-٥٧٩-٥٨٠-٥٨١-٥٨٢-٥٨٣-٥٨٤-٥٨٥-٥٨٦-٥٨٧-٥٨٨-٥٨٩-٥٩٠-٥٩١-٥٩٢-٥٩٣-٥٩٤-٥٩٥-٥٩٦-٥٩٧-٥٩٨-٥٩٩-٦٠٠-٦٠١-٦٠٢-٦٠٣-٦٠٤-٦٠٥-٦٠٦-٦٠٧-٦٠٨-٦٠٩-٦١٠-٦١١-٦١٢-٦١٣-٦١٤-٦١٥-٦١٦-٦١٧-٦١٨-٦١٩-٦٢٠-٦٢١-٦٢٢-٦٢٣-٦٢٤-٦٢٥-٦٢٦-٦٢٧-٦٢٨-٦٢٩-٦٣٠-٦٣١-٦٣٢-٦٣٣-٦٣٤-٦٣٥-٦٣٦-٦٣٧-٦٣٨-٦٣٩-٦٤٠-٦٤١-٦٤٢-٦٤٣-٦٤٤-٦٤٥-٦٤٦-٦٤٧-٦٤٨-٦٤٩-٦٥٠-٦٥١-٦٥٢-٦٥٣-٦٥٤-٦٥٥-٦٥٦-٦٥٧-٦٥٨-٦٥٩-٦٦٠-٦٦١-٦٦٢-٦٦٣-٦٦٤-٦٦٥-٦٦٦-٦٦٧-٦٦٨-٦٦٩-٦٧٠-٦٧١-٦٧٢-٦٧٣-٦٧٤-٦٧٥-٦٧٦-٦٧٧-٦٧٨-٦٧٩-٦٨٠-٦٨١-٦٨٢-٦٨٣-٦٨٤-٦٨٥-٦٨٦-٦٨٧-٦٨٨-٦٨٩-٦٩٠-٦٩١-٦٩٢-٦٩٣-٦٩٤-٦٩٥-٦٩٦-٦٩٧-٦٩٨-٦٩٩-٧٠٠-٧٠١-٧٠٢-٧٠٣-٧٠٤-٧٠٥-٧٠٦-٧٠٧-٧٠٨-٧٠٩-٧١٠-٧١١-٧١٢-٧١٣-٧١٤-٧١٥-٧١٦-٧١٧-٧١٨-٧١٩-٧٢٠-٧٢١-٧٢٢-٧٢٣-٧٢٤-٧٢٥-٧٢٦-٧٢٧-٧٢٨-٧٢٩-٧٣٠-٧٣١-٧٣٢-٧٣٣-٧٣٤-٧٣٥-٧٣٦-٧٣٧-٧٣٨-٧٣٩-٧٤٠-٧٤١-٧٤٢-٧٤٣-٧٤٤-٧٤٥-٧٤٦-٧٤٧-٧٤٨-٧٤٩-٧٥٠-٧٥١-٧٥٢-٧٥٣-٧٥٤-٧٥٥-٧٥٦-٧٥٧-٧٥٨-٧٥٩-٧٦٠-٧٦١-٧٦٢-٧٦٣-٧٦٤-٧٦٥-٧٦٦-٧٦٧-٧٦٨-٧٦٩-٧٧٠-٧٧١-٧٧٢-٧٧٣-٧٧٤-٧٧٥-٧٧٦-٧٧٧-٧٧٨-٧٧٩-٧٨٠-٧٨١-٧٨٢-٧٨٣-٧٨٤-٧٨٥-٧٨٦-٧٨٧-٧٨٨-٧٨٩-٧٩٠-٧٩١-٧٩٢-٧٩٣-٧٩٤-٧٩٥-٧٩٦-٧٩٧-٧٩٨-٧٩٩-٨٠٠-٨٠١-٨٠٢-٨٠٣-٨٠٤-٨٠٥-٨٠٦-٨٠٧-٨٠٨-٨٠٩-٨١٠-٨١١-٨١٢-٨١٣-٨١٤-٨١٥-٨١٦-٨١٧-٨١٨-٨١٩-٨٢٠-٨٢١-٨٢٢-٨٢٣-٨٢٤-٨٢٥-٨٢٦-٨٢٧-٨٢٨-٨٢٩-٨٣٠-٨٣١-٨٣٢-٨٣٣-٨٣٤-٨٣٥-٨٣٦-٨٣٧-٨٣٨-٨٣٩-٨٤٠-٨٤١-٨٤٢-٨٤٣-٨٤٤-٨٤٥-٨٤٦-٨٤٧-٨٤٨-٨٤٩-٨٥٠-٨٥١-٨٥٢-٨٥٣-٨٥٤-٨٥٥-٨٥٦-٨٥٧-٨٥٨-٨٥٩-٨٦٠-٨٦١-٨٦٢-٨٦٣-٨٦٤-٨٦٥-٨٦٦-٨٦٧-٨٦٨-٨٦٩-٨٧٠-٨٧١-٨٧٢-٨٧٣-٨٧٤-٨٧٥-٨٧٦-٨٧٧-٨٧٨-٨٧٩-٨٨٠-٨٨١-٨٨٢-٨٨٣-٨٨٤-٨٨٥-٨٨٦-٨٨٧-٨٨٨-٨٨٩-٨٩٠-٨٩١-٨٩٢-٨٩٣-٨٩٤-٨٩٥-٨٩٦-٨٩٧-٨٩٨-٨٩٩-٩٠٠-٩٠١-٩٠٢-٩٠٣-٩٠٤-٩٠٥-٩٠٦-٩٠٧-٩٠٨-٩٠٩-٩١٠-٩١١-٩١٢-٩١٣-٩١٤-٩١٥-٩١٦-٩١٧-٩١٨-٩١٩-٩٢٠-٩٢١-٩٢٢-٩٢٣-٩٢٤-٩٢٥-٩٢٦-٩٢٧-٩٢٨-٩٢٩-٩٣٠-٩٣١-٩٣٢-٩٣٣-٩٣٤-٩٣٥-٩٣٦-٩٣٧-٩٣٨-٩٣٩-٩٤٠-٩٤١-٩٤٢-٩٤٣-٩٤٤-٩٤٥-٩٤٦-٩٤٧-٩٤٨-٩٤٩-٩٥٠-٩٥١-٩٥٢-٩٥٣-٩٥٤-٩٥٥-٩٥٦-٩٥٧-٩٥٨-٩٥٩-٩٦٠-٩٦١-٩٦٢-٩٦٣-٩٦٤-٩٦٥-٩٦٦-٩٦٧-٩٦٨-٩٦٩-٩٧٠-٩٧١-٩٧٢-٩٧٣-٩٧٤-٩٧٥-٩٧٦-٩٧٧-٩٧٨-٩٧٩-٩٨٠-٩٨١-٩٨٢-٩٨٣-٩٨٤-٩٨٥-٩٨٦-٩٨٧-٩٨٨-٩٨٩-٩٩٠-٩٩١-٩٩٢-٩٩٣-٩٩٤-٩٩٥-٩٩٦-٩٩٧-٩٩٨-٩٩٩-١٠٠٠-١٠٠١-١٠٠٢-١٠٠٣-١٠٠٤-١٠٠٥-١٠٠٦-١٠٠٧-١٠٠٨-١٠٠٩-١٠١٠-١٠١١-١٠١٢-١٠١٣-١٠١٤-١٠١٥-١٠١٦-١٠١٧-١٠١٨-١٠١٩-١٠٢٠-١٠٢١-١٠٢٢-١٠٢٣-١٠٢٤-١٠٢٥-١٠٢٦-١٠٢٧-١٠٢٨-١٠٢٩-١٠٣٠-١٠٣١-١٠٣٢-١٠٣٣-١٠٣٤-١٠٣٥-١٠٣٦-١٠٣٧-١٠٣٨-١٠٣٩-١٠٤٠-١٠٤١-١٠٤٢-١٠٤٣-١٠٤٤-١٠٤٥-١٠٤٦-١٠٤٧-١٠٤٨-١٠٤٩-١٠٥٠-١٠٥١-١٠٥٢-١٠٥٣-١٠٥٤-١٠٥٥-١٠٥٦-١٠٥٧-١٠٥٨-١٠٥٩-١٠٦٠-١٠٦١-١٠٦٢-١٠٦٣-١٠٦٤-١٠٦٥-١٠٦٦-١٠٦٧-١٠٦٨-١٠٦٩-١٠٧٠-١٠٧١-١٠٧٢-١٠٧٣-١٠٧٤-١٠٧٥-١٠٧٦-١٠٧٧-١٠٧٨-١٠٧٩-١٠٨٠-١٠٨١-١٠٨٢-١٠٨٣-١٠٨٤-١٠٨٥-١٠٨٦-١٠٨٧-١٠٨٨-١٠٨٩-١٠٩٠-١٠٩١-١٠٩٢-١٠٩٣-١٠٩٤-١٠٩٥-١٠٩٦-١٠٩٧-١٠٩٨-١٠٩٩-١١٠٠-١١٠١-١١٠٢-١١٠٣-١١٠٤-١١٠٥-١١٠٦-١١٠٧-١١٠٨-١١٠٩-١١١٠-١١١١-١١١٢-١١١٣-١١١٤-١١١٥-١١١٦-١١١٧-١١١٨-١١١٩-١١٢٠-١١٢١-١١٢٢-١١٢٣-١١٢٤-١١٢٥-١١٢٦-١١٢٧-١١٢٨-١١٢٩-١١٣٠-١١٣١-١١٣٢-١١٣٣-١١٣٤-١١٣٥-١١٣٦-١١٣٧-١١٣٨-١١٣٩-١١٤٠-١١٤١-١١٤٢-١١٤٣-١١٤٤-١١٤٥-١١٤٦-١١٤٧-١١٤٨-١١٤٩-١١٥٠-١١٥١-١١٥٢-١١٥٣-١١٥٤-١١٥٥-١١٥٦-١١٥٧-١١٥٨-١١٥٩-١١٦٠-١١٦١-١١٦٢-١١٦٣-١١٦٤-١١٦٥-١١٦٦-١١٦٧-١١٦٨-١١٦٩-١١٧٠-١١٧١-١١٧٢-١١٧٣-١١٧٤-١١٧٥-١١٧٦-١١٧٧-١١٧٨-١١٧٩-١١٨٠-١١٨١-١١٨٢-١١٨٣-١١٨٤-١١٨٥-١١٨٦-١١٨٧-١١٨٨-١١٨٩-١١٩٠-١١٩١-١١٩٢-١١٩٣-١١٩٤-١١٩٥-١١٩٦-١١٩٧-١١٩٨-١١٩٩-١٢٠٠-١٢٠١-١٢٠٢-١٢٠٣-١٢٠٤-١٢٠٥-١٢٠٦-١٢٠٧-١٢٠٨-١٢٠٩-١٢١٠-١٢١١-١٢١٢-١٢١٣-١٢١٤-١٢١٥-١٢١٦-١٢١٧-١٢١٨-١٢١٩-١٢٢٠-١٢٢١-١٢٢٢-١٢٢٣-١٢٢٤-١٢٢٥-١٢٢٦-١٢٢٧-١٢٢٨-١٢٢٩-١٢٣٠-١٢٣١-١٢٣٢-١٢٣٣-١٢٣٤-١٢٣٥-١٢٣٦-١٢٣٧-١٢٣٨-١٢٣٩-١٢٤٠-١٢٤١-١٢٤٢-١٢٤٣-١٢٤٤-١٢٤٥-١٢٤٦-١٢٤٧-١٢٤٨-١٢٤٩-١٢٥٠-١٢٥١-١٢٥٢-١٢٥٣-١٢٥٤-١٢٥٥-١٢٥٦-١٢٥٧-١٢٥٨-١٢٥٩-١٢٦٠-١٢٦١-١٢٦٢-١٢٦٣-١٢٦٤-١٢٦٥-١٢٦٦-١٢٦٧-١٢٦٨-١٢٦٩-١٢٧٠-١٢٧١-١٢٧٢-١٢٧٣-١٢٧٤-١٢٧٥-١٢٧٦-١٢٧٧-١٢٧٨-١٢٧٩-١٢٨٠-١٢٨١-١٢٨٢-١٢٨٣-١٢٨٤-١٢٨٥-١٢٨٦-١٢٨٧-١٢٨٨-١٢٨٩-١٢٩٠-١٢٩١-١٢٩٢-١٢٩٣-١٢٩٤-١٢٩٥-١٢٩٦-١٢٩٧-١٢٩٨-١٢٩٩-١٣٠٠-١٣٠١-١٣٠٢-١٣٠٣-١٣٠٤-١٣٠٥-١٣٠٦-١٣٠٧-١٣٠٨-١٣٠٩-١٣١٠-١٣١١-١٣١٢-١٣١٣-١٣١٤-١٣١٥-١٣١٦-١٣١٧-١٣١٨-١٣١٩-١٣٢٠-١٣٢١-١٣٢٢-١٣٢٣-١٣٢٤-١٣٢٥-١٣٢٦-١٣٢٧-١٣٢٨-١٣٢٩-١٣٣٠-١٣٣١-١٣٣٢-١٣٣٣-١٣٣٤-١٣٣٥-١٣٣٦-١٣٣٧-١٣٣٨-١٣٣٩-١٣٤٠-١٣٤١-١٣٤٢-١٣٤٣-١٣٤٤-١٣٤٥-١٣٤٦-١٣٤٧-١٣٤٨-١٣٤٩-١٣٥٠-١٣٥١-١٣٥٢-١٣٥٣-١٣٥٤-١٣٥٥-١٣٥٦-١٣٥٧-١٣٥٨-١٣٥٩-١٣٦٠-١٣٦١-١٣٦٢-١٣٦٣-١٣٦٤-١٣٦٥-١٣٦٦-١٣٦٧-١٣٦٨-١٣٦٩-١٣٧٠-١٣٧١-١٣٧٢-١٣٧٣-١٣٧٤-١٣٧٥-١٣٧٦-١٣٧٧-١٣٧٨-١٣٧٩-١٣٨٠-١٣٨١-١٣٨٢-١٣٨٣-١٣٨٤-١٣٨٥-١٣٨٦-١٣٨٧-١٣٨٨-١٣٨٩-١٣٩٠-١٣٩١-١٣٩٢-١٣٩٣-١٣٩٤-١٣٩٥-١٣٩٦-١٣٩٧-١٣٩٨-١

(ع)

- المراثي : ٣٠ .
المراق : ١٢-١٥-٨٤-١٣٠-١٣٢-١٦٩
١٩٤-٢١٨-٢٢٥ .
مرفات : ١٣٢ .
المرزبة : ٨٩٠ .
عسقلان : ٢٥-٦٤-٦٥ .
مقوبة : ٥٧ .
عقيلة : ٨٩٨ .
مكا : ٢٣ .
مكرة : ٢٩ .
عين التمر : ٢٢٢ .

(غ)

- غات : ٨٩١ .
غالة : ٢٧١ .
خداس : ٩٠-٩٨-١٠١-١١٧ .
غزة : ٢٥-٦٤ .
غيتة : ٢٩ .

(ف)

- فارس : ٢٣ .
فاس : ١١٠-١٥٦-١٧٢-١٨٢-٢٠٠
٢٢٠-٢٤١ .
فج موسى : ٢٥٨-٢٦٢-٢٧٥ .
فرنسا : ١١-٢١-٣٠-٤٨-٢٧١-٢٧٣
٢٧٦-٣٠٩ .
قران : ١٤-٩٠-٩٩-١٠٠-١١٧-١٢٩
١٣٥ .
الفسطاط : ٦٧-٨٦-١٤٥-١٧٦-١٧٧
٢١٩ .
فلسطين : ٢٢-٢٤-٥٣-٦٤-٦٨-٨٣

صطفورة : ١٨٠-١٨١ .

الصعيد : ٥٤-٦٦-٦٧-٧١-٨٣-٩٥ .

صفر (صفرو) : ١٠١ .

صفين : ٨٥-١١٨ .

صقلية : ٣٠-٥١-٨١-٨٩-١٥٧-١٥٨

١٧٩-١٨٠-١٨١-٢٢٨-٢٢٩

٢٤٠ .

صنماء (الشام) : ١٣٩-١٥٢ .

صور : ٢٢-٢٣-٢٥-٢٦ .

الصورة : ٢٩ .

صيда : ٢٢-٢٣-٢٥ .

(ط)

طبرية : ٥٣ .

طبة : ٣٧-١١١-١٨٩ .

طرابلس (الشام) : ٢٢ .

طرابلس (الغرب) : ١٤-٢٣-٣٧-٣٨-٤١

٤٧-٥١-٥٦-٨٠-٨٩-٩٦

٩٧-٩٨-١٠١-١٢٧-١٤٣

١٥٢-١٥٥-١٦٣-١٦٤

١٧٦-١٧٧-١٧٨-١٨٣-١٨٦

١٨٩-٢٨٨ .

طركونة : ٢٦٦ .

طريف : ٢٤٤ .

طلبيبة : ٢٥٣-٢٥٥-٢٦١-٢٦٢

٢٤٣-٢٥١-٢٥٣-٢٥٧-٢٦١

٢٦٢-٢٦٣-٢٦٤-٢٦٦-٢٦٨

٢٦٩-٢٧٠-٢٧٥-٢٨٩ .

طنجة : ١٣-٣٠-٣٢-٣٧-٥٦-٥٧-١٠٩

١١٠-١٣٨-١٤١-١٥٦-٢٣٤

٢٣٥-٢٣٦-٢٣٧-٢٤٣-٢٤٤

٢٥٢-٢٥٥-٢٧٦-٢٨٨-٣٠٤

. ٢٧٧

فينيقيا : ٢٤-٢٣-٢٢ .

فيوبولس : ٣٢ .

الفيوم : ٦٧ .

(ق)

قابس : ١٧٦-١٤٣-١٢٥-٨٠-٣٨

. ١٩٧-١٩٢-١٨٧-١٨٤-١٨٣

القاهرة : ١٤٥-١٣٦ .

قرس : ٢٢٤-٢٢٣-٨١-٧٣-٦٠ .

قرطاجنة (المغرب) : ٢٦-٢٠-١٨-١٣ .

-٣٤-٣٣-٣٢-٣١-٣٠-٢٩-٢٨

-١٣٨-٥٧-٤٥-٤٣-٤٢-٤١-٤٠

-١٧٢-١٥٠-١٤٧-١٤٦-١٣٩

-١٨٠-١٧٩-١٧٨-١٧٧-١٧٤

-١٩٨-١٩٢-١٩١-١٨٤-١٨١

-٢١٥-٢٠٣-٢٠١-٢٠٠-١٩٩

. ٥٢٤٦-٢٢٠-٢١٩-٢١٨-٢١٦

قرطاجنة (الأندلس) : ٢٤٦ .

قرطبة : ٢٥٩-٢٥٧-٢٥٢-٢٥١-٢٤٨

-٢٧٣-٢٧١-٢٧٠-٢٦٦-٢٦٤

. ٢٧٥

قرقشونة : ٢٧١ .

قرمونة : ٢٥٧-٢٥٦-٢٤٨ .

القرن : ٨٨-٨٠-٧٨ .

قسطيلية : ١٩٧-١٠٢ .

القسطانيية (بزنطة) : ٣٦-٣٥-٣٤-١٤ .

-١٠٤-٨٠-٤٥-٤٤-٤٣-٣٨

-١٦٩-١٦٧-١٥٩-١٥٨-١٥٧

-٢٨٣-٢٤٢-٢١٣-١٩٩-١٨١

٣٠٦-٣٠٥-٣٠٣-٣٠٢-٣٠١

قسنطينة : ١٨٢-٨٩ .

قشتالة : ٢٧٣-٢٦٩-٢٦٨-٢٦١ .

قصر الروم : ٧١ .

قصر الشمع : ١٤٥ .

قصر فرعون (ورقة) : ١١٠ .

قصر ميمون : ١٠١-٨٩٧ .

قصور حسان : ١٩٢-١٩١-١٨٧ .

قطالونة : ٢٧١ .

قفصة : ١٩٧-١٢٩-١٠٢-٨٩١-٨٠-٥٨

قفط : ٩٥ .

قلقشانة : ١٥٥ .

قلمرية : ٢٧٤ .

قلونية : ٢٦٨ .

قمنونية : ١٨٢-٨٩١-٧٩ .

قناة السويس : ١٣٥ .

قوص : ٨٩٥ .

القيروان : ٥٧٨-٥٧٥-٧٢-٥٥٨-٥٥٧-١٥

-١٠٢-٩٧-٩٠-٨٨-٨٠-٧٩

-١١١-١٠٧-١٠٦-١٠٤-١٠٣

-١٢١-١٢٠-١١٧-١١٣-١١٢

-١٢٩-١٢٧-١٢٤-١٢٣-١٢٢

-١٣٦-١٣٥-١٣٢-١٣١-١٣٠

-١٤٦-١٤٥-١٤٢-١٤١-١٣٨

-١٥٥-١٥٤-١٥٣-١٥٢-١٥١

-١٦٥-١٦٤-١٦٢-١٥٧-١٥٦

-١٧٨-١٧٧-١٧٦-١٧٥-١٦٦

-١٨٤-١٨٢-١٨١-١٨٠-١٧٩

-١٩٧-١٨٧-١٨٦-١٨٥

-٢١٠-٢٠٥-٢٠٣-٢٠٢-١٩٨

-٢٢٣-٢٢٢-٢٢٠-٢٢٧-٢١٤

. ٢٧٦-٢٥٣-٢٣٧-٢٣٥

قيارية : ٥٣ .

قيصرية : ٣٧ .

(ك)

مالبان : ١١٠ .

مالطة (جزيرة) : ٢٥ .

مالقة : ٢٥ .

مجانة : ٢٣٧-١٨٢-٥٩١ .

المحيط الأطلسي : ١٣-١٤-١٥-٣٢-٣٦-٩١١

١٠٢-١٠٦-١١٠-١١٤-١٢٠-

١٢١-١٢٤-١٢٧-١٣٠-١٣١-

١٣٢-١٣٣-١٣٥-١٣٦-١٣٧-

٢٢٣-٢٢٥-٢٥٣-٢٥٤-٢٦٩-

٢٧٠-٢٧٣ .

مدريد : ٢٢٥ .

المدينة المنورة : ٥٢-٥٦-٦٩-٧٢-٧٧-٨٢

٨٣-٩٢-١٣٢-١٣٦-٢٨٢-٥٩٧ .

مراقبة : ١٨٧ .

مراكش : ١٤-٣٧-١٣٥-١٣٦-١٨٢-

١٩٦-٥٢٢١ .

مرج راهط : ٢٢٤-٢٩٥ .

مرزق : ٩٠ .

مرياف : ١٩٩ .

المرية : ٢٥٠ .

مسجد الرايات : ٢٥٦ .

مسكولا : ٣٧ .

المسيلة : ٣٧ .

مصر : ١٣-١٥-٣٦-٣٩-٤٠-٤٥-٥٣-

٥٤-٥٩-٦٠-٦١-٦٤-٦٦-٦٧-

٦٨-٦٩-٧٠-٧١-٧٢-٧٣-٧٧-

٧٨-٨١-٨٢-٨٣-٨٤-٨٥-٨٦-

٨٧-٨٨-٩٢-٩٣-٩٤-٩٥-٩٦-

٩٧-١١٣-١١٥-١١٦-١١٧-

١١٨-١١٩-١٢٥-١٢٧-١٣٦-

١٣٩-١٤٣-١٤٥-١٤٦-

١٤٧-١٥٠-١٥١-١٥٢-١٥٣-

الكاف : ٣٠ .

كان : ٣٠ .

كاوار : ١١٧-١٠٠-٥٩٩ .

كر كوك : ١٥ .

كريت (جزيرة) : ٢٤ .

كفر مري : ٢٢٣ .

كتبرية : ٢٦٨ .

الكوفة : ١٩٣-٢٢٥ .

(ل)

لاردة : ٢٦٦-٢٧١ .

لبلة : ٢٦٠-٢٦١-٢٥٩ .

لبنان : ٢٢ .

لقنت : ٢٥٨ .

لك : ٢٦٩-٢٧٠-٢٧٥ .

لكسوس (نهر السوس) : ٢٩-٣٠ .

لكة (وادي) : ٢٤٦-٢٤٨-٢٥١-٥٢٦١ .

لميزة : ٣٧ .

لودون : ٢٧١ .

لوقا : ١٥ .

ليبيا : ١١-٢٩-٤٨-٩٤-٩٥-٩٦-٩٧-

٥٩٨-١١٧-١٢٩-١٣٥-١٣٦-

١٤٤-١٦٢-١٨٧ .

ليكسوس : ٣٢ .

ليون : ٢٦٨-٢٦٩-٢٧٥ .

(م)

المائة : (هنارس) : ٢٦٣ .

ماء فرس : ٦٠٠ .

ماردة : ٢٥٧-٢٥٨-٢٥٩-٢٦٠-٢٦١-

٢٦٢-٢٦٦-٢٦٨ .

الماعوسة (حصن) : ٢٢٣ .

مليطة : ٢٩ .
 مليطة (ووسادير) : ٣٠-٣٢ .
 مس : ١٥٥-١٥٣-١٥٩-١٦٤-١٦٥ .
 منورقة (جزيرة) : ٢٤٠-٢٧٦ .
 المهدي : ١٤٣ .
 موريتانيا : ١٣-٢٥-٣١-٣٧-٣٩-١٣٥ .
 ١٣٦-٢٤١ .
 الموز (دار) : ٧٢ .
 موزور : ٢٤٦ .
 الموصل : ١٢ .
 ميلة : ١٣٩-١٤٠-١٤٧ .
 مهورقة (جزيرة) : ٢٤٠-٢٧٦ .

(ن)

نالوت : ٥٩٠ .
 نالون : ٢٦٩ .
 النوبة : ٦٠-٦١-٧٣-٧٤-٧٧-٧٨-٨٨ .
 ٩٤-٩٥-١١٥-١١٧-١٣٥ .
 نوميديا : ١٣-٢٥-٣٧-٤١ .
 النيجر : ١٤ .
 نني (نهر) : ١٨٣-١٨٤-١٨٥-١٨٧-١٩١ .
 ١٩٧ .

(هـ)

هارو : ٦٨ .
 هراة : ١٩٣ .
 الهروج (جبال) : ٩١ .
 الهند : ٢٣ .
 هون : ٩٨ .

(و)

وادي الحجارة : ٢٥١ .
 وادي القري : ٢٩٧ .

١٥٥-١٥٧-١٦١-١٦٢-١٦٣ .
 ١٦٥-١٦٩-١٧٥-١٧٦-١٧٧ .
 ١٨٧-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٥-٢٠٦ .
 ٢٠٧-٢٠٨-٢٠٩-٢١٣-٢١٤ .
 ٢١٦-٢٢٤-٢٢٥-٢٢٧-٢٣٩ .
 ٢٧٧-٢٩٢ .

مصراته : ٩٨ .

المعرض : ٢٦١ .

مقداش : ٩٨-١٦٣ .

المغرب : ١١-١٢-١٣-١٤-١٥-١٧-١٨ .

٢٠-٢١-٢٤-٢٥-٢٦-٢٩-٣٠ .

٣١-٣٢-٣٤-٣٦-٣٩-٤٠-٤٧ .

٤٨-٥٨-٧٢-٨٨-٨٩-٩١ .

٩٣-٩٤-١٠١-١٠٢-١٠٧ .

١٠٨-١١٠-١١١-١١٧ .

١٢٠-١٢٧-١٢٩-١٣٧-١٣٨ .

١٣٩-١٤١-١٤٨-١٥٢-١٥٣ .

١٥٦-١٦٤-١٧٣-١٨١-١٩٢ .

١٩٧-٢٠٠-٢٠٣-٢٠٥-٢٠٩ .

٢١٢-٢١٣-٢١٤-٢١٥-٢١٦ .

٢٢١-٢٢٦-٢٢٧-٢٢٨-٢٢٩ .

٢٣٢-٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥-٢٣٦ .

٢٣٧-٢٣٩-٢٤١-٢٤٢-٢٤٨ .

٢٨٧-٢٨٨-٢٩٠-٢٩١-٢٩٨ .

٣٠١-٣٠٩ .

المغرب العربي : ١١-١٢-١٣ .

مقرة : ٦١ .

مكتناسة : ١٥٦-١٨٢ .

مكة المكرمة : ٥٢-٨٣-٩٢-١٣٢-١٣٦ .

١٧٥ .

ملوية : ١٤-١٥٦-٢٣٣ .

مليانة : ٥١ .

وليل : ١١٠-١٥٦ .
وهران : ٣٧-١٠٨-١٤٠-٢٣١ هـ .

(ي)

ياجرة : ٢٧٣ .
اليمن : ١٦-١٣٠-١٧٣ هـ .

والوادي الكبير (في الأندلس) : ٢٥١ .
وادي موسى : (أنظر : فج موسى) .
ودان : ٩٨-٩٩-١١٧-١٦٤ .
ورقة (نهر) : ١١٠ .
وسلات (جبل) : ٨٠ هـ .
شقة : ٢٦٦ .

القبائل والملل والنحل

٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٧ - ٩٨ -
 ١٠٤ - ١٠٦ - ١٠٨ - ١٠٩ - ١١٠ -
 ١١٢ - ١١٣ - ١١٧ - ١٢٣ - ١٢٦ -
 ١٢٧ - ١٢٨ - ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣٩ -
 ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٢ - ١٤٤ -
 ١٤٧ - ١٤٨ - ١٥٠ - ١٥١ - ١٥٢ -
 ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ -
 ١٦٤ - ١٦٧ - ١٧٠ - ١٧٩ - ١٨٠ -
 ١٨١ - ١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٥ -
 ١٨٦ - ١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩٤ -
 ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٨ - ٢٠٠ -
 ٢٠١ - ٢٠٢ - ٢٠٥ - ٢٠٨ - ٢٠٩ -
 ٢١٠ - ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٤ - ٢١٦ -
 ٢١٧ - ٢١٩ - ٢٢٧ - ٢٣٠ - ٢٣١ -
 ٢٣٢ - ٢٣٣ - ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٣٦ -
 ٢٣٧ - ٢٤١ - ٢٤٢ - ٢٤٤ - ٢٤٥ -
 ٢٤٥ - ٢٦٩ - ٢٧٦ - ٢٨٨ - ٢٨٩ -
 ٢٩٠ - ٢٩١ - ٢٩٣ - ٣٠٣ - ٣٠٤ -

٣٠٥ - ٣٠٦ .

بكر بن وائل : ٢٢٢ .

(ت)

تيرغاض : ١٦ .

(ج)

جراوة : ١٧٤ - ١٨٢ .

(أ)

الأحباش (الأثيوبيون) : ٢٠ .

أداسة : ١٦ - ١٧ .

أرافة : ٢٢٢ .

أرثوذكس : ٤٥ - ٤٦ .

الآريوسي (مذهب) : ٤١ .

أزدواجة : ١٦ .

الاسبان : ٢٩٣ .

الأغريق : ٢٤ .

الأنارقة : ١٩ - ٢٠ .

أمية (بنو) : ١٣٢ - ١٣٣ - ١٦٢ - ١٧٣ - ١٧٦ -

٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦ - ٢٠٨ - ٢٠٩ -

٢١٠ - ٢٢٢ .

أوربة : ١٦ - ١٤٠ - ١٥٦ - ١٦٤ .

أوريغة : ١٦ .

الايطاليون : ٤٨ .

(ب)

البتر : ١٦ - ١٧ - ٩٧ - ١٤٠ - ١٩٦ - ١٩٧ -

٢٣٦ .

البجة : ٦١ .

البرالس : ١٦ - ١٧ - ٩٧ - ١٤٠ - ١٥٦ - ١٥٧ -

١٩٦ - ١٩٧ - ٢٣٤ - ٢٣٦ .

البربر : ١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠ - ٢١ -

٣١ - ٣٧ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٤ - ٧٩ -

جزولة (كزولة) : ١٦ .

(ح)

الحاميون : ٢٢ .

حمير : ١٦-٢٩٩-٣٠٠

(خ)

الخوارج : ١٣٢ .

(ر)

الروم : ١٣-٣٥-٣٨-٣٩-٤٤-٤٥-٤٧-

٥٦-٥٨-٦٠-٦٢-٦٣-٧٩-٨٠-

٨٢-٨٩-٩٦-١٠٨-١٠٩-١١١-

١١٧-١٢٣-١٢٦-١٢٧-١٢٨-

١٢٩-١٣٢-١٣٨-١٣٩-١٤٠-

١٤٦-١٥٢-١٥٣-١٥٤-١٥٥-

١٥٦-١٥٧-١٥٨-١٥٩-١٦٠-

١٦١-١٦٤-١٦٥-١٦٦-١٦٧-

١٦٨-١٦٩-١٧٢-١٧٨-١٧٩-

١٨٠-١٨١-١٨٢-١٨٤-١٨٥-

١٨٦-١٩٠-١٩١-١٩٢-١٩٤-

١٩٦-١٩٧-١٩٨-١٩٩-٢٠٠-

٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤-٢٠٥-

٢٠٦-٢٠٨-٢٠٩-٢١٢-٢١٣-

٢١٥-٢١٦-٢١٨-٢١٩-٢٢٠-

٢٢٤-٢٢٨-٢٢٨٨-٢٩٣-٣٠١-

٣٠٥ .

الرومان : ١٨-١٩-٢٠-٢٧-٢٨-٣٠-٣٢

٤٠-٤١-٥٧-٥٨-١٠٢ .

(ز)

زنانة : ٢٣٢ .

زواوة : ١٧-١٤٠ .

(س)

سجومة : ٢٢٣ .

سراة : ٨٩٧ .

سلالة : ٨٩٧ .

السودان : ٢٠ .

(ص)

صنهاجة : ١٦-١٤٠-٢٣٢-٢٣٣ .

(ض)

ضريسة : ١٦ .

(ع)

عامر بن لوي (بنو) : ٦٦-٧٣ .

(غ)

الفسانة : ١٧٢-١٧٣-٢٠٤ .

غريان : ٨٩٧ .

غمارة : ١٦-٢٤١-٢٤٢ .

(ف)

الفرس : ٣٦-١٢٨ .

الفرنج (الفرنسيون) : ٢٠-٢١-٤٨-١١٠-

١٩٦-٢٠٩-٢٩٤ .

الفلسطينيون : ٢٥ .

الفينيقيون : ١٣-٢٠-٢١-٢٢-٢٣-٢٤-

٢٥-٢٦-٢٨-٣٣ .

فهر (بنو) : ٩٣ .

(ق)

القبط : ٢٠٢-٢٠٣ .

القرطاجيون : ١٨-٢٥-٢٧-٣٠-٣١-٣٧ .

قريش : ٥١-٦٥-٦٦-٦٨-٨٤-٩٢-٩٣-

. ٢٧٦-٢٥٥-١٢٥

قسي (بنو) : ٢٦٩ .

قضاة : ١٥٠ .

القوط : ٢١٢-٢٤١-٢٤٣-٢٤٤-٢٤٦

-٢٤٨-٢٥٥-٢٥٧-٢٦٠-٢٦١

. ٨٢٦٦-٢٦٣

(ك)

الكاثوليك : ٤١-٣٤ .

كتامة : ١٦-١٧-١٤٠-٢٣٢ .

كندة : ٧٦ .

الكنمانيون : ٢٢-٢٣-٢٤-٢٥ .

(ل)

اللاتين : ١٨ .

لحم : ٢٢١ .

لكسته : ٢٩ .

لطة : ١٦ .

لواته : ١٦-٩٧-١٢٦ .

المانوية : ٤٠ .

مجرى : ٩٧ .

المجوسية : ١٩ .

مزاة : ٩٧-١٠١ .

المسيحية (النصارى) : ١٩-٢٠-٤٠-٤١-

-٤٢-٤٧-١٠٤-١٠٩-٢١٠-٢١٣ .

مصمودة : ١٦-١٤٠-٢٣٥ .

مليلة : ١٦ .

المولتون : ٢٠ .

(ن)

نقراوة : ١٦-١٩٧ .

نفوسة : ١٦ .

النوبة : ٦١ .

(هـ)

هكسورة : ١٦ .

هواره : ١٦-١٧-٩٧-١٠١-١٢٧-١٤٠

. ٢٣٢

(و)

الوثنية (الوثنيون) : ١٩-٢٨ .

ورفجومة : ١٧ .

ورفل : ٩٧ .

ولخاصة : ١٦ .

الوندال : ١٩-٢٠-٢٢-٢٣-٢٤-٣٥-٤١

(ي)

يشكر (بنو) : ٢٢٢ .

يهود : ٢٠-٢٤ .

اليونان : ١٣-٢٠-٢٧-٢٨-٢٩-٣٠-٣١-٣٢-٣٣-٣٤-٣٥-٣٦-٣٧-٣٨-

الخَرَائِطُ

الصفحة	الخريطة	التسلسل
٥٥	الغزوات العربية من سنة ٢٢ هـ الى سنة ٦٠ هـ .	١
٩٩	خريطة ليبيا	٢
١٠٥	الغزوات العربية من سنة ٦٠ هـ الى سنة ٩٠ هـ	٣
١٧١	بلاد المغرب .	٤
٢٣٠	خط سير موسى بن نصير أثناء استكمال فتح المغرب .	٥
٢٣٩	الأندلس .	٦
٢٤٧	موقعة معركة وادي لكّة .	٧
٢٥٣	فتح المغرب والأندلس .	٨
٢٤٩	مواقع معركة وادي لكّة وخط سير طارق .	٩
٢٥٠	مدينة قرطبة في القرن العاشر الميلادي .	١٠
٢٧٢	بلاد غالة .	١١

(١) من كتاب فتح العرب المغرب .

• • • • • (7)

المَوْضُوعَات

الصفحة

٥

٧

إفتتاح الكتاب

الاهداء

المقدمة

البلاد والسكان والتاريخ

قبل الفتح الاسلامي وفي أيامه

٤٨-٩

١٣-١١

١٥-١٣

٢١-١٥

مُسْتَهْل .

البلاد : ١- إفريقية - ١٣ ، ٢- المغرب ١٤ .

السُّكَّان : ١- البربر - ١٥ ، ٢- الأفارقة - ١٩ ،

٣- يهود - ٢٠ ، ٤- السودان - ٢٠ ،

٥- الروم والفرنجة - ٢٠ .

تاريخ المغرب قبل الاسلام : ١- عصر ما قبل التاريخ - ٢١ ، ٢١- ٤٨

٢- عصر الفينيقيين - ٢٢ ، ٣- عصر قرطاجنة - ٢٦

٤- عصر الرومان - ٣٠ ، ٥- عصر الوندال - ٣٣ ،

٦- عصر الروم - ٣٥ .

القادة العامون

٧٤-٥١

٥٣-٥١

٦٣-٥٣

عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري

نسبه وأيامه الأولى :

جهاده :

١- في مصر - ٥٣ ، ٢- فتح إفريقية - ٥٤ ، ٣- في

قبرس - ٦٠ ، ٤- في التوبة - ٦٠ ، ٥- في إفريقية

ثانية - ٦١ ، ٦- في غزوة ذات الصواري - ٦٢ .

الصفحة	
٧٢ - ٦٤	الانسان :
٧٤ - ٧٣	القائد :
٧٤	عبد الله في التاريخ
٨٩ - ٧٥	معاوية بن حُديج السكوني
٧٦ - ٧٥	نسبه وأيامه الأولى :
٨٢ - ٧٧	جهاده :
	١ - في مصر والنوبة - ٧٧ ، ٢ - في إفريقية - ٧٨ ،
	٣ - في البحر - ٨١ .
٨٨ - ٨٢	الانسان :
٨٩ - ٨٨	القائد :
٨٩	معاوية في التاريخ
١٣٦ - ٩٠	عُقبة بن نافع الفِهري القرشي
٩٤ - ٩٠	نسبه وأهله :
١١٢ - ٩٤	جهاده :
	١ - في مصر وليبيا والنوبة - ٩٤ ، ٢ - في البحر -
	٩٦ ، ٣ - من ليبيا الى القيروان - ٩٧ ، ٤ - من
	القيروان الى المحيط - ١٠٦ ، ٥ - الشهيد - ١١١ .
١١٤ - ١١٢	الانسان :
١٣٤ - ١١٤	القائد :
	١ - عقبة بين الافراط والتفريط - ١١٤ ، ٢ - موضع
	ثقة الخلفاء والأمراء والقادة - ١١٤ ، ٣ - حصيلة أعماله
	في ولايته الأولى - ١١٧ ، ٤ - لماذا عُرِلَ ؟ - ١١٨ ،
	٥ - إعادته الى ولاية إفريقية - ١١٩ ، ٦ - طريقه من
	القيروان الى المحيط وطريقه من المحيط الى القيروان -
	١٢٢ ، ٧ - أسباب إسماعيل أبي المهاجر دينار عزل عقبة
	- ١٢٤ ، ٨ - نهاية عقبة وأسبابها - ١٢٦ ، ٩ - تدابير

الصفحة

عقبة في عودته من المحيط الى القيروان - ١٢٩ ، ١٠ -
سمات قيادة عقبة - ١٣٣ .

١٣٦-١٣٤

عقبة في التاريخ :

١٤٩-١٣٧

أبو المهاجر دينار

١٣٨-١٣٧

توليته إفريقية :

١٤١-١٣٨

جهاده :

١٤٣-١٤١

الشهيد :

١٤٥-١٤٣

الانسان :

١٤٨-١٤٥

القائد :

١٤٩-١٤٨

أبو المهاجر في التاريخ :

١٧٠-١٥٠

زهير بن ميس البلوي

١٥١-١٥٠

نسبه وأيامه الأولى :

١٦١-١٥١

جهاده :

١٦٣-١٦١

الانسان :

١٧٠-١٦٣

القائد :

١٧٠

زهير في التاريخ :

٢٢٠-١٧٢

حسن بن النعمان الأزدي الفسافي

١٧٣-١٧٢

نسبه وأيامه الأولى :

٢٠٤-١٧٣

جهاده :

٢١٥-٢٠٤

الانسان :

١ - حياته الخاصة - ٢٠٤ ، ٢ - حياته العامة - ٢٠٦

٢١٩-٢١٥

القائد :

٢٢٠-٢١٩

حسن في التاريخ :

٣٠٩-٢٢١

موسى بن نصير التميمي

٢٢٦-٢٢١

نسبه وأيامه الأولى

٢٧٥-٢٢٦

جهاده :

الصفحة

- ١- توليته - ٢٢٦ ، ٢- جهاده في المغرب - ٢٢٨ :
- أ- أعماله التمهيديّة - ٢٢٨ ، ب- إستعادة المغرب الأوسط وفتح المغرب الأقصى - ٢٣٢ ، ج- فتح طنجة ٢٣٥ . ٣- جهاده في البحر - ٢٣٨ . ٤- جهاده في الأندلس - ٢٤١ : أ- مقدمات الفتح - ٢٤١ ، ب- غزوة طريف - ٢٤٣ ، ج- فتح طارق - ٢٤٥ ، د- فتح موسى - ٢٥١ ، هـ- فتح عبد العزيز بن موسى - ٢٧٣ .

٢٩٧-٢٧٥

الانسان :

- ١- عودة موسى وطارق الى المشرق - ٢٧٥ ، ٢- أسباب استدعاء موسى الى دمشق وعزله ، ٣- الرجل - ٢٨٧ : أ- الاداري - ٢٨٧ ، ب- لمحات من حياته - ٢٩١ ، ج- نهاية البطل - ٢٩٧ .

٣٠٩-٢٩٨

القائد :

٣٠٩

موسى في التاريخ :

٣٢٤-٣١١

المصادر والمراجع

٣١٣

المصادر :

٣٢٤

المراجع :

٣٢٤

المراجع الأجنبية :

٣٥٢-٣١١

الفهارس

٣٢٧

الأعلام :

٣٣٥

الأماكن :

٣٤٥

القبائل والملل والنحل :

٣٤٨

الخرائط :

٣٤٩

الموضوعات :